سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ صالح الفوزان (٤٥)

تعليقات على

إغاثة اللهفان

من مصايد الشيطان

تأليف
الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد
شمس الدين ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)

الشرح
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ومشايخه

الجزء الأول

التراث الذهبي
الرياض

مكتبة الإمام الذهبي
الكويت

تعليقات على

إغاثة اللهفان

من مصايد الشيطان

ⓒ دار التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان بن عبدالله

تعليقات على إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، / صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان؛ سلمان جابر المجلهم، - الرياض، ١٤٤٣ هـ

٤ مج، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك: ٢-٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٩-١-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١- الوعظ والإرشاد أ. المجلهم، سلمان جابر (محقق) ب. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٣/٦١٤

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٦١٤

ردمك: ٢-٠-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٩-١-٩١٦٨١-٦٠٣-٩٧٨(ج١)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

* **الفرع الرئيسي : حولي - شارع المثنى - مجمع البدري**
ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤
* **فرع المصاحف : حولي - مجمع البدري ت ٢٢٦١٥٠٤٦**
* **فرع الفحيحيل : البرج الأخضر - شارع الدبوس ت ٢٥٤٥٦٠٦٩ - ٩٥٥٥٨٦٠٧**
* **فرع الجهراء : الناصر مول - ت ٩٥٥٥٨٦٠٨**
* **فرع الرياض : المملكة العربية السعودية - التراث الذهبي: ٠٠٩٦٦ ٥٥٧٧٦٥١٣٨**

ص. ب: ١٠٧٥٠ الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

الساخن: ت: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩

E-mail: z.zahby74@yahoo.com imamzahby

تعليقات على

إغاثة اللهفان

من مصايد الشيطان

تأليف

الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد
شمس الدين ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

الشرح

لفضيلة الشيخ العلامة

الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

اعتنى به وأشرف على طبعه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ومشايخه

الجزء الأول

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه، وبعد:

فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم، بطباعة: **تعليقاتي على إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.**

رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة

١٤/١٢/١٤٤٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله وحْدَه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعدُ:

فهذا شرح وتعليق شيخنا العلَّامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان -أثابه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-، على كتاب (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)، من تأليف الإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيِّم الجَوزية -رفع الله مقامه في عِلِّيِّينَ، ورحمه وغفر له-، وهذا الكتاب جليل القدر، من أهم مؤلفات الامام ابن القيم وأعظمها، تصدى فيه لمصايد الشيطان الشريرة، وأوضح مسالكه الخبيثة، وطرقه المنتنة، التي استطاع بها هذا المخلوق الضعيف إبليس الرجيم وذريته من الغاوين، إضلال كثير من الخلق من الإنس والجن أجمعين، حتى تردوا وكانوا من أهل الجحيم، نسأل الله السلامة والعافية، في الدنيا والآخرة.

وقد صال وجال الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -طبيب القلوب، والخبير بمشاكل النفوس- في بيان أبواب جليلة في أمراض القلوب وآفاتها، وعلاجها وشفائها بأمر ربها، وقد رتب المؤلف كتابه ونظمه في ثلاثة عشر بابًا خطيرًا؛ فذكر انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت، وذكر حقيقة مرض القلب، وانقسام أدوية أمراض القلب إلى أدوية شرعية وطبيعية، وأن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وأن موت القلب وظلمته مادة كل

شر وفتنة فيه، وأن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركًا للحق، مريدًا له، مؤثرًا له على غيره، وأنه لا سعادة للقلب، ولا لذة، ولا نعيم، ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه هو معبوده، وأَحَبَّ إليه من كل ما سواه، وأن كتاب ربنا القرآن الكريم متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه وعلله، والإشارة إلى زكاة القلب وطهارته من أدرانه وأنجاسه وأوساخه، وذكر علامات القلب وصحته، وعلاجه من استيلاء النفس عليه، وصفة علاج مرض القلب الذي أمرضه الشيطان وأفسده، وبيان مكايد الشيطان التي يكيد بها بني آدم، وأنه لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله العلي العظيم القوي القدير -جل شأنه-، وهذا المقصد الأخير -وهو بيان مكايد ومصايد الشيطان الرجيم والتحذير منها- هو سبب تأليف الكتاب ولأجله وُضع، وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض المكايد التي كاد بها الشيطان بعض الطوائف والفرق وأهل البدع والانحراف والزيغ، وأوقعهم في الاعتقادات الفاسدة والأعمال الباطلة، ورد على جميع شبههم وأجاب عنها، وبيَّن الصراط المستقيم، وطريقة خاتم النبيين والمرسلين؛ نبينا ورسولنا وقدوتنا محمد الأمين -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين-.

ويعتبر كتاب (إغاثة اللهفان) من أفضل الكتب التي أُلفت في بابه، وقد قال العلامة محمود شكري الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن كتاب (إغاثة اللهفان): (هو كتاب مشهور من كتب السنة، أودعه مؤلفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مهمات المطالب، وأبطل به حبائل الشيطان ومصايده، ودسائسه ومكايده، فلا بدع أن نفرت منه جنوده، واضطربت منه أعوانه وأولياؤه، والله لا يصلح عمل المفسدين).

وقد سار الإمام العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه محتجًّا بنصوص الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المعتبرين، مع حسن الترتيب وقوة العرض والبيان، وعذوبة اللفظ والتفصيل والإيضاح.

فجزى الله الإمام ابن القيم عن المسلمين خيرًا كثيرًا وأجرًا كبيرًا، وجزى الله الكريم شيخنا ووالدنا العلامة صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور صالح الفوزان على شرحه وبيانه وتوضيحاته وتعليقاته خير الجزاء وأحسنه، في الدنيا والبرزخ والآخرة، ونحن معه بفضل الله رب العالمين جَلَّجَلَالُهُ، ونستجير بالله العظيم، ونعوذ بكلمات الله التامة من شر الشيطان الرجيم، ومن هَمْزِه ونَفْخِه ونَفْثِه، ونسأل الله أن يحفظنا من شر شياطين الإنس والجن أجمعين.

وقد طُبع الكتاب بتبرُّع من مبرة «صنائع المعروف» بدولة الكويت، وفَّقهم الله تعالى، وتقبَّل منهم، وجزاهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

ومما يشار إليه أن إعداد هذا الكتاب، وريعه، والعائد من بيعه، وكل ما بُذِل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبَّل الله من الجميع.

والله أعلم وأعظم وأحكم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سلمان جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

ترجمة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

هو محمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي، ثمَّ الدمشقي، الفقيه الأصولي، المفسر النحْوي، العارف، شمس الدين أبو عبد اللهِ بن قيِّم الجوزية. ولد سنة إحدى وتسعين وست مئة.

وسَمِعَ من الشهاب النابلسي العابر، والقاضي تقي الدين سليمان، وفاطمة بنت جوهر، وعيسى المطعم، وأبي بكر بن عبد الدايم، وجماعة.

وتفقَّه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه. وتفنَّن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يُجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى. والحديثِ ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق في ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية، وله فيها اليدُ الطُّولى، وتعلم الكلام والنحو وغير ذلك، وكان عالمًا بعلم السلوك، وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم، ودقائقهم. له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى.

قال الذهبي في «المختصر»: «عُني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله، وكان يشتغل في الفقه، ويجيد تقريره وتدريسه، وفي الأصلين. وقد حُبس مدة؛ لإنكاره شدَّ الرحال إلى قبر الخيل، وتصدى للأشغال، وإقراء العلم ونشره».

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألُّهٍ ولهج بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطِّراح بين يديه على عتبة عبوديته.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع منه علمًا، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أرَ في معناه مثله. وقد امتُحن وأُوذيَ مراتٍ، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

وكان في مدة حبسه مشتغلًا بتلاوة القران بالتدبر والتفكر، ففُتح عليه من ذلك خيرٌ كثير، وحصَلَ له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك.

وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يُتعجب منه.

وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه، ويتتلمذون له؛ كابن عبد الهادي وغيره.

وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه: ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه.

ودرَّس بـ«الصدرية»، وأَمَّ بـ«الجوزية» مدة طويلة، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة.

وصنف تصانيف كثيرة جدًّا في أنواع العلم، وكان شديد المحبة للعلم، وكتابته ومطالعته وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره.

فمن تصانيفه: كتاب «تهذيب سنن أبي داود، وإيضاح مشكلاته، والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة» مجلد، كتاب «سفر الهجرتين وباب السعادتين» مجلد ضخم، كتاب «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» مجلدان، وهو شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الأنصاري، كتابٌ جليل القدر، كتاب «عِقد محكم الأحباء، بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء» مجلد ضخم، كتاب «شرح أسماء الكتاب العزيز» مجلد، كتاب «زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء» مجلد، كتاب «زاد المعاد في هدى خير العباد» أربع مجلدات، وهو كتاب عظيم جدًّا، كتاب «جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام» وبيان أحاديثها وعللها مجلد، كتاب «بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل» مجلد، كتاب «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» مجلد، كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين» ثلاث مجلدات، كتاب «بدائع الفوائد» مجلدان، «الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي «القصيدة النونية في السنة» مجلدان، كتاب «الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة» في مجلدات، كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» وهو كتاب «صفة الجنة» مجلد، كتاب «نزهة المشتاقين وروضة المحبين» مجلد، كتاب «الداء والدواء» مجلد، كتاب «تحفة الودود في أحكام المولود» مجلد لطيف، كتاب «مفتاح دار السعادة» مجلد ضخم، كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية» مجلد، كتاب «مصايد الشيطان» مجلد، كتاب «الطرق الحُكمية» مجلد، «رفع اليدين في الصلاة» مجلد، «فضل العلماء» مجلد، «عدة الصابرين» مجلد، كتاب «الكبائر» مجلد، «حكم تارك الصلاة» مجلد، كتاب «نور المؤمن

وحياته» مجلد، كتاب «حكم إغمام هلال رمضان»، «التحرير فيما يحل، ويحرم من لباس الحرير»، «جوابات عابدي الصلبان، وأن ما هُم عليه دين الشيطان»، «بطلان الكيمياء من أربعين وجهًا» مجلد، «الفَرق بين الخُلَّة والمحبة، ومناظرة الخليل لقومه» مجلد، «الكَلِم الطيب والعمل الصالح» مجلد لطيف، «الفتح القدسي»، «التحفة المكية»، كتاب «أمثال القرآن»، «شرح الأسماء الحسنى»، «أيمان القرآن»، «المسائل الطرابلسية» ثلاث مجلدات، «الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم» مجلدان، كتاب «الطاعون» مجلد لطيف.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقت عشاء الآخرة، ليلة الخميس، ثالثَ عشرينَ رجب سنة إحدى وخمسين وسبع مئة. وصُلِّيَ عليه من الغد بالجامع عَقِيبَ الظهر، ثم بجامع جراح، ودُفن بمقبرة الباب الصغير، وشيَّعه خلْق كثير، ورُئيت له مناماتٌ كثيرة حسنة، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكان قد رأى قبل موته بمدةٍ الشيخَ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النوم، وسأله عن منزلته، فأشار إلى علوِّها فوقَ بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

---

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٠-١٧٦). وانظر ترجمته في: البداية والنهاية (١٨/ ٥٢٣)، والدرر الكامنة (٥/ ١٣٨)، والوافي بالوفيات (٢/ ١٩٥)، والمقصد الأرشد (٢/ ٣٨٤)، وشذرات الذهب (٦/ ١٦٨)، ومعجم شعرا العرب (ص٢١٤)، والأعلام للزركلي (٦/ ٥٦)، ومعجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر (٢/ ٥٠٣)، والتاج المكلل من جواهر مأثر الطراز الآخر والأول (ص٤٠٩)، وسلم الوصول إلى طبقات الفحول (٣/ ٦١)، وتسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة (٢/ ١١٠٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام جليل، وأكبر تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وهو الذي روى عنه العلم في سائر الفنون، لا سيما في العقيدة، وهو الذي نقل علوم شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ في مؤلَّفاته بأسلوب بديع، وأسلوب أديب، وأسلوب سهل ومشوق.

وكان من قبل -قبل أن يلتقي بشيخ الإسلام ابن تيميَّة- كسائر علماء عصره؛ عنده شيء من الأخطاء التي شاعت في عصره، ولكنه لما التقى بشيخ الإسلام ابن تيميَّةَ روى عنه العلم الصحيح، لا سيما في العقيدة، وصار من أكبر الدعاة إليها بعد شيخه، وقد ناله ما نال شيخه من الأذى؛ فسُجن عدة مرات، ولكنه لم يثنه ذلك عن المُضي في سبيل الدعوة إلى العلم ونشره حتى نفع الله به وبكتبه نفعًا عظيمًا.

ويُسمَّى ابنَ القيم؛ لأن أباه كان قَيِّمَ المدرسة الجَوزية؛ منسوبة لابن الجوزي، مدرسة علمية، وكان أبو ابنِ القيم قَيِّمًا وناظرًا عليها؛ فلذلك سُمِّي قَيِّمَ الجوزية؛ قيم المدرسة الجوزية.

يحذفون المضاف إليه ويقولون: (ابن القيم)، يعوضون بالألف واللام: (ابن القيم)، وإلا فالأصل: (ابن قَيِّمِ الجَوزية)، هذا هو أصل التسمية.

ومن أشهر مؤلَّفاته هذا الكتابُ الذي بين أيدينا: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان»، تتبع فيه مذاهب الفِرَق من علماء الكلام والمتصوفة والقبورية وأهل الغناء والطرب، كل هذه مصايد للشيطان أوقعهم فيها، فتتبعها ورد عليها بأسلوب قوي وواضح ومشوق.

وهو يشبه كتاب ابن الجوزي «تلبيس إبليس»، فابن الجوزي له كتاب اسمه: «تلبيس إبليس»؛ يعني: بيان ما أوقع الشيطان في بني آدمَ من التلبيسات، ذكر منهم الصوفية، وذكر منهم القبورية، وذكر منهم أصحاب الطرب... إلى آخره، إلا أن كتاب ابن الجوزي مختصَر، أما هذا الكتاب فهو مفصل في مجلدين؛ مجلدين ضخمين، وهو كتاب مفيد ونافع بإذن الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعنْ

الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله، وأنار قلوبهم بمشاهد صفات كماله، وتعرَّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله، فعلِموا أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفْسَه وفوقَ ما يصفه به أحدٌ من خلقه في إكثاره وإقلاله، لا يحصِي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان مَن أكرمهم بإرساله.

الأول الذي ليس قبله شيء، والآخِر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقَه شيء، والباطن الذي ليس دونَه شيء، ولا يحجُبُ المخلوقَ عنه تستُّرُه بسِرْبالِه، الحيّ القيوم، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنفرد بالبقاء، وكل مخلوق مُنْتَهٍ إلى زواله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله)**، ظهر لعباده يعني: عرَفوا ربهم؛ عرَفوه بأسمائه وصفاته، والله يُعرف بأسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتعرَّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله)**، تعرَّف إلى عباده أيضًا بنِعَمِه التي أسداها على عباده، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]؛ فهُمْ عرَفوا الله بنِعَمِه الغزيرة الكثيرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا في أفعاله)**، لا شريك له في ذاته سبحانه، ولا شريك له في صفاته، لا يماثله أحد؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولا شريك له في أفعاله: لا أحد يخلق مع الله، ولا أحد يرزق مع الله، ولا أحد يدبِّر مع الله سبحانه، انفرد بالأفعال التي يصرف بها هذا الكون، وهذا كله في توحيد الربوبية، فإذا عرف توحيد الربوبية فإنه يوجب توحيد الألوهية؛ فتوحيد الربوبية طريق إلى توحيد الألوهية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل هو كما وصف به نفْسَه، وفوقَ ما يصفه به أحدٌ من خلقه)**، الله لا يوصَف إلا بما وصف به نفسه؛ لأنه لا أحد يعلم من الله ما لا يعلمه الله من نفسه، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فهو أعلم بنفسه وبغيره، وأما العباد فإنما يعرفونه بأسمائه وصفاته ونِعَمِه وأفعاله التي يستدلون بها على عظمته وانفراده بالعبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل هو كما وصف به نفْسَه، وفوقَ ما يصفه به أحدٌ من خلقه في إكثاره وإقلاله)**، هو فوق ما يصفه به خلقه، فلا أحد يحيط بصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويحددها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا يحصِي أحدٌ ثناءً عليه)**، لا يحصي أحد ثناء عليه مهما كلَّف نفسه؛ فإن نِعَمَه لا تُعَدُّ ولا تحصى؛ ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والترمذي (٣٤٩٣) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وأبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، والنسائي (١٤٤٨)، وابن ماجه =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بل هو كما أثنى على نفسه على لسان مَن أكرمهم بإرساله)، يعني: الرسلَ -عليهم الصلاة والسلام-، هم الذين بلَّغوا عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الأول الذي ليس قبله شيء، والآخِر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقَه شيء، والباطن الذي ليس دونَه شيء)، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، فسَّر ذلك النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء الذي قال فيه: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»(١).

هذا تفسير لهذه الآية الكريمة، لا كما يفسرها المؤوِّلة بأنه الظاهر بالأدلة! لا، الظاهر يعني: الظاهر في علوه على خلقه، ليس الظاهر بالأدلة فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يحجُبُ المخلوقَ عنه تستُّرُه بسِرْبالِه)، المخلوق مهما اختفى بالأغطية وبالحجب وبأي شيء لا يخفى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَاطِنُ﴾، (والباطن الذي ليس دونه شيء)؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]، ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩]، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

=(١١٧٩)، وأحمد (٢/ ١٤٧)، والحاكم (١/ ٤٤٧)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٦٠)، والصغرى (١/ ٢٨٥)، وأبو يعلى (١/ ٢٣٧) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(الحي القيوم)**، هذا كما في آية الكرسي: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وكذلك كما في أول آل عمران: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران:٢].

حتى قيل: إن هذا هو الاسم الأعظم، الحي القيوم هو الاسم الأعظم، والحي ترجع إليه كل صفات الكمال، والقيُّوم ترجع إليه كل صفات الأفعال(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنفرد بالبقاء)**، هذا كما في سورة الإخلاص، (الواحد الأحد، الفرد الصمد) كل هذا في سورة الإخلاص؛ لأن سورة الإخلاص توحدت في بيان صفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهي صفة الرحمن، كما جاء في الحديث: أن رجلًا كان يكثر من قراءة سورة

---

(١) كما في حديث أسماء بنت يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ** ﴿ **وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة:١٦٣]، **وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ** ﴿ **الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران:٢]»، أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، والدارمي (٣٣٨٩)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقد رواه أحمد (٤٥/ ٥٨٤) بلفظ: «سمعت رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في هَذَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وَ﴿ **الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران:٢]: **إِنَّ فِيهِمَا اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ**». وأخرج الحاكم (١/ ٦٨٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٧٧٨)، والأوسط (٨٣٧١)، والكبير (٧٩٢٥)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ فِي ثَلاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه**» قال القاسم: فالتمستها إنه الحي القيوم، وأخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) موقوفًا على القاسم ومرفوعًا.

الإخلاص، فسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِمَاذَا تُكْثِرُ مِنْ قِرَاءَتِهَا؟** قَالَ: لِأَنِّي أُحِبُّهَا؛ لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ»(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكل مخلوق مُنْتَهٍ إلى زواله)**؛ ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

الحي الذي لا يموت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما عداه يموتون؛ ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [العنكبوت:٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، واللفظ له، ومسلم (٨١٣)، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**».

السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يَشْغَلُهُ سمعٌ عن سمع، ولا تُغلطُه المسائل، ولا يتبرَّمُ من إلحاح المُلِحِّينَ في سؤاله.

البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصَّمَّاء في الليلة الظلماء حيث كانت من سهله أو جباله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات)، كل المخلوقات تسأله في آنٍ واحد، كُلٌّ يَسأل اللهَ حاجته، وكُلّ يعطيه الله حاجته، ويسمع دعاءه، ولا يشغله هذا عن هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (باختلاف اللغات) ليست لغةً واحدة، بل هذا عربي، وهذا أعجمي، وهذا لاتينيّ، وهذا سرياني... كلٌّ يسأله في آنٍ واحد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلا يَشْغَلُهُ سمعٌ عن سمع)، يسمع هذا وهذا، ما لا يحصى من الخلق يسمعه في آنٍ واحد، ولا ينشغل ببعضهم دون بعض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا تُغلطُه المسائل)، ولا تكثر عليه المسائل. لو يأتي الناس واحدًا يسألونه، فإنه يرتبك من كثرة السائلين، وكثرة الحاجات.

أما الله جَلَّ وَعَلَا فلا يشغله تفنن الحاجات، ولا يتبرم من كثرة السؤال؛ بل هو يفرح بالسؤال، ويغضب على مَن لا يسأل(١).

---

(١) كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ =

اللهُ يَغضَبُ إنْ تَرَكتَ سُؤالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسأَلُ يَغْضَبُ(١)

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا يتبرَّمُ من إلحاح المُلِحِّينَ في سؤاله)، بل إنه يحب هذا؛ يحب الملحين في الدعاء، والمكثرين من الدعاء، خلاف المخلوق؛ فإنك إذا أكثرت عليه الطلبات يتبرم منك، ويمل منك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصَّمَّاء في الليلة الظلماء حيث كانت من سهله أو جباله)، البصير الذي يبصر كل شيء، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، يرى كل شيء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، حتى أخفى الأشياء يراها، النملة السوداء على الصَّفاة السوداء في الليلة الظلماء يراها سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

❖ ❖ ❖

=يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ». أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٥٨)، والترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وأحمد (١٥/ ٤٣٨)، والحاكم (١/ ٦٦٨).

(١) ذكر هذين البيتين أبو سليمان الخطابي في كتابه (العزلة) (ص٦٧) وعزاهما إلى الخزيمي. وانظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥١٩)، وفيض القدير (١/ ٥٥٦)، وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٢١).

وألطفُ من ذلك رؤيتُه لتقلُّبِ قلب عبدِه، ومشاهدته لاختلاف أحواله، فإنْ أَقْبَلَ إليه تلقَّاه، وإنما إقبالُ العبد عليه من إقباله، وإن أعرض عنه لم يَكِلْهُ إلى عدوِّه، ولم يَدَعْهُ في إهماله، بل يكون أرحمَ به من الوالدة بولدها، الرفيقةِ به في حمله ورضاعه وفصاله.

فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدَّوِّيَّةِ(١) المُهْلِكةِ إذا وجدها وقد تهيأ لموته وانقطع أوصاله.

وإن أصر على الإعراض، ولم يتعرض لأسباب الرحمة، بل أصر على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدوه وقاطع سيده؛ فقد استحق الهلاك، ولا يهلك على الله إلا الشقي الهالك؛ لِعِظَمِ رحمته وسَعةِ إفضاله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وألطفُ من ذلك رؤيتُه لتقلُّبِ قلب عبدِه)، وأبلغ ما يراه الله جَلَّ وَعَلَا تقلب القلوب في الصدور، يبصر صدور عباده، وما يختلج فيها، وما تفكر فيه؛ لا يخفى ذلك عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنْ أَقْبَلَ إليه تلقَّاه، وإنما إقبالُ العبد عليه من إقباله)، كلما أقبل العبد على ربه تلقَّاه الله، وكلما أعرض عن الله أعرض الله عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن أعرض عنه لم يَكِلْهُ إلى عدوِّه، ولم يَدَعْهُ في إهماله)،

(١) الدَّوِّيَّة: المَفَازة. انظر: الصحاح (٦/ ٢٣٤٣)، ومختار الصحاح (ص: ١١٠)، ولسان العرب (١٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

حتى ولو أعرض عنه العبد فإن الله يدْعوه إليه، وإذا تاب تاب عليه، وأقبل عليه؛ فلا ييأس الإنسان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(بل يكون أرحمَ به من الوالدة بولدها، الرفيقةِ به في حمله ورضاعه وفصاله)**، كما في الحديث: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**»، قَالُوا: لَا وَاللهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»[1].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدَّوِّيَّةِ المُهْلِكَةِ إذا وجدها وقد تهيأ لموته وانقطع أوصاله)**، هذا كما في الحديث: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[2].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإن أصر على الإعراض، ولم يتعرض لأسباب الرحمة، بل أصر على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدوه وقاطع سيده؛ فقد استحق**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري مختصرًا (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الهلاك، ولا يهلك على الله إلا الشقي الهالك؛ لِعِظَمِ رحمته وسَعةِ إفضاله)، إذا أعرض العبد عن الله، ثم رجع وتاب؛ فإن الله يفرح بتوبته ويتلقاه.

وأما إذا أصر على الإعراض والانقطاع عن الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله يعاقبه ويتركه مع عدوه، يهلك في أيِّ وادٍ، لا يبالي الله به؛ لأنه أصرَّ على الإعراض عن الله.

وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحْدَه لا شريك له، إلهًا واحدًا أحدًا فردًا صمدًا، جَلَّ عن الأشباه والأمثال، وتقدَّس عن الأضْداد والأنداد والشركاء والأشكال.

لا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطيَ لما منع، ولا رادَّ لحُكمِه ولا مُعقِّبَ لأمره، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله القائم له بحقه، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، أرسله رحمةً للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحسرة على الكافرين، وحُجَّةً على العباد أجمعين، بعثه على حين فَترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقومِ الطُّرُقِ، وأوضحِ السُّبُل.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحْدَه لا شريك له)، شهادة أن لا إله إلا الله: هي النطق باللسان، والاعتراف بانفراد الله جَلَّوَعَلَا بالعبادة؛ أنه المستحق للعبادة دون سواه.

فمعنى: «أشهد أن لا إله إلا الله» أي أُقِرُّ وأعترف أنه لا يستحق العبادةَ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله)، شهادة أن محمدًا رسول الله مقرونة بشهادة أن لا إله إلا الله؛ كما في الخطب، وكما في الأذان والإقامة: دائمًا شهادة أن محمدًا رسولُ اللهِ مع شهادة أن لا إلهَ إلَّا اللهُ.

ومعناها: الاعتراف، النطق باللسان والاعتراف بالقلب برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنها حق، وإذا شهِد بذلك فإنه يجب عليه اتِّباعُه ومحبته وطاعته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عبده ورسوله)**، الرسول عبد، هذا منع للغلو في حق الرسول، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(١).

فالرسول عبد، لا كما يغلو مَن يغلو فيه ويصفه بشيء من الربوبية، والتصرف في الكون، أو غير ذلك من الغلو.

و«رَسُولُهُ» رد على الذين كذبوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفرَّطوا في حقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فـ«محمد عبدُه ورسوله» فيه رد على الإفراط والتفريط.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(القائم له بحقه، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه)**، كل هذه أوصاف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أرسله رحمةً للعالمين)**، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ لأن رسالته عامَّة، فهي رسالة مفتوحة لمن يريد النجاة: يؤْمن به ويتبعه، ويكون من المرحومين من سائر الناس؛ من العربي والعجمي، والبيض والسود، جميع الأجناس، هو رحمة مفتوحة لمن يتقبل الرحمة، أما من أعرض عن الرحمة فهو الذي حرم نفسه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وحسرةً على الكافرين)**، الذين جحدوا رسالته، وأعرضوا عن اتِّباعه، سيتحسرون يوم القيامة، ﴿ **يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠** ﴾ [الأحزاب:٦٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سيتحسرون ويقولون هذا يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٦-٦٧]. أعرضوا عن الرسول، واتبعوا سادتهم وكبراءهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وحُجَّةً على العباد أجمعين)**، أقام الله الحجة على عباده في بعثة هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئلا يقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(بعثه على حين فَترةٍ من الرسل)**، ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩]، انقطع الوحي، واندرست آثار الرسالة، وانطمس العالم بالظلام الدامس؛ لأن بيْن المسيح -آخِرِ أنبياء بني إسرائيلَ- وبين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرَ من أربع مئة سنة، أكثر من أربع مئة سنة بين الرسولين.

فلما انطمست آثار الرسالة، وأصبح الناس في ظلام دامس، بعث الله هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فأضاء به الكون بعد ظلامه، وهدى الناس إلى الخير، وإلى الحق بعد الضلالة، وبصر به من العمى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فهو رحمة للعالَمينَ.

وافترض على العباد طاعتَه ومحبته، وتعظيمَه وتوقيرَه والقيامَ بحقوقه، وسَدَّ إلى جنته جميعَ الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه.

فشرح له صدره، ووضع عنه وِزْرَه، ورفع له ذِكْرَه، وجعل الذِّلَّةَ والصَّغار على مَن خالف أمره، وأقسم بحياته في كتابه المبينِ وقرن اسمه باسمه، فلا يُذْكَرُ إلا ذُكر معه؛ كما في التشهد والخطب والتأذين.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وافترض على العباد طاعتَه)، فرض على العباد كلِّهم؛ العرب والعجم؛ لأن رسالته عامَّة، فرض عليهم طاعته: فمَنِ امتثل وأطاعه نجا، ومن أعرض عنه هلك.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومحبته)، محبة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأتي بعد محبة الله عَزَّ وَجَلَّ، وطاعته من طاعة الله؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتعظيمَه وتوقيرَه، والقيامَ بحقوقه)، تعظيمه اللائق بحقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس التعظيم الذي هو الغلو، واعتقاد أنه يتصرف في الكون... وأنه، وأنه إلى آخر ما يقوله الغلاة! هذا ليس تعظيمًا، التعظيم هو أنه يُعرَفَ قدرُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يحترم.

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ والتعزير هو: التوقير. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

لا يكفي أنه آمن وصدق برسالته، وأنه عظمه ووقره؛ لا بد أن يتبعه.

هذا أبو طالب -عم الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، وقف مع الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ودافع عنه وحماه، واعترف أن ما جاء به هو الحق، ولكن منعه من الإيمان النخوةُ الجاهلية؛ خشيةَ أن يذم دين أبيه عبد المطلب، يقول(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

هذا الذي منعه -والعياذ بالله-: النخوة الجاهلية، فما نفعه أنه ناصر الرسول وحمى الرسول، واعترف أنه رسول الله؛ لم ينفعه ذلك لَمَّا لم يتبعه.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وسَدَّ إلى جنته جميعَ الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه)**، بعد بعثة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يدخل الجنةَ إلا من اتبعه؛ لأنه «**خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»(٢)، ولأن شريعته خاتمة الشرائع؛ فلا نبي بعده، ولا شريعة بعد شريعة الإسلام، فلما بُعِثَ وجب على العالَم كلِّهم اتِّباعُه.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٦)، وسمط النجوم العوالي (١/ ٣٩٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢) (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فشرح له صدره)**، شرح الله له صدره؛ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ووضع عنه وِزْرَه، ورفع له ذِكْرَه)**، كل هذا في سورة الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:١-٤]. فلا يُذْكَرُ اللهُ إلا ويُذكر الرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما في الأذان والإقامة والتشهد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجعل الذِّلَّةَ والصَّغار على من خالف أمره)**[1]، لا شك أن الذِّلَّةَ والصَّغار على من خالف أمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأقسم بحياته في كتابه المبين)**، مما يدل على عظمة هذا الرسول: أن الله أقسم بحياة الرسول في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

هذا قَسَمٌ من الله جَلَّ وَعَلَا، (عَمْرُك) يعني: حياتك.

❖ ❖ ❖

---

(١) كما في عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**». أخرجه أحمد (٩/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٠٣١) مختصرًا، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤١٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٢). وعلقه البخاري في صحيحه (٤/ ٤٠)، قال: وَيُذْكَرُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

فلم يَزَلْ ﷺ قائمًا بأمر الله تعالى، لا يَرُدُّه عنه رادٌّ، مشمِّرًا في مرضاة الله تعالى، لا يَصُدُّه عن ذلك صادٌّ، إلى أن أشرقتِ الدنيا برسالته ضياءً وابتهاجًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا أفواجًا، وسارت دعوتُه مسيرَ الشمس في الأقطار، وبلغ دينُه القيِّمُ ما بلَغ الليلُ والنهار، ثم استأثر الله تعالى به ليُنجِزَ له ما وعده به في كتابه المبين، بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأُمَّة، وجاهد في الله حقَّ الجهاد، وأقام الدين، وترك أمَّتَه على البيضاء الواضحة البيِّنةِ للسالكين، وقال: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلم يَزَلْ ﷺ قائمًا بأمر الله تعالى، لا يَرُدُّه عنه رادٌّ، مشمِّرًا في مرضاة الله تعالى، لا يَصُدُّه عن ذلك صادٌّ)**، منذ أن بعثه الله إلى أن توفاه الله وهو قائم بأعباء الرسالة؛ دعوةً وجهادًا وتعليمًا، فلم يفتر ﷺ عن ذلك حتى توفاه الله، وبعدما أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا يَرُدُّه عنه رادٌّ)**، تعرَّض لأذى، تعرض لقتال من المشركين، تعرَّض لأشياءَ، ومع هذا صبر ﷺ، ومضى في طريقه، لا يَرُدُّه رادٌّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إلى أن أشرقتِ الدنيا برسالته ضياءً وابتهاجًا)**، بلا شكٍّ قد أشرقت الدنيا برسالته ﷺ، فبلغت المشارق والمغارب، وانتشر

دينه انتشار الليل والنهار في المشارق والمغارب، ولا يزال ينتشر دينه الآن في المعمورة، ويسلم الأعداد الكبيرة يوميًّا، يدخلون في دين الله طائعين منقادين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ودخل الناس في دين الله أفواجًا أفواجًا)، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١]؛ فتحُ مكَّةَ. ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر:١-٢].

لما فتح الله مكة لرسوله جاءت قبائل العرب كلُّها تبايع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وسُمِّيَ عامَ الوفود، ويستقبلهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ويقْبَلُ منهم إسلامهم، أسلم الكثير بعد فتح مكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وسارت دعوتُه مسيرَ الشمس في الأقطار)، ما من أرض إلا ووصلتها دعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، خصوصًا في هذا الزمان، بواسطة وسائل الإعلام التي تنشر هذا الدين وهذا القرآن، وهذه السنة تنشرها علانية، تصدح بها وسائل الإعلام، الأذان يَصْدَحُ في كل مكان، فهذا من آيات الله لهذا الدين، لما كان دينًا عالميًّا يسر الله له ما يبلِّغُه للناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم استأثر الله تعالى به)، لما أكمل الله به الدين قبضه إليه، ونقله إليه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

عرَف النبي ﷺ أن هذه السورة تعلن وفاته ﷺ، فما عاش بعد ذلك إلا أيامًا يسيرة وتوفاه الله، ولحق بالرفيق الأعلى بعدما بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمته على البيضاء، لا يَزِيغُ عنها إلا هالك(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ليُنجِز له ما وعده به في كتابه المبين)**، من الجنة والمنزلة العالية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨])**، هذا الذي عليه الرسول ﷺ: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨] يعني: على علم.

الدعوة لا تكون إلا بعلم، الجاهل لا يصلح يدعو إلى الله؛ لأنه لا يحسن الخطاب؛ لأنه لا يستطيع الإجابة على المشكلات التي تعترضه؛ لأنه لا يستطيع الفتوى لمن سأله، وإن كان فيه دين، وفيه محبة للخير، وفيه عبادة، لكن لا يصلح للدعوة.

---

(١) كما في حديث العِرْباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ**». أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٧، ٢٥٧)، وفي مسند الشاميين (٣/ ١٧٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٥)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١١٥).

الدعوة تحتاج إلى علم على بصيرة؛ ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، لا يستطيعها العامي والجاهل.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]، فأَتْباعُ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدْعون إلى الله على بصيرة مثل الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم يَخْلُفونه، يخلفونه من بعد وفاته، ويقومون بدعوته ونشر دينه.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:١٠٨]، تنزيه له.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، هذا فيه البراءة من الشرك وأهله، لا يكفي يكون الإنسان موحدًا ويقول: ليس عليَّ مِن الناس، ولا أكفِّرهم، ولا أُبْغِضُهم، ليس عليَّ منهم!

نقول: لا تعرف الدينَ أنت، لا بد إذا عرَفت الحق أن تدعوَ إليه، ولا بد أن تكفِّر من خالفه؛ تعلن ذلك، ولابد أن تبغض أيضًا؛ تبغض أعداء الله؛ لأن الله يبغضهم، وأنت تبغض مَن يبغضه الله، وتحب من يحبه الله. هذا هو الدين.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] هذه براءةٌ.

الآن يقولون: لا، أنتم تنشرون الكراهية، كُرْهَ الآخر!

يريدون أن يطمسوا الولاء والبراء، وأن يجعلوا الناس سواء؛ الكافر والمؤمن، كلهم بنو آدم، وكلهم بشر... إلى آخره! إنسان، الإنسانية يسمونها!

أما بعدُ؛

فإن الله سبحانه وتبارك وتعالى لم يخلق خلقه سُدًى مُهمَلًا، بل جعلهم مَوْرِدًا للتكليف، ومحلًّا للأمر والنهي، وألزَمَهم فَهْمَ ما أرشدهم إليه مجملًا ومفصلًا.

وقسَّمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلًا، وأعطاهم موادَّ العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح؛ نعمةً منه وتفضُّلًا.

فمَنِ استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريقَ معرفته على ما أرشد إليه، ولم يَبْغِ عنه عُدولًا؛ فقد قام بشكر ما أُوتيَه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلًا.

ومَنِ استعمله في إرادته وشهواته، ولم يَرْعَ حقَّ خالقِه فيه؛ تحسَّر إذا سُئل عن ذلك، وحزِن حزنًا طويلًا؛ فإنه لا بدَّ من الحساب على حق هذه الأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما بعدُ)، انتهت الخطبة، وأراد أن يشرع في المقصود، فـــ «أما بعد» كلمة يؤتَى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، ويقال: إنها هي فصل الخطاب الذي أوتيَه داودُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠][1].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١٠/ ٣٢٣٧) عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «أَوَّلُ مَنْ =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن الله سبحانه وتبارك وتعالى لم يخلق خلقه سُدًى مُهمَلًا، بل جعلهم مَوْرِدًا للتكليف)**، ما خلق الخلق عبثًا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

ما خلقهم عبثًا ليأكلوا ويشربوا، لا، خلقهم للعبادة، وأعطاهم الرزق ليستعينوا به على العبادة: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٧، ٥٨].

وهو ليس بحاجة إلى العبادة، إنما هم المحتاجون إليها، الناس هم المحتاجون إلى العبادة، فمن رحمته سبحانه أنه أمرهم بالعبادة؛ لأجل أن يستفيدوا، وتصلهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فنفعُها راجع إليهم.

إذَن كلٌّ يعبد الله على ما يشتهيه؟

لا، يعبد الله على ما جاءت به الرسل، ليست العبادة مفتوحة، كل أحد يعبد الله بما يريد وبما يشتهيه! لا، لا بد أن تكون العبادة على طريقة الرسل عليهم الصلاة والسلام، أرسل الله الرسل يبينون كيف تَعبد الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وألزمَهم فَهْمَ ما أرشدهم إليه مجملًا ومفصلًا)**، يلزم أن يفهم الإنسان ما أنزل الله، يفهم القرآن والسنة، ويتدبر؛ من أَجْل أن يعمل به، وإلا فكيف يعمل به وهو لا يعرف معناه؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقسَّمهم إلى شقي وسعيد)**؛ ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود:١٠٥].

=قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ» دَاوُدُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وَهُوَ فَصْلُ الخِطَابِ». وانظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٦٢)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٥٩)، والدر المنثور (٧/ ١٥٥).

هذا يوم القيامة، ينقسمون إلى قسمين: شقي في النار، وسعيد في الجنة، من هو الشقي؟ ومن هو السعيد؟

السعيد: هو الذي استقام على طاعة الله، على ما شرعه الله، هذا سعيد.

والشقي: هو الذي كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، وأعرض عن طاعة الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجعل لكل واحد من الفريقين منزلًا)**؛ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود:١٠٨]. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود:١٠٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعطاهم موادَّ العلم والعمل)**، الله ما تركنا نعمل بدون علم؛ بل إنه أنزل العلم: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [التوبة:٣٣]، وهو العلم. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، وهو العمل.

فالرسول جاء بالعلم النافع والعمل الصالح، هما مقترنان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر؛ فلا علم بدون عمل، ولا عمل بدون علم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعطاهم موادَّ العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح)**، هذه أدوات يُدرَكُ بها العلم: السمع، والبصر، والقلب، هذه يدرك بها العلم، وهذه يتميز بها الإنسان على غيره من الحيوانات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والجوارح)**، يعني: الأعضاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمَنِ استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريقَ معرفته على ما أرشد إليه، ولم يَبْغِ عنه عُدولًا؛ فقد قام بشكر ما أُوتيَه من ذلك)**، من استغل هذه الجوارح لِما خُلقت له؛ فقد سعد في الدنيا والآخرة، ومن استغلها في غير ما خلقت له من معصية الله عَزَّوَجَلَّ؛ شقي في الدنيا والآخرة.

الكفار لهم أسماع ولهم أبصار ولهم قلوب: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩]، ليس معناه أنهم لا يسمعون، يسمعون الأصوات، ولكن لا يسمعون سماع قَبول.

و﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ليس معناه أنهم عُمْيانٌ، لا، بل يبصرون ويرون الذي أمامهم، لكن لا يبصرون ما ينفعهم ويفيدهم.

فلم يستفيدوا من أسماعهم ولا من أبصارهم ولا من قلوبهم؛ ولهذا يقولون يوم القيامة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنه لا بدَّ من الحساب على حق هذه الأعضاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦])، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:٨-١٠].

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تَصدُر كلُّها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الإقامة والزيغ، وتتَّبعه فيما يعقده من العزم أو يَحُلُّه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تَصدُر كلُّها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الإقامة والزيغ، وتتَّبعه فيما يعقده من العزم أو يَحُلُّه)، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الحَلَالُ بيِّنٌ، وَ إِنَّ الحَرامُ بيِّنٌ، وَبيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ».

ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ».

ثم قال: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

والحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ، ولكن هذا يعتمد على تمييز القلب، وفِقْهِ القلب وحياته؛ ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً» يعني: قطعةَ لحم، وهي القلب.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

«إِذَا صَلَحَتْ»: صلحت هذه المضغة، استقامت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ تركت الحرام، واقتنعت بالحلال، تجنبت الشبهات؛ «صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ».

«وَإِذَا فَسَدَتْ» هذه المضغة؛ «فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ».

وهذا الكتاب ينبني على هذا الحديث تقريبًا؛ كله بيان لكيد الشيطان لابن آدم، ومحاولاته إفسادَ القلوب، فإذا فسدت القلوب فلا فائدة في الجسم، ولو كان من أصح الناس، لو كان من أصح الناس صحة عضوية، أما إنه إذا كان مريضًا مرضًا معنويًّا فلا فائدة في الصحة العضوية، يفسد الجسد كله لفساد القلب.

وفساد القلب له أسباب يجب على المسلم أن يعرفها، وأن يتجنبها إذا كان يريد صلاح قلبه.

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، هؤلاء أهل النار.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]. انظر: بدأ بالقلوب.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يعني: لا يفهمون، لا يفهمون أدلة الكتاب والسنة.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ينظرون إلى الأشياء من آيات الله الكونية، ولا يستفيدون ويستدلون بها على عظمة الله وقدرته، وإنما يعجبون بها من

ناحية المناظر، يسمونه التنزه، فيتنزهون فيها، وينظرون لها من ناحية المناظر الطبيعية -كما يسمونها-، ولا يتفكرون فيما وراء ذلك.

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:١١].

فالنظر في هذه الآيات إنما هو للاعتبار والاتِّعاظ، لا للنزهة فقط والترويح عن النفس، وإنما هو للاعتبار والاتعاظ، لا سيما آثار الأمم السابقة؛ فينظر فيها نظر اعتبار واتعاظ، لا نظر تفرج والنزهة وافتخار بالآثار -كما يقولون-! لا.

ولهذا قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ آيات كونية. ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥]، لا يستفيدون منها إلا الترويح عن النفس، التفرج، النزهة فقط... وهذا مثل نظر البهائم؛ لا يفيد صاحبه شيئًا.

﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾، كما أنهم لا ينظرون إلى الآيات الكونية هم لا يسمعون الآيات القرآنية سماع فقهٍ واعتبار، وإنما يستمعون الآيات القرآنية لحسن صوت القارئ فقط، وتمتيع النفس بالصوت، وترتيل الآيات؛ ولذلك يقرؤونه ولا يستفيدون منه، يقرؤونه في المحافل، في الندوات... في كل شيء، هم لا يقرؤونه للاعتبار؛ ولذلك لا تخشع قلوبهم، ولا تبكي عيونهم وهم يسمعون كلام الله الذي لو أنزله الله ﴿ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١].

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]، لا يستفيدون منها شيئًا.

«**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**».

ما هي هذه المضغة؟ قطعة لحم، بيَّنها بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا**» هذا تنبيه، «**أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».

فالمعتبر من هذا الجسم هو القلب؛ فإن كان قلبًا حيًّا حيت الأعضاء، وإن كان قلبًا ميتًا أو مريضًا -لأنه سيأتي أن القلب يمرض ثم يموت- فإن كان مريضًا أو ميتًا فلا فائدة منه للجسم.

وهو بمنزلة الملك، هو بيْن الأعضاء بمنزلة الملك، وهذه الأعضاء بمنزلة الجنود والخدم له، يأمرها فتستجيب له، وتعمل بما يأمرها ويوجهها.

ولهذا جاء في الحديث: «**إِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ**(١)**، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِذَا اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»(٢).

فيجب على الإنسان أن يعتنيَ بقلبه؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

---

(١) **تُكَفِّرُ اللِّسَانَ**: بتشديد الفاء المكسورة، أي: تتذلل وتخضع وتتواضع له. قال في النهاية: (التكفير هو أن ينحني الانسان ويطأطئ رأسه قريبًا من الركوع، كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه). ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٨٨)، وتحفة الأحوذي (٧/ ٧٤، ٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٨/ ٤٠٢)، والترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهل هناك أحد ليس له قلب؟! كل الناس لهم قلوب، لكن ليس القلب الذي هو اللحمة، القلب الذي يفكر ويستدل ويفقه عن الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق:٣٧]، يعتبر به ويتعظ، أما الذي لا يعتبر ويتعظ كأنه ليس له قلب، وإن كان له قلب حيواني، لكن ليس له قلب مستنير، وسيأتي كلام المؤلف على القلب وأدوائه، وما يعرض له وعلاجه، سيأتي هذا مفصلًا.

قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[(١)]، فهو مَلِكها، وهي المنفِّذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تَصْدُرَ عن قصده ونيته، وهو المسؤول عنها كلِّها؛ لأنَّ كل راعٍ مسؤولٌ عن رعيته= كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أَوْلى ما اعتمد عليه السالكون، والنظرُ في أمراضه وعلاجها أهمَّ ما تنسَّك به الناسكون.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو المسؤول عنها كلِّها؛ لأنَّ كل راعٍ مسؤولٌ عن رعيته)، فالقلب راعٍ على الأعضاء، وهو مسئول عن رعيته، هو داخل في الحديث: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[(٢)].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده)، لما كان كذلك، الجواب: كان الاعتناء به، هذا هو جواب (لما) السابقة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَوْلى ما اعتمد عليه السالكون) أي: السائرون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ على سبيل الطاعة.

الناس اليوم إذا أُصيب القلب بمرض عضوي يتعبون في العلاج وإجراء العمليات، ويذهبون للمختصين، وهذا طيب لا بأس به، العلاج

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠، ٧١٨٣)، ومسلم (١٨٢٩)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

مأمور به، لكن لا يهتمون بعلاجه من الأمراض المعنوية؛ أمراض الشهوات وأمراض الشبهات، لا ينتبهون لهذا، إنما ينتبهون للمرض العضوي فقط، ويعالجونه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنظرُ في أمراضه وعلاجها أهمَّ ما تنسَّك به الناسكون)**، يعني: العابدين.

فعلاج القلب من ناحية الدين أهم من علاجه من ناحية المرض الحسي، هذا مرض معنوي، وهو أصعب من المرض الحسي.

ولَمَّا عَلِم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلبَ عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأحوال والأعمال ما يَصُدُّه به عن الطريق، وأمَدَّه من أسباب الغَيِّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصبَ له من المصايد والحبائل ما إن سَلِم من الوقوع فيها لم يَسلَمْ من أن يحصل له بها التعويق.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولَمَّا علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلبَ عليه بالوساوس)**، إبليس يحرص على قلب ابن آدم؛ ليفسد قلبه؛ لأنه يعلم أنه إذا أفسد قلبه فسدت جوارحه، وفسدت أعماله واعتقاداته.

فهو -الشيطان- يحرص على الوسوسة في القلوب، وعلى الهواجس وشغل القلوب عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وشغلها بحب الشهوات، وحب الشبهات؛ لأنه يعلم أنه إذا أفسد القلب استراح من ابن آدم، فهو يجلب على قلب الإنسان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وزيَّن له من الأحوال والأعمال ما يَصُدُّه به عن الطريق)**، زين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق الصحيح؛ فهو يزين الآن للناس الأعمال الكفرية والإلحادية باسم التقدم والحضارة والرقي، واللحاق بالركب... إلى غير ذلك.

ولم يعلم أن هذا التقدم هو إلى النار، ليس إلى الجنة، الشيطان يقوده إلى النار: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

لم يعلموا أن الشيطان يقودهم إلى النار؛ ولذلك يحسنون الإلحاد، يحسنون الحرية البهيمة، يحسنون الانفلات من طاعة الله، ويقولون: هذه حرية، وأنتم عندكم كهنوت، عندكم كبت، عندكم وصاية على الناس! ويزهدون في أمر الدين وأمور العلم والدعوة إلى الله، يفتحون للناس أبواب الحريات الشيطانية.

فليتنبه الناس لهذا، هذه قيادة الشيطان، يتبعه شياطين الإنس، ليست الشياطين محصورة في الجن، الإنس لهم شياطين: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ [الأنعام:١١٢-١١٣].

انتبه! ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي: للشيطان.

﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٣-١١٤].

الواجب أن يتنبه الإنسان وينبه إخوانه من هذه المكايد التي يروجها شياطين الإنس والجن ليفسدوا عقيدة الناس، ويفسدوا أخلاق الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وزيَّن له من الأحوال والأعمال ما يَصُدُّه به عن الطريق، وأَمَدَّه من أسباب الغيِّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق)**، شغله، بدل من أن يشتغل بالطاعة شغله بالمعاصي والشهوات والشبهات والغفلة وغير ذلك، كل هذا من الشيطان.

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونصبَ له من المصايد والحبائل)**، نصب له من الحبائل والمصايد في طريقه إلى الله، يحفر له الحفر، وينصب له الشباك ليصطاده؛ لئلا يمضي إلى طريق الحق.

هذا عمل الشيطان، وقد تعهد بذلك لما لعنه الله وطرده بسبب تكبره على آدم، ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء:٦٢-٦٤].

ثم قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٥].

فمهما فعل فإن عباد الله الذين أقبلوا على الله، تمسكوا بحبل الله لن يضرهم، إنما يضر من انقاد له واتبعه، وهؤلاء أكثر الخلق، يتبعون الشيطان، ويعرضون عن داعي الرحمن.

﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٣].

فهكذا، الله بيَّن هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونصبَ له من المصايد والحبائل ما إن سَلِم من الوقوع فيها لم يَسلَمْ من أن يحصل له بها التعويق)**، إما أن يهلكه في هذه الحفر والحبائل والشبكات، وإما أن يعوقه عن السير إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعرُّضِ لأسباب مرضاته، والْتِجَاءِ القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقُّق بِذُلِّ العبودية الذي هو أولى ما تلبَّس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمانِ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢].

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها بسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب بإخلاص العلم ودوام اليقين، فإذا أُشرب القلبُ العبوديةَ والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشَمِلَه استثناءُ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٤٠].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى)؛ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٥]، عباد الله، العبودية الخاصة التي معناها: طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، اتباع أمره واجتناب نواهيه، هؤلاء هم عباد الله العبودية الخاصة.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ أي: لا تقدر على أن تصدهم؛ لأنهم في عصمة الله، وحماية الله وحفظه.

الواجب على العبد أن يلجأ إلى الله من هذا العدو، ومَن استجار بالله واستعاذ بالله أعاذه الله وأجاره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والتعرُّضِ لأسباب مرضاته، والْتِجَاءِ القلب إليه، وإقباله

عليه في حركاته وسكناته)، لا ينجو من الشيطان إلا إذا أقبل على الله وعلى طاعته، واتبع رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه ينجو، وليس للشيطان عليه سبيل.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(والتحقُّق بِذُلِّ العبودية الذي هو أولى ما تلبَّس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمانِ** ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢])، ذُلُّ العبودية يكون عزًّا؛ «**مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ**»(١).

فإذا ذللت لله أعزك الله، وإذا تواضعت لله رفعك الله.

العبادة هي غاية الحب لله عَزَّ وَجَلَّ مع غاية الذل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالذي يحب الله ولا يذل هذا ليس عابدًا، والذي يذل ولا يحب هذا ليس عابدًا؛ إنما العابد الذي يجمع بين كمال المحبة لله مع كمال الذل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين)**، ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ [الحجر:٤٢]. أضافهم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن هناك عبادًا للشيطان، وعبادًا للرحمن، فالذين أضافهم الله إليه هذه إضافة تشريف وتكريم، فليس للشيطان عليهم سبيل؛ لأنهم في حماية الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(فإذا أُشرب القلبُ العبوديةَ والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشَمِلَه استثناءُ** ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠])، الشيطان قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠] ﴿إِلَّا﴾ استثنى؛ لأنه يعرف هذا: ليس له عليهم سبيل. ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠]؛ الذين أخصلتهم لعبادتك.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأصله في صحيح مسلم (٢٥٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**».

ولمَّا مَنَّ الله الكريم بلطفه بالاطِّلاع على ما أَطْلَعَ عليه من أمراض القلوب وأدوائها، وما يَعرِض لها من وساوس الشياطين أعدائها، وما تُثْمِرُها تلك الوساوسُ من الأعمال، وما يكتسب القلبُ بعدها من الأحوال.

فإن العمل السيِّئَ مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة؛ فيزداد مرضًا على مرضه حتى يموت، ويبقى لا حياة فيه، ولا نور له، وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان، وركونه إلى عدوه الذي لا يفلح إلَّا من جاهره بالعصيان.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن العمل السيِّئَ مصدره عن فساد قصد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة؛ فيزداد مرضًا على مرضه حتى يموت)، المعاصي تقسي القلب، ثم في النهاية تحيط به، ويطبع عليه؛ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

فالمعاصي واتباع الشهوات تقسي القلب وتمرضه، ثم تتعاظم حتى تغلفه، فلا يصل إليه حق ولا نور ولا هداية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويبقى لا حياة فيه، ولا نور له)، إذا مات القلب فلا علاج ينجع فيه، الميت لو أحضرت له أطباء الدنيا لا يقدرون أن يستعيدوا له الحياة، إنما يعيد الحياة له الله جَلَّ وَعَلَا القادر على كل شيء. أما الناس: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي: الرُّوح إذا نُزعت ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الواقعة:٨٦-٨٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان، وركونه إلى عدوه الذي لا يفلح إلَّا من جاهره بالعصيان)**، فالشيطان هو العدو للإنسان، هو تكفل بهذا: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢]، حلف بعزة الله ليغوين بني آدم، فهو جادٌّ في هذا، والله أمهله لأجل حكمة إلهية، أمهله لأجل أن يمتحن العباد به: هل أنت من أولياء الله أو من أولياء الشيطان؟

لو كان الشيطان ليس موجودًا صار الناس كلهم سواء، ولم يتميز الصالح من الطالح، فوجود الشيطان فيه حكمة، فيه مصالح: أنه يميز الله به بين أهل طاعته وأهل معصيته، بين أهل محبته وبين أهل محبة الشيطان.

أردتُ أن أقيِّد ذلك في هذا الكتاب؛ لأستذكره معترفًا فيه لله بالفضل والنعمة، وينتفع به من نظر فيه داعيًا لمؤلفه بالمغفرة والرحمة، وسميته «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان»، ورتَّبته ثلاثةَ عشرَ بابًا:

الباب الأول: في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت.

الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب.

الباب الثالث: في انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبعية وشرعية.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أردتُ أن أقيِّد ذلك في هذا الكتاب)**، (أردت) هذا جواب بداية الكلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لأستذكره معترفًا فيه لله بالفضل والنعمة، وينتفع به من نظر فيه)**، يقول: أنا عمِلت هذا الكتاب لنفسي أول شيء، وهكذا الإنسان يبدأ بنفسه.

عملت هذا الكتاب لنفسي؛ لأتذكر به، وأتعظ به، ولينتفع به من شاء من عباد الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسميته «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان»)**، «إغاثة اللهفان» يعني: الملهوف، الملهوف الذي وقع في الخطر يحتاج إلى إغاثة، من الذي يغيثه؟

بيَّن الشيخ في هذا الكتاب أسباب الإغاثة من مصايد الشيطان، الشيطان ينصب للناس مصايد في طريقهم: حفر، شبهات، دعايات... ينصبها لهم،

فقلَّ من ينجو منها إلا من أقبل على كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتفقه فيهما، وعمِل بهما، ليس هناك طريق غير هذا.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(ورتَّبته ثلاثةَ عشرَ بابًا)**، انتبهوا.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(الباب الأول: في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت)**، انظر قلبك من أي نوع: صحيح أو سقيم أو ميت؟ لا يخرج أحد عن هذا القسم أبدًا.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب)**، عرَفنا أن القلب يمرض، ما هي أسباب مرض القلب؟

أسباب مرض الجسم يعرفها الأطباء، يشخصونها، لكن أسباب مرض القلب لا يعرفها إلا أهل العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، وأهل البصيرة.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(الباب الثالث: في انقسام أدوية أمراض القلب إلى طبعية وشرعية)**، مرض القلب يكون طبيعيًّا، هذا هو العضوي، يسمونه: العضوي.

(وشرعية): وهي الأمراض المعنوية؛ بالضلال والزيغ والانحراف وما أشباه ذلك، والإنسان هو السبب في زيغ قلبه؛ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

لاحظ: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]..

﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨]. الذين ليس فيهم حيلة.

وأيضًا وصفهم بالوصف الذي هو سبب هلاكهم: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مُدرِكًا للحق، مريدًا له، مُؤْثِرًا له على غيره.

الباب السادس: في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاحَ إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحْدَه هو معبودَه وغاية مطلوبه، وأحبَّ إليه من كل ما سواه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه)**، القلب الحي يشرق ويستنير، وسيأتي بيان هذا، والقلب الميت أو المريض يُظلِم ويتحير، لا يدري أين يذهب!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مُدرِكًا للحق، مريدًا له، مُؤْثِرًا له على غيره)** (مدركًا للحق) بمعرفة الحق من الباطل؛ حتى يلتزم الحق ويتجنب الباطل، أما الذي لا يعرف الحق من الباطل يصير كل عنده سواء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مريدًا له)**، ولا يكفي أنه يكون عارفًا للحق أيضًا، لا بد أن يكون مريدًا له؛ لأن أكثر علماء الضلال هلكوا وهم علماء؛ لأنهم لم يريدوا الحق، فهلكوا وهم علماء! فالعبرة ليست في كثرة العلم، العبرة في العلم والعمل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مُؤْثِرًا له على غيره)**، مؤثرًا للحق على الباطل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب السادس: في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاحَ إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحْدَه هو معبودَه وغاية مطلوبه، وأحبَّ إليه من كل ما سواه)**، القلب لا يسعد ويحيا ويتبصر إلا إذا تعلق بالله عَزَّوَجَلَّ، وأحَبَّ الله غاية الحب، وذَلَّ له غاية الذل؛ فإنه بذلك يحيا القلب، ويستنير، ويستبصر.

الباب السابع: في أن القرآن الكريم متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه.

الباب الثامن: في زكاء القلب.

الباب التاسع: في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه.

الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته.

الباب الحادي عشر: في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه.

الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان.

الباب الثالث عشر: في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابنَ آدم.

وهو الباب الذي لأجله وُضِعَ الكتاب، وفيه فصولٌ جَمَّةُ الفوائد، حسنة المقاصد.

والله تعالى يجعله خالصًا لوجهه، مؤمَّنًا من الكَرَّة الخاسرة، وينفع به مصنفه وكاتبه، والناظر فيه في الدنيا والآخرة، إنه سميع عليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب السابع: في أن القرآن الكريم متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه)**، هذه العلاجات التي هي ليست عند الأطباء ولا في كتب الطب، هذه في القرآن، علاج القلب هذا في القرآن؛ ولهذا يقول ابن القيم في النونية(١):

---

(١) انظر: نونية ابن القيم المسماة «الكافية الشافية» (ص٤٩)، وتوضيح المقاصد لابن عيسى (١/ ٣١٥).

فَتَدَبَّرِ القُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الهُدَى   فَالعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ القُرْآنِ

فهذا القرآن متكفل بعلاج القلوب، ومبين لأمراضها وأدواؤها لمن أقبل عليه، وأخذ الدواء منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الباب الثامن: في زكاء القلب**)، زكاة القلب يعني: طهارة القلب، بماذا يتطهر القلب؟ وبماذا يتدنس القلب؟ هذا في القرآن مذكور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الباب التاسع: في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه**)، ما الذي يطهره من الأنجاس والأدران؟

النجاسة الحسية تطهر بالماء كما هو معروف، أما النجاسة المعنوية -وهي نجاسة الشرك، نجاسة المعاصي والشهوات والشبهات- فلا يطهرها إلا الوحي والتوحيد لله عَزَّوَجَلَّ؛ إصلاح العقيدة، اتباع الكتاب والسنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته**)، هذا مهم جدًّا، علامات مرض القلب، بماذا تعرف أن قلبك مريض؟ وبماذا تعرف أن قلبك صحيح؟ له علامات، هذا في القرآن أيضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان**)؛ من الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الباب الثالث عشر: في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابنَ آدم**)، كل هذا ذكره في هذا الكتاب، وهو مأخوذ من القرآن الكريم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وهو الباب الذي لأجله وُضِعَ الكتاب**)، مصايد الشيطان، كتاب بيان مصايد الشيطان، وهي المكايد.

الباب الأول

في انقسام القلوب إلى صحيحٍ وسقيمٍ ومَيِّتٍ

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدِّها؛ انقسم بحسَب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة: فالقلب الصحيح هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات؛ كالطويل والقصير والظريف.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الأول: في انقسام القلوب إلى صحيحٍ وسقيمٍ ومَيِّتٍ)**، قلب صحيح سليم، قلب مريض، يتفاوت المرض: شديد، أو مبادئ مرض... هذا إذا عولج شفاه الله، إذا عولج بالوحي شفاه الله، فإذا لم يعالج فإنه يموت، إذا مات القلب فليس فيه فائدة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالقلب الصحيح هو القلب السليم)**، القلب السليم الذي فيه قال إبراهيم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والسليم هو السالم)**، سليم: صيغة مبالغة، سليم: فعيل، من السالم، وهي أبلغ من سالم.

فالسليم: القلب الذي قد صارت السلامة صفةً ثابتة له؛ كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمرُ الجامع لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كل شهوة تخالف أمرَ الله ونهيَه، ومن كل شبهةٍ تُعارِض خبره.

فسَلِم من عبودية ما سواه، وسَلِم من تحكيم غير رسوله؛ فسلِم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه، والتوكلِ عليه، والإنابة إليه، والذلِّ له، وإيثارِ مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلُح إلا لله وحْدَه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأمرُ الجامع لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كل شهوة تخالف أمرَ الله ونهيَه، ومن كل شبهةٍ تُعارِض خبره، فسَلِم من عبودية ما سواه، وسَلِم من تحكيم غير رسوله؛ فسلِم من محبة غير الله معه، ومن خوفه ورجائه والتوكلِ عليه، والإنابة إليه، والذلِّ له، وإيثارِ مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق)، هذا هو القلب السليم؛ ما جمع هذه الأوصاف فهو السليم، وما فقدها فهو الميت، وما فقد بعضها هذا المريض.

فالقلب السليم هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصتْ عبوديته لله تعالى: إرادةً، ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتًا، وخشيةً، ورجاءً، وخلصَ عملُه لله، فإن أحبَّ أَحَبَّ في الله، وإن أبْغضَ أبْغضَ في الله، وإن أعْطَى أعطى لله، وإن مَنَع منع لله.

ولا يكفيه هذا حتى يَسْلَمَ من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيَعقِد قلبَه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحْدَه دون كل أحد؛ في الأقوال والأعمال: أقوال القلب، وهي: العقائد. وأقوال اللسان، وهي: الخبر عما في القلب. وأعمال القلب، وهي: الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها. وأعمال الجوارح.

فيكون الحاكم عليه في ذلك كلِّه، دِقِّه وجِلِّه، هو ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]. أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالقلب السليم هو الذي سَلِمَ من أن يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلصتْ عبوديته لله تعالى)، ولهذا ابتلى الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أمره بذبح ابنه، لماذا؟

لأنه لما رُزِقَ الولد على الكِبَرِ انشغف قلبه بالولد، انشغف قلبه بحب هذا الولد، الله جَلَّ وَعَلَا أراد أن يكون حبه خالصًا لله، فأمره بذبحه ابتلاء

وامتحانًا، فأقدم على ذبحه طاعة لله، فحينئذ صارت طاعة الله أحب إليه من الولد؛ نجح في الامتحان؛ لأنه لما أقدم على ذبحه تله للجبين، لم يبقَ إلا أن يجر السكين على حلقه، أنقذه الله سبحانه؛ لأنه حصل الغرض، وهو أنه آثر محبة الله على محبة الولد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن أحبَّ أَحَبَّ في الله، وإن أبْغضَ أبْغضَ في الله، وإن أعْطَى أعطى لله، وإن مَنَع منع لله)**، تكون تصرفاته مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ تبعًا لسلامة قلبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يكفيه هذا حتى يَسْلَمَ من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**، بعد الانقياد لله والمحبة لله أيضًا يتابع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه مبلِّغٌ عن الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيَعقِد قلبَه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحْدَه)**، فيكون الإخلاص لله، والمتابعة للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيَعقِد قلبَه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحْدَه دون كل أحد)**، يعني بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يتخذ الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا له، أي: قدوة له، لا يقتدي بغيره متبوعًا له، ولا يكون متبوعه غير الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو الذي يدل على الله، ويوصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]. أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر)**،

(لا تقولوا حتى يقول) لا تقولوا حتى يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تأتون بأقوال من عندكم.

(ولا تفعلوا حتى يأمر) لا تفعلوا إلا ما أمر، ولا تفعلوا البدع والمُحْدَثاتِ التي لم يأمر بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال بعض السلف: ما مِن فَعلةٍ وإن صغُرت إلا يُنشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟

فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا؛ من محبة المدح من الناس، أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل؟

أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودُّد والتقرُّب إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وابتغاء الوسيلة إليه؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال بعض السلف: ما مِن فَعلةٍ وإن صغُرت إلا يُنشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي لم فعلت؟ وكيف فعلت؟)، إذا عمِل عمَلًا يُسئل سؤالين: لمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟

إن كان فعله لأن الله أمر به، فهذا طيب.

ثم: كيف فعل ما أمر الله به؟ هل هو على سنة الرسول أو على غير سنة الرسول؟

ومحلُّ هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تفعل هذا لمولاك؟ أم فعلته لحظك وهواك؟

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك التعبد؛ أي: هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي؟ أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرْضَهُ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة؛ فإن الله سبحانه لا يقبل عملًا إلا بهما.

فطريق التخلُّص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص.

وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادةٍ تُعارِض الإخلاص، وهوًى يعارض الاتباع.

فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضُمِنَتْ له النجاةُ والسعادة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة؛ فإن الله سبحانه لا يقبل عملًا إلا بهما)، الإخلاص والمتابعة، لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا لله ليس فيه شرك، متابعًا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيه بدعة.

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة:١١٢]: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، هذا الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فصل

والقلب الثاني ضِدُّ هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والقلب الثاني ضِدُّ هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به)**، تقدم أن القلب هو أمير الجسد وأمير الأعضاء، وأنه «**إِذَا صَلَحَ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**» كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح[1]، هذا هو الأصل في قلب المؤمن.

وأما قلب الكافر والمشرك والملحد فهو قلب ميت لا حياة فيه؛ لأنه لم ينفذ إليه الوحي والنور المنزل الذي تحيا به القلوب، فالقلوب تحيا بالوحي كما تحيا الأرض بالمطر؛ فإذا انغلق وصول الوحي إلى القلب مات وأظلم -كما يأتي- وأصبح قلبًا مظلمًا منكوسًا، هذا قلب الكافر.

وقلب المؤمن -أيضًا- قد يكون كامل الحياة ليس فيه مرض، وقد يكون فيه مرض، وهذا المرض ينقسم إلى قسمين:

مرض النفاق -والعياذ بالله-: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]، هذا كمرض الكفر، ومرض النفاق، ومرض المعاصي، والشهوات، والشبهات، هذا قد يحصل للمؤمن فيكون قلبه حيًّا ومريضًا،

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

فيه مادتان: مادة طيبة، ومادة خبيثة، وهو لِما غلب عليه: إن غلبت عليه المادة الطيبة صار طَيِّبًا، وإن غلبت عليه المادة الخبيثة صار خبيثًا.

وبِناءً على ذلك فيجب على المؤمن أن يهتم بقلبه أكثر مما يهتم ببدنه، فالإنسان إذا أصابه مرض أو جراحة يبادر للعلاج وإلى الأطباء وإلى الأدوية، ولا يلام على هذا؛ لا بأس: «**تَدَاوَوْا، وَلَا تَتَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[1].

ولكن مداوته وعلاجه لقلبه ألزم وأهم، يعالج قلبه إذا وجد منه قسوة، أو تعلُّقًا بالشهوات، فهذا مرض يجب أن يعالجه ويبادر بعلاجه قبل أن يستفحل؛ فإن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤].

المعاصي تتزايد حتى يختم على قلب صاحبها بالران، وهو غلاف يمنع وصول النور إليها، إذا أهمل قلبه خُتِمَ عليه بالران وغُلف، فلا يصل إليه نور ولا هداية.

فيجب على المؤمن أن يهتم بقلبه غاية الاهتمام، ولا يغفل عنه، ولا يعرضه لما يؤثر عليه من المشاهد السيئة والمرائي السيئة، أو يأكل من الحرام؛ فإن أكل الحرام يقسي القلب، ويمنع قَبول الدعاء، وكذلك لبس الحرام؛ فالملابس المحرمة والمغصوبة أيضًا هذه تمنع الدعاء.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذا المشرب الحرام؛ فشرب المسكِّرات المخدِّرات هذه أيضًا تؤثر على القلب تأثيرًا سيئًا.

وسماع الأغاني والمزامير وآلات اللهو هذه تؤثر على القلب.

وسماع القرآن، وسماع الذكر، وسماع المواعظ هذا يؤثر على القلب تأثيرًا طيبًا.

فالقلب معرض؛ معرض لهذا أو هذا، والدنيا مملوءة لا سيما في آخر الزمان، تمتلئ الدنيا بالمغريات وبالفتن وبالصور، فعلى المسلم أن يهتم بقلبه غاية الاهتمام.

فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولَذَّاتِه، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي - إذا فاز بشهوته وحظِّه - رضيَ ربُّه أم سَخِط.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواته ولَذَّاتِه، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه)**، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هو بدأ بالقلوب ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وهؤلاء كثير ليسوا بقليل، كثير من الجن والإنس، فعلى المسلم أن يحذر أن يكون من هؤلاء، لا يكون من الكثير، يحرص أن يكون من القليل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو لا يبالي -إذا فاز بشهوته وحظِّه- رضيَ ربُّه أم سَخِط)**، همه أن يحصل على مطلوبه ولو كان شهوة محرمة، هذا همه، ولو كان في ذلك مرض قلبه، وسخط ربه عَزَّوَجَلَّ!

وهذا حال كثير من الناس، كثير من الناس كذلك، أما المؤمنون فهم كما وصفهم الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

الله بيَّن لنا الطريق الصحيح من طريق الهلاك، وبقي الاختيار لنا، فأي الطريقين تختار؟

أنت ونفسك، باختيارك، والله جَلَّوَعَلَا يعاملك بحسَب ما تختار لنفسك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧]. فأنت السبب في هذا.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٨-١٠].

فأنت السبب مع نفسك، أنت السبب مع نفسك وقلبك: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(١).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٩-١٠].

فأنت مع نفسك، وأنت راعٍ على نفسك وقلبك؛ فإن أهملتها وأهملت قلبك فإنك تهلك، وإن كنت حيًّا تمشي على الأرض فأنت هالك.

وإن وفَّقك الله وأقبلت على طاعته، وعلى ذكره وعلى عبادته، ذهبت إلى المساجد، حافظت على صلاة الجماعة والجمعة؛ فأنت تسببت في الهداية، والله لا يضيع عملك، ولا يضيع سعيك.

أما إن كنت تذهب إلى المسارح والملاهي، وإلى المقاهي الهابطة، وإلى الإنترنت وما يعرض فيها اليوم من الشرور تأتيك بالشر من كل مكان هذه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا**».

الآلة الخبيثة وأنت على فراشك وفي بيتك وأنت في أوروبا، جسمك في بيتك، لكن قلبك ونفسك في أوروبا وأمريكا وبلاد الكفر، فعليك أن تستحضر هذا، ولا ترعى مع الهَمَل.

الفتن كثيرة الآن ومتنوعة وميسرة، تصل إليك بأسهل طريقة، كان الناس قديمًا يسافرون يذهبون إلى الإباحية، الآن تأتيهم هذه الأمور وهم على فراشهم -والعياذ بالله-، يشاهدون التعري، يشاهدون البغاء، يشاهدون الخمور، يشاهدون كل شر وهم على فراشهم! ويأثمون بهذا؛ بهذه المشاهد ومتابعتها، ويقول أحدهم: أنا قصدي الاطلاع! اطلاع؟! هل تتطلع على شر؟! لا تطلع على هذه الأمور، هذه العورات، هذا البلاء.

فهو متعبد لغير الله: حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا، إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغضَ لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثَرُ عنده وأحب إليه من رضا مولاه؛ فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائسه، والغفلة مركبه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فهو متعبد لغير الله**)، هذا عبد الشهوات، عبد شهوته، عبد الخميصة، عبد الخميلة، كما وصفه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عبد الدرهم، عبد الدينار[1]، عبد الهوى، عبد هواه، عبد زوجته وبنته، إذا أطاعهم في معصية الله صار عبدًا لهم، يلتمس رضاهم، «**وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[2].

فأنت عبدٌ على كل حال: إما أن تكون عبدًا لله مخلصًا: ﴿**إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤]. وإما أن تكون عبدًا للشيطان وأتباعه وجنوده والشهوات.

فأنت عبد على كل حال، فانظر من أنت عبدٌ له.

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ**». أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

(٢) أخرجه ابن حبان (١/ ٥١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٠٠، ٣٠١) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

يقول الناس: (الحرية)! ليس هناك حرية الآن، هناك بهيمية، غاية العبودية والذل، ليس هناك حرية، الحرية في عبادة الله جَلَّوَعَلَا، الحرية في التزام الشرع، والتزام الحلال، وتجنب الحرام، هذه الحرية، هذا يعتقك من حرية الشهوات، ومن عبودية الشيطان، وعبودية الهوى، هذا الذي يجعلك حرًّا، وإلا فأنت عبد مهما كنت، الله خلقك عبدًا، لم يخلقك إلهًا أو ربًّا، خلقك عبدًا شئتَ أم أبيت، فانظر إلى من تكون عبدًا له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو متعبد لغير الله)**، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣]. أنت عبد.

﴿ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾: إما عبد صالح، وإما عبد كافر، الكافر عبد لله، لكنه عصى الله عَزَّوَجَلَّ، هو عبدٌ لله؛ فالعبودية على قسمين:

عبودية عامَّة: هذه لا يخرج عنها أحد.

عبودية خاصة: وهذه عبودية المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء:٦٥].

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

فأنت عبد على كل حال، لكن انظر في أي ركاب تسير: في عبودية الله أو في عبودية غيره؟

وأما قولهم: (الحرية، الحرية)، فليس هناك حرية إلا بطاعة الله وطاعة رسوله، هي التي تحررك، طاعة الله ورسوله تحررك من العبودية لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا)**، كل هذا متعبد لغير الله بهذه الأمور: حبًّا، ورجاءً، وخوفًا... إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغضَ لهواه)**، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان:٤٣]. ما يأمره به هواه يأخذ به، وما ينهاه عنه هواه فإنه يرتكبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهواه آثَرُ عنده وأحب إليه من رضا مولاه)**، يعني: ما يحبه أحب إليه مما يحبه الله؛ ولهذا يقدم شهواته ويقدم محبوباته على ما يحبه الله.

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾: انتظروا، ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ يعني: انتظروا ما يحل بكم.

﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

إذا آثرت محبوباتك على محبة الله فأنت عبدٌ لها؛ فانتظر ما يحل بك.

فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحبِّ العاجلة مخمور، يُنادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح ويتَّبع كل شيطان مريد.

الدنيا تُسخطه وتُرضيه، والهوى يُصمُّه عما سوى الباطل ويُعميه؛ فهو في الدنيا كما قيل في ليلى(١):

عَـدُوٌّ لِمَـنْ عَـادَتْ وَسِـلْـمٌ لِأَهْلِهَا ... وَمَـنْ قَـرَّبَـتْ لَـيْـلَـى أَحَـبَّ وَقَرَّبَا

فمخالطة صاحب هذا القلب سُقْمٌ، ومعاشرته سُمٌّ، ومجالسته هلاك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور)، يعني: لا يفكر إلا في أغراضه الدنيوية وشهواته، لا يفكر في طاعة الله، وفي آيات الله، والجنة والنار... لا يفكر في هذه الأمور، إنما يفكر في شهواته: أين يحصل عليها؟ أين يجدها؟ وهكذا دائمًا وأبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يُنادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح ويتَّبع كل شيطان مريد)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت:٤٤].

شخص معرض ومجفي وبعيد أيضًا، تنادي عليه فلا يدري عنك،

---

(١) البيت أورده المستعصمي في الدر الفريد وبيت القصيد (٢/ ٨١). وهو في الأغاني للأصفهاني (٨/ ٣٧٢)، ونهاية الأرب للنويري (٥/ ٤٨) بلفظ (سلمى):

عَـدُوٌّ لِمَـنْ عَـادَتْ وَسِـلْـمٌ لِسِلْمِهَا ... وَمَـنْ قَـرَّبَـتْ سَلْمَى أَحَـبَّ وَقَـرَّبَا

ولا يلتفت إليك، بعيد ومعرض لا يقبل، إنما يقبل عليك القريب الذي يسمع ويستجيب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فهو في الدنيا كما قيل في ليلى: عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَتْ وَسِلْمٌ لأَهْلِهَا ... وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَى أَحَبَّ وَقَرَّبَا)**، ليلى التي تغزل فيها مجنون ليلى: قيس بن الملوح، تغزل بها دائمًا وأبدًا، ودائمًا يقول: الذي ترضاه ليلى أنا أرضاه.

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وَإِنْ تَرشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ(١)

محبوبته يعني أو قبيلته، وكذلك مجنون ليلى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فمخالطة صاحب هذا القلب سُقْمٌ، ومعاشرته سُمٌّ، ومجالسته هلاك)**، يعني: تتأثر به، تتأثر به.

وقد شبَّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجليس الصالح ببائع المسك: إما أن تشتري منه، وإما أن يهدي إليك، وإما أن تجد رائحة طيبة ما دمت عنده، على الأقل في مجلسه تشم رائحة طيبة.

وأما جليس السوء فهو كنافخ الكير: إما أن تجد منه رائحة سيئة، وإما أن يحرق ثيابك(٢).

---

(١) البيت للشاعر الجاهلي دريد بن الصِّمَّة. انظر: جمهرة أشعار العرب (١/ ٤٦٨)، والأصمعيات (١/ ١٠٧)، والشعر والشعراء (٢/ ٧٣٨)، والصحاح (٦/ ٢٤٤٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (١٤٦) (٢٦٢٨)، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمخالطة صاحب هذا القلب سُقْمٌ، ومعاشرته سُمٌّ، ومجالسته هلاك)**، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨]، يعني: اجلس معهم؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريص على هداية الناس. وجاء ناس من كبار المشركين، وقالوا: نحن لا نجلس معك ما دام عندك سلمان وبلال وصهيب، ابعدهم عن مجلسك وسنأتي نجلس معك نسمع منك!

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لحرصه على هدايتهم- أراد أن يجعل لهؤلاء الفقراء مجلسًا خاصًّا، فمنعه الله من ذلك:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٨-٢٩] هذا تهديد، والعياذ بالله.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]. إلى آخر الآيات(١).

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه (٤٦) (٢٤١٣) عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ: وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾». وانظر: تفسير الطبري (١١/ ٣٧٤-٣٨١)، وزاد المسير (٢/ ٣١)، وابن كثير (٣/ ٢٦٠).

فهذا ليس بأمر تخيير، هذا أمر تهديد؛ لأنه ذكر بعده الوعيد: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٣٠-٣١].

أي: لهؤلاء وهؤلاء، لكن قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ يدل على أن هذا يحتاج إلى صبر، أن تجلس مع الفقراء، مع المساكين، مع المستضعفين... هذا يحتاج إلى صبر.

فصــل

والقلب الثالث قلبٌ له حياة وبه علَّة؛ فله مادَّتان، تَمُدُّه هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لِمَا غلب عليه منهما.

ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكِبْر، والعُجْب، وحب العلوِّ في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعَطَبِه. وهو مُمتحَنٌ بين داعيَين: داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول: حيٌّ مُخْبِتٌ ليِّن واعٍ.

والثاني: يابسٌ ميتٌ.

والثالث: مريض؛ فإما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العَطَب أدنى.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقلب الثالث قلبٌ له حياة وبه علَّة)، هذا المريض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فله مادَّتان، تَمُدُّه هذه مرة، وهذه أخرى)، يعني المادة الطيبة تمده في حين، والمادة الخبيثة تمده في حينٍ آخَرَ، فمن غلب عليه منهما فهو تبعٌ له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو مُمتحَنٌ بين داعيَينِ: داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه

جوارًا)، عنده ملَكٌ وشيطان، الملك يدعوه إلى الجنة، والشيطان يدعوه إلى النار وإلى الشهوات، فهو لمن غلب من الداعيَيْنِ. هذا مثال المؤمن العاصي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالقلب الأول حيٌّ مُخْبِتٌ ليِّن واعٍ)**، القلوب ثلاثة: قلب حي، وقلب ميت، وقلب مريض. هذه أقسام القلوب: حي، ميت، مريض بينهما.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالقلب الأول: حيٌّ مُخْبِتٌ ليِّن واعٍ)**، الذي هو القلب الحي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثاني: يابسٌ ميتٌ)**، ليس فيه فائدة، طبع الله على قلبه، ختم على قلبه، ران على قلبه كسبه الخبيث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثالث: مريض)**، فالمريض بيْنَ بيْنَ.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٢-٥٤])، ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٥].

فهذه الآية أو هذه الآيات فيها أن كل رسول وكل نبي يدعو إلى الخير، ويدعو عباد الله إلى الصلاح والفلاح والجنة، وهناك الشيطان يدعو إلى النار، ويدعو إلى الشهوات وإلى المحرمات.

ولله الحكمة في هذا، فالله قادر على أن يهلك الشيطان وأن يبعده، وألا يجعل في الدنيا إلا الرسل والأنبياء، لكنه يبتلي العباد، جعل دعاة السوء ودعاة الحق، وجعل الشياطين والملائكة والرسل؛ ليبتلي العباد: من تكون معه؟ تكون مع أهل الحق أو تكون مع أهل الباطل؟

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:٥٣]. هذه هي الحكمة.

والله قادر سبحانه أن يزيل هذا كلَّه، ولا يكون في الدنيا إلا الخير وإلا الصلاح، لكنه يبتلي العباد بالخير والشر؛ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

الله هو الذي خلق ما في هذا الكون، خلق الخمر، خلق الحشيش، خلق المخدِّرات، الله هو الذي خلقها، وأيضًا خلق الطيبات، خلق الخبائث وخلق الطيبات، كلها خلق الله جَلَّ وَعَلَا.

الحكمة: ليبتليَ الله بها العباد، ليبتلي الله بها عباده، أين يميلون؟ يميلون مع الباطل أو مع الحق؟

❊ ❊ ❊

فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القلوب في هذه الآيات ثلاثة: قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا، فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي، والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه؛ وهو المطمئن إليه، الخاضع له، المستسلم المنقاد.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي)، ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:٥٣]. هذان الصنفان اللذان يتأثران بما يلقيه الشيطان من الدعوة إلى النار، والدعوة إلى الشهوات، والدعوة إلى الكفر، والدعوة إلى الإلحاد، هذا الذي يلقيه الشيطان. أما الرسل والأنبياء فهُم يدْعون إلى الله وإلى جنته، وإلى توحيده وطاعته.

فالذين يتبعون الشياطين هم هذان القسمان: القلب المريض، أو القلب القاسي.

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً ﴾ يعني: اختبارًا ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج:٥٣].

ثم قال عن الصنف الثالث: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه؛ وهو المطمئن إليه، الخاضع له)؛ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٤].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: هم السبب، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: السبب هو الإيمان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(القلب المؤمن المخبت)**، المخبت يعني: المطمئن إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو المطمئن إليه، الخاضع له، المستسلم المنقاد)**، هذا هو المخبت.

وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة له؛ ليتأتى منه ما هُيِّئ له، وخُلِق لأجله.

وخروجُه عن الاستقامة إما بيُبسِه وقساوته، وعدم التأتِّي لِما يراد منه؛ كاليد الشلَّاء، واللسان الأخرس، والأنف الأخشم[(١)]، وذَكَرِ العِنِّين[(٢)]، والعين التي لا تبصر شيئًا؛ وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال، ووقوعها على السداد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والأنف الأخشم)**، الأخشم: الذي لا يشم؛ فالذي لا يشم هذا أخشم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذَكَرِ العِنِّين)**، ذَكَر العِنِّين: الذي لا يشتهي النساء ولا يميل إلى النساء، هو معه ذكَر، معه الآلة، لكن ليس فيه شهوةٌ ورغبة وميل إلى النساء، وميل إلى المرأة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والعين التي لا تبصر شيئًا)**، هي تبصر من ناحية البصر البهيمي، تنظر ما أمامها، وترى الطريق، لكنها لا تبصر بصرَ هداية، لا تتبصر بآيات الله، وإنما نظرها مثل نظر البهائم فقط.

---

(١) **الخَشَم**: داءٌ يعتري الأنف، والأخشم: الذي لا يجد ريح الشيء. انظر: تهذيب اللغة (٧/ ٤٥)، والصحاح (٥/ ١٩١٢)، ومجمل اللغة (ص٢٨٩)، ومقاييس اللغة (٢/ ١٨٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٥)، ولسان العرب (١٢/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) **العنين**: الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن. انظر: تهذيب اللغة (١/ ٨٤)، والصحاح (٦/ ٢١٦٦)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢١)، ولسان العرب (١٣/ ٢٩١).

فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة:

فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قَبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقَبولِ له.

والقلب الميت القاسي: لا يقبله، ولا ينقاد له.

والقلب المريض: إن غلب عليه مرضُه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قَبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقَبولِ له**)، هذا القلب السليم من المرض، ومن القسوة، ومن الموت ليتقبل الحق مباشرة، ليس بخائف؛ لأنه عرَف الحق، ليس هناك خيار، فيقبل الحق مباشرة.

ولذلك الذين سمِعوا القرآن وسمِعوا الرسول مباشرة استجابوا له، استجابوا له مباشرة ولم يترددوا.

وأما أصحاب القلوب الأخرى فلا؛ امتنعوا من قَبول القرآن، وصاروا يقولون: إن هذا من كلام محمد، هذا من كلام غلام يعلم، غلام في مكة دارس الكتب السابقة ويعلم محمدًا، هو الذي يدرس له هذه الأمور!

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ﴾ [النحل:١٠٣]. هذا الشاب الذي يزعمونه أنه يعلم النبي أعجميٌّ، والقرآن لسان عربي مبين، كيف يأتي العجمي بالقرآن وهو عربي؟! كيف يأتي به؟!

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]. هذا ردٌّ عليهم، فالأعجمي لا يستطيع يأتي بهذا القرآن أبدًا، ولا يستطيع أن يعلم القرآن لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، هو لا يعرفه بنفسه، فكيف يعلم غيره ولم يعرفه من الأصل؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قَبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه)**؛ لأنه ليس عليه حجاب، ولا عليه غشاوة، هو مهيأ لقَبول الحق.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشُّبه والشكوك: فتنةٌ لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يَرُدُّ ذلك ويكرهه ويبغضه، ويعلم أن الحق في خلافه، فيُخبِت للحق، ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان؛ فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له، وكفرًا بالباطل وكراهة له؛ فلا يزال القلب المفتون في مِرْيةٍ من إلقاء الشيطان، وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشُّبه والشكوك: فتنةٌ لهذين القلبين، وقوة للقلب الحي السليم)، ما يلقيه الشيطان هو سبب لهلاك مَن هلك، ومَرَضِ مَن مَرِضَ.

وهو أيضًا سبب لهداية من اهتدى؛ ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الحج:٥٤]، ما غرهم الشيطان وتزيينه. ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ أن ما جاء به الرسل والأنبياء ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ [الحج:٥٤-٥٥]؛ يترددون في شكهم وغيهم، ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الحج:٥٥-٥٦].

فذكر جزاء الفريقين: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [الحج:٥٦-٥٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوة للقلب الحي السليم؛ لأنه يَرُدُّ ذلك ويكرهه ويبغضه)**، لا يقبل ما يلقيه الشيطان، لا يقبله أبدًا، إنما يقبل الوحي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيُخبِت للحق ويطمئن وينقاد، ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان، فيزداد إيمانًا بالحق ومحبة له، وكفرًا بالباطل وكراهة له؛ فلا يزال القلب المفتون في مِرْية من إلقاء الشيطان)**، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج:٥٢]. يعني: قرأ، تمنى بمعنى تلا، تلا الوحي الذي أنزل عليه. إذا تلا يدعو إلى الله جاء الشيطان، وأحضر أيضًا من عنده كلام آخر يزينه للناس؛ يريد أن يصرفهم عما يتلوه الرسول أو النبي، ولله الحكمة في ذلك.

الآن هناك دعاة إلى الحق، وهناك دعاة إلى الضلال، هذا بجنب هذا، أو هذا عند هذا، هذا يدعو للضلال والنار، وهذا يدعو إلى الجنة وإلى الإيمان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدًا)**، ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحج:٥٣-٥٥].

يبقى هذا الشك وهذا التردد وهذا البلاء في قلوبهم، لا يخرجون من هذه الظلمات؛ ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال حُذيفة بن اليمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَعَرْضِ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ القُلوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا، كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ»[(١)].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَلْبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا، كَالكُوزِ مُجَخِّيًا)، منكوس، منكوس القلب، يعني: مثل الكوب المكفي على الأرض؛ لا يأخذ ماء، ولا يقبل الماء، إذا صببت عليه ماء تعداه، خلاف المفتوح المهيأ؛ فهذا تصب فيه الماء فيستقر فيه.

القلب المنكوس لا يقبل الهداية، تمر وتذهب، أما القلب المنفتح فهذا يقبل الماء ويستقر فيه، وينتفع صاحبه به.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)، المنكوس هذا لا يقبل هدى ولا إرشادًا، ولا يقبل إلا ما يوافق هواه وشهوته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ)، هذا القلب الأبيض، قلب المؤمن، ليس فيه ظلام، بل فيه نور،

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

لا تضره فتنة؛ لأن الله حماه ما دامت السماء والأرض، ولو جاء دعاة الضلال ودعاة الكفر لا يستطيعون أن يغيروا قلبه، القلوب بيد الله، لا يستطيع أحد أن يغيرها أبدًا.

والإنسان لو أُكره على شيء فهو في الظاهر، أما قلبه لا؛ قلبه لا يتصرف به أحد أبدًا؛ ولهذا لما أخذ المشركون عمَّارًا وضربوه، ولم يطلقوه حتى يسب الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطاهم ما يريدون وأطلقوه، جاء إلى النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خائفًا، وأخبره بالواقعة، قال: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**» قال: مُطْمَئِنًّا، أَجِدُ قَلْبِي مُطْمَئِنًّا؛ ولهذا أنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿**مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ**﴾ [النحل:١٠٦]. هذا في قصة عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»(١)؛ إن عادوا للتعذيب عُدْ لهم، أعطِهم شيئًا في الظاهر حتى تسلم، وهذا ما يسمى بالمداراة: ﴿**إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً**﴾ [آل عمران:٢٨].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٧٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٩)، وعنه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٦٢)، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا وَرَاءَكَ؟**»، قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ! قَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**»، قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، قَالَ: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**». قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي.

هذه مداراة، خلاف المداهنة، المداهنة -والعياذ بالله- لا تجوز، وهي التنازل عن الحق، أما المداراة فتجوز في بعض الأمور؛ للتخلص فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال حُذيفة بن اليمان** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **قال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَعَرْضِ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا)**، **«تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ»** فتن الشهوات والشبهات، تعرض على القلوب؛ ابتلاءً وامتحانًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ)**، الذي يحب الشهوات والشبهات إذا عُرضت عليه يحبها، يقول: هذا تقدُّمٌ، وهذا رُقِيٌّ وحضارة... وهذا وهذا! ويمدحه، ثم تنكت في قلبه نكتة سوداء، هذه النكتة السوداء لا تزول أبدًا، لا تزول ولا تذهب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ القُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلْبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا، كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)**، لا يقبل إلا ما يوافق هواه ولو كان منكرًا، ولا يقبل الحق الذي يخالف هواه، لا يقبل ما يوافق هواه ولو كان حقًّا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَقَلْبٍ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)**، الصفا لا تؤثِّر فيه المعاول والحفر، الصفا الصُّلب القوي هذا القلب المؤمن لا تؤثر فيه الشهوات والدعايات الباطلة والضلالات، لا يقبلها، فهو يكره الفتن.

❖ ❖ ❖

فشبَّه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا؛ كعرض عيدانِ الحصير -وهي طاقاتها- شيئًا فشيئًا، وقسَّم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلب إذا عُرضت عليه فتنة أُشْرِبها، كما يشرب السِّفِنْجُ الماءَ، فتُنكَت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يُشرَبُ كلَّ فتنة تعرض عليه، حتى يسودَّ وينتكس، وهو معنى قوله: «كَالكُوزِ مُجَخِّيًا»؛ أي مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسودَّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان إلى الهلاك:

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم فيه هذا المرض، حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًّا.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانقياده للهوى، واتباعه له.

وقلب أبيض، قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وكرهَها، فازداد نوره وإشراقه وقوَّته.

والفتن التي تُعرَض على القلوب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فشبَّه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا؛ كعرض عيدانِ الحصير -وهي طاقاتها- شيئًا فشيئًا، وقسَّم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين)، هذا شرح الحديث.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قلب إذا عُرضت عليه فتنة أُشْرِبها)، أحبها وقَبِلها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما يشرب السِّفِنْجُ الماءَ، فتُنكَت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يُشرب كلَّ فتنة تُعرض عليه، حتى يسودَّ وينتكس)**، في الأول نكتة سوداء، ثم مع كثرة الفتن اسودَّ كل قلبه، صار كله أسود.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو معنى قوله: «كَالكُوزِ مُجَخِّيًا»؛ أي: مكبوبًا منكوسًا)**، مجخِّيًا مكبوبًا، لو تحضر كوبًا مكفيًّا على الأرض ثم تصب عليه الماء فإنه لا يستقر ولا يمسك ماءً، فهذا مثل القلب المجخي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم فيه هذا المرض، حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلًا والباطل حقًّا)**، الآن أهل الضلال يسمون أهل الخير وأهل الدين بالظلاميين، يعيشون في ظلام، ظلام قديم! ويريدون أن يعيش الناس مثل القرون الوسطى كما يقولون! هذا موجود الآن، حتى مع الأسف يُكتب بالصحف الآن: (ظلاميون)!

إذا قالوا (ظلامين) فهم يريدون أهل الحق؛ فإن الحق ظلام عندهم، والشرك والكفر والشهوات هذه يقولون عنها: استنارة وتنور، وهذا مستنير، هذا متنور... إلى آخره!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**، **«إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»**.

❁ ❁ ❁

والفتن التي تُعرَض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع، وفتن الظلم والجهل؛ فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والفتن التي تُعرَض على القلوب هي أسباب مرضها)**، من أسباب مرض القلوب وقسوتها وموتها ما يعرض لها من الفتن.

والفتن على قسمين:

* **النوع الأول:** فتن الشبهات، وهذه تكون في العقيدة، شُبَه أهل الضلال وأهل الزيغ وأهل الإلحاد وأهل التصوف وأهل الشرك، هذه تكون شبهات، وهذه أشد أنواع الفتن، فتن الشبهات.

* **والنوع الثاني:** فتن الشهوات التي تشتهيها النفس، تشتهيها النفس وهي محرمة؛ كشهوة الزنا، وشهوة شرب الخمر، وشهوة الغِيبة والنميمة، وشهوة الحسد... وما أشبه ذلك، هذه فتن شهوات، وهذه فتن محرمة، ولكن هذه الفتن تعرض لأهل الفسق وأهل المعاصي.

أما الفتن الأولى -الشبهات- فهي تعرض لأهل الزيغ والضلال، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا في سورة التوبة: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التوبة:٦٩]، هذه

الشهوات، استمتعوا بنصيبهم من هذه الدنيا. ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ يعني: نصيبكم من هذه الشهوات ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ﴾.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ هذه فتنة الشهوات، خضتم في العقيدة كالذي خاضوه مَن قبلكم في عقائدهم، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [التوبة:٦٩]. هذا الصنف من الناس، والعياذ بالله.

فعلى المسلم أن يحذر من فتن الشهوات؛ لأنها كثيرة مغرية؛ فتنة حب المال، فتنة حب النساء، فتنة حب الأولاد... لا تحصى، فتن كثيرة، فتنة النظر إلى ما حرم الله، فتنة الاستماع إلى ما حرم الله، وهي كثيرة، هذه فتنة الشهوات.

وفتنة الشبهات هذه تكون في العقيدة -والعياذ بالله-، ما يعرض لها من التشكيك، وما يعرض لها من الزيغ والضلال ودعاة السوء، وما أكثرَهم في هذا الزمان وفي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمواقع والتويترات وما أشبه ذلك! هذه صارت بأيدي أهل فتنة الشبهات، يلقون فيها شرهم، وينشرونه فيها فيصل إلى كل من ينظر أو يسمع هذه الوسائل، فيقع في فخها، إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا أمر عظيم وخطير جدًّا، والضحية هي القلوب، كل هذه تكون ضحيتها القلوب، وإذا فسد القلب فسد الجسد كلُّه؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١).

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

ولا شك أن دعاة الضلال يركزون على هذا النوع من الفتن، يركزون على فتن الشبهات؛ يجعلون له برامج، يجعلون له أناسًا متخصصين، يعقدون له مناظراتٍ... إلى آخره.

ثم من بعدهم أصحاب فتنة الشهوات، الذين يعرضون شهوات النفوس على الناس، فيقع فيها الكثير؛ لأن كثيرًا من النفوس تحب الشهوات، فإذا لم يكن عندها إيمان قوي فإن هذه الشهوات تغلب عليها، فيقعون فيها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع، وفتن الظلم والجهل)**، هذه كلها ترجع إلى الفتنتين: فتن الشبهات، وفتن الشهوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فـالأُولى توجب فساد القصد والإرادة)**، يعني: الشهوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد)**، هذه هي الشبهات.

وقد قسَّم الصحابة رضي الله تعالى عنهم القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قوله: «القلوب أربعة: قلبٌ أجْردُ، فيه سراج يُزهرُ؛ فذلك قلب المؤمن، وقلبٌ أغلفُ؛ فذلك قلب الكافر. وقلبٌ منكوس؛ فذلك قلب المنافق، عَرَف ثم أنكر، وأبصر ثم عَميَ. وقلبٌ تمُدُّه مادَّتان: مادة إيمان، ومادة نفاق؛ وهو لما غلب عليه منهما»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (قلبٌ أجْردُ، فيه سراج يُزهرُ؛ فذلك قلب المؤمن)، أجرد: متجرد من هذه الفتن، فيه مثل السراج يزهر، مستنير، هذا قلب المؤمن.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقلبٌ أغلفُ؛ فذلك قلب الكافر)، قلب الكافر قد غُلف بالغلف: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة:٨٨]؛ يعني: مغلفة لا يصل إليها كلامك يا محمد، مغلفة لا نسمع كلامك.

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ [فصلت:٥]؛ صمم، لا نسمعك. ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ -والعياذ بالله- ﴿ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ [فصلت:٥]، فهذا القلب الأغلف يعني عليه غلاف، لا يصل إليه حق ولا نور؛ لأن الغلاف حجبه.

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ ﴾ [المطففين:١٤] الران كذلك هو الغلاف، ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [المطففين:١٤].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٥٠٤)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص: ٢٧)، وفي المصنف (٦/ ١٦٨، ٧/ ٤٨١)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣٧٨)، والطبري في تفسيره (٢/ ٢٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٧٦).

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة:٧]، ختم، هذه قلوب الكفار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقلبٌ منكوس؛ فذلك قلب المنافق)**، المنافق قلبه منكوس، منكوس إلى الأسفل، مثل الكوز، كما في الحديث الذي سبق، مثل الكوز المكفي على الأرض، لا يمسك شيئًا، ولا يستقر فيه شيء؛ لأنه منكوس، انصحه أو لا تنصحه، اقرأ أو لا تقرأ، القلب هذا منكوس، قَدَح مكفي، لا يمكن أن يمسك شيئًا من الماء، يزول عنه الماء يمينًا وشمالًا، هذا قلب المنافق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقلبٌ منكوس؛ فذلك قلب المنافق عَرَف ثم أنكر، وأبصر ثم عَمِيَ)**، لماذا صار منكوسًا؟ لأنه انتكس، عرف الحق ثم أنكره فانتكس، وصار رأسه أسفله، وصار أسفله رأسه -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقلبٌ تمُدُّه مادَّتان)**، القلب الثالث بيْن بيْن؛ فيه حياة، وفيه موت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مادة إيمان، ومادة نفاق؛ وهو لِمَا غلب عليه منهما)**، فإن غلبت عليه مادة الإيمان صار مؤمنًا، وإن غلبت عليه مادة النفاق صار منافقًا، فهو معرض.

فقوله: «قلب أجرد» أي: متجرد مما سوى الله ورسوله، فقد تجرد وسلِم مما سوى الحق.

و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان، فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقوله: «قلب أجرد» أي: متجرد مما سوى الله ورسوله)**، أجرد: متجرد مما سوى الله ورسوله؛ لا يسمع إلا كلام الله، ولا يسمع إلا كلام الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما عداه من اللغو والباطل واللهو فهو يعرض عنه.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص:٥٥]، ليس سلام تحية، بل سلام متاركة، يعني: أبعدنا عنكم، ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

وعباد الرحمن إذا ﴿مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]؛ لا يلتفتون إليه، ولا يقعدون في مجالسه، وإنما يمرون مجرد مرور وهم عابرون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(و«فيه سراج يزهر»، وهو مصباح الإيمان)**، مصباح الإيمان، فالإيمان نور في القلب: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥].

هذا الإيمان في قلب المؤمن:

﴿كَمِشْكَوٰةٖ﴾، وهي الكَوَّةُ والفتحة في الجدار.

﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ يصبح هذا أقوى للنور؛ لأنه محجوب من هنا وهنا، فينبثق النور منه.

﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ تصفي النور أيضًا، المصباح في مشكاة، والمشكاة في زجاجة.

﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ أي: ساطع، ترون الكوكب في السماء.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾: شجرة الوحي، يعني السراج هذا، وهذا المصباح مادته التي تشعله شجرة مباركة، ما هي؟

﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ [النور:٣٥]؛ لأن زيت الزيتون هو أحسن شيء للمصباح.

﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ﴾ [النور:٣٥] هذه الشجرة منبتها متوسط، متعرض للشمس إذا أشرقت وإذا غربت، متعرض للشمس دائمًا؛ لأن الشجر يعيش على الشمس، مثلما يعيش على الماء يعيش على الشمس، وشجرة الظل تكون رديئة، معروف شجر الظل، خلاف الشجر الذي يتعرض للشمس؛ فهذا يصبح قويًّا ومثمرًا.

﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾: تأتيها الشمس من كل جهة؛ من جهة الشرق ومن جهة الغرب.

﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾}؛ من صفائه.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾: نور المصباح، ونور المشكاة، ونور الزجاجة، ونور الزيتون الصافي.

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥].

أين يوجد هذا النور؟

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ [النور:٣٦]، في المساجد، يوجد في المساجد.

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

هذا هو موطن القلب الحي المؤمن، موطنه في بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ.

أما القلب الفاسد فهذا موطنه في المسارح والملاهي وبيوت الدعارة وبيوت الفحش! هذا موطنه -والعياذ بالله-.

وأشار بـ«القلب الأغلف» إلى قلب الكافر؛ لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان.

كما قال تعالى حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ [البقرة:٨٨]. وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه كقُلْف وأقلَف.

وهذه الغشاوة هي الأَكِنَّة التي ضربها الله تعالى على قلوبهم؛ عقوبةً لهم على رد الحق، والتكبر عن قَبوله؛ فهي أَكِنَّةٌ على القلوب، ووَقْرٌ في الأسماع، وعمًى في الأبصار.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأشار بـ«القلب الأغلف» إلى قلب الكافر؛ لأنه داخل في غلافه وغشائه)، قلب الكافر مغلف مختوم عليه، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧].

لا يصل إليه شيء، قلب المنافق منكوس، عرَف ثم أنكر؛ فانتكس، عرف الحق ثم أنكره؛ فانتكس قلبه، وصار أسفله أعلاه، وأعلاه أسفله - والعياذ بالله -.

لاحظ: هذه القلوب:

* قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، هذا قلب المؤمن.
* قلب أغلف، هذا قلب الكافر.
* قلب منكوس مجخي، كما سبق في الحديث: «كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا»؛ يعني: منكوسًا، وهذا قلب المنافق.

انظر أنت: قلبك من أي القلوب هذه؟ أعرضْ قلبك على هذه القلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان)**، لا يصل إليه شيء، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨]، هذا هو السبب.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت:٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى حاكيًّا عن اليهود: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ [البقرة:٨٨])**، يعني: مغلفة لا يصل إليها كلامك، ولا القرآن، لا يصل إليها، هذا معناه.

وقيل: ﴿غُلْفُۢ﴾ يعني: مليئة من العلم، لا نحتاج إلى علمك وإلى ما جئت به، ولا نحتاج إلى القرآن، ولا نحتاج إلى شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه الغشاوة هي الأَكِنَّة التي ضربها الله تعالى على قلوبهم؛ عقوبة لهم على رد الحق، والتكبر عن قَبوله)**، لما أعرضوا عن قَبول الحق ختم الله على قلوبهم؛ عقوبةً لهم، ولما سمعوا القرآن ولم يؤمنوا به، غلف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قلوبهم فلا تقبل شيئًا، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

فالإنسان هو السبب في حياة قلبه، وفي مرض قلبه، وفي موت قلبه، هو السبب فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه الغشاوة هي الأَكِنَّة التي ضربها الله تعالى على قلوبهم؛ عقوبة لهم)**، عقوبة لهم لا ظلمًا لهم، الله لا يظلم أحدًا، إنما

جازاهم الله على فعلهم، وهو عدم قَبولهم للحق، وعدم إصغائهم إليه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

لاحظ: ﴿ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾؛ بسبب الظلم، ليس من الله، لكن هم ظلموا أنفسهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عقوبةً لهم على رد الحق، والتكبر عن قَبوله)**، ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠].

فالسبب ما هو؟ ﴿كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:١١٠]، لمَّا سمِعوه لم يصغوا إليه، ولم يعبؤوا به، وأعرضوا عنه، فالله جَلَّ وَعَلَا قلب قلوبهم وأفئدتهم.

فليحذر الإنسان من أن يسمع الحق ولا يقبله، ولا يمتثل له؛ لئلا يصاب بهذه المصيبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ووقْرٌ في الأسماع)**، الوقر هو الصمم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهي أَكِنَّةٌ على القلوب، ووَقْرٌ في الأسماع، وعمًى في الأبصار)**: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]؛ يعني: ليسوا هم بعميان لا يرون الجدران، لا، بل لا يبصرون بها الحق، وإن كانوا يبصرون الجدران والطرق مثل البهائم، مثل بصر البهائم، البهائم أيضًا تبصر؛ تسلك الطرق، وتتجنب الخطر.

هؤلاء مثل البهائم؛ بصرهم لا يتجاوز أمور دنياهم وشهواتهم، ولا يبصرون بصرًا نافذًا، بصر اعتبار واستدلال بآيات الله الكونية على قدرته وعظمته.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٥-١٠٦]؛ لا تنفعهم الآيات.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] يعني: من الآيات، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:١٠١-١٠٢].

الإنسان إذا عرَف الحق ولم يقبله فإنه عرض نفسه للعقوبة العاجلة، كحالة الأمم السابقة: لما عصت رسلها ولم تقبل منهم أهلكها الله جميعًا؛ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس:١٠٢].

وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦].

فإذا ذُكِرَ لهذه القلوب تجريدُ التوحيد وتجريدُ المتابعة ولَّى أصحابها على أدبارهم نفورًا.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾)**، هذا الذي يسمع القرآن ولا يصغي له، ولا يلتفت إليه، إنما قد يقرأ القرآن للطرب والتلذذ بالنغمات، ولا يقرؤه للتدبر والاعتبار والعمل به!

ليس كل من قرأ القرآن يكون تابعًا للقرآن، ولا مصغيًا له، إنما قد يكون غرضه لذة التلاوة والصوت، وأن فلانًا أحسن صوتًا من فلان، واذهبوا لفلان صلوا خلفه؛ صوته أحسن! فقط صوته أحسن؟! لا يكفي هذا، صلوا خلف من يتقن الصلاة، ويخشى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، صلوا خلف هذا، لا تصلوا خلف الذي صوته حسن فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾)**، أن يفقهوا القرآن ويتدبروه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦])**، يعني: صممًا؛ لا يسمعون سماع قَبول، وإنما يسمعون سماع بهائم.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة:١٧١]. مثل البهائم؛ تسمع صوت الراعي فتتبعه، وهي لا تدري ماذا يقول، لكن تمشي على الصوت فقط، هذا مثل الذي يسمع القرآن ويتلذذ به ونغماته، لكن لا ينتفع به -والعياذ بالله-!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا ذُكِرَ لهذه القلوب تجريدُ التوحيد وتجريدُ المتابعة ولَّى أصحابها على أدبارهم نفورًا)**، إذا ذُكِر في القرآن الأمرُ بالتوحيد، والنهي عن الشرك، والنهي عما عليه أهل الباطل ولَّوْا على أدبارهم نفورًا.

لا تتعرض لما هم عليه، أو تسب ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام، إذا تعرضت ولَّوْا وأدبروا عنك: ﴿ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء:٤٦].

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥].

فأبغض ما يسمعون في القرآن: النهي عن الشرك وعبادة القبور وعبادة الأضرحة وعبادة الأصنام، هذا أبغض ما يسمعونه أو يستمعون إليه، يقولون: اتركنا على ما نحن عليه، لا تتعرض لما نحن عليه! هذا لا يصلح.

وأشار بـ«القلب المنكوس» -وهو المكبوب- إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء:٨٨]؛ أي: نكسهم وردَّهم في الباطل الذي كانوا فيه؛ بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة. فهذا شر القلوب وأخبثها؛ فإنه يعتقد الباطل حقًّا ويوالي أصحابه، والحقَّ باطلًا ويعادي أهله! فالله المستعان.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأشار)**، يعني: حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء:٨٨])**، ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، يعني: يختلفون، مترددين في شأنهم. لا يحتاج ترددًا.

﴿أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ أركسهم: نكسهم ونكس قلوبهم، فلا جدال فيهم.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء:٨٨].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣]؛ فالهداية بيد الله، يَمُنُّ بها على من يشاء لمن أصغى إلى الحق ورغب فيه.

وأما من أعرض عنه ولم يقبله فإنه إنما يسمعه سماع البهائم، كما تسمع البهائم صوت الراعي: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ [البقرة:١٧١] يعني: يصوت.

﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً﴾ الصوت فقط. ﴿وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة**)، ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾.

لاحظ: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، الله لم يظلمهم، إنما أركسهم بكسبهم الكفر والضلال -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فهذا شر القلوب وأخبثها**)، المنافق شر من الكافر الخالص، شر من الكافر الخالص، لماذا؟

لأن الكافر الخالص عرَفنا أنه كافر، فأخذنا حذرنا منه، وأما المنافق فهو يتزين بزينا، ويتكلم بكلامنا، ويذكر الله معنا، ويصلي معنا، ويصوم معنا؛ خداعًا: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة:٩].

فالمنافق شر من الكافر؛ ولذلك صار المنافق في الدرك الأسفل من النار: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

أسفل شيء من النار فيه المنافقون، تحت عبدة الأصنام وتحت المشركين، لماذا؟ لأنهم شر من الكفار والمشركين، أولئك صرحوا بكفرهم، وعرَفناهم؛ فاتخذنا حذرنا منهم، تعاملنا معهم على أنهم كفار، أما هؤلاء فنتعامل معهم على أنهم مؤمنون مسلمون، وهم غير مسلمين ولا مؤمنين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة:٩].

ولذلك ذكر الله في مطلع سورة البقرة أربع آيات في المؤمنين، وذكر آيتين في الكفار الخلَّص، وذكر بضع عشرة آيةً في المنافقين؛ لخطرهم وشرهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه يعتقد الباطل حقًّا ويوالي أصحابه، والحقَّ باطلًا ويعادي أهله! فالله المستعان)**، هذا المنافق.

وأشار بـ «القلب الذي له مادتان» إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يُزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر؛ والحكم للغالب، وإليه يرجع.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأشار بـ «القلب الذي له مادتان» إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يُزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله)**، ذكر حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أربعة قلوب: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب منكوس، وقلب أغلف وهو قلب الكافر، وقلب منكوس وهو قلب المنافق. لا تخرج القلوب عن هذه الأقسام الأربعة.

الرابع: قلب فيه إيمان وفيه نفاق، هذا فيه رجاء، فيه رجاء أن يعالج ويتوب إلى الله ويرجع، وفيه خطر أن يهلك في نفاقه، هذا بيْنَ بيْنَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان)**، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران:١٦٧]؛ فدل على أن مِن أهل القلوب مَن يكون أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان، فهذا أخطر ما يكون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والحكم للغالب، وإليه يرجع)**، إنْ غلب عليه مادة الإيمان نجا وسلِم، وإن غلب عليه مادة الكفر هلَك.

ولذلك أسباب:

إذا كان يعاشر أهل الكفر ويخالطهم ويجالسهم ويستمع لهم ويستمع للضلال؛ فهذا حريٌّ أن ينتكس قلبه، ويذهب ما فيه من مادة الإيمان، محاها ومسحها.

وإن كان يجالس أهل الخير ويستمع للذكر ويستمع للقرآن ويستمع المواعظ والتذكير ويخالط أهل الخير ويصاحبهم؛ فهذا حري أن يهديه الله، وأن يخلص الإيمان في قلبه، وتذهب منه المادة الخبيثة.

كلام حذيفة هذا ثمين جدًّا، رضي الله عنه وأرضاه، وهو فقيه في أمر الفتن؛ لأنه يخاف منها، ويحذر منها، ويسأل عنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أكثر الصحابة سؤالًا عن الفتن.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»(١).

هذا من فقهه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالإنسان لا يأمن على نفسه، وإذا لم يعرف الشر وقع فيه.

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ

وَمَنْ لَا يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ الخَيْرِ يَقَعْ فِيهِ(٢)

لا يقول الإنسان: أنا فاهم وعارف، وأنا ليس علي خطر، ولن نتعلم شُبَهَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) البيت لأبي فِرَاس الحَمْداني. انظر: يتيمة الدهر (١/ ٨٤).

الكفار، وشُبَهَ الجهمية(١)، والأشاعرة(٢)، والمعتزلة(٣)، ماذا أعمل بها؟! يقول بعضهم هكذا! لا، اعرِفْها لأجل أن تتجنبها، ولا تلتبس عليك شبهاتهم،

---

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًّا عظيمًا، وهو رأس في التعطيل، قُتل سنة ١٢٨هـ، قتله سَلْم بن أحوز. انظر: المِلَل والنِّحَل للشَّهْرَسْتاني (١/ ٨٦)، والفَرْق بين الفِرَق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجُرْجاني (ص١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٩٠).

(٢) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، وُلد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتتلمذ على يد أبي علي الجُبَّائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كُلَّاب وانتشر مذهبه، ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألَّف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كُلَّاب. وتُوُفِّيَ ببغدادَ سنة أربع وعشرين وثلاث مئة. قال الذهبي: ويقال بقيَ إلى سنة ثلاثين وثلاث مئة. اهـ.
انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووَفَيَات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

(٣) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو ابن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن؛ فسُمُّوا بالمعتزلة لذلك، ويُلقَّبون بالقَدَرِيَّة؛ لإسنادهم أفعالَ العباد إلى قدرتهم، وإنكارهم القَدَرَ فيها.
وقد افترقت المعتزلة إلى فِرَقٍ شتَّى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة؛ وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معانيَ باطلةً.
انظر: المِلَل والنِّحَل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفَرْق بين الفِرَق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبَدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووَفَيَات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١، ٧٩٢).

اعرفها من أجل أن تتجنبها، وإلا تقع فيها، لا سيما وهم أهل فصاحة، وأهل علم، وأهل حِجَاج ومناقشة؛ فلا بد أن تكون عندك حصانة منهم.

ولذلك نحن ندرس العقيدة؛ ندرس مذهب أهل السنة والجماعة، ندرس مذهب المعتزلة، والجهمية، والأشاعرة، ومذهب الخوارج[١]، ومذهب المرجئة[٢]، لماذا ندرس هذه الأشياء؟ محبة لها؟! لا؛ ندرسها لأجل أن نتجنبها.

ولكن لا يمكن أن نتجنبها دون أن نعرفها، لا بد أن نعرفها، أنت عندما تسير في الليل في طريق لا تعرفه ولا تعرف ما فيه من الحفر وما يعترضك من السباع والهوام، فإذا لم تعرف هذا تهلك في أول خطوة.

أما إذا كنت على معرفة بالطريق، تعرف ما فيه من الأخطار؛ تأخذ حذرك، تتجنب الأخطار، وتقاوم الأشياء التي تعترض لك؛ فلا بد من معرفة طريقك في هذه الحياة.

---

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرى أمر المحكِّمين، واجتمعوا بحَروراءَ من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْقِرُ أحدُكُم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**». أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًّا؛ سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٨٦-٤)، والفَرْق بين الفِرَق (ص٥٤)، والمِلَل والنِّحَل (١/ ١١٤).

(٢) **المرجئة**: قيل: من الإرجاء، أي: من التأخير؛ لأنهم أَخَّروا العمل عن مسمَّى الإيمان. وقيل: من الرجاء؛ لأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة! وهم فِرَقٌ شتَّى. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٣٢)، والفرق بين الفِرق (ص١٩٠).

الباب الثاني

في ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب)**، لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القلوب تنقسم إلى: قلب سليم، وقلب ميت، وقلب مريض، قلب مريض بين الحياة والموت؛ بيَّن أسباب مرض القلب؛ لأجل أن يمكن علاجه؛ لأن المرض إذا عُرفت أسبابه أمكن علاجه، فمرض القلب له أسباب، ولا بد من علاج هذه الأسباب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾** [البقرة:١٠])، الله جَلَّ وَعَلَا في أول سورة البقرة قال: **﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾** [البقرة:٨-٩].

ما السبب في هذا النفاق وهذه المخادعة؟

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: مرض الشك والشبهة، وحب المال وحب الدنيا، هذا الذي أمرض قلوبهم.

﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾: فالمنافق يزداد مرضه كما أن المؤمن يزداد إيمانه؛ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة:١٢٤].

إذا أنزلت سورة من القرآن: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

لماذا زادتهم السورة رجسًا؟ لأنهم يشكُّون فيها، ولا يؤمنون بها، فهي تحدث لهم زيادة المرض في قلوبهم؛ ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٤]. نسأل الله العافية.

والله جَلَّوَعَلَا قال في القرآن: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة:٢٦-٢٧].

فالقرآن مَن أقبل عليه وآمن به وتدبره فإن الله يهديه به، ومَن أعرض عنه ولم يعبأ به، واتبع هواه واتبع شهواته؛ فإن القرآن يضله، لماذا؟ لأنه فاسق خارج عن طاعته؛ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

والفسق هو الخروج عن طاعة الله، ويكون فسقًا أكبر إذا خرج من الإيمان إلى الكفر كما عليه المنافقون النفاق الأكبر.

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾. من هم الفاسقون؟ ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ عاهدوا الله جَلَّوَعَلَا على الإيمان، عاهدوا الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الاتِّباع، ثم نقضوا عهدهم مع الله ومع رسوله؛ ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: الله جَلَّ وَعَلَا أمر بصلة الأرحام، وهم يقطعون أرحامهم، وأمر بصلة القرآن بعضه ببعض، وعدم تقطيعه، وأخذِ بعضه وترك البعض الآخر، واتِّباع المتشابه وترك المُحْكَمِ، فهذه طريقة أهل الزيغ والمنافقين.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: فالله أمر بأن يُرَدَّ المتشابه إلى المُحْكَم؛ يفسره ويبينه ويوضحه، وهؤلاء أخذوا المتشابه وتركوا المحكم، هذه طريقة أهل النفاق.

وأما أهل الإيمان فردوا المتشابه إلى المحكم، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، المتشابه والمحكم كله كلام الله، يفسر بعضه بعضًا.

فمثلًا -الآن- يقولون: الإنسان حرٌّ في عقيدته؛ يختار ما يشاء! ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]: هذا جزاء الكافر بالقرآن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا جزاء الذين آمنوا بالمحكم والمتشابه.

هؤلاء أخذوا المتشابه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، قالوا: هذا تخيير! مع أنه ليس بتخيير، إنما هو تهديد، أمر تهديد لا تخيير.

فهم يأخذون بعضًا ويتركون البعض الآخر؛ لأجل أن يشبِّهوا على الناس، ويقولون: نحن نستدل بالقرآن!

نقول: كذبتم، لم تستدلوا بالقرآن، الذي يستدل بالقرآن هو الذي يؤمن بجميع القرآن، ويرد بعضه إلى بعض، ويفسِّر بعضه ببعض؛ لأن كله كلام الله، هذا الذي يؤمن بالقرآن، أما من يأخذ بالمتشابه هذا كافر بالقرآن، وليس مؤمنًا، هذه طريقة المنافقين في كل زمان.

وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج:٥٣]، وقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢].

أمَرَهُنَّ ألَّا يَلِنَّ في كلامهن كما تلين المرأة المعطية اللِّيَانَ في مَنْطِقها، فيطمع مَنْ في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يَخْشُنَّ في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يَقُلْنَ قولًا معروفًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج:٥٣])، كما سبق في الآية أن الشيطان إذا تمنَّى رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتلا القرآن وسمِعه مَن حوله جاء الشيطان، فألقى شُبَهًا على القرآن، وعلى مدلولات القرآن، وربما يسمعون صوت الشيطان.

فالله جَلَّ وَعَلَا ينزل القرآن ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤]، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلو القرآن على أصحابه، ويعلمهم إياه.

ثم يأتي الشيطان، ويلقي حول القرآن الشبهات والوساوس؛ لأجل ألا ينتفع به مَن سمِعه، ثم الله جَلَّ وَعَلَا ينسخ ما يلقي الشيطان؛ يبطله ويزيله، ويُحْكِم آياته.

ثم بيَّن الحكمةَ: لماذا مكَّن اللهُ الشيطانَ من هذا العمل مع أنه قادر على أن يهلك الشيطان ويبطل عمله؟

﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٣-٥٤]. الله حكيم عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢])، المرأة بحاجة إلى مخاطبة الرجال في أمور دينها ودنياها، بحاجة إلى مخاطبة رجال في شؤونها وحاجاتها.

لكن عليها أن تتحفظ في مخاطبتها؛ فلا تمزح مع الرجال، ولا تتغزل معهم، أو تضحك معهم؛ لأن هذا يطمع فيها مَن؟ ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [التوبة:١٢٥]، ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢].

إذا لانت في كلامهم، ومزحت وضحكت فإنه يطمع بها، أما إذا تكلمت كلامًا عاديًّا نزيهًا معروفًا فإنه لا يطمع بها.

والله أمرها بالتوسط؛ لا يكون كلامها خشنًا وفاحشًا بذيئًا مع الرجل، ولا يكون كلامها لينًا يطمع مَن في قلبه مرض، بل تقول قولًا معروفًا.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب:٣٢]: هذا خطاب لنساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو خطاب لكل نساء الأمَّة؛ لأن نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدوة، وهن أمهات المؤمنين، هن أمهات المؤمنين رجالًا ونساءً، فالأمَّة تقتدي بهن، نساء المؤمنين يقتدين بأمهاتهن من نساء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(كما تلين المرأة المعطية اللِّيَانُ في مَنْطِقِها) اللَّيَّانُ: المَطْل، أما اللِّيَانُ: فاللين؛ لين الكلام.

وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦٠].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦٠])، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الأحزاب في آخرها قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨].

ثم قال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: مرض الشبهة والشهوة.

﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: نلقي في قلبك البغض لهم.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: في المدينة.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

هذا في شأن المنافقين الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات، يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالكلام السيئ، والحط من قدر المؤمنين والمؤمنات.

وبالإرجاف أيضًا، يرجفون بالناس؛ يأتون أشياء مخوفة في كلامهم: سيكون كذا، وسيحصل كذا، واحذروا من كذا، سيقبل عليكم كذا وكذا...! يرجفون، فضعيف الإيمان يصدقهم، أما المؤمن فإنه مطمئن؛ لا يصدقهم، ولا يلتفت لهم، لكنهم يؤَثِّرون على بعض المؤمنين.

والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، سماعون لكلامهم، ويتأثرون به.

فهؤلاء هم المرجفون في المدينة، الذين يتلمسون الأشياء المخيفة والتهديدات، وأصابكم البلاء، وأصابكم الشر... هؤلاء مرجفون.

أو إذا سمِعوا خبرًا فيه سوء نشروه وأعلنوه، هؤلاء المرجفون في المدينة، وهذا نتيجة المرض الذي في قلوبهم.

والمؤمن لا ينشر هذه الأمور، ولا يروع المسلمين؛ بل يُطَمْئِنُهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١].

أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكَّلينَ بالنار تسعةَ عشرَ، فذكر سبحانه خمس حِكَم:

فتنة الكافرين؛ فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١])، هذه الآية أخبر الله جَلَّ وَعَلَا فيها أن النار خزانها تسعةَ عشرَ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] ملكًا من الملائكة.

والنار واسعة، وأهلها كثيرون، فقال أبو جهل: أنا أكفيكم منهم كذا وكذا، لا يهمكم، أنا أكفيكم منهم كذا وكذا، والبقية عليكم أنتم، ونخرج من النار! يعني من باب السخرية والاستهزاء، يظنهم قليلين؛ لأنه لا يعرف الملَك الواحد وقوَّته.

والله جَلَّ وَعَلَا مِن حكمته أنه جعل عددهم تسعة عشر؛ لأجل الفتنة، فتنة هؤلاء حتى يسخروا، ويقولوا: النار ليس عليها إلا تسعة عشر ملكًا؟! لا يكفون هؤلاء، أهل النار كثيرون، وأهل النار... إلى آخره.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر:٣٠]، ملائكة، تسعة عشر، لماذا تسعة عشر؟ ملائكة ليسوا بشرًا، ليسوا مثلكم، ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ [المدثر:٣٠].

﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]: فتنة للذين كفروا؛ ليتكلموا ويقولوا.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣٠].

صاروا ثلاثة أقسام:

الكفار يسخرون ويقولون هؤلاء لا يكفون، وأنا أكفيكم كذا وكذا منهم!

والمؤمنون من المسلمين ومن أهل الكتاب يصدِّقون بهذا؛ لأنهم عندهم الوحي، وعندهم القرآن، وعندهم التوراة والإنجيل، ويصدقون ويعرفون الملائكة، المسلمون وأهل الكتاب يعرفون الملائكة، أما هؤلاء فلا يعرفون الملائكة، ولا يؤمنون بهم؛ فانقسموا ثلاثة أقسام: المؤمنون وأهل الكتاب، والكفار، والمنافقون، فالله ذكر الحكمة في عدد خزنة جهنم.

(أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكَّلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حِكَم: فتنة للكافرين؛ فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم).

وقوة يقين أهل الكتاب؛ فيقوى يقينُهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم؛ من غير تلقٍّ من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على مُعانِدهم، وينقاد للإيمان من يريدُ الله أن يهديه.

وزيادة إيمان الذين آمنوا؛ بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به.

وانتفاءُ الرَّيْبِ عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربع حِكَم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب.

الخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض، وعَمِيَ قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوة يقين أهل الكتاب؛ فيقوى يقينُهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم)**، يعني: من التوراة والإنجيل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن أنبيائهم من غير تلقٍّ من رسول الله ﷺ عنهم)**، وإنما تلقوا هذا من كتابهم، وكتابنا وافق كتابهم، ففرحوا بذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وزيادة إيمان الذين آمنوا؛ بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به)**، أهل الإيمان لم تُحدِثْ عندهم هذه الآيةُ: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] أيَّ تردد، بل آمنوا بها؛ لأنهم يعرفون الملائكة وقوَّة الملائكة، يعرفون حكمة الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يَشُكُّون.

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وانتفـاءُ الرَّيْـبِ عـن أهـل الكتـاب لجزمهـم بذلـك)، ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المدثر:٣١]؛ لا يرتابون في شأن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا وافق ما معه ما عندهم لا يرتابون في هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وانتفاءُ الرَّيْبِ عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به)، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض)، ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١]. يقولون: ما الحكمة في هذا؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعَمِيَ قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾)، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر:٣١].

ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]. الملائكة جنود من جنود الله، والملَك الواحد لا يقوم له أهل الأرض كلهم.

وهذه حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفرًا وجودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقَّنه، فتقوم عليه الحجة به، وقلب يوجب له حيرة وعمًى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع: إن رجعا إلى شيء واحد كان ذكر عدم الريب مقرِّرًا لليقين، ومؤكدًا له، ونافيًا عنه ما يُضادُّه بوجه من الوجوه، وإن رجعا إلى شيئين بأن يكون اليقين راجعًا إلى الخبر المذكور عن عدَّة الملائكة، وعدم الريب عائدًا إلى عموم ما أخبر الرسول به؛ لدلالة هذا الخبر الذي لا يُعلم إلا من جهة الرسول على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعدُ في صدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهرت فائدة ذكره. والمقصود ذكر مرض القلب وحقيقته.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا)، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤، ١٢٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقلب يتيقَّنه، فتقوم عليه الحجة به)، يتيقنه ولكن لا يتبعه، مثل أهل الكتاب؛ تيقنوا ما في القرآن من الحق، ولكنهم لأجل الكِبْرِ والحسد لم يؤمنوا به، فقامت عليهم الحجة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقلب يوجب له حيرة وعمًى، فلا يدري ما يراد به)، يتردد فيه؛ لأنه ليس عندهم، فهو يتردد، يشك، يصير عنده شك، فهذه الحكمة من الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]؛ فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيِّ، فإن الجهل مرض؛ شفاؤه العلم والهدى، والغي مرض؛ شفاؤه الرشد.

وقد نزَّه الله سبحانه نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذين الداءين؛ فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١، ٢].

ووصف رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خلفاءه بضِدِّهما؛ فقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧])، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب لجميع الناس، المؤمنين والكفار.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧-٥٨].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣)، والدارمي (١/ ٢٢٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٥)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥)، من حديث العِرْباضِ بن سارِيةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد نزَّه الله سبحانه نبيَّه** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عن هذين الداعين، فقال:** ﴿ **وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** ﴾ [النجم:١- ٢])، ﴿ **وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ** ﴾ [النجم:١]، أقسم سبحانه بالنجم، والله يقسم بما شاء مِن خلقه، ولا يقسم إلا بشيء فيه عبرة وعظة، النجوم من آيات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ **وَٱلنَّجْمِ** ﴾ ليس خاصًّا بنَجم معين، بل المراد جنس النجوم.

﴿ **إِذَا هَوَىٰ** ﴾ يعني: غاب، إذا غاب في مغيبه.

الجواب جواب القسم: ﴿ **مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ** ﴾، وهو محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ما ضل عن الحق.

﴿ **وَمَا غَوَىٰ** ﴾ نفى عنه الأمْرَينِ: الضلال، والغَيّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ووصف رسوله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **خلفاءه بضِدِّهِما؛ فقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»**)، الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**». ماذا نفعل عند الاختلاف؟

(**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي**)، وهم الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لأنهم قرروا سنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعمِلوا بها، وحكموا بها، فاستقرت بعد الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد وفاته، ولا منجاة من الفتن إلا باتباع السنة؛ سنة الرسول.

«**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»؛ من شدة التمسك.

تمسكها بيدك، وتَعَض عليها بأسنانك؛ خشية أن تفلت منك؛ لأنك في موضع خطر، مثل الغريق الذي معه حبل في لُجَّة البحر، إذا أطلق هذا الحبل غرِق، وما دام متمسكًا بالحبل فإنه ينجو؛ وسنة الرسول ﷺ هي الحبل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، لا منجاة من الفتن إلا باتِّباع الكتاب والسنة؛ سنة الرسول وسنة خلفائه، لا يُنجي من الفتن إلا هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ووصف رسوله** ﷺ **خلفاءه بضِدِّهما؛ فقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»)**، الرشد ضد الغَي، والهدى ضد الضلالة: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢]؛ ففيها معنى الآية.

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاءً تامًّا لما في الصُّدور؛ فمن استشفى به صحَّ وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل(١):

إِذَا بَلَّ مِنْ دَاءٍ بِهِ ظَنَّ أَنَّهُ ... نَجَا، وَبِهِ الدَّاءُ الَّذي هُوَ قَاتِلُهْ

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة)**؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [يونس:٥٧]، هذا للمؤمنين والكفار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة)**، عمم ثم خصص؛ عمم الموعظة، وخصص الهداية بالمؤمنين، فمن التفت إلى هذه الموعظة هداه الله، ومن أعرض عنها أهلكه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وشفاءً تامًّا لما في الصُّدور)**، لما في الصدور من أمراض الشهوات والشبهات والشكوك في القلوب، فالمراد بالصدور هنا: القلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن استشفى به صحَّ وبرئ من مرضه)**، القرآن موعظة، من استشفى به صح وشفي من مرضه؛ لأنه هو العلاج الوحيد من هذا المرض.

ليس العلاج بالمضادات أو بالحبوب والأشربة، هذه للجسم، هذه علاج للجسم، علاج الطب هذا للجسم، أما علاج القلب من مرضه وشكوكه فهو بالقرآن والسنة.

---

(١) في البصائر والذخائر لأبي حيان (٦/ ١٧٩)، وربيع الأبرار للزمخشري (٥/ ٣٨) أن سيبويه كان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن لم يستشف به فهو كما قيل: إِذَا بَلَّ مِنْ دَاءٍ بِهِ ظَنَّ أَنَّهُ... نَجَا، وَبِهِ الدَّاءُ الَّذي هُوَ قَاتِلُهْ)**، (إِذَا بَلَّ): يعني أحس بالشفاء. (ظَنَّ أنّهُ... نَجَا)، ولكنه فيه المرض، لم يبرأ، فيه المرض، وهو مرض قاتل، فلا يغتر أنه تناول شيئًا من الشفاء ما دام المرض لم يغادر.

وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]. **والأظهر أن «مِنْ» هاهنا لبيان الجنس، فالقرآن جميعه شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين.**

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢])، القرآن على نسق واحد: أنه هداية للمؤمنين، وأنه حُجَّة على الكافرين، كله على نسق واحد.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ نقول: إن ﴿مِنَ﴾ هذه ليست تبعيضية، إنما هي بيانية، فليس بعض القرآن شفاءً وبعض لا! بل القرآن كله شفاء، لكن (من) تأتي للبيان، وتأتي للتبعيض، والمراد بها هنا البيان، (من) البيانية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢])، فالقرآن في نفسه شفاء، لكن الناس يختلفون؛ منهم من يشفى به وهم المؤمنون، ومنهم من يمرض به وهم الكفار، لا ينفعهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والأظهر أن «مِنْ» هاهنا لبيان الجنس**)، (من) بيانية، وليست تبعيضية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالقرآن جميعه شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين**)، قلنا: إنها بيانية؛ لأن القرآن كلَّه رحمة للمؤمنين، ليس بعضه رحمة وبعضه لا.

فصل

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي، لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية: فإما أن يذهب إدراكه بالكلية، كالعمى والصمم والشلل، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلوَ مُرًّا، والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه)**، لما انتهى من مرض القلب انتقل إلى مرض البدن.

وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ طبيب، ومن كبار الأطباء، يعرف العلاج، ويعرف الأدوية، وسيذكر شيئًا من هذا تعرفون به مهارته في الطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه)**، خلاف صحة البدن وصلاحه؛ يعني: سلامته، ليس بصلاحه الديني، صلاحه: السلامة من الأمراض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي)**، يعني بمرضه: خروجه عن اعتداله، إذا خرج الجسم عن اعتداله مرِض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي)**، الطبيعي: الذي خلقه الله فيه، ما دام الجسم معتدلًا فهو صحيح، فإذا تأثر هذا الاعتدال مرِض، سواء كان مرضًا قليلًا أو كثيرًا، إذا خرج عن الاعتدال، الاعتدال في قُوَاهُ وفي حواسه وفي تركيبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلوَ مُرًّا، والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا)**، ولذلك لا يجد المريض لذة في الطعام والشراب وإن كانت من ألذ الأشياء، لكن تكون في مذاقه غير طبيعية، الماء العذب يكون مرًّا، ويكون الطعام رائحته ومذاقه كريهًا في فمه؛ بسبب المرض، وتغير اعتداله. يقول الشاعر(١):

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ   وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا)**، ليس الخبيث بمعنى الحرام، لا، الخبيث هنا: الطعام الرديء؛ لأن الطعام ينقسم إلى جيد ورديء، فالجيد يقال له طيب، والرديء يقال له خبيث: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢٦٧]، المراد بالخبيث: الشيء الرديء، ليس الحرام.

❁ ❁ ❁

(١) البيت للبوصيري، انظر: العمدة في إعراب البردة (ص١٤٤)، والبردة شرحًا وإعرابًا وبلاغة (ص١٤٥).

وأما فساد حركته الطبيعية: فمثل أن تضعف قوَّته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة، أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسَب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدِّ الموت والهلاك، بل فيه نوع قوَّة على الإدراك والحركة.

وسببُ هذا الخروج عن هذا الاعتدال: إما فساد في الكمية أو في الكيفية.

فالأول: إما نقص في المادة؛ فيحتاج إلى زيادتها، وإما زيادة فيها؛ فيحتاج إلى نقصانها.

والثاني: إما بزيادة الحرارة، أو البرودة، أو الرطوبة، أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعي، فيداوى بمقتضى ذلك.

ومدار الصحة على حفظ القوة، والحِمْية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة؛ ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة، وقد تضمنها الكتاب العزيز، وأرشد إليها مَنْ أنزله شفاءً ورحمةً.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما فساد حركته الطبيعية: فمثل أن تضعف قوَّته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة، أو الجاذبة)، انظروا الطب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيحصل له من الألم بحسَب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدِّ الموت والهلاك، بل فيه نوع قوَّة على الإدراك والحركة)، هذا الجسم المريض مثل القلب المريض.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وسببُ الخروج عن هذا الاعتدال)، يعني: خروج الجسم عن اعتداله.

فأما حفظُ القوة: فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان، ويقضي المسافر إذا قَدِم، والمريض إذا بَرِئ؛ حفظًا لقوتهما عليهما؛ فإن الصوم يزيد المريض ضعفًا، والمسافر محتاج إلى توفير قوَّته عليه لمشقة السفر، والصوم يضعفها.

وأما الحِمية عن المؤذي: فإنه سبحانه حمى المريضَ عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره، وأمره بالعدول إلى التيمم؛ حِميةً له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه، فكيف بالمؤذي له من باطنه؟!

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأما حفظُ القوة: فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان، ويقضي المسافر إذا قَدِم، والمريض إذا بَرِئ)**، يعني حفظ القوة؛ لأن المسافر عليه مشقة، وتضعف قوته في السفر، فإذا اجتمع عليه الصيام ومشقة السفر فإنه يؤثِّر عليه؛ فلذلك رخص الله له في الإفطار.

كذلك المريض الذي يلحقه مشقة بالصيام رخص الله له بالإفطار: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] يقضيها في أيام يرتاح فيها ويستطيع الصيام من دون مشقة بليغة، هذا من رحمته سبحانه، هذا علاج، هذا من علاج من الله جَلَّ وَعَلَا، هذا من أدوية القرآن الكريم.

والمراد بهذه الرخصة: حفظ قوة الجسم؛ لأنه لو صام وهو مسافر ضعف جسمه، ولو صام وهو مريض يضعف جسمه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما الحِمية عن المؤذي: فإنه سبحانه حمى المريضَ عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل إذا كان يضره)**، المريض إذا كان يشق عليه الوضوء بالبرودة فإنه يتيمم: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [النساء:٤٣].

﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ هذا عذر. ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: هذا عذر آخر: مرض؛ المرض الذي يلحق المريض بالوضوء مشقة ويؤثر على صحته.

وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه - سبحانه- أباح للمُحْرِمِ الذي به أذى من رأسه أن يحلقه، فيستفرغ بالحَلْقِ الأبخرةَ المؤذية له، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها، فنبَّه به على ما هو أحوج إليه منه.

وذاكرتُ مرةً بعض رؤساء الطب بمصر بهذا، فقال: والله لو سافرتُ إلى المغرب في معرفة هذه الفائدة؛ لكان سفرًا قليلًا، أو كما قال.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه -سبحانه- أباح للمُحْرِمِ الذي به أذى من رأسه أن يحلقه)، ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ ﴾ [البقرة:١٩٦]؛ يعني: يحلق ويفدي، فدية مخيرة: صيام ثلاثة أيام، إطعام ستة مساكين، ذبح شاة يخير فيها.

هذا إذا كان فيه قمل-مثلًا-، فيه القمل الذي يمتص دمه ويتأذى منه؛ فيستفرغ من هذا الدم بالحَلْقِ، يحلق رأسه، رخص الله له ذلك وهو محرم، الذي ليس به أذى حرام عليه أن يحلق رأسه حتى يتحلل من إحرامه؛ لأن هذا من محظورات الإحرام، فهذا من حماية الله لهذا المسلم من الضار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما استفراغ المادة الفاسدة: فإنه -سبحانه- أباح للمُحْرِمِ الذي به أذى من رأسه أن يحلقه)، استفراغ: يعني يستفرغ من الشعر الذي يجتمع فيه القمل، يتخلص من القمل بهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذاكرتُ مرةً بعض رؤساء الطب بمصر بهذا)**، انتبهوا: هذا الطب عند ابن القيم، يوم أخبر به طبيبًا ماهرًا تحير الطبيب، يقول: هذه الفائدة لو سافرت إلى كذا وكذا أبحث عنها لم أجدها!

وإذا عُرف هذا فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوَّته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات؛ وإلى حِمية عن المؤذي الضارِّ، وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات؛ وإلى استفراغه من مادة فاسدة تعرض له، وذلك بالتوبة النصوح، واستغفار غافر الخطيئات.

ومرضه هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره للحق وإرادته له، فلايرى الحق حقًّا، أو يراه على خلاف ما هو عليه، أو ينقصُ إدراكه له، ويفسد به إرادته له، فيبغض الحق النافع، أو يحب الباطل الضارَّ، أو يجتمعان له وهو الغالب، ولهذا يُفسَّر المرض الذي يعرض له؛ تارةً بالشك والريب -كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة:١٠]، أي: شكٌّ[1]-، وتارةً بشهوة الزِّنى.

كما فُسِّر به قوله تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فالأول مرض الشبهة، والثاني مرض الشهوة. والصحة تُحْفَظ بالمثْل والشَّبه، والمرض يُدفع بالضد والخلاف، وهو يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، والصحة تُحفَظ بمثل سببها، وتضعف أو تزول بضده.

ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرضٌ؛ آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك، وهو يدفعه بقوَّته وصحته.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٨٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٤٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٧٩)، والدر المنثور (١/ ٧٦).

وبالجملة؛ فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وضعفت قوته، وترامى إلى التلف، ما لم يتدارك ذلك؛ بأن يحصل له ما يُقوِّي قوَّته، ويُزِيل مرضه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإذا عُرف هذا فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوَّته، وهو الإيمان وأوراد الطاعات)**، إذا كان الجسم يحتاج إلى ما يحفظ عليه صحته؛ فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه إيمانه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا يُفسَّر المرض الذي يعرض له؛ تارةً بالشك والريب)**، يعني الذي يعرض للقلب. يفسر المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالأول مرض الشبهة، والثاني مرض الشهوة)**، مرض الشهوة يعني شهوة الزنا؛ إذا سمِع خضوع المرأة بالقول، طمع فيها.

الله أمر المرأة عند خروجها بالاحتجاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾: يعني يعرفن بالعفة والدين.

﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]؛ لأن الفساق لا يتعرضون إلا لضعيفة الدين وضعيفة الإيمان، أما المؤمنة الصادقة فهم يبعدون عنها، لا يطعمون فيها.

فالحجاب فيه قطع لأطماع الفُسَّاق عنها، هذا الحجاب، وعدم الخضوع في القول فيه قطع لأطماع الذين في قلوبهم مرض، أمرها بالحجاب، وأمرها بعدم الخضوع بالقول.

أين هذا الآن؟! فالنساء والكلام والبحث والمزح والمغازلة حدث ولا حرج، وكأن الشهوة فُقدت من الرجال والنساء، وكأن الشيطان ليس موجودًا!

الباب الثالث

في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين: طبعية، وشرعية

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الباب الثالث في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين: طبعية، وشرعية)، سبق أن الشيخ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن القلوب تنقسم إلى ثلاثة أقسام حسَب ما ورد في الأحاديث:

قلب حي مستنير: وهو قلب المؤمن.

وقلب ميت: وهو قلب الكافر.

وقلب مريض، بيْن بيْن: وهو قلب المنافق أو المؤمن ضعيف الإيمان، ومرضه ينشأ من شيئين: فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات.

والقلب لا شك أنه عضو مهم، يجب العناية به؛ فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١). هذه قاعدة نبوية عظيمة من معجزاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجوامع كلمه.

فيجب على المسلم أن يهتم بقلبه أكثر مما يهتم بجسمه؛ فإن الإنسان إذا أصيب جسمه بمؤثر- بمرض- يذهب إلى المستشفيات والمستوصفات،

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

ويراجع الأطباء، وقد يسافر إلى الخارج، ولكن مرض القلب قلَّ من يعالجه ويهتم به!

وعلاجه بأمْرين:

الأمر الأول: الدعاء؛ كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١).

---

(١) رُوِيَ هذا الحديثُ عن عدد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ منهم: أنسٌ، وعائشة، وأم سلمة، والنَّوَّاس بن سَمْعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فأما حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخرجه الترمذي (٢١٤٠) وحسَّنه، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وأحمد (١٩/ ١٦٠)، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**».

وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أخرجه الإمام أحمد (١٥/ ٢٤٦) والنسائي في الكبرى (١٠٠٦٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَفَعَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا قَالَ: «**يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ**». وأخرج الإمام أحمد (٤٣/ ٢٣٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٤) و (٢٣٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ**». فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ -وفي لفظ: فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ-: إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ»؟ قَالَ: «**وَمَا يُؤْمِنِّي؟! وَإِنَّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ**». وأخرج أحمد (٤١/ ١٥١)، والنسائي في الكبرى (٧٦٩٠)، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: دَعَوَاتٌ كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَا: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَقَالَ: «**إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ**». =

فتقول له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في ذلك: هَلْ تَخْشَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَيَقُولُ: **«وَمَا يُؤَمِّنُنِي يَا عَائِشَةُ وَالقُلُوبُ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ -أو: يَقْلِبَ- قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ»**(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ -لما ذكر أهل الفتن وأهل الانحرافات-:

لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضًا مِثْلَهُمْ ... فَالقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ(٢)

تذكَّرْ هذا، وأكثر من الدعاء الذي كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو به لقلبه في تثبيته على الدين.

ولا يأمن الإنسان على قلبه من الفتن؛ فليتجنب مواطن الفتن، ويتجنب الاستماع للفتن التي تذاع وتنشر، واليوم كثرت وكثرت وسائلها؛ فليتجنبها محافظة على قلبه أن يزيغ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

= وحديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أخرجه الإمام أحمد (٤٤/ ١٣٨، ١٣٩) عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: **«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»**.

وحديث النَّوَّاسِ بن سَمْعانَ الكلابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، والنسائي في الكبرى (٧٦٩١) عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»**، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»**. قَالَ: **«وَالمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**.

وأخرج البخاري (٧٣٩١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: **«أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْلِفُ: لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»**.

(١) تقدم تخريجه في الحاشية السابقة.

(٢) انظر: نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص٢٠).

وهم أهملوا قلوبهم، اليهود أهملوا قلوبهم؛ تلقوا الشبهات فأزاغ الله قلوبهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥].

ولهذا يقول الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾: يزيغ الإنسان بعد الهداية، قد ينحرف بعد الإيمان؛ بسبب ما يتلقى من الشبهات، وبسبب ما يتعرض له من الشهوات، فيزيغ بسبب فعله، وعدم محافظته على نفسه وعلى قلبه؛ فليكثر من الدعاء.

والأمر الثاني مما يعالج به قلبه: تجنب الذنوب والمعاصي؛ فإنها تُمرِضُ القلب وقد تميته، فليتجنب الإنسان الذنوب والمعاصي ما استطاع، وإذا وقع منه شيء يبادر بالتوبة، وباب التوبة مفتوح.

العلاج عندك ميسور، لا تحتاج أن تذهب للصيدليات، مفتوح لك: تتوب إلى الله وتستغفر، والله جَلَّ وَعَلَا يشفي قلبك مما أصابه.

فليتجنب الإنسان المعاصي، وليحرص على ذلك، وإذا وقع فيه شيء منها فإن باب التوبة مفتوح الليل والنهار، أي ساعة تستغفر فالله يسمعك ويستجيب لك، فلا تهمل قلبك تتراكم عليه الذنوب والمعاصي ثم يعمى أو يمرض ويموت! اعتنِ بقلبك دائمًا وأبدًا.

والله جَلَّ وَعَلَا إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم؛ كما في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(١).

والقلوب إذا كانت صالحة صارت الأعمال صالحة، وإذا كانت القلوب فاسدة فسدت الأعمال؛ فعلى الإنسان أن يعتني بقلبه دائمًا وأبدًا.

(١) أخرجه مسلم (٣٤) (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مرض القلب نوعان:

نوع لا يتألَّم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم؛ كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات، وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم؛ وإلا فألمه حاضرٌ فيه، حاصلٌ له، وهو متوارٍ عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما، وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم؛ فهم أطبَّاء هذا المرض.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(نوع لا يتألَّم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم؛ كمرض الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات)**، هذا النوع الأول.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا يتألَّم به صاحبه في الحال)**، لكن في المستقبل يتأثر القلب ويتأثر ويتأثر حتى يفقد الحساسية ويصير ميتًا؛ لا يشعر بشيء، ولا يكره ولا يبغض ولا يحب ولا يشعر بشيء، يصير معطلًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كمرض الجهل)**، ومرض الجهل يعالج بالتعلم؛ تعلم العلم النافع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومرض الشبهات والشكوك)**، والشبهات والشكوك تزول بإذن الله بالتعلم، تعلم العلم النافع؛ فإن العلم النافع هو الذي يزيل الشبهات والشهوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم)**، إذا فسد القلب لا يحس بالألم؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»**(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا النوع هو أعظم النوعين ألمًا، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم)**، المراد بالألم: الألم المعنوي، الذي لا يتألم ويخشى ويخاف هو الذي مرض قلبه، أما المرض الحسي فهذا يعالج عند الأطباء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم)**، كون الإنسان جاهلًا لا يميز بين الطيب والخبيث، بين الصالح والطالح؛ هذا مرض، مثل المريض الذي لا يميز بين الطعام الطيب والطعام غير الطيب، هذا مريض مثله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولأن سَكْرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضرٌ فيه)**، سكرة الجهل وسكرة الهوى، هذا الهوى هو المصيبة، كون الإنسان يتابع ما يهوى ويحب ولو كان فيه سخط الله هذا مرض، مرض عضال، مرض خطير.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

فإذا أحب الإنسان هذه الأشياء، وقدَّمها على محبة الله، قدَّم ما تحبه نفسه وقلبه على ما يحبه الله؛ فهذا على خطر عظيم.

﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ يعني: انتظروا ما يحل بكم من العقوبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم؛ فهم أطبَّاء هذا المرض**)، علاج هذا المرض عند الرسل وأتباع الرسل من العلماء، يُرجع إليهم، ويُسألون، ويَتعلم المسلم عليهم، ليس علاج هذا عند الأطباء، أو عند الفلاسفة، أو عند علماء الكلام والجدل! لا، هذا يزيد المرض، ليس له علاج إلا عند الرسل وأتباع الرسل.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال؛ كالهمِّ والغمِّ والحَزَن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعة، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضادُّ تلك الأسباب؛ ويدفع مُوجَبها مع قيامها.

وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن؛ فكذلك البدن يتألم كثيرًا بما يتألم به القلب، ويُشقيه ما يُشقيه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال؛ كالهمِّ والغمِّ والحَزَن والغيظ)**، هذه نتيجة للمرض، الهم والغم والحزن والغيظ هذه نتيجة للنوع الأول.

فتجد المستقيم على طاعة الله مطمئنًا مرتاحًا، وتجد الواقع في المعاصي والمخالفات ضيقَ الصدر، منحشرًا، كثير الهموم والوساوس والهواجس، هذه نتيجة لمرض؛ مرض في قلبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن، ويشقى بما يشقى به البدن؛ فكذلك البدن يتألم كثيرًا بما يتألم به القلب، ويُشقيه ما يُشقيه)**؛ لأن الجسم هيكل واحد، «**إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[1].

فإذا كان فيه أوجاع فإن قلبه يتألم بها، وإذا كان في قلبه ألم فإن جسمه يتألم تبعًا؛ لأن الجسم شيء واحد بأعضائه.

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحْدَها شقاءه وعذابه بعد الموت.

وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية؛ فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادَّة لها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبعية من جنس أمراض البدن، وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت**)، يعني: كونه يمرض مرضًا حسيًّا، ويحتاج إلى علاج طبي، فهذا إنما أثره في الدنيا، وألمه في الدنيا، أما في الآخرة فإنه ينقطع هذا الألم بنهاية حياته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية؛ فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادَّة لها**)، والمضادة لها هي ما جاءت به الرسل وأتباع الرسل، ليست بالصيدليات التي عنده، لا، بل علاجها بالوحي المنزَّل على النبي المرسَل، هذا علاج القلوب المريضة.

فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء؛ ولهذا يقال: شفى غيظه، فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة:١٤-١٥]، **فأمرهم بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائدَ.**

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء؛ ولهذا يقال: شفى غيظه**)، شفى غيظه: هذه عبارة يقولونها: (فلان شفى غيظه)، شفاه بأي شيء؟ استعمل ما يضادُّها فزالت، فزال الغيظ، وهكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه**)، إذا ظلمه أحد وانتصف منه وأخذ مظلمته منه شُفِيَ قلبه من الألم والتحسر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال تعالى:** ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة:١٤، ١٥])، ذكر الله في هذه الآية فوائد الجهاد في سبيل الله:

﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ يعني: الكفارَ.

﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾: هذه واحدة. ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٤-١٥]. كل هذه فوائد الجهاد في سبيل الله:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذه واحدة.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ هذه الثانية.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الثالثة.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١٤-١٥]. الرابعة، والخامسة.

والأخيرة وهي المهمة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة:١٥] من الكفار، الكفار إذا جُهدوا تاب الله عليهم إذا أسلموا.

ولهذا في الحديث: «**عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الجَنَّةِ بِالسَّلَاسِلِ**»[1]، الكافر يؤسر في الحرب في السلاسل، ثم يسلم، ثم يدخل الجنة.

فلو تُرك الكفار لم يجاهَدوا هلكوا في كفرهم، لكن الجهاد فيه مصلحة لهم؛ فيه مصلحة للمسلمين، وفيه مصلحة للكفار أنفسهم.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة:١٥] يعني: من الكفار، كم تاب من الكفار وأسلم؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأمرهم بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ستَّ فوائدَ)**، ست، انتبهوا لها.

هذه الآية: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ...﴾ [التوبة:١٥] فيها بيان الحكمة من تشريع الجهاد في سبيل الله، وأنه ليس المراد به قتل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٧٧)، وأبو داود (٣٠١٠)، والإمام أحمد (١٣/ ٣٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

النفوس وسفك الدماء والاستيلاء على البلاد وأخذ الأموال، هذه توابع ليست هي المقصودة، هذه توابع، توابع للجهاد.

إنما المقصود تخليص من يريد الله نجاته من الكفار، تخليصه من الكفر والشرك، تخليصه من الجبابرة الذين يصدونه عن سبيل الله ويمنعونه من الدخول في الإسلام، هذا هو المقصود من الجهاد، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:١٢]؛ لأنهم يصدون عن سبيل الله.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإنْ شَفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطلٍ زاده مرضًا من حيث ظن أنه يشفيه.

وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضًا أُخر أصعب من مرض العشق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضْدَادِها من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصحَّ وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارَى ذلك واستتر ولم يَزُلْ، وأعقبه أمراضًا هي أصعب وأخطر.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضْدَادِها من الفرح والسرور)**، ولا يحصل الفرح والسرور إلا بذكر الله؛ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصحَّ وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارَى ذلك واستتر ولم يَزُلْ)**، بعض الناس إذا صار عنده هم ذهب إلى الملاهي والمزامير، يريد أن يروح عن نفسه، وهذا يزيده -والعياذ بالله- همًّ وغمًّا! أما لو ذهب للقرآن وسمِع القرآن والذكر؛ لزال عنه ما يجد بإذن الله.

بعض الناس إذا اشتد به الهم يقتل نفسه، ينتحر -والعياذ بالله-، يحسب أن هذا يخلصه! وهذا يزيده؛ لأنه إذا انتحر صار إلى النار -والعياذ بالله-، فأين تخلص؟! ما تخلص.

فلا علاج إلا بالصبر وذكر الله، والاستماع للقرآن والسنة، هذا هو العلاج، العلاج معك بين يديك، لكن بعض الناس أو كثير من الناس يحرم من هذا العلاج، ويذهب لأضداده؛ يذهب للأغاني، للمزامير، للمسارح... يظن أن هذا يرفه عن نفسه! هذا يزيده بلاءً، يزيده انتكاسًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإن كان بباطل توارَى ذلك واستتر ولم يَزُلْ)**، تواريها الملاهي والمعازف والمزامير، لكن إذا انتهى المجلس عادت إليه هذه الهموم والوساوس والأحزان، لا ينفعه ذلك، تتوارى فقط وقتًا ما.

أو أنه إذا اشتد به الكرب يشرب المسكرات والمخدِّرات، يريد أن تُذهب عنه هذا الهم! هذا يزيده بلاء، نعم يسكن عنه بعض الوقت، لكن آثاره فيما بعد تزيد عليه هذا البلاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعقبه أمراضًا هي أصعب وأخطر)**، انظر أصحاب المخدِّرات -والعياذ بالله- ماذا يحصل لهم من ضياع الأخلاق، وضياع الصحة، حتى يصبح الإنسان كأنه ثوبٌ خلَقٌ مُلقى على الأرض، يصير عالة على أهله حتى يموت! هذه المخدرات.

هو أخذها يريد أن يرفه عن نفسه، ويريد أن يذهب الهموم التي عنده! فليتنبه المسلم لهذا.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب، فمِن الناس مَن يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تَزيده مرضًا إلى مرضه؛ لكن اشتغل القلبُ بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة التي هي شرط في صحته وبُرْئه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب)، ليس هناك شك في هذا، الجهل الذي هو ضد العلم الشرعي هذا يمرض القلب، لا يشفي القلب إلا العلم، العلم الشرعي هو الذي يشفي القلب مما فيه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمِن الناس مَن يداويه بعلوم لا تنفع)، يداويه بعلوم غير القرآن: علم الفلسفة، علم السحر، العلوم المحرمة! هذه تزيده بلاءً ومرضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تَزيده مرضًا إلى مرضه)، ليس هناك شك.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «قَتَلُوهُ، قَتَلَهُمُ اللهُ! أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ»(١).

فجعل الجهل مرضًا، وشفاءه سؤالَ أهل العلم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم: «قَتَلُوهُ، قَتَلَهُمُ اللهُ! أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ»)**، في قصة صاحب الشجة الذي كان مع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في بعض الغزوات، فأصابه حجر على رأسه، فصار فيه شجة، ولما نام بالليل احتلم، وصار عليه غسل، فاستصعب أن يغسل رأسه؛ لأنه يدخل الماء في الشجة ويصبح خطرًا.

فسأل الصحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين معه: ماذا يعمل؟ قالوا: لا بد من غسل الرأس، لا بد أن تغسل رأسك. فغسل رأسه، ودخل الماء في الشجة، ومات الرجل بسبب هذه الفتوى!

وما أكثرَ الفتاوى التي تُهلك الناس اليوم!

فلما قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكروا ذلك له، غضِب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الفتوى، وقال: «**قَتَلُوهُ**» يعني: قتلوه بالفتوى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧)، وابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (٥/ ١٧٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٨٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٤٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه أبو داود (٣٣٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٤٧، ٣٤٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«**قَتَلَهُمُ اللهُ**»: هذا دعاء من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

«**أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ**»، هذا محل الشاهد: «**شِفَاءُ الْعِيِّ**»، وهو الجهل.

«**السُّؤَالُ**»: سؤال أهل العلم؛ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

بهذا يزول مرض الجهل؛ بسؤال أهل العلم، لا بسؤال المتعالمين والجهال الذين ليس عندهم علم.

الواجب على من يخاف الله أن يتوقف عن الفتوى إلا عند الضرورة، وبشرط أن يكون عنده علم في جواب هذه المسألة، وإلا يسكت، لا يزيد البلاء بلاء، والجهل جهلًا.

«**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَعْصِبَ -أَوْ يَعْضُدَ- عَلَى جُرْحِهِ**» يعني: شدة، ويمسح عليها.

فلو أنهم أجابوه بهذا أن يشد على الجرح بلصوق أو جَبِيرة ويمسح عليها. هذا من أدلة المسح على الجبيرة.

انظر الجواب العلمي السهل، هم ذهبوا للأصل: أنه لا بد يغسله، لم يقولوا: والله لا ندري، وتوقفوا، هذا هو الواجب، لكن عفا الله عنهم وغفر لهم، إنما هذه موعظة: أن الإنسان لا يدخل في الفتوى بدون علم.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (**فجعل الجهل مرضًا، وشفاءه سؤالَ أهل العلم**)، «**شِفَاءُ العِيِّ**» يعني: الجهل، جعله مرضًا؛ لأن الشفاء في مقابل المرض.

وكذلك الشاكُّ في الشيء المرتابُ فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارةً قيل لمن حصل له اليقين: ثَلَجَ صدره، وحصل له بَرْد اليقين. وكذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده، وينشرح بالهدى والعلم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك الشاكُّ في الشيء المرتابُ فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين)، المتردد في الشيء الذي لا يعرف أي الطرفين هو الصحيح، هذا يبقى في حيرة وألم حتى يعرف الطرف الصحيح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولما كان ذلك يوجب له حرارةً قيل لمن حصل له اليقين: ثَلَجَ صدره)، هذا جواب يثلج الصدر، ويثلج الصدور؛ لأنه بارد على القلب، إذا كان الجواب علميًّا صحيحًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رُشده)، الإنسان يضيق بسبب الجهل والضلال عن الطريق الصحيح، فيصبح هائمًا، وهيامه هذا يضيق صدره، ويخيفه، ويخاف من الهلاك ومن السباع.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه إن شاء الله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥])، هذه الآية من سورة الأنعام.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾؛ يوسع صدره.

﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾: يتقبل العلم، ويتقبل الدعوة إلى الله، ويتقبل الذِّكر.

﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾: يوسع لقبول الحق.

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾: يرد الله، هذه إرادة كونية.

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام:١٢٥] وفي قراءة: «حَرِجًا»؛ ينقبض، لا يسمع للعلم، ولا يتسع لسماع الذكر، ولا يتسع لسماع القرآن.

﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. قالوا -والله أعلم-: معناه: أن الذي يصعد في الجو يضيق صدره؛ لأن الهواء يصير عنده غير مريح، أو لقلة الأكسجين... يعرف هذا الذين يطيرون في الهواء، في الجو.

فشبَّه الله جَلَّوَعَلَا الذي يضيق صدره بالهدى والنور بالذي يصعد في السماء؛ يضيق صدره، ونفسه ينخنق حتى يكون عنده إسعافات أو أشياء تخفف عنه هذا الشيء.

وقيل: إن الآية بمعنى أن هذا مستحيل، كاستحالة أن يطير الإنسان في السماء، هذا من باب ضرب المستحيل؛ فالذي لا ينشرح صدره للإسلام هذا يستحيل أن يهتدي، وهذا هو الأقرب والله أعلم، هذا من باب ضرب المستحيل، يستحيل أن يطير الإنسان بنفسه في الهواء، الله لم يجعله طائرًا مثل الطيور، هم طاروا به في الطائرة، لكن لم يَطِرْ هو، بل طارت به الطائرة، أما أنه هو يطير بنفسه فهذا مستحيل، كذلك الذي لا ينشرح صدره بالهدى يستحيل أن يهتدي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه إن شاء الله)**، يعني في باب خاص.

والمقصود أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية، ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية، ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية)**، الأدوية على قسمان، «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً**»[1].

وهذا الدواء ينقسم إلى قسمين:

دواء معنوي: بالوحي والذكر والقرآن.

ودواء حسي: بالعقاقير والأدوية التي جعلها الله في النباتات، تستخلص منها، هذا طبيعي، الله ما أنزل داءً إلا أنزل له شفاءً، وأهم ذلك الشفاء المعنوي الذي هو الوحي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية)**، المرض المعنوي مرض القلب هذا لا يزول بالأدوية الطبيعية، إنما يزول بالأدوية الشرعية من الوحي المنزل.

وإلا فالأدوية الطبيعية ليس هذا مجالها، المرض العضوي يعالج بالأدوية الطبيعية، أما المرض المعنوي فهذا لا يعالجه إلا الوحي المنزل من السماء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٣٨)، وأحمد (٦/ ٥٠، ٧/ ٣٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لا يعالَج -كما ذكرنا- بالأغاني والمزامير والمسارح والنزهة وما أشبه ذلك! لا يعالج بهذا، أو بالمخدِّرات أو بالمسكرات أو حتى بالانتحار! لايعالج بهذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء)**، يعرض للقلب مثلما يعرض للبدن؛ يعرض للقلب حياة وموت، ومرض وشفاء مثلما يعرض للبدن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذلك أعظم مما للبدن)**، يعني: مرض القلب هو أعظم مرض في البدن، أعظم من المرض الحسي الذي يكون في الأعضاء.

الباب الرابع

في أن حياة القلب وإشراقه مادَّةُ كل خير فيه، وموتَه وظلمتَه مادةُ كل شر فيه

أصلُ كلِّ خيرٍ وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره، فالحياة والنور مادة الخير كله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادَّةُ كل خير فيه)، القلب ينقسم إلى قسمين: حي مشرق، وميت مظلم.

الحي المشرق: هو قلب المؤمن؛ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

كان ميتًا، هذا كان على الكفر، ثم هداه الله فآمن، فحيا قلبه بالإيمان، واستنار بنور الوحي، وصار يمشي في الناس على نور؛ نور الوحي.

وأما قلب الكافر فهو ميت، وما دام أنه لم يؤمن فإنه في ظلمة الكفر، ولا يخرج من هذه الظلمة إلا بالإيمان.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: ليست ظلمة واحدة، ظلمات -والعياذ بالله-، بعضها فوق بعض. ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾: ما دام أنه لم يؤمن فليس بخارج من الظلمات.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وموته وظلمته مادةُ كل شر فيه)**، فإذا مات القلب وأظلم فإنه في الشرور والظلمات، أما إذا حيي وأشرق فإنه يكون على خير في حياته ومسيره إلى الله على برهان وعلى حق، ويكون مطمئنًا بالإيمان.

أما قلب الكافر فهو قلب مظلم مضطرب، لا يكاد يهتدي إلى حق، فهو من ظلمة إلى ظلمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أصلُ كلِّ خيرٍ وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره)**، كل حي ناطق؛ لأن الأحياء على قسمين: حي ناطق وهو الإنسان، وحي غير ناطق وهو الحيوان وسائر الأحياء التي لا تنطق.

والإنسان يسمى حيوانًا، الحيوان هذا يشترك فيه الإنسان والدواب وكل شيء حيوان، لكن الإنسان يكون ناطقًا، وغيره لا يكون ناطقًا، بل يكون أعجميًّا أو أعجم.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور.

فبالحياة تكون قوَّتُه، وسمعه، وبصره، وحياؤه، وعِفَّته، وشجاعته، وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح.

فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعُفتْ حياته ضعفت فيه هذه الصفات.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢])، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾: يعني صفته، المثل المراد به: الصفة.

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ أي: صفته أنه في الظلمات.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾: إلا بالإيمان، ما دام ليس عنده إيمان فليس بخارج من الظلمات مهما كان، لو كان مثقفًا ومتعلمًا ومخترعًا وعنده الشهادات العليا وعنده الإدراكات الدنيوية فهو في ظلمات، الكفار كلهم في ظلمات، كل الكفار من كتابيين وغير كتابيين في ظلمات، وأما أهل الإيمان فإنهم في نور وحياة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور)، هذا قلب المؤمن يجمع بين الصفتين: أنه حي، وأنه مستنير بنور الإيمان.

والآن دعاة الضلال يسمون الكفر والخروج من الإسلام: فكرًا مستنير! فلان مستنير، متنور!

وهذا عكس الحق، هذا ليس مستنيرًا، هذا مظلم، مهما سموه هو مظلم، ما دام أنه ليس على إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ فهو مظلم مهما بلغ من الثقافات، ومهما بلغ من المعلومات فإنه مظلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبالحياة تكون قوَّتُه، وسمعه، وبصره، وحياؤه، وعِفَّته، وشجاعته، وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة)**، القلب الحي يسمع ويبصر، ويعقل ويفكر ويهتدي، هذا نتيجة لحياته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبالحياة تكون قوَّتُه، وسمعه، وبصره، وحياؤه، وعِفَّته)**، القلب يبصر، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦].

فالعمى على قسمين: عمى القلب، وعمى البصر.

عمى البصر لا يضر، إنما الذي يضر عمى القلب، وكم من أعمى بصرٍ ولكنه من أولياء الله، ومن العلماء الراسخين.

ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في آخر حياته صار أعمى، ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا صار أعمى في آخر حياته، ابن أم مكتوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كل حياته وهو أعمى، لكنه مبصر القلب.

﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ**﴾ [الحج:٤٦] هي تعمى من حيث عدمُ الرؤية للأشياء، ولكنها لا تعمى من حيث البصيرةُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح)**، يميز بين الحسن والقبيح؛ لأنه حي، فيه حياة، أما الأعمى فلا يميز بين الحسن والقبيح، بل ربما يظن أن القبيح هو الحسن، والحسن هو القبيح، منتكس!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعُفتْ حياته ضعفت فيه هذه الصفات)**، كلما قويت حياة القلب قويت فيه هذه الصفاتُ العظيمة، وكلما ضعُفتْ ضعفت هذه الصفات، وإذا فُقدت الحياة فقدت هذه الصفات.

وحياؤه من القبائح هو بحسَب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عُرضت عليه القبائح؛ نَفَر منها بطبعه، وأبغضها، ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت؛ فإنه لا يفرِّق بين الحسن والقبيح.

كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: «هَلَكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ المَعْرُوفَ وَالمُنْكَرَ»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وحياؤه من القبائح هو بحسَب حياته في نفسه)، الحياء من الإيمان؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٢)، وهو الذي يكف صاحبه عما لا يليق.

الحياء الذي هو شعبة من الإيمان هو الذي يكف صاحبه عن القبائح والرذائل، فيستحي، هذا هو الحياء المحمود.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالقلب الصحيح الحي إذا عُرضت عليه القبائح؛ نَفَر منها بطبعه، وأبغضها)، واستحيا من أن يتصف بها، أو أن يخالط من يتصف بها، ينفر منها، يستحي أمام الله وأمام الخلق من هذه الأشياء.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٠٤)، والطبري في التفسير (٢٢/ ٤١٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٠٧) برقمي (٨٥٦٤، ٨٥٦٥)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٣٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٧١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٥): (رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ففي الحديث: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[1].

فالحياء هو الذي يكف الإنسان عن الرذائل، ويحثه على الفضائل؛ ولهذا صار شعبة من الإيمان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: «هَلَكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ المَعْرُوفَ وَالمُنْكَرَ»)**، هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف، ويعرف به المنكر، فالذي لا يميز بين المعروف والمنكر هذا هالك، ميت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن ماجه (٤١٨٣)، وأحمد (٢٨/ ٣١٩، ٣٢٥) و(٣٧/ ٣٣، ٣٤) من حديث أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**».

وكذلك القلبُ المريضُ بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرِض له من ذلك؛ بحسَب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حُسْنَ الحَسَن بنوره، وآثَرَهُ بحياته، وكذلك قُبْحُ القبيح.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك القلبُ المريضُ بالشهوة؛ فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرِض له من ذلك)، هذا القلب الميت.

هناك قلب مريض، هذا -كما سبق- بحسَب ما يغلب عليه: إن غلب عليه الخير صار حيًّا، وإن غلب عليه الشر صار ميتًا؛ على حسَب ما يغلب عليه من الخير والشر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرِض له من ذلك؛ بحسَب قوة المرض وضعفه)، إذا عرضت له شهوة -شهوة فرج أو شهوة بطن محرمة- فإن كان غلب عليه الإيمان والحياة فإنه يترك هذه الأمور، وإن غلب عليه العكس -غلب عليه المرض وقلة الحياء- فإنه يقع في الشهوات المحرمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حُسْنَ الحَسَن بنوره، وَآثَرَهُ بحياته، وكذلك قُبْحُ القبيح)، فكما أنه ينفر من القبيح بحياته فإنه أيضًا يكون

عنده نور يميز به بين الحسن والقبيح، والطيب والخبيث، يكون عنده نور يميز به.

الإنسان الذي ليس عنده نور لا يرى الذي أمامه، يقع في الحفر، يقع في الآبار، يقع في المهالك، لا يرى، ليس معه نور.

وليس المراد النور الحسي، المراد: النور المعنوي؛ نور الإيمان: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور:٣٥]، هذا مثل قلب المؤمن، شبهه الله بهذه المشكاة، فهو يدرك بنور قلبه، يدرك ما أمامه من الأخطار فيتجنبها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه)؛ لأن النور يكشفها ويبينها، مثل الذي معه مصباح، معه كهرباء؛ يرى الحفر التي أمامه، يرى المخاطر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاستبان حُسْنَ الحَسَن بنوره، وَآثَرَهُ بحياته، وكذلك قُبْحُ القبيح)، يعرف قبح القبيح، يعرفه بحياته ونوره.

وقد ذكر سبحانه هذين الأصلين في مواضعَ من كتابه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق.

وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد ذكر سبحانه هذين الأصلين في مواضعَ من كتابه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢])**، فوصف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ القرآن بوصفين: روح، ونور؛ هو روح يعني فيه حياة القلب، وهو نور يعني فيه إدراك القلب للحسن والقبيح.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا﴾: روحًا للقلب.

﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾: من وحينا.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾: قبل البعثة لم يكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يعرف تفاصيل الإيمان، وتفصيل الحلال والحرام، هو عنده الفطرة السليمة، وعنده التوجه الطيب، ويتعبد لله عَزَّ وَجَلَّ، وينفر من آلهة المشركين، لكن التفاصيل لم تنزل عليه؛ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء:١١٣].

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ أي أوَمَنْ كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمة الجهل، فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقًا مستنيرًا بعد ظلمته؟!

فجعل الكافر -لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه، وتركِه الأخذَ بنصيبه من رضاه، والعملَ بما يؤديه إلى نجاته وسعادته- بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام ونَعَشْناه به؛ فصار يعرف مضارَّ نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سَدَف الظلام، كما قيل[1]:

لَيْلِي بِوَجْهِك مُشْرِقٌ ... وَظَلامُهُ فِي النَّاسِ سَارِي
النَّاسُ فِي سَدَفِ الظَّلَامِ ... وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

ولهذا يضرب الله سبحانه المثلَين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢])، كما سبق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجعل الكافر -لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته

---

(١) أورده أبو الطيب الوشاء في الظرف والظرفاء (ص٢٢٦).

وتوحيده وشرائع دينه، وتركِه الأخذَ بنصيبه من رضاه، والعملَ بما يؤديه إلى نجاته وسعادته- بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه)، فالكفر موت، موت معنوي للقلب، وفقدُ الحياة موت حسي للبدن.

الموت موتان:

موت حيواني: وهو موت البدن.

وموت معنوي: وهو موت القلب.

قد يكون الإنسان حيًّا حياة حيوانية، وقوي، لكن قلبه ميت، قلبه في صدره ميت، وهو قلب الكافر، الكافر متعافي ومتنعم وعنده أبهة، لكن قلبه ميت، ليس عنده نور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سَدَف الظلام)، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾** [الأنعام:١٢٢]، يمشي بين الناس على نور، فيما يأتي وفيما يذهب، على نور.

أما الكافر فهو يمشي في ظلمات؛ لا يفرق بين الطيب والخبيث، ولا بين الحسن والقبيح، ولا بين الكفر والإيمان؛ لأن قلبه ميت، المدار على القلب إذا كان حيًّا أو كان ميتًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قيل:**

لَيْلِي بِوَجْهِك مُشْرِقٌ ... وَظَلامُهُ في النَّاسِ سَارِي

النَّاسُ في سَدَفِ الظَّلامِ ... وَنَحْنُ في ضَوْءِ النَّهَارِ)،

هذا كلام المؤمن، الناس في الظلمة، وهو في النور في ضوء النهار، وهؤلاء في ظلمة الليل لم تذهب عنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا يضرب الله سبحانه المثلَين: المائيَّ والناريَّ لوحيه ولعباده)**، يضرب الله المثلين في سورة البقرة، وفي سورة الرعد: المائي، والناري.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، هذا الناري. ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، هذا المنافق. ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة:١٧].

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:١٩]، هذا المثل المائي.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩]. فهذا مثل ناري، ومثل مائي للمنافق.

أما الأول فكما قال سبحانه في سورة الرعد: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أما الأول فكما قال سبحانه في سورة الرعد**)، هذا المثل المائي، شبه الوحي بالماء الذي ينزل من السماء، تتلقفه الأودية.

والأودية تختلف؛ منها أودية كِبَارٌ، تأخذ من السيل ماءً كثيرًا، ومنها أودية صغار تأخذ بقدرها، جداول أو شِعاب تأخذ بقدرها.

الناس كذلك؛ منهم مَن عنده قلب كبير يستوعب علمًا غزيرًا، وفقهًا كثيرًا، ومنهم من يستوعب ماء قليلًا، يصير عنده علم لكنه قليل؛ حسَبَ ما يؤتيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الفَهم والمعرفة لكتابه.

الناس يختلفون مع القرآن، فليسوا في العلم على حد سواء، مثل الأودية؛ ليست على حد سواء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أما الأول**)، وهو المائي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فكما قال سبحانه في سورة الرعد**: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾) هذا المثل الناري.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾: الذهب، الذهب إذا أرادوا أن يختبروه ويذهب ما عليه من الغش ومن الصدأ فإنه يُعرض على النار، فالنار تجلوه؛ تذهب ما عليه من الغش ومن الصدأ، ويصبح خالصًا، يصبح ذهبًا خالصًا.

كذلك الوحي يعمل في القلوب هكذا، فإذا جاءها فإنه يجلوها ويُذهِبُ ما فيها من الشكوك والريب، وتصبح قلوبًا خالصة نقية.

والمائي يحمل، كما أن النار تجلو الصدأ وتجلو الغش من الذهب؛ كذلك الماء يأتي على الأرض وعليها غثاء وعليها أوساخ وعليها مخلفات، فيأتي الوادي فيحمل هذه الأشياء، وينظف الأرض من الأوساخ التي كانت تغطيها، وتصبح الأرض طاهرة نقية بالسيل الذي مر عليها.

كذلك الوحي إذا مر على القلوب وآمنت به أزال ما عليها من الشكوك والريب والأوهام، إلى غير ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾)، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾: من أين يأتي هذا الزبد؟ هذا يأخذه من الأرض، يزيله مما على الأرض من الأوساخ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾)، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾: حلية للنساء، إذا أرادوا أن يختبروا الذهب: هل هو مغشوش أو ليس مغشوشًا، عرضوه على النار، فبينت ما فيه من غش.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾) يكون على الذهب زبد مثل الزبد الذي على الماء سواء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾)، فالباطل هو الزبد الذي يختلعه الوحي، هو الزبد، والحق هو الذهب الخالص الذي يخلص التربة الخالصة التي تطهر بنور الوحي.

فكما أن الماء يطهر الأرض، فإن الوحي يطهر القلوب كما يطهرها الماء، وكما تطهر النار الذهب والحديد الذي يعرض عليها تصقلها تمامًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾)، هذا فن من فنون القرآن: الأمثال، أمثال القرآن أُلِّفَتْ فيها مؤلفات، وهذا من علوم القرآن.

من علوم القرآن ما ضرب الله فيه من الأمثال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ويوجد كتب أُلِّفت في أمثال القرآن وشرحها، ولابن القيم المصنِّف هذا الذي معنا له كلام طويل على أمثال القرآن في «إعلام الموقعين»، كلام طويل على الأمثال، أفرده بعضهم من «الإعلام» وجعله كتابًا مستقلًا، كلام عجيب في أمثال القرآن وما تحتها من الحِكَم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ من الناس ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]. أما غير العالمين فإنهم لايدركون ما فيه، يقرؤونها فقط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾) الزبد يذهب جفاءً، يطير ويتلاشى.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾: من هذا السيل.

﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧]. تمتلئ الآبار، وتسير الينابيع والأنهار من هذا الماء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد:١٧])، ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾: للبيان، لبيان الحق والباطل، وبيان ما في القرآن والوحي من بيان الحق وبيان الباطل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق)**، وتطهير الأشياء التي تعرض عليها، وتمتحن بها.

وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبيرٌ يسع ماءً كثيرًا، ووادٍ صغيرٌ يسع ماءً قليلًا.

كذلك القلوب مُشبّهة بالأودية؛ فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فوادٍ كبيرٌ يسع ماءً كثيرًا)**، مثل قلب العالم المتبحر هذا وادٍ كبير، وادٍ مثل قلب المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا وادٍ كبير، قلب شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ هذا وادٍ كبير، هذا مثل لقلب العالم المتبحر المتفقه في دين الله.

كل الناس سمِعوا القرآن، لكن يختلفون؛ أحدهم لا يدرك شيئًا، أحدهم يدرك ماء قليلًا قليلًا، أحد يدرك مياهًا ومخازن ومخابئ وينابيع وأنهار: ﴿يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة:٧٤]؛ أنهار العلوم، وأنهار الإدراك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كذلك القلوب مُشبّهة بالأودية؛ فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا)**، علمًا كثيرًا غزيرًا، مثل قلوب الراسخين في العلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقلب صغير إنما يسع بقدره)**، يعني قليلًا، ويقف فيما بعد، وييبس.

وشبَّه ما تحتمله القلوب من الشبهات والشهوات - بسبب مخالطة الوحي لها، وإثارتِه لما فيها من ذلك - بما يحتمله السيل من الزبد.

وشبَّه بطلان تلك الشبهات -باستقرار العلم النافع فيها- بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقرُّ فيه الماء الذي به النفع.

وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخَبَثُ الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وشبَّه بطلان تلك الشبهات -باستقرار العلم النافع فيها- بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له)، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧]، كذلك العلم يمكث في القلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخَبَثُ الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صَفْوه)، الذهب يصير عليه غش، ويصير عليه صدأ، ويصير عليه تراب، فإذا عُرض على النار انصقل، وصار ذهبًا خالصًا.

كذلك الوحي مع القلوب؛ يصفيها ويطهرها حتى تصبح خالصة ذهبت منها الشبهات والشكوك والأوهام.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد؛ فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧-١٨]، فهذا المثل الناري.

ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة:١٩]، فهذا المثل المائي.

وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين، وبعض ما تَضَمَّنَاهُ من الحكم في كتاب «المعالم» وغيره.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما ضرب هذين المثلين للعباد؛ فكما قال في سورة البقرة)، هذا الموضع الثاني لهذين المثلين: المائي، والناري.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾)، ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: المنافقين، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧]، فالمنافقون دخلوا في الإيمان تقليدًا للمؤمنين.

﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾: هو ليس في قلبه إيمان أصلًا، لكنه حاكى وشابه المؤمنين، فالإيمان الذي معه ليس أصليًّا، إنما هو مستعار؛ لأنه يريد فقط أن يعيش معهم، ويمشي معهم، ويندرج فيهم، هذا قصده؛ ولهذا في القبر يقول: «هَاهْ هَاهْ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا، فَقُلْتُهُ»[1].

---

(١) كما في حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي أخرجه البخاري (٨٦، ١٨٤)، =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكما قال في سورة البقرة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾)، ما رأيكم بإنسان في ظلمات الليل وعنده نار يستدفئ بها ويستضيء بها، ثم انطفأت؟!

هذا مثل المنافق، ينطفئ هذا الإيمان الذي هو مستعيره، يذهب عند أدنى عارض، فيبقى في ظلمات؛ لأنه لم يدخل في قلبه، ولا استنارت به بصيرته، إنما هو مستعار لمصلحة دنيوية، فهذا يذهب، لا يستقر في القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾)، هذا المثل الناري.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٧، ١٨])، هذا المنافق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾)، الصَّيِّب يعني: المطر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين، وبعض ما تَضَمَّنَاهُ من الحكم في كتاب «المعالم» وغيره)، الذي هو «إعلام الموقعين».

=ومسلم (٩٠٥). وكما في حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، الذي أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد (٣٠/ ٥٧٦)، والحاكم (١/ ٩٣).

والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٦٩-٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حيُّ القلب.

كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الرسول من العلم والإيمان، فعلم أن موت القلب وهلاكه بِفَقْدِ ذلك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين)**؛ حياة القلب، ونوره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٦٩-٧٠]، فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حيُّ القلب)**، ﴿كَانَ حَيًّا﴾ يعني: حي القلب، ليس حي البدن.

قد يكون الرجل ما شاء الله بدنه متعافى وقوي، لكن لا ينتفع بالقرآن، إنما ينتفع بالقرآن من كان قلبه حيًّا؛ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠]، يعني: حي القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما قال في موضع آخر:** ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق:٣٧])، ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾: هل هناك أحد ليس له قلب حيواني؟ كل الناس لهم قلوب حيوانية جسمية.

لكن الكلام على الذي له قلب وبصيرة ومعرفة، هذا هو القلب الصحيح.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]، حاضر القلب، وحاضر الذهن، ليس غافلًا.

﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾: أيضًا يستمع، ليس سامعًا؛ فرق بين السامع والمستمع: السامع هذا يأتيه الصوت يسمعه، الحيوانات تسمع أيضًا. لكن هو ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾، يعني: استمع، استمع للقرآن؛ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

والمراد بهذا ليس التلذذ بالصوت أو بالترتيل، أو ما شاء الله فلان صوته حسن، هذا لا يكفي، لا بد من فَهم القرآن والعمل به، والخشوع عند تلاوته، وتأثر القلب به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤])، الآية أصلها في الجهاد.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ للجهاد؛ لأن الجهاد في سبيل الله حياة؛ وترك الجهاد موت؛ ولكن الآية عامة، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، فالقرآن يحيي حياةً عامَّة، يحيي القلب، يحيي العلم والبصيرة، ويحيي الذاكرة... إلى غير ذلك.

وشبَّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه؛ فإن أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

ولقد أحسن القائل[(١)]:

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وشبَّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه؛ فإن أبدانهم قبور لقلوبهم)، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]، يعني من قلوبهم ميتة في أجسامهم، أجسامهم قبور لقلوبهم؛ لا تنفع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا من أحسن التشبيه؛ فإن أبدانهم قبور لقلوبهم)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]. يعني: الذين لا يلتفتون للقرآن والإيمان هؤلاء أموات قلوب، قلوبهم ميتة، وإن كانت أبدانهم حية قوية.

---

(١) أورد البيتين شهاب الدين الدلجي في الفلاكة والمفلوكون (ص١٤١)، دون نسبة لقائلهما.
وفي أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٣٧): (...أنشدت لبعض أهل هذا العصر:

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وَإِنِ امْرَأً لَمْ يَحْيَ بِالعِلْمِ مَيِّتٌ ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولقد أحسن القائل:**

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ)،

ليس لهم من بعث، أموات إلى يوم القيامة، يبعثهم الله يوم القيامة، أما في الدنيا فلا تنبعث قلوبهم وتحيا بعد موتها.

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يُلقيه إلى الأنبياء روحًا، كما قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥] **في موضعين من كتابه، وقال تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]؛ **لأن حياة الأرواح والقلوب به.**

وهذه الحياة الطيبة التي خصَّ بها سبحانه مَن قَبِلَ وحيه، وعَمِل به، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، **فخصَّهم سبحانه بالحياة الطيبة في الدارين.**

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما قال تعالى:** ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾)، ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾، يعني: الوحي.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، يعني: من شرعه.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**في موضعين من كتابه**)، في سورة النحل، وفي سورة الزخرف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقال:** ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧])، هذه السعادة، الناس يبحثون عن السعادة، فأين توجد؟ توجد

بالمال؟ لا، توجد بالملذات والشهوات؟ لا، توجد بطول العمر؟ لا، توجد بصحة البدن؟ لا، أين توجد إذَن؟

إنما توجد في الأعمال الصالحة؛ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]. هذا في الدنيا.

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ يعني: في الآخرة ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

هذه الحياة الطيبة، وهي حياة العلم والعمل؛ العلم النافع، والعمل الصالح، هذه الحياة.

والعمل لا يكون صالحًا إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله من الشرك.

والشرط الثاني: أن يكون صوابًا على سنة رسول الله، خاليًا من البدع.

فلا بد من هذين الشرطين حتى يكون العمل صالحًا مقبولًا عند الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال:** ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ **[النحل:٩٧])**، ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، بعض الناس يعمل وهو ليس مؤمنًا، فالمنافقون يُصَلُّون ويتصدقون ويحجون ويعتمرون، لكن ليس عندهم إيمان، فلا بد مع العمل من الإيمان.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤١-٤٢]، ومثله قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣])، ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم﴾ هذه النتيجة: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ [هود:٣]، مثل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧]. متاع حسن، أو حياة طيبة، المعنى واحد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤١]). أيضًا من الحياة السعيدة الهجرة، بعد الجهاد: الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام؛ فرارًا بالإيمان، وليس طلبًا للسكنى الحسنة أو الدنيا والتجارة، لا، بل فرارًا بالدين، ولو ليس أمامه إلا الفقر والحاجة، لكن يفر بدينه من بلاد مزدهرة لكنها كافرة، متوفر فيها كل شيء لكنها كافرة.

فيهاجر بدينه إلى أرض قد تكون أقلَّ حياة وأقل رزقًا، لكن يريد النجاة بدينه وسلامة دينه، لا يبحث عن الدنيا، يبحث عن سلامة دينه، هذا هو الذي يبحث عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومثله قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾)، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [النحل:٤١]: ظلمهم المشركون وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ليس معهم شيء، جاؤوا إلى المدينة، فيها إخوانهم الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فواسوهم واستقبلوهم وأكرموهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، لكن هم ليس معهم شيء.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، ثم أثنى على الأنصار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، ثم ذكر التابعين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

أما الذي يبغض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ويلعنهم ويسبهم ويشتمهم فهذا في قلبه غلٌّ عليهم -والعياذ بالله-! والتابعون الحقيقيون يقولون: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾)، عوَّضهم الله بلادًا خيرًا من بلادهم، وأعطاهم الأموال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ ﴾)، أي: الذي في الآخرة أكبر مما أعطاهم في الدنيا، وهو الجنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٤١-٤٢])، هذا السبب ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾، الذين صبروا على ماذا؟ لا يصبرون إلا على شيء شاقٍّ؛ ترك البلاد، وترك الأولاد والأموال، والغربة، صبروا على ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٤٢])، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٤٢]: يتوكلون على الله أن الله سيعوضهم خيرًا مما تركوه وفقدوه، وكان كما ظنوا بالله عَزَّوَجَلَّ عوَّضهم الله خيرًا مما تركوه في مكة.

وكذلك غيرهم من المهاجرين في كل زمان ومكان إذا صدقوا صارت هجرتهم هجرة صحيحة، فإن الله يعوضهم خيرًا مما تركوا، لكن بعد الصبر على المشقة وشظف العيش.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠])، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ ﴾ أن الله يحسن إليهم في الدنيا.

﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾؛ ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف:٥٧].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل:٣٠].

فجزاء الإحسانِ: الإحسانُ.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ [النحل:٣٠]، هم أحسنوا؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يحسن إليهم.

فبيَّن سبحانه أنه يُسعِد المحسنَ بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يُشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤].

وقال تعالى وجمع بين النوعين؛ فقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فأهل الهدى والإيمان لهم شَرْحُ الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور.

وسيأتي في باب طهارة القلب مزيدُ تقريرٍ لهذا إن شاء الله.

والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤])، في الدنيا في عيشة ضنك، حتى ولو كان عنده أموال.

ليس الكلام على الأموال وعلى الثروة، الكلام على راحة القلب، بعض الناس يصير عنده أرصدة وأموال طائلة، لكن قلبه - والعياذ بالله - في ضغط وفي ضيق وفي هم وغم وحزن، ولا ينبسط، الراحة راحة القلب، ليست راحة البدن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى:** ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤]**)**، جزاءً له كما عميَ عن القرآن في الدنيا يُعمي الله بصره في الدار الآخرة؛ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى وجمع بين النوعين؛ فقال:** ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥]**)**، سبق ذكر هذه الآية والكلام عليها.

الباب الخامس

في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مُدركًا للحقِّ مريدًا له، مُؤْثِرًا له على غيره

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مُدركًا للحقِّ مريدًا له، مُؤْثِرًا له على غيره)**، لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فيما سبق- أن القلب يكون حيًّا ويكون ميتًا ويكون مريضًا؛ بيَّن هذا الأشياء التي تحصل بها حياة القلب ذلك؛ لأن القلب هو المضغة التي أخبر عنها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً»** يعني: قطعة لحم **«إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**(١).

وصلاح القلب وحياة القلب لا تصلح بدون سبب؛ لا بد من أسباب يقوم بها العبد لتحيي قلبه، وأعظم الأسباب: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٦٩، ٧٠].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

كل الناس أحياء بأجسامهم، إنما المراد هنا حياة القلب؛ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

فالمدار ليس على حياة الأبدان، فكم ممن هو قوي الجسم، متكامل الأعضاء، متكامل الصحة ولكن قلبه ميت! فهو ينقل قلبًا ميتًا؛ فلا فائدة حينئذ من حياة الجسم بدون حياة القلب.

وكم من إنسان ضعيف الجسم، ويعتريه أمراض وأسقام، أو يكون فاقد الحركة في جسمه ولكنه حي القلب بذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨].

وذكر الله يشمل الذكر باللسان، والذكر بالعمل والصلاة والصيام والعبادات، ويشمل الذكر باللسان وتلاوة القرآن، وسماع المواعظ والأذكار، كل هذه تحيي القلوب، وأما الشهوات وسماع الأغاني والمزامير والملاهي فهذه تميت القلوب.

فكما أن ذكر الله تطمئن به القلوب، كذلك الغفلة عن ذكر الله، والشهوات، والإغراق فيها وفي والمآكل والمشارب والمطاعم واللهو واللعب والأغاني والمزامير والملاهي والمناظر القبيحة تميت القلب.

والنظر مسموم من سهام إبليس، «**سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ**»(١)، إذا أطلقه في النظر إلى الفتن وإلى المفاتن فهو بذلك يمرض قلبه، ويصيب

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٧٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والحاكم (٤/ ٣٤٩) من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قلبه، فأنت الذي تسعى في حياة قلبك، أو تسعى في موته، فتنبه لذلك، واعتنِ بقلبك وما يدخل إليه؛ لأنه هو الذي إذا صلح صلح الجسد، وإذا فسد فسد الجسد كله، هذا الحديث من جوامع الكَلِم التي أوتيها رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعليك أن تنتبه لذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مُدركًا للحقِّ)**، لا تحصل عفويًّا بدون سبب، يكون مدركًا للحق، عاملًا به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مريدًا له)**، أما الذي لا يريد الحق، وإنما يريد الباطل، فإذا سمِع الحق أعرض عنه، وإذا سمع الباطل أقبل عليه؛ فهذا هو الذي يجني على قلبه.

أما أهل الإيمان فإنهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥].

يعتنون بقلوبهم، فلا يُسمعونها إلا ما يحيها، ولا يأكلون ويشربون إلا مما يقويها، ودائمًا هم مع قلوبهم، أنت كما تلاحظ صحتك وتطلب الشفاء لجسمك والأدوية هم إنما يعتنون بقلوبهم.

والقلوب لها صيدليات، اذهب إليها، خذ منها الأدوية: صيدلية القرآن، صيدلية الذكر، صيدلية الأعمال الصالحة، خذ دواء لقلبك مثلما تذهب للصيدلية تأخذ أدوية لجسمك، فلا تعتنِ بجسمك وتهمل قلبك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مُدركًا للحقِّ مريدًا له، مُؤثِرًا له على غيره)، لا بد أن** يكون عنده إرادة للحق، وإلا فبعض الناس لا يريد الحق، وإنما يريد الباطل؛ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٦]، **فهم يؤْثِرون** الباطل على الحق! وأكثر الناس هكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مُدركًا للحقِّ، مريدًا له)**، أول شيء: يكون مدركًا للحق، يعرف ما هو الحق، وما هو الباطل، وإلا حتى لو كان يريد الحق وهو لا يعرفه فلا يستفيد شيئًا، قد يرى أن بعض الأشياء حق وهي باطل!

ثانيًا: يكون (مريدًا له)، بعض الناس يعرف الحق، لكنه لا يريده، هذه مصيبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مُؤْثِرًا له على غيره)**، فهذه ثلاث صفات: مدركًا للحق، مريدًا له، مؤثرًا له على غيره من الباطل.

لما كان في القلب قوَّتان: قوة العلم والتميز، وقوة الإرادة والحب كان كماله وصلاحه باستعماله هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود بصلاحه وسعادته.

فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، واستعمالِ قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضالٌّ، ومن عرفه وآثر غيرَه عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ومعرفته)، لابد من إدراك العلم الشرعي، وتعلم العلم الشرعي الذي تميز به بين الحق والباطل، لأن الجاهل لا يدري ما هو الحق وما هو الباطل؛ فيلتبس عليه، وقد يظن الباطل حقًّا، ويقلد الناس، ويمشي مع الناس، أما صاحب البصيرة وصاحب العلم فلا؛ هذا يتبع الحق، سواء كان الناس عليه أو كانوا على خلافه، لا يهمه الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والتمييز بينه وبين الباطل، واستعمالِ قوة الإرادة والمحبة)، كذلك الإرادة، كم من عالم لا يريد الحق، إنما يريد الباطل! وهم علماء الضلال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واستعمالِ قوة الإرادة والمحبة)، كذلك يكون مريدًا للحق، لا يكون مريدًا للباطل، أو يتساوى عنده هذا وهذا!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واستعمالِ قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل)**، إذا أحب الإنسان شيئًا طلبه؛ فإذا أحب الحق طلبه وتابعه ورغب فيه، وإذا أحب الباطل تبعه وطلبه وأفنى حياته فيه. فالمحبة، والعلم، والإرادة... لابد من هذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن لم يعرف الحق فهو ضالٌّ)**، هنا رجع إلى تفصيل هذه الأشياء.

المرتبة الأولى: معرفة الحق، العلم قبل كل شيء؛ ﴿ **فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ** ﴾ [محمد:١٩]؛ قبل القول، وقبل العمل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن لم يعرف الحق فهو ضالٌّ)**، من لم يعرف الحق فهو ضالٌّ؛ مثل النصارى والمبتدعة والصوفية، لا يعرفون الحق، وهم أهل ضلال؛ يعبدون الله على جهل، وعلى ضلال.

أوْ عرَف الحق لكنه لا يعمل به؛ مثل اليهود، اليهود يعرفون الحق: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:١٤٦].

فلذلك صار النصارى ضالِّينَ، وصار اليهود مغضوبًا عليهم(١)؛ لأنهم عرَفوا الحق ولم يعملوا به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن عرَفه وآثر غيرَه عليه فهو مغضوب عليه)**، والغضب أشد من الضلال – والعياذ بالله –؛ لأن من يعلم ليس كمن لا يعلم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن عرفه واتبعه فهو مُنعَم عليه)**، هذا القسم الثالث: السعيد، وهو الذي عرَف الحق وعمِل به، هذا منْعَم عليه.

وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في آخر سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: وهم الذي عرَفوا الحق وعمِلوا به، فاسأل الله أن يوفقنا لطريقهم.

القسم الثاني: الذين لا يعرفون الحق، يعبدون الله على جهل وضلال، ويدخل في هذا النصارى والصوفية والمبتدعة، كلُّهم على غير علم، عندهم عمل، عندهم رهبانية، لكن على غير حق، هؤلاء ضالُّون.

القسم الثالث: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، هذا الصنف الذي جمع بين العلم والعمل.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧]، وهم الذين عرَفوا الحق ولم يعملوا به، عندهم علم لكن ليس عندهم عمل، وفي طليعة هؤلاء: اليهود.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]، وهم الذين ليس عندهم علم لكن عندهم عمل، عملٌ بدون علم هذا لا ينفع، هذا تعب بدون فائدة.

ولهذا تكرر هذه السورة في كل ركعة من صلاتك، تأمل ما المقصود منها؟ لأنها عظيمة.

وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال؛ لأنهم أُمة جهل، واليهود أخصَّ بالغضب؛ لأنهم أمة عناد، وهذه الأمة هم المنعم عليهم.

ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن فسَد مِن عُبَّادنا ففيه شبهٌ من النصارى، ومَن فسد مِن علمائنا ففيه شبه من اليهود»(١)؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق، وعدلوا عنه.

وفى «المسند» والترمذي من حديث عَدِيٍّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»(٢).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أمرنا الله سبحانه أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، تنبَّهْ: من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ومن هم المغضوب عليهم؟ ومن هم الضالون؟

الذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيمية في «قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (ص٨٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٠٧).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا كان النصارى أخصَّ بالضلال؛ لأنهم أُمة جهل)**، يعبدون الله على جهل، وعلى ضلال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واليهود أخصَّ بالغضب؛ لأنهم أمة عناد)**، يعرفون الحق لكنهم لا يعملون به؛ ولذلك غضِب الله عليهم.

وليس هذا خاصًّا باليهود والنصارى؛ بل كل من اتصف بصفة النصارى من العمل بدون علم، وكل من عنده علم ولم يعمل به فهو كذلك، ليس هذا خاصًّا باليهود والنصارى.

ولهذا أمَرنا الله أن نستعيذ به من طريقة الضالين والمغضوب عليهم؛ فدل على أن هذا ليس خاصًّا بهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهـذا كان النصارى أخصَّ بالضلال؛ لأنهم أُمة جهل، واليهود أخصَّ بالغضب؛ لأنهم أمة عناد)**، كلهم يشتركون، اليهود والنصارى يشتركون في الضلال، ويشتركون في الغضب، ولكن النصارى أخص بالضلال، واليهود أخص بالغضب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه الأمة هم المنعَم عليهم)**، هذه الأمة المحمدية هم المنعم عليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال سفيان بن عُيَيْنَةَ)**، سفيان بن عيينة إمام أهل الحجاز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وأما سفيان الثوري فهذا من أهل العراق، هذا فقيه من

(١) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (٧/ ٢٧٠)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/ ١٧٧)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤).

الفقهاء الكبار، وله مذهب في الفقه، هذا سفيان الثوري[1]، أما سفيان بن عيينة فهذا من أهل الحجاز وهو من المعتنين بالحديث، من أهل الحديث.

ولهذا يقال: السفيانان، فإذا سمعت «السفيانان»؛ فهما: سفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

(من فسد من علمائنا ففيه شبه باليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه بالنصارى) الأمة هذه فيها من يشبه اليهود، وفيها من يشبه النصارى، وهم كثير.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(ولهذا قال سفيان بن عيينة** رَحِمَهُٱللَّهُ: **من فسد من عُبّادنا فَفِيه شبه من النصارى)**، مثل الصوفية، هؤلاء عباد، لكن على جهل وعلى ضلال وعلى بدع؛ فهم أشبه بالنصارى.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود)**، من فسد من علماء هذه الأمة، عنده علم لكنه لا يعمل به؛ ففيه شبه من اليهود.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرَفوا الحق، وعدلوا عنه)**، يعني أن النصارى عندهم عمل وليس عندهم علم، والصوفية مثل النصارى؛ يحذرون من العلم الآن، يقولون: لا تتعلمون العلم، المقصود العبادة، وتعلُّم العلم يشغلكم عن العبادة!

---

(١) انظر ترجمته في: حلية الأولياء (٦/ ٣٥٦)، وتهذيب الكمال (١١/ ١٥٤)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩).

يحذرون من طلب العلم الآن، يقولون: لأنه يشغلكم عن العبادة! هذا ظاهرهم، ولكن قصدهم أن العلم يحذر مما هم عليه، وهم لا يريدونه؛ لأنه يكشف سترهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي «المسند» والترمذي من حديث عَدِيِّ بن حاتم** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالُّون»)**، فتسمية اليهود: بالمغضوب عليهم، وتسمية النصارى: ضالين، هذا جاء به الحديث عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعلماء يذكرون هذا في تفسير سورة الفاتحة، يذكرون ما ورد عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والعبرة بأوصافهم، ليست العبرة بأعيانهم، مغضوب عليهم لماذا؟ لأنهم لا يعملون بعلمهم، ضالون لماذا؟ لأنهم لا يتعلمون ويعبدون الله على جهل.

وقد جمع سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه:

فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، فجمع سبحانه بين الاستجابة له والإيمان به.

ومنها: قوله عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦])، وهذا عكس ما عليه اليهود، لا يستجيبون، ولا يعملون.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، هذا وصف الله سبحانه.

لكن بقي وصف المخلوق؛ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، فإذا لم يستجيبوا؛ ﴿لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجمع سبحانه بين الاستجابة له والإيمان به)، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ [البقرة:١٨٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: قوله عن رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧])، ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾: يعني بالرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: ما معنى ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؟ يعني: وقَّروه؛ لأن التعزير يطلق على معنيين متضادَّين: يطلق على التعظيم والتوقير والاحترام، ويطلق على التأديب؛ ولذلك هناك باب التعزير في الفقه، وهو التأديب على المعاصي.

﴿ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾: من المعنى الأول؛ من التوقير والاحترام.

﴿ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾: صدقوا برسالته، و﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: وقَّروه واحترموه.

ولا يكفي هذا، بل ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ لأن هناك من يؤمن بالرسول ويصدق: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، يؤمنون به ويصدقونه، لكن لا يتبعونه؛ مثل اليهود؛ لا يتبعون الحق، فهم مغضوب عليهم -والعياذ بالله-.

أبو طالب أقر أن نبينا رسول الله، أقر بهذا، وصدق الرسول وناصره، لكنه أبى أن يتبعه ويتركَ ملة عبد المطلب؛ فمات على الكفر -والعياذ بالله-، رغم أن الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاول معه أن يقول: لا إله إلا الله، فأبى أن يقول، وقال: هو على ملة عبد المطلب! مع أنه يقول[1]:

(١) سبق عزوه (ص٢٩).

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ: مسبة لأجداده عبدة الأوثان.

«لَوْلَا المَلَامَةُ» أن يلومه الناس أنك خالفت أباك عبد المطلب، وخالفت أجدادك؛ يلومونه أو يسبونه.

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

لم يمنعه إلا الحَمِيَّةُ الجاهلية -والعياذ بالله-، الحمية لدين أبيه عبد المطلب، هذه مصيبة، فلا يكفي أن يعرف الإنسان الحق ويؤمن به؛ بل لا بد أن يتبع الرسول.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ حصر الفلاح فيهم.

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥]، وقال الله تعالى في وسط السورة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ إلى آخر الآية [البقرة:١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:١-٣].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥])، في مطلع سورة البقرة.

قال الله سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١، ٢]؛ أي: القرآن.

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾: حق، يقين.

﴿هُدٗى﴾ لمن؟ ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

وأما غير المتقين فليس هدًى لهم؛ لأنهم لم يتبعوه، فلم يهتدوا به.

﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، من هم المتقون؟ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عن الناس من الغيوب الماضية والمستقبلة، والإيمان بالغيب يدخل فيه الإيمان بالله، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة، ويدخل فيه الإيمان بالأمم السابقة، والرسل السابقين، ويدخل فيه الإيمان بالمستقبل، وما يحدث فيه، والإيمان بالآخرة؛ لأن الآخرة من الغيب أيضًا، الغيب واسع.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، أما الذي لا يؤمن بالغيب فهذا كافر، من كذب بشيء من الغيب فهو كافر؛كالذي يقول: ليس هناك ملائكة، هذا كله حدس وتخمين!

يقول الفلاسفة: الملائكة: هي الهواجس التي تأتي للنفس، والخواطر التي تأتي بالنفس؛ إذا كانت طيبة فهي ملائكة، وإن كانت خواطر سيئة فهم شياطين!

هؤلاء عندهم الملائكة هي الخواطر الطيبة، والشياطين هي الخواطر السيئة، وليس هناك مخلوقات، لا ملائكة ولا شياطين، ليس عندهم هذا!

ولا يؤمنون بالجن أيضًا؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، لا يصدقون إلا بما يرونه ويشاهدونه، وأما ما غاب عنهم ولو أخبرت جميع الرسل به فلا يصدقونه؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]، هذا أول شيء.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وعمود الإسلام.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: لأن الزكاة قرينة الصلاة.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة:٤]، هؤلاء مؤمنو أهلِ الكتاب، الذين آمنوا بالرسل وآمنوا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين أدركوا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل الكتاب وآمنوا به.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾: وهو القرآن.

﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾: من التوراة، والإنجيل، والكتب السابقة.

﴿ وَبِٱلْءَاخِرَةِ ﴾: القيامة، والبعث والنشور، والجنة والنار.

﴿ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٤]: يؤمنون بذلك. هذه أركان الإيمان.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:٥]: حصر الفلاح فيهم، وأما غيرهم فهم خاسرون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الله تعالى في وسط السورة: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾)**، ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة:١٧٧]. ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾: يحب المال، ومع هذا ينفقه في طاعة الله، يقدم محبة الله على محبة المال.

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة:١٧٧]، الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، هذا هو البر، ضد الإثم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣])، كل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع.

هذه السورة الوجيزة جمعت كل المنهج السليم الذي يمشي عليه المؤمن فينجو من الخسارة، إذا اتصف بأربع صفات نجا من الخسارة، ما هي؟

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: هذا أول شيء، آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يكفي أنهم يؤمنون، لا بد من العمل، إيمان بدون عمل ليس له قيمة، هذا فيه رد على المرجئة(١)؛ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

ولا يكفي أنهم صالحون في أنفسهم، بل يسعون في إصلاح غيرهم: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: هذه الصفة الثالثة.

الصفة الرابعة: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: على الحق؛ لأن ليس كل أحد يصبر على الحق؛ الحق مر، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قُلِ الحَقَّ وَلَوْ كَانَ مُرًّا**»(٢).

---

(١) سبق التعريف بهم (ص١١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥/ ٣٢٧)، وابن حبان (٢/ ١٩٤)، والطبراني في الصغير (٢/ ٤٨)، =

لكن يصبر عليه، يصبر على أذى الناس، يصبر على التعب والمشقة، ويصبر على العبادة، الذي ليس عنده صبر ليس عنده دين؛ ولهذا يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ»، ثم رَفَعَ صَوْتَه، فقال: «أَلَا إِنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»(١).

الذي ليس عنده صبر ليس عنده دين، مثل الجسد الذي ليس فيه رأس، هل الجسد إذا كان مقطوع الرأس يعيش؟ لا يعيش، كذلك الدين لا بد فيه من الصبر على العبادة والطاعة، والصبر عن محارم الله وعن المعاصي، لابد من الصبر، وإلا لا يصير عنده دين.

=وفي الأوسط (٧/ ٣٦٤)، وفي الكبير (٢/ ١٥٦)، والبيهقي (١٠/ ١٥٥) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «أَمَرَنِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ: أَمَرَنِي بِحُبِّ المَسَاكِينِ، وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَمَرَنِي أَلَّا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمَرَنِي أَلَّا أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ».

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٥، ٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧١، ٧/ ١٢٤).

فأقسم سبحانه بالدهر - الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة - على أن كل أحد في خُسر؛ إلا من كمّل قُوَّته العلمية بالإيمان بالله، وقوَّته العملية بالعمل بطاعته، فهذا كماله في نفسه.

ثم كمّل غيره بوصيته له بذلك، وأمْرِهِ إياه به، وبملاك ذلك وهو الصبر، فكمُل في نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه، ولهذا قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو فكَّر الناس في سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ لكفتهم»(١).

وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة، يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه، وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو خالفوه واتبعوا غيره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأقسم سبحانه بالدهر - الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة -)، لماذا أقسم بالعصر وهو الدهر؟

الله لا يقسم إلا بشيء عظيم وفيه سر، فما هو السر الذي في العصر؟

السر الذي في العصر: أنه محل الأعمال، هو محل عمل العبد، عمله في عمره وحياته، عمل خير أو شر، إنما يقع في الزمان من الليل والنهار.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: كل إنسان، «أل» للاستغراق، كل إنسان

---

(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٢٠٣، ٨/ ٤٧٩).

-لا يُستثنى أحد- في خسار، إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع؛ فإنه ينجو من هذا الخسار المحقَّق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأقسم سبحانه بالدهر - الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة)**، يعني: لماذا أقسم به؟ لأنه زمن الأعمال الرابحة أو الخاسرة.

هذا فيه أهمية الوقت الذي نتساهل فيه ونضيعه، بعض الناس يقول: نقتل الوقت! يعني كأنه عدو! طال عليه الوقت، لا يستغله بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يستفيد منه، بل يقتله باللهو واللعب والغفلة!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إلا من كمّل قُوَّته العلمية بالإيمان بالله، وقوَّته العملية بالعمل بطاعته، فهذا كماله في نفسه)**، كماله في نفسه لا يكفي؛ لا بد أن يكمل غيره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم كمَّل غيره بوصيته له بذلك)**، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويعلم العلم النافع، ويجاهد في سبيل الله، ويدعو إلى الله على بصيرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبملاك ذلك وهو الصبر)**، كيف يتمكن من هذه -الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق-؟ ملاكه بالصبر، الذي ليس عنده صبر لا يستطيع أن يعمل شيئًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكمُل في نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه)**، لا يقول الإنسان: أنا ليس شأن إلا من نفسي، وليس لي شأن من الناس، لا عليَّ من الناس! بل عليك أن تدعوَ إلى الله، وأن تعلم الخير، أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لو فكر الناس في سورة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ لكفتهم»)**، لو فكر الناس في سورة العصر ومعانيها لكفتهم، يعني: كفتهم المنهج الذي يسيرون عليه، هي منهج للمؤمن يسير عليه؛ فيسلم من الخسارة.

وليس معنى «كفتهم» أنها تغني عن القرآن، لا، كفتهم من هذه الناحية؛ أنها منهج يسير عليه المسلم، منهج في كلمات وجيزة مختصرة، منهج متكامل في كلمات وجيزة مختصرة لا يقدر عليها إلا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهذا من إعجاز القرآن الكريم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة، يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه)**، أهل السعادة هم الذين عرَفوا الحق، أما من لا يعرف الحق ولو كان يحبه ويريده فلا يصيبه، هؤلاء هم الجهال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه)**، لا يكفي أنه يعرف الحق؛ لابد يتبعه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه، أو خالفوه واتبعوا غيره)**، أما أنه يرتكب الباطل عن جهل، أو يرتكبه عن تعمد وهوى، فهو مغضوب عليه وضالٌّ.

اليهودي مغضوب عليه وضالٌّ، والنصراني مغضوب عليه وضالٌّ أيضًا؛ لأنه لم يَسْعَ في طريق الحق.

وينبغي أن يُعرف أن هاتين القوَّتين لا تتعطلان من القلب، بل إن استعمل قوّته العلمية في معرفة الحق وإدراكه؛ وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به؛ وإلا استعملها في ضده.

فالإنسان حارث هَمَّام بالطبع، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»(١)، فالحارث: الكاسب العامل، والهمّام: المريد.

فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية لها من لوازم ذاتها، والإرادة تستلزم مرادًا يكون مُتصوَّرًا لها، متميزًا عندها؛ فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتُرِدْهُ تصوَّرتِ الباطلَ وطلبته وأرادته ولابدَّ.

وهذا يتبين بالباب الذي بعده، فنقول:

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (بل إن استعمل قوَّته العلمية في معرفة الحق وإدراكه؛ وإلا استعملها بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل)، الإنسان يريد أن يشغل فكره، ويريد أن يشغل قلبه؛ فإما أن يشغله بالحق وطلب الحق، وإما أن يشغله بالباطل والشهوات.

لا يمكن أن يعطل نفسه أبدًا، لابد أن يشغل نفسه: إما بحق، وإما

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣١/ ٣٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١٤) (ص: ٢٨٤)، وأبو داود (٤٩٥٠)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (١٣/ ١١٣) من حديث أبي وَهْبٍ الجُشَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بباطل، إلا إن كان ليس عنده عقل، إن كان معتوهًا ليس عنده عقل فهذا شأنه شأن البهائم.

فأنت تفطن لهذا، أنك لا بد أن تسير؛ إما مع الحق أو مع الباطل، لا مخرج من هذا أبدًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به؛ وإلا استعملها في ضده**)، هو يريد يشتغل إما بحق، وإما بباطل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فالإنسان حارث همّام بالطبع**)، كما في الحديث: «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»(١).

ما معنى (حارث)؟ أي: مكتسب، و(همام) يعني: يهم بالحرف والاكتساب، لا بد أن يتحرك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**كما قال النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أصدق الأسماء حارث وهمّام**»)، «**أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**والهمّام: المريد**)، المريد للعمل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتُرِدْهُ تصوَّرتِ الباطلَ وطلبته وأرادته ولابدَّ**)، أنتم ترون الناس الآن لا يخرجون عن هذين القسمين: إما من أهل الحق، وإما من أهل الباطل، إما من أهل الصلاح، وإما من أهل الفساد، ليس هناك قسم ثالثٌ ليس من أهل الحق ولا من أهل الباطل، إلا المعتوه الذي ليس عنده عقل.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٤).

الباب السادس

أنه لا سعادة للقلب ولا لذةَ ولا نعيمَ ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الباب السادس: أنه لا سعادة للقلب ولا لذةَ ولا نعيمَ ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده**)، لا شك أن راحة القلب وطمأنينة النفس تكون في عبادة الله؛ لأن هذا هو الموافق للفطرة، وهو الملائم لحاجة الإنسان؛ لأن العبد يحب ربه عَزَّوَجَلَّ حبًّا لا يُقاسُ بغيره، أحب إليه من نفسه ومن ولده ووالده والناس أجمعين، والعبادة مدارها على المحبة.

فأحب الأشياء إلى القلب السليم: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، ويطمئن بذكره: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

وأيضًا: العبد بحاجة ضرورية إلى عبادة ربه؛ لأنه لا يستغني عن الله طرفة عين، ولا وسيلة له إلى ربه إلا بالعبادة.

فالعبد هو المحتاج إلى ربه، وليس الله محتاجًا إلى العبادة؛ فهو غني سبحانه عن خلقه كلهم: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨].

إنما نحن بحاجة إلى عبادة الله؛ لتربطنا بالله، وتصلنا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فيقضي حوائجنا، وتحصل لنا مطالبنا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما من كفر بالله أو عَبد غير الله فإنه وضع العبادة غير موضعها، وإذا وضعها في غير موضعها فإنها لا تنفعه؛ بل تضره.

ولذلك الشرك هو أعظم الظلم؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها، فهو ظلم من هذه الناحية.

وظلم أيضًا من العبد لنفسه؛ لأنه علقها بغير الله، وأتعبها فيما يضرها ولا ينفعها؛ فهو ظلم نفسه وأشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا هو سر العبادة بين العبد وبين ربه: أنه لا غنى للعبد عن عبادة الله، وهو محتاج إليها، وأما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه ليس بحاجة إلى عبادة المخلوقين، وإنما أمرهم بها رحمة بهم؛ لتقرِّبهم إليه، تربطهم بالله عَزَّوَجَلَّ، وتنجيهم من عذابه.

فالمصلحة في العبادة راجعة إلى العبد نفسه، فكيف يفرط الإنسان في عبادة الله، أو يشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ما لا ينفعه ولا يضره؟! فهذا من السَّفَه.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]. هذا هو السفيه.

المشرك سفيه، والملحد أسفه، لماذا؟

لأنهم ضيعوا أنفسهم، فقطعوا صلتهم بربهم وخالقهم، وكفروا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ الذي أنعم عليهم، ونسبوها إلى غيره من الأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات التي لا تنفع ولا تضر!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أنه لا سعادة للقلب ولا لذةَ ولا نعيمَ ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحْدَه هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه)**، لا يسعد الإنسان إلا بهذا، إن ضيع هذا ضاع، وخسر دنياه وآخرته.

وأيضًا: من فوائد العبادة العظيمة أنه يجد لها لذة، يجد لذة للعبادة لا يجدها غيره، ويرتاح بها؛ ولهذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه الأمر قال لبلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا**»[(١)].

«**أَرِحْنَا بِهَا**»: مما أصابه من الهموم والأحزان والكروبات، يفزع إلى الصلاة ويطمئن فيها ويتلذذ بها، وكذلك المؤمنون؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾: أي شاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعني: يعتقدون ويوقنون، الظن هنا بمعنى اليقين، ليس بمعنى الشك. ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٥، ٤٦]، فهؤلاء يتلذذون بالصلاة؛ ولذلك يطيلونها؛ لأنهم لا يملون منها.

بخلاف الذي يدخلها بغير خشوع؛ فإنه يصبح كأنه في سجن، ويسابق الإمام يريد أن يخرج منها بسرعة؛ لأنه مسجون، والخاشع مرتاح وفي نعيم وجنة ما دام في صلاته، يتلذذ بالعبادة؛ ولهذا يقول قائلهم: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيش طيب، يعني: ما فيه من لذة العبادة والطاعة، إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيش طيب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) من حديث رجل من خزاعة، وأخرجه أحمد (٣٨/ ١٧٨) من حديث رجل من أسلم، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧) من حديث سليمان بن خالد الخزاعي.

قال آخر: أهل الدنيا مساكين خرجوا منها، ولم يلتذوا بأطيب ما فيها، وهو عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهي فيها لذة للمؤمن.

وسيأتي كلام الشيخ أن العبادة ليست تكاليف، الله لايقصد تكليف الناس بها، وإنما حكمته فيها أنها تريح الناس، لا يتكلفون فيها، بل يرتاحون فيها، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

فالذي يجد الراحة في صلاته هذا دليل على أنه من الخاشعين، وأنه يتلذذ في صلاته، وأما الذي يمل من الصلاة ويستبطئ الخروج منها فهذا ليس من الخاشعين، هذه صفة المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

ويذكر أن شخصًا كان إذا أقيمت الصلاة لا يذهب إلى المسجد ويأخذ يتردد في الشارع ذاهبًا وآتيًا، فقال له رجل: يا فلان، لماذا لا تدخل في المسجد وتصلي مع الناس؟ قال: لا أستطيع، والله إنها أشق عليَّ من الجبال، أريد أن أحمل الجبال، ولا أدخل في الصلاة!

حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذة العبادة.

فالعبادة ليس المقصود منها الإتعاب والتكليف والمشقة، المقصود منها لُبُّها، هذا هو المقصود منها: راحة النفس، طمأنينة القلب، ولذة الطاعة.

معلومٌ أن كل حيٍّ سوى الله سبحانه مِن ملَك أو إنس أو جن أو حيوان؛ فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم له إلا بتصوره للنافع والضار، والمنفعة من جنس النعيم واللذة، والمضرة من جنس الألم والعذاب.

فلا بد له من أمرين: أحدهما: هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به، ويلتذُّ بإدراكه، والثاني: المُعِين الموصل، المحصّل لذلك المقصود.

وبإزاء ذلك أمران آخران: أحدهما: مكروه بغيض ضارٌّ، والثاني: مُعين دافع له عنه. فهذه أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

الثاني: أمر مكروه مطلوب العلم.

الثالث: الوسيلة إلى حصول المحبوب.

الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

فإذا تقرر ذلك، فالله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعوَّ المطلوب، الذي يراد وجهُه، ويُبتغَى قُرْبُه، ويُطلَب رضاه، وهو المُعين على حصول ذلك.

وعبودية ما سواه والالتفات إليه والتعلق به هو المكروه الضار، وهو المُعين على دفعه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(معلومٌ أن كل حيٍّ سوى الله سبحانه مِن ملَك أو إنس أو جن أو حيوان؛ فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره)**، كل مخلوق فهو فقير، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

الناس بما فيهم الملوك وما فيهم من الأغنياء والأثرياء، بما فيهم من أصحاب الملذات والشهوات كلهم فقراء إلى الله، ولو كانت الدنيا عندهم كلها فهم فقراء إلى الله لا تغنيهم أبدًا، والله لا يغني عنه شيء، الله جَلَّ وَعَلَا لا يغني عنه شيء.

فالذي يستغني بالله هذا غني ولو كان ليس عنده شيء من الدنيا، غني بالله؛ ولهذا في الحديث: «**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ**» يعني: الأموال، «**وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»(١)؛ فالغنى غنى القلب، والقلب لا يستغني إلا بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(معلومٌ أن كل حيٍّ سوى الله سبحانه مِن ملَك أو إنس أو جن أو حيوان؛ فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره)**، حتى الملائكة عباد، الملائكة عباد يحتاجون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالملائكة في حاجة إلى الله، وسائر الخلق كلهم في حاجة إلى الله، لا أحد يستغني عن الله طرفة عين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره)**، ولا يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره إلا الله، لا أحد يقدر أن يجلب له ما ينفعه أو يدفع عنه ما يضره إلا الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يتم له إلا بتصوره للنافع والضار)**، إلا بتصوره، تصير العبادة ليس لها قيمة عنده إلا إذا تصور ما فيها، إذا تصور سرها وروحها تصور ذلك سهلت عليه العبادة وتلذذ بها.

أما إذا لم يتصور ما فيها من السر الإلهي وما فيها من الراحة وطمأنينة القلب ولذة النفس فإنها لا تكن عنده ذات قيمة.

وبعضهم يقول: هذه عادات وتقاليد، بعضهم يجعل الصلاة من العادات والتقاليد التي ليس لها قيمة، إنما الناس اعتادوها؛ لأنه لا يجد لها لذة ولا يجد لها راحة ولا دخلت في قلبه.

وبعضهم يقول: الصلاة رياضة، رياضة للأعضاء وللبدن، يتصور أنها رياضة فقط؛ لأنه لم يجد ما فيها من السر والروح والعبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا بد له من أمرين: أحدهما: هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به، ويلتذُّ بإدراكه)**، لابد أن يتعلق بالمحبوب، المطلوب الذي تطلب منه الحوائج، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثاني: المُعِين الموصل، المحصّل لذلك المقصود)**، الثاني: أنه يأخذ بالأسباب التي تعينه على الطاعة وعلى العبادة، يأخذ بالأسباب التي تعينه على الطاعة والعبادة ويترك الأسباب التي تشغله والتي تلهيه عن العبادة.

ليس معناه أنه يترك الدنيا، يأخذ من الدنيا قدر ما يعينه على عبادة الله وطاعته؛ لأنه لا يستطيع أن يعبد الله إلا بشيء يقتات به ويستغني به عن الناس، ليس معناه أنه يترك الدنيا ويعطل الأسباب، ليس هذا هو المطلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان)**، هو بحاجة إلى أربعة أمور:

الأمر الأول: بحاجة إلى أخذ ما ينفعه أو الأخذ بما ينفعه.

الأمر الثاني: بحاجة إلى ترك ما يضره، هذان اثنان.

الأمر الثالث: هو بحاجة إلى ما يعينه على ما ينفعه.

الأمر الرابع: وبحاجة إلى ما يعينه على ترك ما يضره، كل عبد لابد له من هذه الأمور الأربعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها)**، حتى الحيوانات لابد لها من هذه الأربعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا تقرر ذلك، فالله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعوَّ المطلوب، الذي يراد وجهُه)**، لأنه هو القادر على ما تريد

وما تطلب، هو القادر، أما غيره فلا يقدر على ما تطلب منه إلا إذا يسر الله له ذلك، إذًا الأمر راجع إلى الله ليس إلى المخلوق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو المُعين على حصول ذلك)**، وهو المعين على حصول الطلب، ما يطلب منه وما يدعى منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعبودية ما سواه والالتفات إليه والتعلق به هو المكروه الضار)**، عبادة غير الله هي الضارة وهي المكروهة، فيجب عليه أن يتجنبها فلا يعبد غير الله، ولا يكفي هذا، يتجنب الوسائل أيضًا التي تعينه على عبادة غير الله أو تغريه لعبادة غير الله من وسائل الشرك ووسائل الكفر، يترك الوسائل.

فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه؛ فهو المعبود المحبوب المراد، وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له، والمكروه البغيض هو بمشيئته وقدرته، وهو المعين لعبده على دفعه عنه.

كما قال أعرف الخلق به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»(١)، وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»(٢).

فمنه المنجى، وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته، فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خَلَقَه بمشيئته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه)، هو الجامع القادر على تحصيل المطلوب وعلى دفع المكروه، وعلى ما يعين على تحصيل المطلوب، وعلى ما يعين على ترك المرغوب.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧، ٦٣١١، ٦٣١٣، ٧٤٨٨)، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء ابن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له)**، ولذلك إذا لم يعنك الله لم تستطع العبادة إلا بعونه سبحانه، ولهذا من أفضل الذكر أن تقول: «لاحول ولا قوة إلا بالله». لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا لم يعنك الله ويقويك فإنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمكروه البغيض هو بمشيئته وقدرته)**، هو الذي أوجد المطلوب والمرغوب، وهو الذي أوجد المكروه والمبغض ابتلاء وامتحان، فالمخلوقات الكريهة من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لماذا خلقها؟ خلقها للابتلاء والامتحان، يبتلي بها عباده.

فلو كانت الدنيا كلها حلوة، وليس فيها مكاره وليس فيها شياطين، وليس فيها عصاة لم يتميز الصادق من الكاذب في العبادة، صار الناس كلهم سواء، والله يريد أن يميز الخبيث من الطيب.

ولذلك كما أنه أوجد الطيبات أوجد الخبائث، كما أنه أوجد الصالحين أوجد الفاسقين والكفار لحكمة إلهية؛ من أجل أن يمتحن العباد، ويمايز بين الصادق من الكاذب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو المعين لعبده على دفعه عنه)**، ولا يدفع المبغوض والمكروه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يدفع عنه هذا الشيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال أعرف الخلق به** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»)**، استعاذ بصفات الرضا وصفات العفو من صفات الغضب والعقوبة.

هي كلها خلق لله عَزَّوَجَلَّ، فهو استعاذ من صفة بصفة أخرى من صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه لا يعيذ من ذلك إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

لا يعيذ من ذلك إلا الله، فلا يعيذ من الغضب إلا الرضا، ولا يعيذ من العقوبة إلا المعافاة، ولا أحد يعيذك من هذه الأشياء إلا الله جَلَّوَعَلَا؛ «لا مَلْجأَ ولا مَنْجا مِنْكَ إلَّا إِلَيْكَ». ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة:١١٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ) يعني: أعوذ بك من عقوبتك، ومما خلقته للابتلاء والامتحان أن تجنبه عني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»)، هذا عند النوم، هذا الدعاء الذي يقال عند النوم، وفيه التفويض إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنه لا ملجأ منه إلا إليه، يجير ولا يجار عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالإعاذة فعله، والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خَلَقَه بمشيئته)، يعني كله لله عَزَّوَجَلَّ.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والمُلك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق كل ما يثني عليه أحد من خلقه، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه**)، لا أحد يحصي الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن نعمه لا تحصى، وحقه ليس هناك أحد يقوم بحقه سبحانه على الوفاء والتمام؛ لأن حقه عظيم.

ولكن العبد إذا قام بما يستطيع؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فهو يتفضل عليه بما نقص، يتفضل عليه، ويكمل له المطلوب من فضله وإحسانه، ليس في مقابل أنه عبد الله، أو أنه دعا الله ليس في مقابل هذا، الذي عمله لا يوازي شيء من أصغر نعمه لو يحاسب لم تعادل أعماله أصغر نعمة من نِعَم الله.

ولهذا يُروى أن رجلًا في البحر انكسرت به سفينته، فلجأ إلى جزيرة في البحر لينجو من الغرق، فأنبع الله له عينًا عذبة في هذه الجزيرة، وأنبت له شجرة كل صباح وكل مساء تثمر، وتفرغ للعبادة.

عبد الله وسأل الله أن يقبضه وهو ساجد، فاستجاب الله له، وأفنى مدته في هذه الجزيرة بالعبادة، وحقق الله له طلبه فمات وهو ساجد، فلما لقيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال: ادخل الجنة برحمتي، قال: يا ربِّ، وعملي؟

يعني كل حياته يعبد الله، ويدخل الجنة برحمة الله، يعني لا يدخلها بعمله؟ يسأل الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعترض على الله، لكن يسأل الله: لماذا أنه لا يدخل الجنة بعمله؟

قال الله لملائكته: حاسبوه، فحاسبوه، ووجدوا عبادته لا تعادل البصر، لا تعادل نعمة البصر، وباقي النعم الأخرى ليس لها مقابل.

فقال الله: ادخل النار، فقال: يا ربِّ، أدخلني الجنة برحمتك، قال: ادخل الجنة برحمتي.

فتبيَّنَ من هذا أن عمل الإنسان قليل؛ لو أفنى حياته كلَّها لا تقابل أقل نعمة من نِعَم الله عليه.

ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ**»(١).

ولهذا قال: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**»(٢)، أقر بالعجز عن استكمال الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو سيد الخلق وأفضل الخلق وأكمل الخلق عبادة.

وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢].

الباء يقولون: باء السبب، وليست باب العوض، فالجنة ليست ثمنًا للعمل؛ لأنها لا تدرك بالأثمان، وإنما العمل سبب لدخول الجنة، فالباء سببية وليست باء العوض مثل اشتريت هذه السلعة بريال، الباء باء العوض.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) تقدم تخريجه (ص١٦).

الجنة ليست عوضًا عن العمل أبدًا؛ لأن الجنة عالية وغالية ولا تدرك بالأثمان، لكنها فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمة من الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق كل ما يثني عليه أحد من خلقه)**، مهما الإنسان عبد الله فحق الله أعظم مما قام به العبد، ولكن العمل سبب لرحمة الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥])**، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على العامل وهو ﴿نَعْبُدُ﴾ ليفيد الاختصاص والحصر، أي: لا نعبد إلا إياك.

فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أبلغ من نعبدك؛ لأنه يفيد الحصر، أما «نعبدك» فهذا لا يفيد الحصر.

ثم انظر، قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لولا إعانة الله لم تعبد الله عَزَّوَجَلَّ.

فالحكمة في قرن الاستعانة بالعبادة أنه لا يستطيع العبادة إلا بإعانة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو مثل قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

والعبادة من العبد والإعانة من الله، العبادة من العبد والإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه الآية جمعت بين الأمرين: ما هو من العبد، وما هو من الله.

فالأول من معنى ألوهيته، والثاني من معنى ربوبيته؛ فإن الإله هو الذي تألُهه القلوب محبةً، وإنابةً، وإجلالًا، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذُلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلًا.

والربُّ هو الذي يَرُبُّ عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالأول من معنى ألوهيته، والثاني من معنى ربوبيته)، الإعانة من الربوبية، من أفعال الرب سبحانه وهي من توحيد الربوبية، والأول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من توحيد الألوهية، فهذه الآية فيها نوعا التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد العبودية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن الإله هو الذي تألُهه القلوب محبةً، وإنابةً، وإجلالًا، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذُلًّا، وخضوعًا)، الإله: من الوله وهو المحبة، فالإله هو المألوه المحبوب المعبود سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فالإله له معنيان:

المعنى الأول: المحبوب.

والمعنى الثاني: المعبود.

فالإله هو المعبود، وهو أيضًا المحبوب من الوله[1]، فيه معنى الألوهية

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٢٣)، ولسان العرب (١٣/ ٤٦٧)، ومختار الصحاح (ص٩)، والمصباح المنير (ص١٩)، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص ١٦٤).

وهي العبادة، ومعنى الإلهة وهي المحبة والوله وهو المحبة كما سبق في فتح المجيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والربُّ هو الذي يَرُبُّ عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه)**، الرب هو الذي يربُّ عبده ويربيه بنعمه.

الرب له معاني: المالك، السيد، المربي كلها تدخل في معنى الرب، وكلها تجتمع في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه المالك، وأنه السيد، وأنه المصلح، وأنه المربي، فهو الذي ربى عباده بنعمه وهداهم بطاعته(١).

﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]. هداه الصراط المستقيم ووفقه وأعانه على سلوكه.

وأيضًا أعطى كل شيء خلقه حتى في غير في الأمور الطبيعية كل شيء الله أعطاه خلقه، الحيوانات، والحشرات كلها أعطاها الله خلقها اللائق بها وهداها لاستغلال قدراتها وأعضائها في مصالحها.

ترون أنتم الحيوانات تتحرك لمصالحها، هداها الله لذلك، الهداية التي هي الدلالة، الإرشاد، هداها الله بذلك.

ولد البهيمة إذا ولدت أليس أول شيء يتوجه لثديها؟ ما الذي أعلمه، ما الذي أعلمه عن الثدي وأعلمه عن اللبن؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي هداه لهذا، هو الذي هداه ودله على ذلك.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ١٧٩، ١٨٠): (الرَّبُّ يطلق في اللغة على: المالك، والسيد، والمدبِّر، والمربِّي، والقَيِّم، والمنعِم. ويقال: رَبَّهُ يَرُبُّه؛ أي: كان له ربًّا، ويقال: رَبَّ فُلانٌ ولَدَه يَرُبُّه ربًّا، ورَبَّبَه، ورَبَّاهُ، كلُّه بمعنًى واحدٍ). اهـ بتصرف. وانظر: تفسير الطبري (١/ ١٤٢، ١٤٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا إله إلا هو، ولا ربَّ إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه)**، فربوبية ما سواه أبطل الباطل؛ لأن لا أحد يربي الناس وينعم عليهم ويوفقهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك إلهية غير الله من أبطل الباطل؛ لأنها إلهية بغير حق، الإلهية الحق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المستحق للعبادة دون سواه؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله عن نبيه شُعيب: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل:٨، ٩].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣])، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]. فوض أمرك إليه، التوكل معناه التفويض، تفويض الأمور إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

لكن لا تتوكل عليه ولا تعبده، لابد أن تجمع بين الأمرين: تعبده وأن تتوكل عليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فلا تتوكل بدون عبادة، ولا تعبد بدون توكل، لابد من الأمرين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله عن نبيه شُعيب: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨])، شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي خاطب قومه بالكلام الفصيح حتى سماه العلماء بخطيب الأنبياء لحسن أسلوبه ومنطقه ومحاجته لقومه.

في النهاية قال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾: لا يريد منهم طمع، ولا يريد منهم مال، ولا يريد منهم أجر، إن يريد إلا إصلاحهم، المصلحة لهم أيضًا، ولا يريد

رئاسة ولا يريد مطامع، لا يريد بدعوته وتعبه إلا الإصلاح، هذا هو الإصلاح الصحيح.

ليس الإصلاح الذي يفسد أديان الناس ويقول: هذا الإصلاح وهذا تنوير وهذا وهذا، هذا إفساد وليس إصلاح.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١١، ١٢].

فهم المفسدون، أما الأنبياء هم الذين يريدون الإصلاح للناس ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾. يعني اعترف بالعجز بحكم أنه بشر، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾.

ثم قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨]. كلمات عظيمة من هذا النبي الكريم يخاطب بها قومه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨])، ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ أي: فوض أمورك إلى الحي، وهو الله الحياة الكاملة.

﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾.

ما معنى الحي؟ ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾. نعم، هناك من هم أحياء لكن يموتون، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه الحي الذي لا يموت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان:٥٨])، ﴿وَسَبِّحْ ﴾: نزهه عن النقائص والعيوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٨، ٩])، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾: في العبادة، تبتل إليه في العبادة ﴿تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: مشرق الكواكب التي تشرق منها الكواكب والشمس والقمر، وفي الآية الأخرى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠].

وقد يوحد المشرق والمغرب، وقد يعدد بتعدد النجوم والشمس والقمر، وقد توحد وهي معناها التعدد.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ أي: المشارق.

﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: المغارب، مغارب النجوم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا معبود بحق سواه؛ لأنه هو الرب سبحانه، ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل:٩]. هو الذي يستحق العبادة، الرب هو الذي يستحق العبادة.

﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٩]: فوض إليه أمورك؛ لأنه هو القادر على تحقيق مطالبك ودفع المضار عنك، وكل أمرك إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا تتوكل على غيره.

التوكل من أعظم أنواع العبادة لا تتوكل على مخلوق، أنت تتوكل على شيء، وكله الله إليه، وكله إلى ضعيف مثله أو أقل منه، لكن توكل على الله القادر الذي لا يعجزه شيء، فوض أمورك إليه وعلق آمالك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠]، وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد، اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠])، والآيات في هذا كثيرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤])، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة:٤]. هذا الولاء والبراء دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الآن يقولون: لا، ليس هناك ولاء وبراء، هذه كراهية، أنتم تكرهون الناس وتبغضون الناس، عندكم كراهية.

نعم، عندنا كراهية لأعداء الله، وبغض لأعداء الله، ولا نودهم أبدًا، هذا دين ليس شيء نحن الذين أوجدناه، هذا الله أمرنا به.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

إذا آمنتم بالله وحده زال البغض لكم وجاءت المحبة لكم، فنحن لم نبغضكم إلا لأنكم كفار، ولأن الله يبغضكم وأنتم أعداء لله والله عدو لكم؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]. هذا الأصل العظيم الذي هو ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأتباعه.

﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤].

هذا لا تقتدون به فيه؛ لأنه قاله له عن موعدة وعدها إياه؛ لأنه قال: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧]. وهو يفي بوعده.

لكن لما علم أنه عدو له تبرأ منه، انظر: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾ [التوبة:١١٤]: تبرأ من أبيه.

أتباع إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقولون: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٥ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الممتحنة:٤-٦].

الوجه الثاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته، والإنابة إليه، ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوجه الثاني: أن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **خلق الخلق لعبادته)**، من المعلوم أن الله خلق الخلق كله لا شريك له في الخلق، ولا أحد يخلق معه، وخص منهم الجن والإنس -أصحاب العقول- خصهم بأن أوجب عليهم عبادته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذرايات:٥٦-٥٨].

وبقية المخلوقات التي لا عقول لها سواء كانت جامدة أو متحركة فهذه خلقت لمصالح العباد؛ تعينهم على عبادة الله سبحانه، ينتفعون بها، هذه حكمته سبحانه من خلق الجن والإنس، وخلق بقية المخلوقات.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: فهل كل يعبد الله حسب تصوره واختراعه هو؟

لا، يعبد الله بما شرع سبحانه، هو لا يرضى العبادة التي لم يشرعها، شرعها الله سبحانه وأرسل بها رسله لتبينها للناس، الله أرسل الرسل للدعوة إليه، وإفراده بالعبادة، وبيان ما هي العبادة التي يرضاها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمصلحة راجعة إليهم؛ إذا عبدوه بشرعه وأطاعوا رسله فلا يعود على الله من ذلك مصلحة؛ لأنه غني عن عباده، وإنما تعود المصلحة لهم، للعباد أنفسهم، فعبادتهم لله مصلحتها لهم.

والله غني عنها؛ لا ينفعه من عبده ولا يضره من أشرك به وعصاه، إنما هذا لمصالح العباد أنفسهم، فهم يعبدون الله جَلَّ وَعَلَا، ما هو دليلهم على الله، هل رووه؟

لم يروه في الدنيا، الله لا يرى في الدنيا، لا يستطيع أحد أن يرى الله جَلَّ وَعَلَا في الدنيا؛ لضعف أجسامهم، وضعف مداركهم عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكونهم عبدوه وهم لم يروه هذا دليل على إيمانهم ويقينهم بالله عَزَّ وَجَلَّ، فهم آمنوا بالغيب؛ عبدوا الله وهم لم يروه، تصديقًا لرسله، فهم استدلوا عليه بشيئين: آياته المخلوقة من السموات والأرضين والأشجار والأحجار.

المخلوقات تدل على الخالق، لم توجد من نفسها، وإنما لها خالق، ولا أحد ادعى أنه خلق شيئًا من هذه المخلوقات أبدًا، ليس هناك أحد ادعى أنه خلق شيئًا من هذه المخلوقات، إذًا الخالق هو الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٠].

﴿أَرُونِي﴾: تحداهم، ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠].

ليس لهم من يشركوه في خلقه فكيف يشركونهم هم معه في عبادته وهي لا تخلق، ولا ترزق؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨]. لا تخلق ولا ترزق.

فهم استدلوا عليه بآياته الكونية على أنه هو المستحق للعبادة، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

كيف يعبد العاجز الذي لم يخلق نفسه، لم يخلق نفسه كيف يخلق غيره؟!

كيف يعبد مع الذي خلق السموات والأرض وما فيها؟

هذا فيه انتكاس البصائر والعقول، آياته الكونية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧]. الذي خلقهن، هي نفسها تسبح الله عَزَّوَجَلَّ بلسان لا نفهمه نحن.

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤]. فهي تسبح الله عَزَّوَجَلَّ، تنزه الله عن الشريك فكيف تعبد مع الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وكذلك استدلوا على الله بآياته القرآنية، آياته المنزلة على رسله في كتبه سبحانه التي أنزلها إليهم بواسطة جبريل الروح الأمين الذي ينزل بالوحي على الرسل.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢].

فيعبدون الله بما شرعه لهم مما جاءت به الرسل ولا يلتفتون إلى البدع والمحدثات والاختراعات التي اخترعوها والله لم يشرعها، الله لا يرضى أن يعبد إلا بما شرعه وأنزله على رسله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا فصل ينبغي أن تتنبه له، لا يكون الناس إِمَّعَة مع الناس ما عملوا يعلمه دون أنه يتبصر فيه ويرى هل هي صحيحة، يتبصر في هذا، الأمر

واضح ليس فيه غموض، الله أمرنا أن نعبده بما شرعه لنا، وأنزل به كتبه وأرسل به رسله، هذه هي العبادة.

عبدوه في الدنيا وهم لم يروه امتثالًا لأمره سبحانه واستدلالًا عليه بآياته ومخلوقاته، عبدوه وآمنوا به، صدقوا رسله وآمنوا بالغيب فكان أعظم جزائهم يوم القيامة أنه يتجلى لهم، هذا الرب الذي عبدوه في الدنيا وهم لم يروه يتجلى لهم يوم القيامة فيرونه عِيانًا بأبصارهم كما ترى الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر لا يتضامون في رؤيته(١)؛ لا يتزاحمون مثل إذا صار الناس ينظرون لشيء يتزاحمون عليه وربما يحدث عليه ضرر من الزحام ليروا هذا الشيء الغريب.

يرونه سبحانه، كلٌّ في مكانه، ولا يتزاحمون، لا يضامون أو يتضامون في رؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يتجلى لهم في الجنة فيرونه عِيانًا بأبصارهم، فلا يجدون نعيمًا ألذ عندهم من رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(٢).

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢)، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ أُنَاسٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ: **هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ...**». وحديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةً -يَعْنِي: البَدْرَ-، فَقَالَ: **إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا. ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]».

(٢) روى مسلم في صحيحه (١٨١) من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: =

أما الكفار الذين لم يعبدوه في هذه الدنيا وجحدوه وأنكروه فإن الله يحجبهم عن رؤيته يوم القيامة(١)؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]. لَمَّا لم يعبدوه في الدنيا لم يروه في الآخرة، حرمهم الله، فاحتجب عنهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فخسروا بذلك خسرانًا مبينًا.

فهذه فوائد العبادة، وهذه طريق العبادة، وكيف تعبد الله جَلَّوَعَلَا على بصيرة وعلى علم وعلى معرفة، وبخشوع وخشية وإنابة.

ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»(٢).

«**كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»؛ لأنه لا أحد يراه في الدنيا، لكن كأنك تراه من اليقين به سبحانه وتصديق الرسل والكتب، كأنك ترى الله جَلَّوَعَلَا: «**تَعْبُدُ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**».

فإذا لم تصل إلى هذه المرتبة: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ» في قلبك «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» سبحانه؛ تؤمن بأنه يراك، مطلع عليك فلا تعصه وهو يراك، لا تخالف أوامره وهو يراك.

=«**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ**».

(١) قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ؛ دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرَوْنَهُ بِالرِّضَا). انظر: تفسير الثعلبي (١٠/ ١٥٤)، والتفسير البسيط (٢٣/ ٣٢٧)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢٦١)، والبحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) و (١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هو يراك أينما كنت في بر أو بحر أو ظلمة أو نور أو مع الناس أو خاليًا هو يراك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تخفى عليه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

تؤمن بهذا، إذا لم تبلغ من اليقين كأنك ترى الله فإنك تؤمن أنه يراك، وإذا شعرت أنه يراك تخاف منه وتخشاه وترجوه وتحبه، هذا هو الإحسان؛ «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». وهل يليق بعاقل أن يعصي الله وهو يراه؟! ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

لو أن مخلوقًا يراك، ينظر إليك هل تجرؤ على أن تخالفه وأن تعصي هذا الذي يراك من المخلوقين؟!

لو أن ملكًا من الملوك يراك، أو إنسانًا قادرًا يراك هل من العقل ومن الحكمة أن تعصيه وتخالف أمره وهو يراك؟!

لا يمكن هذا، هذا في المخلوق مع المخلوق، فكيف في المخلوق مع الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

المخلوق يمكن يراك في موضع ولا يراك في موضع آخر، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه يراك أينما كنت؛ ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُ مَا كُنْتَ**»[(١)]؛ لأنه معك معية الإحاطة، ويراك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فتستشعر هذا في نفسك وفي قلبك، تكون على صلة بالله على هذا الأساس ليس تقليد، أو متابعة للناس لا، عن

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، والدارمي (٢٨٣٣)، وأحمد (٣٥/ ٢٨٤)، والحاكم (١/ ١٢١) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اقتناع وعن يقين مصدره آيات الله الكونية وآيات الله القرآنية هذه براهين وبينات، هكذا يكون المؤمن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **خلق الخلق لعبادته)**، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الجامعة لمعرفته)**، العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة(١)، هذه العبادة.

وأساسها: المحبة، محبة الله جَلَّ وَعَلَا تحب الله أحب من كل شيء، تحب الله من كل قلبك، هذا أساس العبادة: المحبة، لا تعبده للخوف فقط أو للرجاء فقط، وإنما تعبده للمحبة وللخوف وللرجاء، هذه هي العبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والإخلاص له)**، هذه العبادة إذا لم تكن مخلصة لله فهي باطلة، إذا دخلها شرك بطلت، لابد أن تكون خالصة، ولابد أن تكون صوابًا على ما شرعه الله جَلَّ وَعَلَا ورضيه لك، هذه العبادة الصحيحة.

وأما إذا اختل أحد الشرطين فالعبادة لا تنفع باطلة، بل تضرك إذا لم تخلص لله عَزَّ وَجَلَّ، إذا لم تتبع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعمل بالسنة، تعمل بالبدع والمحدثات هذا يضرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبذكره تطمئن قلوبهم)**، بذكر الله تطمئن قلوبهم؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]. فذكر الله يطمئن القلوب.

---

(١) انظر: رسالة العبودية ضمن مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

فأكثر من ذكر الله؛ من أجل أن يطمئن قلبك، ذكره سبحانه باللسان وذكره بالقلب تذكر الله جَلَّوَعَلَا دائمًا وأبدًا، فذكره باللسان: التهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وذكره سبحانه بالعبادة، العبادة ذكر لله عَزَّوَجَلَّ.

ليس مقصورًا على ذكره باللسان، ذكره بالقلب وباللسان وبالأعمال، العبادات ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، الصلاة ذكر لله؛ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. ذكر الله في الصلاة أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، فهي ذكر لله، الصيام ذكر، كل عبادة فهي ذكر لله عَزَّوَجَلَّ.

فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم، ويتم نعيمهم، فلا يعطيهم في الآخرة شيئًا هو أحب إليهم ولا أقرُّ لعيونهم ولا أنعم لقلوبهم من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة، ولم يُعطِهم في الدنيا شيئًا خيرًا لهم، ولا أحبَّ إليهم، ولا أقرَّ لعيونهم من الإيمان به، ومحبته، والشوقِ إلى لقائه، والأُنْسِ بقربه، والتنعُّم بذِكْره.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم)**، ولا تطمئن بغير ذكر الله، لا تطمئن القلوب بغير ذكر الله أبدًا.

إذا تذكرت الملذات والدنيا والمتاع هذا لا يطمئن قلبك؛ بل هذا يزيدك غفلة وإعراضًا ويشوش عليك أين ذهب هذا، أين جاء هذا، وهذا لم يزد وهذا نقص وهذا سُرِقَ.

أما ذكر الله جَلَّ وَعَلَا فهو الذي يحيي القلوب وتطمئن به القلوب، ومن ذكر الله ومن أعظم ذكر الله: تلاوة كلامه سبحانه، تلاوة القرآن، القرآن ذكر حكيم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم)**، هذه النتيجة يعني رؤيته في الآخرة نتيجة لعبادته في الدنيا، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

جاء في تفسير: ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: يرجو رؤية الله يوم القيامة[١].

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٣٥٦).

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠]. فمن عبد الله مخلصًا له الدين في هذه الدنيا رأى الله يوم القيامة، أين يراه؟ في الجنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم، ويتم نعيمهم)**، إذا رأوا الله أي رؤية عِيان، قرت قلوبهم وتم نعيمهم وسرورهم، ولا يجدون لذة ألذ من رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي عبدوه في الدنيا وهم لم يروه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا يعطيهم في الآخرة شيئًا هو أحب إليهم ولا أقرُّ لعيونهم ولا أنعم لقلوبهم من النظر إليه)**، من النظر إلى الله سبحانه عِيانًا بأبصارهم؛ لأن الله يعطيهم قوة يستطيعون بها أن يروا الله سبحانه، وأما في الدنيا فهم أبدانهم وحواسهم ضعيفة لا تقدر على رؤية الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لقلوبهم من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة)**، سماع كلامه؛ لأنه يكلمهم يوم القيامة في الجنة: يا فلان، أتذكر كذا وتذكر كذا؛ يكلمهم تكليم كرامة ليس تكليم توبيخ، كرامة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

لو أن ملِكًا أو إنسانًا معظَّمًا يكلمك، أما تتلذذ بهذا وتفرح؟ تفرح بهذا، فكيف إذا كلمك رب العالمين: يا فلان؟! كلمك بينك وبينه من غير واسطة، لا يعادل هذا شيء من رفعتك وشأنك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسماع كلامه منه بلا واسطة)**، سماع كلامه.

أولًا: أنه يسلم عليهم، يتجلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم ثم يسلم عليهم ويحييهم بالسلام فيردون عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يليق به.

ثم يكلم كل واحد، ما منكم من أحد إلا يكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ**»(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بلا واسطة)**، في الدنيا لابد من واسطة الملك، بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكن في الآخرة بلا واسطة؛ يكلمهم مباشرة يسمعون كلامه ويخاطبونه سبحانه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يُعطِهم في الدنيا شيئًا خيرًا لهم، ولا أحبَّ إليهم، ولا أقرَّ لعيونهم من الإيمان به)**، هم في خير في الدنيا وفي الآخرة، إذا آمنوا به فهم في خير بالإيمان، تطمئن قلوبهم بالإيمان تجد المؤمن مرتاح النفس، مرتاح الضمير مسرورًا بربه سبحانه وعبادته وذكره.

وتجد المشرك والكافر منقبضًا ضيق الصدر منحشر ولو كانت عنده الدنيا كلها.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. يشرح صدره، يفرح بكلام الله، يفرح بالذكر، يفرح بالعبادة يتلذذ بها، يشرح صدره للإسلام، ويطلب المزيد من كلام الله ومن ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يمل.

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام:١٢٥]. لا يقبل شيء ولا يستمع لكلام الله، أشد ما عليه إذا سمع القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٩، ٧٤٤٣، ٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦)، من حديث عَدِيٍّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]. يغلقون أبصارهم عن سمع القرآن ولا يريدونه؛ لأن الله حرمهم بذنوبهم حرمهم ذلك.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

فالذي يعرض عن الله؛ الله يعرض عنه، والذي يقبل على الله؛ الله يقبل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والجزاء من جنس العمل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يُعطِهم في الدنيا شيئًا خيرًا لهم، ولا أحبَّ إليهم، ولا أقرَّ لعيونهم من الإيمان به، ومحبته، والشوقِ إلى لقائه، والأُنْسِ بقربه، والتنعُّم بذِكْره)**، فأهل الإيمان في سرور وفي لذة في الدنيا والآخرة.

في الدنيا بإيمانهم وعبادتهم لله وارتياحهم واطمئنانهم واطمئنان قلوبهم بذكره، وفي الآخرة بالنعيم، نعيم الأبدان ونعيم الروح برؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد جمع النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي، والإمام أحمد، وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم من حديث عمار ابن ياسر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يدعو به: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ)، هذا توسل إلى الله بعلمه الغيب وقدرته على الخلق.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي)، هذا هو الدعاء، «أحييني» مدد في عمري ما علمت أن ذلك خيرًا لي، العمر إنما يفرح به لاستغلاله في الخير والعبادة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٢٦٥)، والنسائي (١٣٠٥)، وابن حبان (٥/ ٣٠٥)، والحاكم (١/ ٧٠٥) من حديث عمار بن ياسر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)، إذا كانت الوفاة خير له من الحياة يوفض الأمر إلى الله أن الله يتوفاه، هذا هو الدعاء اللائق والمشروع.

أما أن يتمنى الموت إذا أصابه كرب أو شدة فلا يجوز هذا، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ»(١). يصبر، اصبروا هذا في موازين حسناتهم.

لكن قالوا إذا خشي على دينه من الفتن له أن يتمنى الموت، إذا خشي على دينه من الفتن واشتداد الفتن، لا يخشى من كرب الدنيا ومن الأحزان والهموم لا، يخشى على دينه، إذا خشي على دينه له أن يتمنى الموت؛ «وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»(٢).

يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]. لما تمت له الأمور وأبوه وأمه وإخوته اجتمعوا، وصار له الملك في مصر وصار يدبر، الخزائن تحت يده خاف على نفسه من الفتنة فدعا ربه أن يتوفاه مسلمًا ولا يفتن بهذه الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)، في الغيب والشهادة، في حالة غيابي عن الناس، وفي حالة شهودي معهم وحضوري معهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أما الذي لا يخشى الله إلا إذا كان مع الناس، وإذا خلا بارز الله بالمعاصي فهذا - والعياذ بالله - هو الخاسر يوم القيامة؛ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء:١٠٨]. هذا شأن المنافقين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا)**، لزوم الحق، لا يخرجه الغضب عن كلمة الحق بل يقول الحق.

وكذلك في الرضا سواءً رضي في حال رضا وسعة أو في حالة غضب فإنه يلزم الحق ولا ينطق ولا يتكلم إلا بحق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى)**، القصد: يعني الاعتدال وعدم الإسراف وعدم البخل، بل يكون معتدلًا، هذا القصد: الاعتدال؛ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]. هذا هو القصد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ)**، نعيمًا لا ينفد وهو الجنة؛ لأن نعيم الدنيا ينفد وينقطع، أما النعيم الذي لا ينفد فهو نعيم الجنة.

لم يقل: «أَسْأَلُكَ نَعِيمًا» وسكت، بل قال: «لَا يَنْفَدُ» وهذا لا يكون إلا في الجنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ)** قرة العين: هي أن الإنسان يقنع ولا يتطلع، لا يتطلع، عينه تقنع بما عنده ويرضى به ولا يتطلع إلى الطمع وإلى ما مع الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ)، الرضا بعد القضاء هذا هو الواجب، أن الإنسان يرضى بقضاء الله وقدره ولا يجزع إذا أصابه شيء.

بل يعلم ان هذا من الله فيرضى؛ لأن جزعه لا ينفعه شيئًا بل يضره، القضاء نافذ شئت أم أبيت، لكن إذا رضيت بذلك صار ذلك خيرًا لك، وإذا سخطت فإن الله يغضب عليك والقضاء نفد فيك.

فعند الشيء الذي ليس فيه حيلة ترضى وتسلم، أما الشيء الذي تقدر على دفعه بالأسباب ادفعه؛ لأن أهل الجاهلية لا يرضون بالقضاء إذا أصابتهم مصيبة يضربون الخدود ويشقون الجيوب ويدعون بدعوى الجاهلية.

أما أهل الإيمان عند المصيبة فإنهم يرضون بقضاء الله وقدره ويقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١]. يعني بقدره، ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن:١١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ)، برد العيش بعد الموت؛ لأن الناس بعد الموت ينقسمون إلى قسمين في القبر وفي الآخرة: إما أن يكون في نعيم، وإما أن يكون في عذاب.

إما أن يعيش عيشًا باردًا ونعيمًا متواصلًا في قبره وفي حشره، وإما أن يعيش - والعياذ بالله - عيشة ضنك؛ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه:١٢٤]. قالوا هذا في عذاب القبر.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]. فهو في عذاب في قبره وبعد نشره، عذاب متواصل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ**)، هذا الشاهد من الحديث، لذة النظر إلى وجهك يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**)، والشوق إلى لقائك، إذا اشتاق إلى لقاء الله وأحب الله، أحب الله لقاءه سبحانه، وأما الكافر المنافق فهو يهرب من لقاء الله.

لأنه عند الموت المؤمن يبشر فيفرح بلقاء الله ويحب لقاء الله فيحب الله لقاءه، وأما الكافر المنافق فإنه إذا رأى ما هو قادم عليه من العذاب فإنه يكره لقاء الله، فيكره الله لقاءه.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: يعني عند الموت.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢]. هذا عند الموت.

أما الكافر والمنافق فإنه - والعياذ بالله - يتمنى الرجوع إلى الدنيا؛ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]. ليس هذا وقت تمني، الله قضى أنهم لا يرجعون إلى

الدنيا، أعطاك الله عمر وأعطاك الله إمكانيات، أعطاك الله رزق، مكنك من العمل، ضيعته، ضيعته.

إذا جاءك الموت وأنت فارغ اليد من العمل الصالح ماذا تلقى الله به؟ لماذا تلقى الله عَزَّوَجَلَّ؟

عندئذ يتحسر الكافر والمنافق ويتمنى العودة إلى الدنيا؛ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]. هل ينفع هذا؟ لا ينفع.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]؛ أي: عاقبته.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]؛ والتأويل هنا المراد به المآل والعاقبة، تفسير الشيء بالواقع.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:٥٣]: يعني: في الدنيا.

﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، هم في الأول يكذبون الرسل، الآن اعترفوا أن الرسل صادقون.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف:٥٣]. فات الأوان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ**)، ييسر له الله الوصول إليه من غير ضراء مضرة. (**وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**)، هذه المشكلة الفتنة المضلة - والعياذ بالله - التي تعترض الإنسان وتصده عن الله، وعن الطريق والوصول إلى الله.

فالفتن خطيرة، وكم من مهتدٍ ضل بسبب الفتن! كم من مهتدٍ ومؤمن ضل وانحرف بسبب الفتن! إلا من سلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالفتن خطيرة، ولذلك استعذ بالله من الفتن وتجنبها وابتعد عنها وعن أهلها واحذر منها وهي تستهوي الناس، تستهويهم وتجرهم إليها فابتعد عنها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**(وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)**، الفتنة المضلة، أما الفتنة التي ليست مضلة، الأموال فتنة والأولاد فتنة، لكن ليست مضلة هذه بحاجة إليها؛ ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ)**، الزينة: هي زينة الإيمان، ليست زينة الملابس وزينة المظاهر، إنما هي زينة الإيمان في القلوب.

«**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ**» من فقره ورثاثته ليس عند الناس. «**لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**»(١)؛ فليست العبرة بالمظاهر، العبرة بما في القلوب والعبرة بالأعمال.

أما المظاهر فلا تغني شيئًا؛ الله قال في المنافقين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون:٤]. فصحاء، خطباء، لكنهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٤٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)**، اجعلنا هداةً نهدي بأمرك وندعو إليك، نهدي الناس بإرشادهم والبيان لهم.

هداة للناس: مهتدين في أنفسهم، لا تدعو الناس وأنت في نفسك بعيد عن الهدى لا، الأول نفسك ثم الناس.

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة وهو النظر إلى وجهه سبحانه.

ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفًا على عدم ما يضر في الدنيا، ويفتن في الدين؛ قال: «فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ». ولما كان كمال العبد في أن يكون عالمًا بالحق، متَّبعًا له، معلِّمًا لغيره، مرشدًا له؛ قال: «اجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[١].

ولما كان الرضا النافع المحصِّل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله -فإن ذلك عَزْمٌ على الرضا، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم- سأل الرضا بعده.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجمع في هذا الدعاء العظيم)، انتبهوا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا وهو الشوق إلى لقائه سبحانه)، ومن اشتاق إلى لقاء الله فإنه يستعد بالأعمال الصالحة وطاعة الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأطيب شيء في الآخرة وهو النظر إلى وجهه سبحانه)، أطيب شيء في الدنيا: الشوق إلى لقاء الله، وأطيب شيء في الآخرة: هو النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) تقدم تخريجه (ص٢٦١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كان كمال العبد في أن يكون عالمًا بالحق، متَّبعًا له، معلِّمًا لغيره، مرشدًا له؛ قال: «اجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»)**، هداة للناس مهتدين بأنفسنا، لا تقتصر على نفسك وتقول ليس عليّ من الناس، ولا تهتم بالناس وتضيع نفسك، اجمع بين الأمرين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كان الرضا النافع المحصِّل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله - فإن ذلك عَزْمٌ على الرضا، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم- سأل الرضا بعده)**، القضاء لا راد له ولا دافع له، فعليك بالرضا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتسليم لله ولا تجزع ولا تسخط.

فإن المقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه، فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما.

كما في «المسند» وغيره عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: اسْتِخَارَةَ اللهِ، وَرِضَاهُ بِمَا قَضَى اللهُ، وَإِنَّ مِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ: تَرْكَ اسْتِخَارَةِ اللهِ، وَسَخَطَهُ بِمَا قَضَى اللهُ»[1].

ولما كانت خشية الله رأس كل خير في المشهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن المقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه)، أنت في الأول تستخير الله أن الله يختار لك الخيرة الطيبة ويكفيك شر العاقبة السيئة، هذا قبل وقوع القضاء.

أما إذا وقع فإنك ترضى وتسلم ولا تجزع، تصبر وتحتسب، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما في «المسند» وغيره عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: اسْتِخَارَةَ اللهِ، وَرِضَاهُ بِمَا قَضَى اللهُ، وَإِنَّ مِنْ شَقَاوَةِ ابْنِ آدَمَ: تَرْكَ اسْتِخَارَةِ اللهِ، وَسَخَطَهُ بِمَا قَضَى اللهُ»)، يعني قبل وقوع القضاء تدعو الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥١)، وأحمد (٣/ ٥٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتتضرع إليه وتستخيره الخيرة الطيبة الصالحة لك أن يختارها لك، تدعوه أن يختار لك الخير، وإذا وقع القضاء والقدر فإنك تصبر وتسلم ولا تجزع ولا تسخط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كانت خشية الله رأس كل خير في المشهد والمغيب، سأله خشيته في الغيب والشهادة)**، في الغيب يعني غيبته عن الناس؛ يخشى الله وإن كان غائبًا عن الناس؛ لأنه ليس عنده نفاق ورياء.

والشهادة إذا كان مع الناس أيضًا، يعني يستوي عنده الغيب والشهادة.

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه، فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل، وقد يدخله أيضًا رضاه في الباطل، سأل الله أن يوفِّقه لكلمة الحق في الغضب والرضا؛ ولهذا قال بعض السلف: «لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق»(١).

ولما كان الفقر والغنى مِحْنَتَيْنِ وبَلِيَّتَيْنِ، يبتلي الله بهما عبده، ففي الغنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضها، سأل الله القصد في الحالين، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (سأل الله أن يوفِّقه لكلمة الحق في الغضب والرضا)، أهم شيء الغضب، إذا غضبت أمسك لسانك.

«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»(٢).

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

لأن النزغ من الشيطان، استعذ بالله ولا تنفعل مع الغضب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا قال بعض السلف: «لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق»)، هذه مصيبة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣١٣) عن محمد بن كعب القُرَظي، قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ بِاللهِ: مَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِي الْبَاطِلِ، وَإِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ مِنَ الْحَقِّ، وَإِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ».

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ولما كان النعيم نوعين: نوعًا للبدن، ونوعًا للقلب؛ وهو قرة العين، وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: «أَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ».

ولما كانت الزينة زينتين: زينة البدن، وزينة القلب؛ وكانت زينة القلب أعظمهما قدرًا وأجلهما خطرًا، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العُقْبَى، سأل ربه الزينة الباطنة، فقال: «زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ».

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرُد لأحد كائنًا من كان، بل هو محشوٌّ بالغُصَص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، سأل برْدَ العيش بعد الموت.

والمقصود أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة؛ فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إيّاه وتألُّهِهِمْ له كحاجتهم إليه في خلقه لهم، ورِزْقه إياهم، ومعافاة أبدانهم، وستر عوراتهم، وأمن روعاتهم، بل حاجتهم إلى تألُّهِه ومحبته وعبوديته أعظم؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، ولا صلاح لهم، ولا نعيم ولا فلاح، ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال.

ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أحسن الحسنات.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولما كان النعيم نوعين: نوعًا للبدن، ونوعًا للقلب؛ وهو قرة العين، وكماله بدوامه واستمراره، جمع بينهما في قوله: «أَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ»)، هذا كله شرح للحديث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العُقْبَى، سأل ربه الزينة الباطنة، فقال: «زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ»)**، زينا بزينة الإيمان لا بزينة الثياب والمظاهر، وإن كانت هذه نعمة من الله، لكن ليست هي القصد، القصد زينة الإيمان.

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا(١)

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرُد لأحد كائنًا من كان)**، العيش يتكدر لا يسلم، في الدنيا يتكدر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل هو محشوٌّ بالغُصَص والنكد، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة، سأل بردَ العيش بعد الموت)**، برد العيش بعد الموت في القبر وفي القيامة.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۞٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۞١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة:٦-١١].

الهاوية: هي النار.

وأمه: يعني أم رأسه، يهوي في النار على أم رأسه، والعياذ بالله.

وقيل: أمه، يعني: مقره الذي يؤويه، مأواه النار – نسأل الله العافية –، فهي أمه.

---

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص٤٨٢).

ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أحسن الحسنات، وكان توحيد الإلهية رأس الأمر. وأما توحيد الربوبية -الذي أقر به المسلم والكافر، وقرره أهل الكلام في كتبهم- فلا يكفي وحده، بل هو الحُجَّةُ عليهم، كما بيّن ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع.

ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ بِالنَّارِ»(١).

ولذلك يُحِبُّ سبحانه عباده المؤمنين الموحِّدين ويفرح بتوبتهم، كما أن في ذلك أعظم لذّة العبد وسعادته ونعيمه، فليس في الكائنات شيء غير الله سبحانه يسكن القلب إليه، ويطمئن به، ويأنس به، ويتنعَّم بالتوجه إليه! ومن عبد غيره سبحانه، وحصل له به نوع منفعة ولذة؛ فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما إله غيره سبحانه لفسدتا، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢].

فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله فسد فسادًا لا يُرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه، ويكون الله وحده إلهه ومعبوده الذي يحبه، ويرجوه، ويخافه، ويتوكل عليه، وينيب إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

الوجه الثالث: أن فقر العبد إلى أن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا؛ ليس له نظير فيقاسُ به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس، وبينهما فروق كثيرة؛ فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبِّه، وهو كادحٌ إليه كدحًا فملاقيه، ولا بدله من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللَّذَّات والسرور بغيره ما حصل؛ فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعَّم بهذا في حال وبهذا في حال، وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعَّم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرّته، وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت، وفي كل حال، وأينما كان. فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، ودلَّ عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجَنان، لا كما يقوله من قلَّ نصيبه من التحقيق والعرفان، وبُخِس حظُّه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة، لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان، كما هي مقالاتٌ لمن بُخِسَ حظه من معرفة الرحمن، وقلَّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زَبَدَ الأفكار وزُبالة الأذهان، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرَّة عين الإنسان، وأفضل لذة الروح والقلب والجَنان، وأطيب نعيمٍ ناله من كان أهلاً لهذا الشأن، والله المستعان، وعليه التُّكلان.

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقةَ والكُلْفةَ بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنًا وتبعًا في بعضها؛ لأسبابٍ اقتضته لابد منها، هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه على عباده، وشرائعه التي شرعها لهم؛ هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبه سعادتها وفلاحها، وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها، ولا فرح، ولا لذة، ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧- ٥٨].

قال أبو سعيدٍ الخُدْريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَضْلُ اللهِ القُرْآنُ، وَرَحْمَتُهُ أَنْ جَعَلَكُمْ مِنْ أَهْلِهِ»(١).

وقال هلال بن يِسَاف: «بالإسلام الذي هداكم إليه، وبالقرآن الذي علَّمكم إياه، هو خيرٌ مما تجمعون من الذهب والفضة»(٢).

وكذلك قال ابنُ عباسٍ والحسن وقتادة: «فضله الإسلام، ورحمته القرآن»(٣).

وقالت طائفة من السلف: «فضله القرآن، ورحمته الإسلام»(٤).

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٢/ ١٩٥)، وابن أبي حاتم في التفسير (٦/ ١٩٥٨).
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٢/ ١٩٥).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٩٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩).
(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٩٧، ١٩٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٥٩).

والتحقيق: أن كُلًّا منهما فيه الوصفان الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتنَّ الله بهما على رسوله، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]؛ والله سبحانه إنما رفع من رفع: بالكتاب والإيمان، ووضع من وضع: بعدمهما.

فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفًا في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسمِّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفًا قط، بل سماها روحًا، ونورًا، وشفاءً، وهدًى، ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفًا في القرآن كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦])، تقدم الكلام على انتقاد الذين يصفون العبادات بأنها تكاليف شرعية، تكاليف.

أو يقولون: إن المراد من الصلاة رياضة البدن، تقوية البدن، والصيام لأجل الصحة، وما أشبه ذلك أن هذا كلام باطل.

والعبادات شرعت لأجل إصلاح القلوب،وطمأنينة النفوس ولهذا المؤمنون يتلذذون بها ويفرحون بها، ولا يصيبهم منها كلفة أو مشقة، إن كان فيها شيء من المشقة هذا غير مقصود.

إنما المقصود هو حياة القلوب وزكاة النفوس وراحة القلوب؛ فالعبادات روح، سماها الله روح؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]. روح وإيمان، يقين لا غير ذلك.

فهؤلاء لم يذوقوا طعم العبادة، ولذلك صاروا يسمونها بهذه الأسماء، ولا ينظرون منها إلا إلى الجانب السلبي، ولا ينظرون إلى الجانب الإيجابي العظيم.

تقدم كلام الشيخ على هذا ورده على هؤلاء، إلا أنه ذكر أن هناك شبهة لهم وهي قوله تعالى، يعني في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]. أفلا يدل هذا على أن العبادات يقال لها تكاليف؟

أجاب عن هذا: بأن هذا في مقام النفي ليس في مقام الإثبات، فنحن نتكلم عما تثبته العبادات في القلوب والنفوس والأعمال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل سماها روحًا، ونورًا، وشفاءً، وهدًى، ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك)**، الله سمى العبادات بهذه الأسماء ولم يسمها بأنها تكاليف.

الوجه الرابع: أن أفضل نعيم الآخرة وأجَلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جَلَّجَلَالُهُ، وسماع خطابه.

الشَّـرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الوجه الرابع: أن أفضل نعيم الآخرة وأجَلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب** جَلَّجَلَالُهُ)، المؤمنون لما تلذذوا بعبادة الله في الدنيا وآمنوا بالله وارتاحوا من الشكوك والأوهام.

وفي الآخرة يدخلون الجنة ويتنعمون فيها بنعيم لا يوصف؛ «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(1).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

لكن هناك ما هو أعظم من الجنة وأعظم من النعيم، وهو النظر إلى وجه الله الكريم في الدار الآخرة، فهؤلاء اللهُ يتجلى لهم، وينظرون إليه، وتَقَرُّ أعينُهم به؛ فينسون ما هم فيه من نعيم الجنة، ويتلذذون برؤية الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الذي آمنوا به في الدنيا ولم يروه، لكن رأوا آياته وبيناته ودلائله.

---

(١) أخرج البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]».

الله جَلَّ وَعَلَا يتجلى لهم في الآخرة، ويمنحهم قوة يقدرون فيها على رؤية الله والتنعم به برؤيته سبحانه، فهذا أعظم النعيم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أن أفضل نعيم الآخرة وأجلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب** جَلَّ جَلَالُهُ)، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]: من النضرة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] من النظر، فهي ناضرة في نعيمها عليها نضرة وسرور وجمال.

وأعظم من ذلك أنها: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، تنظره وتتنعم برؤيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: الجنة(٢)، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ الزيادة -كما في صحيح مسلم- هي: النظر إلى وجه الله سبحانه(٣).

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وهذا هو النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٥٠٦، ٥٠٧)، وتفسير القرطبي (١٩/ ١٠٧)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٥٥-١٦٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) أخرج مسلم (١٨١) عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسماع خطابه)**، وسماع كلامه، يكلمهم سبحانه ويسلم عليهم ويقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ**»، فيقولون: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(١).

(١) أخرجه في حديث طويل: ابنُ أبي الدنيا في صفة الجنة (ص٧٣-٧٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٢/ ٢٤٣-٢٤٨) عن أبي جعفر الباقر محمد بن عليٍّ بن الحسين مرفوعًا معضلًا. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٠٨): (رواه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم هكذا معضلًا، ورفْعُه منكَر، والله أعلم)، وقال ابن القيم في حادي الأرواح (ص٢٧٠): (ولا يصح رفعه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحسبه أن يكون من كلام محمد بن عليٍّ، فغلِط فيه بعض هؤلاء الضعفاء فجعله من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

كما في «صحيح مسلم» عن صُهَيب، عن النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ وَيُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا؟ وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟ ويُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»(١).

وفي حديثٍ آخَرَ: «فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»(٢).

فبيَّن النبيُّ ﷺ أنهم مع كمال تنعُّمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يُعطِهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحبَّ إليهم؛ لأن ما يحصل لهم به - من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين- فوق ما يحصل لهم من اللذّة والنعيم والتمتع بالأكل والشرب والحُور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عن النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٨، ٢٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وضعَّف إسناده ابن كثير في ، والبوصيري في زوائد ابن ماجه (١/ ٢٦)، وزاد ابن كثير في التفسير (٦/ ٥٨٣) عزوه إلى ابن أبي حاتم، وقال: (في إسناده نظر).

هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ وَيُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا؟ وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟ ويُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَمَا أَعْطَاهُمْ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»)، يكشف الحجاب الذي بينهم وبين ربهم فينظرون إليه؛ لأن الله حجابه النور فيكشفه لهم وينظرون إليه نظر عيان.

ولهذا قال سبحانه في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٥، ١٦].

فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته سبحانه.

وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٢، ٢٣].

وهضمَ معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يُعذَّبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عُدول عن المقصود إلى غيره.

وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضدَّ حال الكفار الذين هم عن ربهم محجوبون، ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين:١٦].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا قال سبحانه في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥])، الله حرم الكفار من رؤيته، من هذه الرؤية حرمهم منها، لما لم يؤمنوا به في الدنيا وكفروا به عاقبهم الله جَلَّ وَعَلَا؛ بأن حرمهم من رؤيته يوم القيامة.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾، يعني: يوم القيامة.

﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]. لا يرون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إهانة لهم وجزاءً على كفرهم به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال سبحانه في حق الكفار:** ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين:١٥- ١٦]**)**، فهم محجوبون عن الله ومقرهم النار، أما المؤمنون فإنهم يرون ربهم ومقرهم الجنة، فرق بين هذا وهذا.

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ﴾ [المطففين:١٧] يعني: هذا الجحيم الذي كنتم به تكذبون في الدنيا وتقولون ليس هناك جنة وليس هناك نار وليس هناك حساب، بل ليس هناك بعث، ينكرون البعث، فيقولون: إن الموت هو النهاية ولا يبعثون بعده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة، فقال في حق الأبرار:** ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين:٢٢،٢٣]**)**، ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين:٢٣]. ينظرون إلى ماذا؟ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أوليائه في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة؛ فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢].

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤]، مقابلة لتغامزهم بهم وضحكهم منهم.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أوليائه في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٢٩-٣١]. فرحين بما قالوه في المؤمنين وأذوهم وسخروا منهم، يفرحون بهذا.

فالله جَلَّ وَعَلَا جازاهم في الآخرة؛ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: في الجنة ويوم القيامة.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤]. ينظرون إليهم وهم يعذبون، ويضحكون منهم احتقارًا لهم وهذا جزاء، الجزاء من جنس العمل؛ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤].

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥]. ينظرون إلى أعدائهم في النار وما يجري لهم من العذاب، الذين كانوا يؤذونهم في الدنيا ويسخرون منهم ويضحكون من رؤيتهم.

ويقولون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]. يصفون المؤمنين بالضلال يقولون: مساكين لا يعلمون مضيعين أنفسهم، ضالين طريق خطأ، ضالون ليسوا على طريق، هكذا يقولون في حق المؤمنين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم،** ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢])، اليوم هناك من يقول: إن المسلمين ليسوا على شيء، ضائعين وليس عندهم حضارة ولا رقي ولا، ولا.

والكفار عندهم الرقي والحضارة يحتقر المسلمين، نفس الشيء، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢].

ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥]، فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه: هو الله سبحانه، والنظر إليه أجلُّ أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾.

فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بدَّ، إما بخصوصه، وإما بالعموم والإطلاق؛ ومَنْ تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك خصوصًا أو عمومًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥]، فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه: هو الله سبحانه)**، ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤]. هذه واحدة.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٥]. إلى أي شيء؟

ينظرون إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينظرون إلى أعدائهم في الجحيم وما يلاقونه من العذاب، أيهم الذي صار ضال: المؤمنون ولا الكفار؟ الله وضح هذا لهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه: هو الله سبحانه، والنظر إليه أجلُّ أنواع النظر وأفضلها)**، فهم ينظرون إلى وجه الله، هذا أعلى

شيء، ينظرون إلى ما لهم من النعيم والقصور في الجنة والأنهار، ينظرون إلى أعدائهم الذين يضحكون منهم في الدنيا ويسخرون منهم ينظرون إليهم ويضحكون مما أصابهم من العذاب.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٦]. هل جُزي الكفار على ما فعلوا في الدنيا؟ نعم، فالاستفهام هنا استفهام تقرير، يعني قد جزُي الكفار بما كانوا يفعلون في الدنيا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾)**، أنهم ليسوا على طريق، المسلمين ليسوا على طريق، ضائعين، وهم ليسوا على شيء، الكفار أرقى منهم، الكفار -يقولون- أرقى من المسلمين؛ أخذوا بأسباب الرقي والحضارة، وإلى آخره، ولا يدرون أن هذا استدراج لهم وإمهال لهم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨].

نعم، الإسلام لا يحرم الحضارة النافعة ولا يحرم الرقي النافع، يحث على هذا فإن حصل تقصير فهو من المسلمين أنفسهم ليس من الإسلام.

الإسلام يحثهم على الأخذ بالأسباب النافعة وعلى الصناعة؛ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١]. الله أمر المؤمنين باتخاذ الأسباب، أمرهم بأخذ المتعة المباحة من هذه الدنيا.

فالله جَلَّ وَعَلَا لم يحرم على المؤمنين هذه المنافع، أصلها هي مخلوقة للمؤمنين، هي أصلها للمؤمنين؛ ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]. في الدنيا يشاركهم الكفار فيها والأصل أنها للمسلمين، أما في الآخرة فلا نصيب للكفار، فيها يحرمون منها.

فصل

وكما أنه لا نِسبةَ لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى سبحانه، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته، ومعرفته، والشوق إليه، والأُنس به.

بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به، ومحبتهم له؛ فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة، فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له، كان الْتذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكما أنه لا نِسْبَةَ لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى سبحانه، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته، ومعرفته، والشوق إليه، والأُنس به)، المؤمنون حتى في الدنيا في نعيم، في راحة: في راحة القلب، في راحة نفوس، في إيمان فهم في نعيم في الدنيا.

بخلاف الكفار وإن كانوا عندهم أبهة وزينة من زينة الدنيا فهم في قلوبهم ظُلمةٌ موحشة، قلوبهم ليس فيها طمأنينة، ليس فيها راحة، فيها قلق ولذلك ترى هذا على وجوههم.

ترى وجوه المؤمنين عليها نور وعليها بهاء، وترى وجوه الكفار مظلمة وليس عندهم فرح ولا سرور، هذا شيء مشاهد ومرئي.

الوجه الخامس: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرٌّ، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خِذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عزٌّ ولا ذلٌّ، بل اللهُ وحْدَه هو الذي يملك له ذلك كلَّه.

قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢]، **وقال تعالى:** ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس:١٠٧]، **وقال تعالى:** ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٦٠].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوجه الخامس: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرٌّ، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خِذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عزٌّ ولا ذلٌّ، بل اللهُ وحْدَه هو الذي يملك له ذلك كلَّه)**، المخلوق عاجز وليس عنده ما يبذله لغيره، هو مشغول بنفسه، فقير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، مخلوق ضعيف فقير ليس عنده شيء.

فلذلك من يتعلق على المخلوق فقد تعلق على عاجز، تعلق على عاجز لا ينفع ولا يضر أبدًا؛ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٢]. عاجزين.

خلاف الذي يتعلق بالله عَزَّوَجَلَّ ويطلب من الله ويرجو الله، فهذا تعلق على الغني الحميد الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل اللهُ وحْدَه هو الذي يملك له ذلك كلَّه)**، على المسلم أن يعلق قلبه بالله: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»(١). فالأمور بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعلق قلبك بالله؛ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. يعني كافيه، كافيه كمل ما يهمه، ومن يتوكل على المخلوق ضاع، تعلق على عاجز أضعف منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى:** ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]**)**، لا أحد يقدر يمنع رحمة الله عن خلقه، ولا أحد ينزل رحمة الله إذا أمسكها عن خلقه.

الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]، «**لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٩، ٤١٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرج البخاري (٨٤٤، ٦٣٣٠، ٦٦١٥، ٧٢٩٢)، ومسلم (٥٩٣)، عن المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ** =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧])، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس:١٠٧].

من الممكن يقول واحد: لا، الأطباء يعالجون الإنسان ويشفى ويقوم.

نقول: الله كتب له ذلك هذا سبب فقط، المخلوق سبب، ولذلك أحيانًا يعجز الأطباء ويموت الإنسان بين أيديهم.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٧].

الروح، ارجعوا الروح، اجمعوا أطباء الدنيا كلها اجعلوهم يرجعون الروح؛ يأخذونها من الملك إذا قبضها، لا يستطيعون.

فما يحصل على يد الأطباء من العلاج والأدوية هذا من الله، الله هو الذي أعطاهم هذا وسخرهم، وأحيانًا لا تنتج هذه الأدوية ولا هذا الطب،

=لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». وأخرج مسلم (٤٧٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللهمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». وأخرج مسلم (٤٧٨) نحوه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ويموت الإنسان بين أيديهم، أو يصاب بعجز بين أيديهم ولا يستطيعون، فالأمر كله من الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾** [آل عمران:١٦٠])، النصر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن القوة والجنود هذه أسباب قد تنفع بإذن الله وقد لا تنفع، فلامانع.

بل يجب إعداد القوة وإعداد الجنود وأخذ الحذر، ولكن لا نعتمد على هذا، نعتمد على الله، النصر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، أنت اعمل الأسباب والنصر بيد الله، ليس بالأسباب التي معك، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة:٢٥، ٢٦]. من الملائكة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠]. فالأمر بيد الله، لا تعتمد على الأسباب، أنت خذ الأسباب النافعة لكن لا تعتمد عليها.

سأل رجل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ناقته، قال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

اعقلها بالعقال وتوكل على الله في حفظها، لا تقل: أنا عاقلٌ ناقتي وهذا يكفي! قد يأتي واحد يفك العقال أو يقطعه، أو هي تصير قوية وتقطعه وتهرب، العقال ليس هو الذي قيدها، لكن هو سبب من الأسباب.

وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك:٢٠، ٢١].

الشـرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣])، صاحب يس الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لما كفر قومه وكذبوا الرسل، جاء يسعى ويسرع؛ ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠].

يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٠-٢٧].

بلحظة دخل الجنة؛ لأنه خُتِمَ له بالإيمان فدخل الجنة؛ ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣])، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطاب لجميع الناس من بني آدم، المؤمنين والكفار، الأولين والآخرين.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: اذكروها يعني لا تنسوا النعمة، بل اذكروها في قلوبكم وبألسنتكم واشكروها حتى تبقى لكم، اذكروها بالشكر.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]. هل أحد يخلق مع الله عَزَّوَجَلَّ؟ ليس هناك أحد، كل يعرف حتى أبو جهل وأبو لهب وفرعون كلهم لا يثبتون أن هناك خالق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله هو المنفرد بالخلق.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٤]. لم يحضروا شيء.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]. تعجيز من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]. هم يعترفون أن آلهتهم لا تخلق، وأن الخالق هو الله وحده. إذًا لماذا لا يعبدون الله وحده ويتركون عبادة الأصنام؟

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣]؟ لا، لا خالق، لا أحد يقول نعم يوجد خلق مع الله، هؤلاء الكفار من أولهم إلى آخرهم والتحدي باقي دعهم

يحضرون واحد يقول نعم يوجد خالق غير الله، لم يقلها أحد، لم يقل هذا أحد أبدًا ولا عارض أحد هذا التحدي مع كفرهم وعنادهم.

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا معبود بحق، إذًا ما دام هكذا فالعبادة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿لَآ إِلَـٰهَ﴾ يعني: لا معبود بحق.

﴿إِلَّا هُوَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك:٢٠، ٢١])، هذا تحدي ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الملك:٢٠].

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٠].

ولو معكم قوات الدنيا والأسلحة الفتاكة إذا الله خذلهم لا يستطيعون أبدًا، فالله جَلَّ وَعَلَا يتحداهم في هذه الآيات، ولم يجيبوا عنها ولن يجيبوا أبدًا.

﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢٠، ٢١]. إن أمسك الرحمن رزقه فمن هو الذي يرزقكم؟

لا أحد يرزقكم غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا أمسك رزقه لا أحد يحضر رزقه، تحدي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطرٌّ إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

ومن كمال فطنة العبد ومعرفته أن يعلم أنه إذا مسَّه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فلا بد له من ناصر ورازق**)، لابد من هذا، وهذا لا يكون إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: النصر، والرزق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومن كمال فطنة العبد ومعرفته أن يعلم أنه إذا مسَّه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه**)، «**لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ**»(١).

فلو أعطاك الله لا أحد يمنع أبدًا ولا يستطيع، لو منعك الله لا أحد يعطيك أبدًا، هذا كله بيد الله، المنع والإعطاء بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وما يجري على أيدي الناس من النفع أو العطاء إنما هو سبب من الأسباب، الله هو الذي قدره لك على أديهم، هو الذي قدره وساقه على أيديهم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٩٥).

ويُذكَر أن الله سبحانه أوحى إلى بعض أنبيائه: «أدرك لي لطيف الفطنة وخفيَّ اللطف؛ فإني أحب ذلك. قال: يا رب، وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أوقعتُها؛ فَسَلْني أرفعها. قال: وما خفيُّ اللطف؟ قال: إذا آتيتُك حَبَّةً فاعلم أني ذكرتك بها»(١).

وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، فهو سبحانه وحْدَه - الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه ويكلؤه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال: إن وقعت عليك ذبابة فاعلم أني أوقعتُها؛ فَسَلْني أرفعها)، حتى الذباب لا تقدر تمتنع منه، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

الذباب إذا تسلط عليك يزعجك حتى لا يتركك تنام ولا يجعلك تستقر وهو ذباب، لو يسلطه الله عليك من السهل أن يبعدك عن فراشك وعن نومك.

يقولون: والذباب يطير من فوق العذرة ويقع على أنف الملك ولا يقدر يمنعه، دليل على عجز الإنسان.

---

(١) أورده أبو طالب المكي في قوت القلوب (٢/ ٢٣)، قال: «حدِّثت أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصِّدِّيقين: أدركْ لي ...».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾** [البقرة:١٠٢]**)**، السحر يضر ويقتل، لكن ذلك بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، فتوكل على الله ولن يضرك السحرة، السحرة لا يضرونك إذا توكلت على الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا السحر ضار وقاتل.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا عمران، قال: سمعت وهبًا يقول: قال الله عَزَّوَجَلَّ في بعض كتبه: «بِعِزَّتي إنه من اعتصم بي، فإن كادته السموات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن؛ فإني أجعل له من ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسِفُ به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكِلُه إلى نفسه، كفَى بي لعبدي مالًا، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفُق به منه»[١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: سمعت وهبًا)** يعني وهب بن منبه، وهذا من أحبار اليهود أسلم في اليمن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الله عَزَّوَجَلَّ في بعض كتبه: «بِعزّتي إنه من اعتصم بي، فإن كادته السموات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن؛ فإني أجعل له من ذلك مخرجًا»)**، لا تستطيع السموات والأرض ومن فيهن أن يكيدوا لأحد إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

مثل حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **«وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»**[٢].

---

(١) أخرجه مطولًا ومختصرًا: ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ١٠٨)، وأحمد في الزهد (ص٤٧)، وأبو داود في الزهد (ص٣٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٩/ ٢٩١٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٨)، من طرق عن وهب بن مُنَبِّهٍ.

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٩٥).

قال أحمد: وحدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدِّب، حدثنا من سمع عطاءً الخراساني، قال: «لقيت وهب بن مُنبِّه وهو يطوف بالبيت، فقلت له: حدِّثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا، وأوجِزْ، قال: نعم، أوحى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا داود، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيَّته، فتكيده السموات السبع ومن فيهنّ، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن مخرجًا. أما وعزّتي وعظمتي لا يعتصم مني عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته؛ إلا قطعتُ أسباب السماء من يده، وأسَخْتُ الأرضَ من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك»[١].

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أوحى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا داود! أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيَّته، فتكيده السموات السبع ومن فيهنّ، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له من بينهن مخرجًا)، هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٣]. ومن توكل على الله كفاه.

لكن التوكل بالقلب ليس باللسان تقول: توكلت على الله، باللسان فقط، بالقلب حتى لو لم تقل بلسانك إذا توكلت على الله بقلبك الله يكفيك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) أخرجه من طريق أخرى أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٥، ٢٦).

وهذا الوجه أظهر للعامة من الذي قبله، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، ومنه دعت الرسل إلى الوجه الأول.

وإذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الوجه الأول، وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه.

ويقتضي أيضًا محبته وعبادته، لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه إلى الوجه الأول.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه)، لكن لاحظوا أنه لا يكفي التوكل على الله بدون أخذ الأسباب، لابد من الجمع بين أخذ الأسباب النافعة مع التوكل على الله؛ فلا تعتمد على السبب وتترك التوكل على الله، ولا تعتمد على التوكل على الله وتترك الأسباب؛ الله أمر بالأخذ بالأسباب مع التوكل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لابد من الجمع بين الأمرين.

ونظير ذلك من ينزل به بلاءٌ عظيم، أو فاقةٌ شديدة، أو خوف مُقلِقٌ، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه، حتى فتح له من لذيذ مناجاته، وعظيم الإيمان به، والإنابةِ إليه ما هو أحبُّ إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولًا حتى يطلبه، ويشتاق إليه.

وفي نحو ذلك قال القائل(١):

جَزَى اللهُ يَوْمَ الرَّوْعِ خَيْرًا فَإِنَّهُ ... أَرَانَا عَلَى عِلَّاتِهِ أُمَّ ثَابِتِ
أَرَانَا مَصُونَاتِ الحِجالِ وَلَم نَكُنْ ... نَرَاهُنَّ إِلَّا عِنْدَ نَعْتِ النَّوَاعِتِ

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونظير ذلك من ينزل به بلاء عظيم، أو فاقة شديدة، أو خوف مُقلِقٌ، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه، حتى فتح له من لذيذ مناجاته)، يعني أن المصائب والشدائد قد يكون فيها خير للإنسان؛ أن يلجأ إلى الله ويتضرع إليه ويدعوه.

ثم يجد في قلبه بعد ذلك محَبَّةً للدعاء، ومحبةً للتضرع إلى الله، وتكون هذه الشدائد سببَ خير له؛ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي نحو ذلك قال القائل:

جَزَى اللهُ يَوْمَ الرَّوْعِ خَيْرًا فَإِنَّهُ ... أَرَانَا عَلَى عِلَّاتِهِ أُمَّ ثَابِتِ

---

(١) نسب البيتين لابن ميادة: المستعصميُّ في الدر الفريد وبيت القصيد (٦/ ٢٧، ٢٨).

أَرَانَا مَصُونَاتِ الحِجَالِ وَلَم نَكُنْ نَرَاهُنَّ إِلَّا عِنْدَ نَعْتِ النَّوَاعِتِ)،

جَـزَى اللهُ الـشَّـدَائِـدَ كُـلَّ خَيْرٍ بِهِنَّ عَرَفْتُ عَدُوِّي مِنْ صَدِيقِي

الشدائد تعرِّفك عدوك من صديقك إذا أصابتك شدة، وقت الرخاء ترى كل الناس أصدقاء، لكن إذا جاءت الشدة لا يبقى إلا أهل الصدق معك وأهل الأُخُوَّة الصادقة، قال الشاعر(١):

وَمَا أَكْثَرَ الإِخْوَانَ حِينَ تَعُدُّهُمْ وَلَكِنَّهُمْ فِي النَّائِبَاتِ قَلِيلُ

هم في النائبات قليل، لكن وقت الرخاء -ما شاء الله- الناس كلهم أصدقاء لك!

---

(١) البيت منسوب للشافعي في شرح مقامات الحريري للشُّريشي (٢/ ٤٧٤).

الوجه السادس: أن تعلُّق العبد بما سوى الله تعالى مَضَرَّةٌ عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة الله، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضرَّه ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب؛ فلا بد أن يُسْلبَه ويفارقه.

فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضره محبته ويعذّب بمحبوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة؛ والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤- ٣٥].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو أحب سوى الله ما أحب؛ فلا بد أن يُسْلبَه ويفارقه)**، في الأثر: أن الله جَلَّ وَعَلَا قال لرسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ**»(١).

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ٣٠٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٢٦) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الحاكم: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ١١٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٠٢) من حديث علي ابن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٢٥) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حكمة عظيمة، ثلاث: «يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن أحبه لغير الله فلا بد أن تضره محبته ويعذّب بمحبوبه إما في الدنيا وإما في الآخرة)**، ولذلك الحب في الله، والبغض في الله الإيمان أوثق عرى الإيمان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤- ٣٥])، ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾، ما معنى يكنزون الذهب والفضة؟

﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤]: يعني لا يخرجون الزكاة، ليس المراد أنهم ينفقون الأموال كلها، لا، المراد ينفقون: يخرجون الزكاة، فالذي يبخل في الزكاة هذا مآله - والعياذ بالله -.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٥]. منعهم حب المال من إخراج الزكاة، فصار هذا المال عذابًا عليهم، الذي يحبونه صار عذابًا عليهم.

الله لم يأمرك بأنك تنفق مالك كله، أمرك بأن تخرج الزكاة: ربع العشر، نصف العشر، العشر، سهم قليل إذا أخرجته فقد أنفقته في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥])، هذا في المنافقين، والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**حيث قال: ينتظم قوله:** ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ **بعد فصل آخر ليس بموضعه، على تأويل: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»**)، يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة، يعذبهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا قبل الآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال الله تعالى:** ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥])، هذه الآية في المنافقين الذين اظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر فسموا بالمنافقين، هذا اسمهم في القرآن.

ومنها النفاق، والنفاق: هو الخروج، ومنه النفقة إذا أُخرجت[(١)]؛ فهم خرجوا من الإيمان، ليس عندهم إيمان، وأظهروا الإسلام؛ لأجل أن يعيشوا مع المسلمين خوفًا من القتل.

---

(١) انظر: العين (٥/ ١٧٨)، وجمهرة اللغة (٢/ ٩٦٧)، وتهذيب اللغة (٩/ ١٥٦)، والمحكم والمحيط الأعظم (٦/ ٤٤٨)، ومختار الصحاح (ص٣١٧).

والرسول ﷺ قبل منهم علانيتهم وترك سرائرهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والله جَلَّوَعَلَا ذمهم وعابهم في القرآن الكريم، وكره هذا لأجل الحذر منه؛ لأنهم عدو باطني، الكفار الأصليون أعداء ظاهرون يعرفهم المسلمون ويتخذون الوقاية منهم.

لكن هؤلاء يظهرون الإسلام ويعيشون مع المسلمين فهم: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:٩]. ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

الله جَلَّوَعَلَا قال فيهم: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]. فينبغي الحذر منهم.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم:٩].

الكفار يجاهدون بالسلاح، والمنافقون يجاهدون بالحجة والبيان وكشف أسرارهم؛ حتى يعرفهم المسلمون ويحذروا منهم.

الله جَلَّوَعَلَا قد يعطيهم فصاحة في الكلام؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ﴾: يعطيهم جمالًا في المظاهر ويعطيهم فصاحة باللسان من باب الابتلاء والامتحان.

﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾: عندهم فصاحة يؤثرون على من سمعهم.

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾: يعني دائمًا هم يتوقعون العقوبة، ويخافون أن تنكشف أسرارهم عند المسلمين فيعاقبونهم.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: من الخوف، عندهم خوف، رعب.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]: فيجب الحذر منهم، وعدم الانخداع بهم ولو أظهروا ما أظهروا من التملق ومن الدعوة إلى الله بزعمهم؛ فيهم دعاة، فيهم أحزاب، فيهم طوائف فينبغي الحذر منهم.

﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم:٩].

الله جَلَّ وَعَلَا يبتليهم فيعطيهم الأموال، يكونون أثرياء، ويعطيهم الأولاد وليس ذلك من صالحهم، وإنما هو لشقائهم؛ ليشقيهم الله بالأموال ويشقيهم بالأولاد.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة:٥٥]: فهم يتعبون في تحصيل الأموال ويخافون من ضياعها ويتعبون أيضًا مع الأولاد، الأولاد يتعبونهم؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

الله أنزل فيهم سورة التوبة، فضح كثيرًا من أسرارهم، ولهذا تسمى سورة التوبة بالفاضحة؛ لأنها فضحتهم.

وأنزل فيهم -أيضًا- سورة أخرى؛ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون:١]. سورة المنافقون. ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ من أولها إلى آخرها فيهم ليحذرهم المسلمون؛ لأنهم يعيشون بينهم ويخدعونهم فيجب الحذر منهم.

فالأموال والأولاد فتنة؛ ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: ابتلاء واختبار.

من يطيع الله في المال، من يطيع الله في الأولاد، ومن يعص الله في المال يعص الله في الأولاد، والنفس تحب الأموال وتحب الأولاد، وقد تنحرف مع المال وتنحرف مع الأولاد، تعصي الله عَزَّوَجَلَّ، هذه فتنة.

ولم يُصِبْ من قال: إن الآية على التقديم والتأخير كالجرجاني؛ حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصلٍ آخَرَ ليس بموضعه، على تأويل: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة»(١).

وهذا القول يُروى عن ابن عباس، وهو منقطعٌ(٢)، واختاره قتادة وجماعة(٣).

وكأنهم لما أَشكل عليهم وجهُ تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فرُّوا إلى التقديم والتأخير.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولم يُصِبْ من قال: إن الآية على التقديم والتأخير كالجرجاني)، الجُرجاني: المفسر، إمام جليل في التفسير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا القول يُروى عن ابن عباس، وهو منقطعٌ)، يعني: منقطع السند.

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ٤٤٢)، وتفسير الطبري (١١/ ٥٠٠)، ومعاني القرآن وإعرابه للزَّجَّاج (٢/ ٤٥٤)، وتفسير الثعلبي (٥/ ٥٤)، وتفسير الماوردي (٢/ ٣٧٢)، والتفسير البسيط للواحدي (١٠/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٥٠٠)، من طريق عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس؛ فهو منقطع كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) أخرج الطبري (١١/ ٥٠٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨١٣)، عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «هَذِهِ مِنْ تَقَادِيمِ الْكَلَامِ، يَقُولُ: لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكأنهم لما أشكل عليهم وجهُ تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فرُّوا إلى التقديم والتأخير)**، هم نظروا إلى الظاهر أن الأموال فيها مسرة للنفوس، والأولاد فيهم مسرة أيضًا، فكيف يكونون عذابًا، إنما العذاب في الآخرة، يقولون.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ [التوبة:٥٥]: يعني في الآخرة، والآية تأبى هذا، الآية: يعذبهم بها في الحياة الدنيا.

وكأنهم يقولون: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ في الحياة الدنيا.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ [التوبة:٥٥] يعني في الآخرة.

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها، فاختلفوا في هذا التعذيب:

فقال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد[١].

واختاره ابن جرير، وأوضحه، فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راجٍ من الله جزاءً، ولا من الآخذ منه حمدًا ولا شكرًا، بل على صُغْرٍ منه وكُرْهٍ[٢]. وهذا أيضًا عدولٌ عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فقال الحسن البصري: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد)**، يعذبهم بأنهم يمنعون الحق الواجب فيها بخلًا.

وإذا أخذت منهم فيكرهون هذا، فهم في عذاب من الزكاة، وفي عذاب الانفاق في الجهاد، وهذا يؤخذ منهم، يأخذه المؤمنون منهم فيعذبون بهذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(واختاره ابن جرير، وأوضحه، فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك)**، وهم لا يريدون ذلك، لا يريدون؛ لأنه ليس عندهم إيمان، فالمال يكون متمكنًا من قلوبهم لا يسمحون به.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ٥٠١).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥٠١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل على صُغرٍ منه وكُرْهٍ)**، هو لابد ألا تؤخذ منه؛ لأنه يظهر الإسلام، يظهر الإسلام تؤخذ منه الزكاة.

ويؤخذ منه أيضًا للجهاد في سبيل الله، وهو لا يرجو الآخرة، هو يريد المال لا يريد الآخرة فيعذب إذا أخذت منه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا أيضًا عدولٌ عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية)**، هذا تعقيب ابن القيم على تفسير الحسن.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يُعرَّضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسَبْي أولادهم؛ فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضًا من جنس ما قبله؛ فإن الله سبحانه أقَرَّ المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر، وتولّى سرائرهم.

فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبي أولادهم، فإن الإرادة هاهنا كونيّة بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولابد، وما لم يشأ لم يكن.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يُعرَّضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسَبْي أولادهم؛ فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك)، يخافون على أولادهم أنهم يسترقون، وأموالهم أنها تؤخذ غنيمة، فهم في خوف على المال وعلى الأولاد؛ لأن ليس عندهم إيمان فيخشون أنهم يظهر كفرهم وتؤخذ منهم أولادهم وأموالهم معاملة الكفار، يخشون أن يعاملون معاملة الكفار؛ لأنهم كفار في الباطن؛ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن الإرادة هاهنا كونيّة بمعنى المشيئة، وما شاء الله كان ولابد، وما لم يشأ لم يكن)، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٥٥]. إرادة كونية، وليست إرادة شرعية.

فالصواب والله أعلم أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبِّيها ومُؤْثِريها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاقِّ في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبرُ همِّه، وهو حريص بجهْده على تحصيلها.

والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب، كقوله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ»(١)، وقوله ﷺ: «إِنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»(٢)؛ أي: يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب)، ليس العذاب عذاب النار، وإنما هو عذاب المشقة في الدنيا والتعب والحرص والجشع، التألم النفسي، تألم نفسي، عذاب نفسي ليس عذابًا جسديًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كقوله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ»)، من العذاب، ليس من العذاب في الآخرة، وإنما هو من العذاب: يعني ما في السفر من التعب والمشقة والسهر وغير ذلك، تعب بدني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله ﷺ: «إِنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»؛ أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم)، هذا الحديث في الصحيح: «إِنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ». أو «بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ».

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٠٤، ٣٠٠١، ٥٤٢٩)، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قالوا: كيف يعذب، وهذا ليس من عمله، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]؟

أجابوا عن هذا بجوابين:

الجواب الأول: أن هذا محمول على الذي يوصي أهله بالنياحة عليه، قبل أن يموت يوصيهم؛ فهو رضي بهذا وأوصاهم به.

إِذَا أَنَا مِتُّ فَابْكِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يَا أُمَّ مَعْبَدِ[1]

صار يوصي بهذا، شق الجيب، فالحديث محمول على هذان والله أعلم.

والجواب الثاني: وهو الصحيح ما ذكره هنا: أن المراد ليس تعذيب النار، وإنما تعذيب الألم؛ أنه يتألم إذا بكوا عليه، ويناح عليه، يتألم من فعلهم تألمًا نفسيًا، يضايقه هذا الشيء، يضايقه وهو في قبره هذا الشيء ولا يرضى به، وهذا هو الأقرب والله أعلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم)**، لأنه لا يعاقب بفعل غيره؛ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤].

(١) البيت لطَرَفة بن العبد، وهو في ديوانه (ص٢٩)، وفي جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي (ص٣٣٨)، وأمالي المرتضى (١/ ٣٤١)، ومحاضرات الأدباء للراغب (٢/ ٥١٣).

وهكذا مَن الدنيا كلُّ همِّه أو أكبرُ همِّه، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جعل الله غِناه في قلبه)، الغنى، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ»[2].

فالله يعطي غنى القلب لعباده المؤمنين فيرتاحون بذلك ولو ليس معهم من الدنيا إلا القليل، يرتاحون بذلك، وأما إذا فقدوا غنى القلب فلو جمعت لهم الدنيا كلها لم يستريحوا، يريدون المزيد، يريدون المزيد، فالغنى ليس بكثرة المال، الغنى هو غنى القلب، هذا هو الغني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ)، هذه الفوائد التي تحصل من غنى القلب: أن الله يجمع له شمله، ويفرج همه.

وأيضًا تأتيه الدنيا؛ يرزق المال، لكن المال لا يكون في قلبه، يكون المال في يده لا في قلبه؛ ينفقه ويتصدق منه ويقدمه لآخرته.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٧، ٣٠٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٢٣١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ)**، لو اجتمعت له الدنيا كلها لم يقنع؛ لأنه فقير القلب، فالفقر فقر القلب، ليس الفقر: قلة المال، فقر القلب.

ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيتُ الشَّمْل وتفرّقُ القلب، وكون الفقر نُصْبَ عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عُشَّاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[١].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»)، الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧].

﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾: لا تنشغل بطلب الرزق وتترك العبادة، أو تشتغل بالعبادة وتترك طلب الرزق، اجمع بين هذا وهذا، هذا شأن المؤمن.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠]: اجمع بين العبادة وطلب الدنيا من الوجه المباح، والتجارة المباحة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦) وقال: (حديث حسن غريب)، وابن ماجه (٤١٠٧)، وأحمد (١٤/ ٣٢١)، وابن حبان (٢/ ١١٩)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٤٨١)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي.

لم يقل لهم إذا فرغتم من الصلاة اجلسوا في المسجد، لا تخرجون، اعبدوا الله في المسجد ولا تخرجون.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ ﴾: ﴿ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ هذا أمر، هذا أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: لماذا؟ ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠]: اطلبوا، اطلبوا الرزق.

وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومجاذبة أهلها إياها، ومقاساة معاداتهم، كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليُوطِّن نفْسَه على تحمُّل المصائب»(١).

ومُحِبُّ الدنيا لا ينفكُّ من ثلاث: هَمٍّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئًا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه.

كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا»(٢).

وقد مثَّل عيسى ابنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ محبَّ الدنيا بشارب البحر؛ كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا(٣).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليُوطِّن نفسَه على تحمل المصائب»)، حب الدنيا شقاء.

---

(١) قال ابن الدنيا في كتاب الاعتبار (ص٤٤): أخبرني عمر بن بكير، عن شيخ من قريش، قال: «قام إلى سليمانَ زيادُ بن عثمان بن زياد لما تُوُفِّيَ ابنُه أيوب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الرحمن بن أبي بكرة كان يقول: «مَنْ أَحَبَّ الْبَقَاءَ فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى الْمَصَائِبِ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٦، ٦٤٣٧)، ومسلم (١٠٤٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البخاري (٦٤٣٨) من حديث ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (ص: ١٤٦)، وكذا في الزهد له (ص١٥١)، قال: قرأت في كتاب داود بن رُشيد، حدثني أبو عبد الله، قال: قال عيسى ابن مريم: «طَالِبُ الدُّنْيَا مِثْلُ شَارِبِ مَاءِ الْبَحْرِ؛ كُلَّمَا ازْدَادَ شُرْبًا ازْدَادَ عَطَشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومُحِبُّ الدنيا لا ينفكُّ من ثلاث: هَمٍّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي)**، هو في همٍّ وفي تعب وفي حسرة دائمًا وأبدًا، هذا محب الدنيا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما في الحديث الصحيح عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى لهما ثالثًا»)**، هذا في الحديث الصحيح.

ويقال: إنها آية من القرآن منسوخة: **«لَوْ أُعْطِي ابْنَ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»**(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد مثل عيسى ابن مريم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **محب الدنيا بشارب البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا)**؛ لأن البحر مالح لا يرفع العطش، كلما ازداد شربه ازداد عطشه، كذلك الدنيا مثل البحر إذا شربت منها تزداد عطشًا.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٦٤٣٧، ٦٤٤٠)، وصحيح مسلم (١١٦) (١٠٤٨)، و(١١٨) (١٠٤٩)، و(١١٩) (١٠٥٠)، وفضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٣٢٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٠٠)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص: ٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٧٥).

وذكر ابن أبي الدنيا: أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد فإن الدنيا دار ظَعْنٍ، ليست بدار إقامة، إنما أُنزل إليها آدم عقوبةً، فاحذرها يا أمير المؤمنين! فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتيل، تُذِلُّ من أعزها، وتُفقِر من جمعها؛ كالسُّمِّ يأكله من لا يعرفه وهو حَتْفُه.

فكن فيها كالمداوي جِراحَه، يحتمي قليلًا، مخافة ما يكره طويلًا، ويصبر على شدة الدواء؛ مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرّارة، الخدَّاعة الختَّالة، التي قد تزينت بخِدَعها، وفتنت بغرورها، وخيَّلت بآمالها، وتشوَّفت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهةٌ، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلِّهم قاتلة. فعاشق لها قد ظَفِرَ منها بحاجته فاغترَّ وطغى، ونسي المعاد فشُغِل بها لُبُّه، حتى زالت عنها قدمُه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه، وحسرات الفوت.

وعاشق لم يَنل منها بُغْيته، فعاش بغُصَّته، وذهب بكَمده، ولم يدرك منها ما طلب، ولم تَسترِحْ نفسُه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدِم على غير مهاد.

فكن أسرَّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها؛ فإن صاحب الدنيا كلما اطمأنَّ منها إلى سرور أشخصَتْه إلى مكروه وُصِل الرخاء منها بالبلاء، وجُعِلَ البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوبٌ بالحزن، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد. فلو كان ربُّها لم يخُبر عنها خبرًا، ولم يَضرب لها مثلًا، لكانت قد أيقظت النائم، ونبَّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ، وعنها زاجر؟ فما لها عند الله قَدْرٌ ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عُرِضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها، لا ينقصها عند الله جَناح بَعوضة، فأبى أن يقبلها. كره أن يحبّ ما أبغض خالقُه، أو يرفع ما وضع مليكُه، فزَوَاها عن الصالحين اختبارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أُكرم بها، ونسي ما صنع الله برسوله حين شدَّ الحجر على بطنه»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن الدنيا دار ظَعْنٍ)**، أي: رحيل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(إنما أُنزل إليها آدم عقوبةً)**، إنما أُنزل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الدنيا عقوبةً له على أكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض؛ عقوبة له.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كالسُّمِّ يأكله من لا يعرفه وهو حَتْفُه)**، يعني: موته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وتشوَّفت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة؛ فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهةٌ، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلِّهم قاتلة)**، هي تتزين للعشاق ويريدونها، فمن تزوجها قتلته، هذا شأنها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فكن أسرَّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها)**، يعني لا يغرك السرور بها، بل احذر، أنت مسرور بها، ومع السرور احذر، احذر منها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلو كان ربُّها لم يخُبر عنها خبرًا، ولم يَضرب لها مثلًا)**، الله جَلَّ وَعَلَا ضرب لها الأمثال.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (ص٤٠- ٤٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣١٢- ٣١٤).

قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]. يعني الشيطان. وحذر منها، لا تغرك الدنيا.

وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤].

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾: كأن لم تتزين بالأمس وتزهو بالأمس صارت حصيدًا يابسة، بعد أن كانت مزهرة وجميلة أصبحت: ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف:٤٥]. ﴿حَصِيدًا﴾. الله ضرب لها الأمثال وحذر منها.

ثم قال بعد هذا: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]. يعني الجنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فما لها عند الله قَدْرٌ ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها)، «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا**» -هذا في الحديث-: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُسَاوِي عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[1]؛ فهي رخيصة عند الله.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١)، من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولقد عُرِضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها، لا ينقصها عند الله جَناح بَعوضة، فأبى أن يقبلها)**، عُرِضت على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعطى مفاتيح الأرض، وأن يكون ملكًا نبيًّا مثل داود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، كان ملكًا ونبيًّا، فأبى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، وعاش عيشة الفقراء، تأتيه الأموال وينفقها في سبيل الله ويعيش عيشة الفقراء، حتى إنه يربط الحجر على بطنه من الجوع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، ويجوع يومًا ويشبع يومًا(٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونسي ما صنع الله برسوله حين شدَّ الحجر على بطنه)**، مع أنه أكرم الخلق على الله، كان يجوع ويشد الحجر على بطنه من الجوع عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

انتهت رسالته إلى عمر، كلام جيد، رسالة عظيمة.

---

(١) ورد ذلك في عدة أحاديثَ؛ منها الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٠٤٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «جِئْتُ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يُحَدِّثُهُمْ، وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ عَلَى حَجَرٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَّبَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَطْنَهُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الجُوعِ...» الحديثَ. ومنها ما أخرجه البخاري (٤١٠١) عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاؤُوا النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنَا نَازِلٌ»**. ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا...».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في الشعب (١٣/ ٤٣) واللفظ له، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٣)، عن أبي أُمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي** عَزَّ وَجَلَّ **أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ، وَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَدَعَوْتُكَ»**.

وقال الحسن أيضًا: «إن قومًا أكَرموا الدنيا فصَلبتْهم على الخُشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها»[1]. وهذا باب واسع.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الحسن أيضًا: «إن قومًا أكَرموا الدنيا فصَلبتْهم على الخُشب)، هم أكرموها، وهي أهانتهم، وصلبتهم على الخشب.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد (ص٢٣٣)، وكذا في ذم الدنيا (ص١٨٩).

وأهل الدنيا وعُشَّاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها.

ولما كانت هي أكبر هَمّ مَن لا يؤمن بالآخرة، ولا يرجو لقاء ربه كان عذابه بها بحسب حرصه عليها، وشدة اجتهاده في طلبها.

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأملْ حال عاشق فانٍ في حب معشوقه، فكلما رامَ قربًا من معشوقه نأى عنه، ولا يفي له، ويهجره ويَصِلُ عدوه، فهو مع معشوقه في أنكد عيش، يختار الموت دونه، فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلوُّن، لا يأمن عاشقُه معه على نفسه، ولا على ماله، مع أنه لا صبر له عنه، ولا يجد عنه سبيلًا إلى سَلْوةٍ تُريحه، ولا وصالٍ يدوم له.

فلو لم يكن لهذا العاشق عذابٌ إلا هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حِيْل بينه وبين لذّاته كلها، وصار معذَّبًا بنفس ما كان ملتذًا به، على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده، ومصالح معاده؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمعشوقه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشركاء)، يعني الدنيا.

وسنعود إلى تمام الكلام في هذا الباب في باب ذكر علاج مرض القلب بحب الدنيا إن شاء الله تعالى؛ إذ المقصود بيان أن من أحب شيئًا سوى الله تعالى، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معينًا له على طاعة الله، عُذِّب به في الدنيا قبل اللقاء.

كما قيل[1]:

أَنْتَ القَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

فإذا كان يومُ المعاد ولَّى الحكَمُ العدلُ سبحانه كلَّ محب ما كان يحبه في الدنيا؛ فكان معه إما منعَّمًا أو معذبًا.

ولهذا «يُمثَّل لمحبِّ المالِ مالُه شجاعًا أقرع، يأخذ بِلِهْزِمَتَيْهِ، يقول: أنا مالُكَ، أنا كَنزُك، وتُصَفَّحُ له صفائحُ من نار، فيُكْوَى بها جَبينُه وجَنْبُه وظَهْرُه»[2].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذ المقصود بيان أن من أحب شيئًا سوى الله تعالى، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معينًا له على طاعة الله، عُذِّب به في الدنيا قبل اللقاء)، من أحب شيئًا لغير الله عذبه الله بما أحب، عذبه الله بما أحب.

---

(١) البيت لابن الفارض، انظر: ديوانه (ص١٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٣، ٤٥٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ. ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآيَةَ». وأخرجه بنحوه مطوَّلًا: مسلمٌ في صحيحه (٩٨٧).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ولهذا «يُمثَّل لمحبِّ المالِ مالُه شجاعًا أقرع، يأخذ بِلِهْزِمَتيْهِ، يقول: أنا مالُك**)، كما في الحديث الصحيح، وفي الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وجاء في الحديث: أنه إذا وضع في قبره جاءه ثعبان أقرع مملوء من السم فأخذ بلهزمتيه وأفرغ السم فيه، وقال: أنا كنزك، أنا مالك.

وفي القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

والمراد بالكنز: هو ما لا تخرج زكاته، الذي لا تخرج زكاته هذا كنز، ليس الكنز المدفون مثلما يفهم العوام، الكنز هو الذي لا تخرج زكاته، وما أخرجت زكاته فليس بكنز؟

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فإذا كان يومُ المعاد ولَّى الحكَمُ العدلُ سبحانه كلَّ محب ما كان يحبه في الدنيا؛ فكان معه إما منعَّمًا أو معذبًا**)، في الحديث: المرء مع من أحب يوم القيامة، فالذي يحب الأخيار يكون مع الأخيار، والذي يحب الأشرار يكون مع الأشرار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وتُصَفَّح له صفائحُ من نارٍ، فيُكْوَى بها جَبينه وجَنبه وظهره**)، كما في الآية.

عرفنا أن المراد بالكنز: هو الذي لا تخرج زكاته.

كذلك عاشق الصُّوَر إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله، جُمِع بينهما في النار، وعُذِّب كل منهما بصاحبه، قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا في الدنيا على الشرك، يَكْفُرُ بعضهم ببعض يوم القيامة، ويَلعنُ بَعْضُهم بَعْضًا، ومأواهُمْ النارُ وما لهم من ناصرين.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كذلك عاشق الصُّوَر إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله)، عاشق الصور: الذي يعشق النساء ويعشق الجميلات في غير الحلال يكن عذابًا عليه؛ وإنا لمنهن ما يريد إلا أن هذا عذاب عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعُذِّب كل منهما بصاحبه)، الزناة والزواني يوم القيامة يكونون في تنور من نار- والعياذ بالله- يرتفع بهم ويهبط بهم[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧])، فالأخلاء إذا كانوا في غير طاعة الله، متحابين في غير الله فإنهم يلعن بعضهم بعضًا يوم القيامة، ويعادي بعضهم بعضًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧) عن سَمُرة بن جُندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديث الرؤيا الطويل، وفيه: «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا». ثم قال في تفسيرها: «وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي».

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]: يلعن بعضهم بعضًا؛ يقول: أنت السبب، أنت الذي أهلكتني، أنت الذي أوقعتني في هذا، أنت، أنت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا في الدنيا على الشرك، يَكْفُرُ بعضهم ببعض يوم القيامة، ويَلْعنُ بَعْضُهم بَعْضًا)**، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومأواهُمْ النارُ وما لهم من ناصرين)**، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه.

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى؛ ولهذا يقول تعالى يوم القيامة للخلق: «أَلَيْسَ عَدْلًا مِنِّي أَنْ أُوَلِّيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ يَتَوَلَّى فِي دَارِ الدُّنْيَا؟»(١).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات:٢٢-٢٥]. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾: أشباههم ونظراءهم(٣). وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧]؛

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٣٢) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: أَلَيْسَ عَدْلًا مِنِّي أَنْ أُوَلِّيَ كُلَّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؟ ثُمَّ يُرْفَعُ لَهُمْ آلِهَتُهُمْ، فَيَتَّبِعُونَهَا حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا بِكُمْ؟ قَالُوا: مَا نَرَى إِلَهَنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ قَالَ: فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٣): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه فرات ابن السائب، وهو ضعيف».

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٠)، ومسلم (٢٦٤١) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير (١٩/ ٥١٩). وقال السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٨٣): (أخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث من طريق النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، قال: «أمثالهم الذين هم مثلهم، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا، =

فقرن كل شكل إلى شكله، وجعل معه قرينًا وزوجًا: البر مع البر، والفاجر مع الفاجر.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا يقول تعالى يوم القيامة للخلق: «أليس عدلًا مني أن أُولِّي كلَّ رجلٍ منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟»)، يعني يجمع بينه وبين من يحب في الدنيا، المؤمن مع المؤمنين، والكافر مع الكفار، هذا عدلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المرء مع من أحب يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المرء مع من أحب»)، لما قال له رجل: يا محمد، متى الساعة؟ قال: ماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩])، هذا المصير يوم أن كل خليل يلعن خليله إذا كانت الخلة على غير طاعة الله، والمحبة في غير الله عَزَّ وَجَلَّ؛ تنقلب إلى عداوة وبغضاء وتلاعن بينهم، والعياذ بالله.

=وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، أزواج في الجنة وأزواج في النار»).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾)، وقال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾: يعني أشباههم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ [التكوير:٧])، ﴿زُوِّجَتۡ﴾: يعني كل شكل يجعل مع شكله؛ المؤمن مع المؤمنين، والكافر مع الكفار.

والمقصود أن من أحب شيئًا سوى الله تعالى فالضرر حاصل له بمحبوبه، إن وُجد وإن فُقد؛ فإنه إنْ فَقَدَه عُذِّب بفواته، وتألم على قدر تعلُّق قلبه به، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فواته، أضعافُ أضعافٍ ما في حصوله له من اللذة:

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وجَدَ الهَوَى حُلْوَ المَذَاقِ

تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ حَالٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَهِ أَوْ لاشْتِيَاقِ

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا حَذرَ الْفِرَاقِ

فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ التَّلاقِي ... وَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الْفِرَاقِ[1]

وهذا أمرٌ معلومٌ بالاستقراء والاعتبار والتجارِب.

ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاهُ»[2].

فذِكْرُ الله جميع أنواع طاعته، فكل من كان في طاعته فهو ذاكره، وإن لم يتحرك لسانه بالذكر، وكل من والاهُ الله فقد أحبَّه وقربَه، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه، وهي نائلةٌ كلَّ ما عداه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولهذا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه

(١) تُنسب الأبيات لنصيب، انظر: شعر نصيب بن رباح (ص١١١).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الترمذي وغيره: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا؛ إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ**»، «**مَلْعُونَةٌ**» يعني: مذمومة.

«**إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ**»: فإنه محمود وممدوح. والمراد بذكر الله هنا: ليس المقصود الذكر باللسان فقط، بل كل الطاعات ذكرٌ لله وإن لم يتلفظ؛ إن صلى فقد ذكر الله، إذا تلا القرآن قد ذكر الله، إذا تصدق قد ذكر الله، كل الطاعات ذكرٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكل من والاهُ الله فقد أحبَّه وقربَه)**، والموالاة هنا: معناها المحبة.

الوجه السابع:

أن اعتماد العبد على المخلوق، وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمّله منه، فلابد أن يُخْذَلَ من الجهة التي قَدّر أن يُنْصَر منها، ويُذمّ من حيث قدَّر أن يُحْمد.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوجه السابع: أن اعتماد العبد على المخلوق، وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولابد، عكس ما أمّله منه)**، الله جَلَّ وَعَلَا أمر بالتوكل عليه وحده، التوكل عليه وحده.

والتوكل على الله: معناه تفويض الأمور إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاعتماد عليه في قضاء الحاجات، وتفريج الكروبات وحل المشكلات[1].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، يعني: كافيه.

فإذا توكلت على الله كفاك، وليس التوكل باللسان فقط؛ تقول: توكلت على الله بلسانك، إنما هو بالقلب وباللسان، والتوكل من أعظم أنواع العبادة؛ ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

---

(١) قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شعب الإيمان (٢/ ٣٩٠): (وجملة التوكل: تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه، والثقة به). وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح (٣/ ٣٨٤): (وإنما التوكل المحمود ألا يستعين بأحد في شيء. وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب). وانظر: الروح لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٢٥٤).

أعظم أنواع العبادة لما فيه من الاعتماد على الله، والاستغناء عما سواه، هذا هو التوحيد في الحقيقة.

ومن توكل على الله صادقًا كفاه ما أهمّه، ومن توكل على غيره وكله الله إليه، من توكل على غير الله وكله الله إلى من توكل عليه، ولن يفيده شيئًا؛ لأنه مخلوق ضعيف قد يكون أقل منه وأعجز منه لا سيما الذي يتوكل على الأموات وعلى الأضرحة، يتوكل على أناس ميتين لا حيلة لهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

هذا ضياع، التوكل على غير الله ضياع، من توكل على غير الله وكله الله إلى من توكل عليه؛ ولهذا في الحديث: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[1]؛ عقوبة له، فهذا الباب باب عظيم، باب التوكل على الله.

مع التوكل على الله معه الأخذ بالأسباب، لا يتوكل على الله ويترك الأسباب ويقول: يكفي التوكل على الله، نعم، التوكل على الله هو الأصل، لكن الله أمر باتخاذ الأسباب مع التوكل على الله.

فلا يعتمد على التوكل ويترك الأسباب، ولا يعتمد على الأسباب ويترك التوكل على الله؛ بل لابد من الجمع بينهما.

---

(١) أخرجه أحمد (٣١/ ٧٨)، والترمذي (٢٠٧٢)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٥) من حديث عبد الله بن عُكَيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه النسائي (٤٠٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا لما سأل رجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ناقته هل يعقلها، يعني يوثقها في عقال، أو يتوكل على الله؟ قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»(١).

«**اعْقِلْهَا**»: هذا فعل السبب، وتوكل على الله في حفظها، اجمع بينهما.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عكس ما أمّله منه)**، من جهة المتوكل عليه، عكس ما أمّله المتوكل أنه يريد أن ينفعه، يريد أن يكفيه، يريد أن يقضي حاجته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلا بد أن يُخْذَلَ من الجهة التي قدّر أن يُنْصَر منها)**، لابد أن يخذل، الذي يتوكل على غير الله لابد أن يخذله الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن يكله إلى من توكل عليه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويُذمّ من حيث قدَّر أن يُحْمد)**، يذم؛ لأن التوكل على غير الله مذموم ومنهي عنه، وهو يظن أنه محمدة وأنه مرغوب فيه.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٧).

وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة، فهو معلوم بالاستقراء والتجارب.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١، ٨٢]، **وقال تعالى:** ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤، ٧٥]؛ **أي يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.**

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا أيضًا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة، فهو معلوم بالاستقراء والتجارب)**، كما أنه ثابت بالكتاب والسنة أن التوكل على غير الله خذلة، فهو أيضًا ثابت بالتجارب، تجارب الناس الذين استعملوا التوكل على غير الله فخذلوا، واضح هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى:** ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١، ٨٢]**)**، ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: أي المشركون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: غير الله.

﴿ءَالِهَةً﴾: يعني معبودات، الآلهة هي المعبودات، ما هو قصدهم؟

﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾: يريدون من هذه المعبودات أن تعزهم وتحميهم.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا﴾: هذا نفي، أي لا يكونون لهم عزًا، نفي.

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: لأن الذين يعبدون غير الله في يوم القيامة يتبرأ المعبودون من عابديهم، يتبرؤون منهم في موقف هم أحوج ما يكونون إلى النصرة، فيتبرؤون منهم.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧]. يتمنون أنهم يرجعون إلى الدنيا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجوعًا إلى الدنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٧].

قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]. فيتبرؤون منهم يوم القيامة، هذا المآل وهذا النتيجة، أحوج ما يكونون إليهم.

والله بيَّن هذا، الرسول بيَّن هذا لأجل أن نترك التوكل على غير الله عَزَّوَجَلَّ، ونقتصر على التوكل على الله الذي بيده الأمور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى**: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤، ٧٥])، ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾: أي المشركون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: غير الله.

﴿ءَالِهَةً﴾: يعني معبودات، المعبودات كثيرة.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يعني: ما قصدهم؟

﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾: يريدون أن هذه الآلهة تنصرهم.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ [يس:٧٥]. هذه الآلهة لا تستطيع نصر من اعتمد عليها وعبدها، لا تستطيع نصره؛ لأنها هي بحاجة، هي مخلوقات بحاجة إلى من ينصرها، لا يستطيعون نصره.

﴿وَهُمْ﴾: أي هؤلاء المشركون.

﴿لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: يدافعون عنه، المشرك يدافع عن معبوداته، ويقاتل دونها وقد يقتل.

﴿وَهُمْ لَهُمْ﴾: أي للمعبودات أو الآلهة، ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾: يدافعون عنها وهي لا تنفعهم شيئًا.

هذه حالة المشركين في كل الأوقات، وهذه حالتهم مع الرسل الذين ينهونهم عن عبادة غير الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أي يغضبون لهم ويحاربون)**، يحاربون دونهم، ولذلك المشركون يقاتلون دون معبوداتهم، دون أوثانهم يقاتلون، يبذلون أنفسهم وأموالهم للدفاع عنها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما يغضب الجندي ويحارب عن أصحابه)**، لأنهم جنود لها، مجندون لها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهم لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ عليهم)**، لا يستطيعون نصرهم، بل هم كَلٌّ على من عبدهم، هم بحاجة إلى من عبدهم، كَلٌّ، فقراء.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١]؛ **أي غير تخسير.**

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣]، **وقال تعالى:** ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢]؛ **فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم.**

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١])، لما ذكر الله في سورة هود ما حل بالمشركين من النكال والدمار، ما حل بالأمم من النكال والدمار.

قال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ [هود:١٠١]. الله لم يظلمهم، جازاهم بعملهم.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾: هم الذين ظلموا أنفسهم؛ حيث عبدوا غير الله فظلموا أنفسهم.

الواجب أن يرفعوا أنفسهم وأن يعزوها، وأن يعلقوها بالله عَزَّوَجَلَّ، لكنهم ظلموها بأن وكلوها إلى غير الله فضاعت.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]. هم لم يظلموا الله،

إنما ظلموا أنفسهم، والله ليس بحاجة إليهم ولم ينقصوا الله شيئًا، إنما ظلموا أنفسهم؛ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود:١٠١].

﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ﴾: لما نزل بهم العذاب الذي ذكره الله في هذه السورة، لما نزل بهم ما أغنت عنهم آلهتهم، ما دفعت عنهم آلهتهم القتل والموت والدمار، ما دفعت عنهم؛ ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [هود:١٠١].

﴿ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾: لما جاء العذاب ما نفعتهم.

﴿ وَمَا زَادُوهُمْ ﴾: أي معبوداتهم ما زادت من عبدها ﴿ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود:١٠١]، أي: خسار -والعياذ بالله-.

وهذه حالة المشركين في كل زمان ومكان، وكل من تعلق على غير الله وعبد غير الله وتوكل على غير الله هذه نهايته.

﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود:١٠١]؛ أي: خسار ودمار.

الله جَلَّ وَعَلَا قال للمشركين في عهد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين يعبدون اللات والعزى ومناة: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ﴾ [النجم:١٩، ٢٠].

ما أغنت عنكم شيئًا، بل ولا دافعت عن نفسها، هدمها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا دافعت عن نفسها، هذا شيء شاهدتموه ورأيتموه، فكيف تعبدون آلهة لا تدافع عن نفسها؟!

لكن العقول تذهب -والعياذ بالله- العقول تذهب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أي غير تخسير)** ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود:٦٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾** [الشعراء:٢١٣])، ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾: أيًا كان هذا الإله المعبود من الملائكة، من الأنبياء، من الصالحين، من الأشجار والأحجار، من القبور والأضرحة فلا تدعو مع الله إلهًا آخر، بل ادعُ الله وحده.

فإن دعوت مع الله غيره تكون من المعذبين ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾.

﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٣]. هذه النتيجة، أن عبادة غير الله تكون عذابًا على أصحابها، وهم يؤملون فيها الخير والسعادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾** [الإسراء:٢٢])، يقول الله جَلَّ وَعَلَا لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نهي لكل الأمة: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ يعني: لا تعبد معه إلهًا آخر؛ بأن تدعوه، وتذبح له، وتنذر له وتتقرب إليه، وترجو منه النصر وترجو منه الحماية، ترجو منه الرزق.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾، ما هي النتيجة؟

﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢]: مذمومًا من الله جَلَّ وَعَلَا، ومخذول من قبل من تعبده، يخذلونك ولا ينفعونك شيئًا.

ولهذا قال بعدها: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم)**، هو يريد أنه يمدح بهذا والعكس، يذم في هذا ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ [الإسراء:٢٢].

يريد النصر، تقعد مخذولًا، فلا يحصل له مدح ولا يحصل له نصر، إنما يبقى مذمومًا، ﴿فَتَقْعُدَ﴾ يعني: تبقى؛ ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢]: عكس ما تأمل.

والمقصود أن هذين الوجهين في المخلوق ضدُّهما في الخالق، فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن هذين الوجهين)**، الوجهين: الذم والخذلان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن هذين الوجهين في المخلوق ضدُّهما في الخالق)**، ضدهما في الخالق، إذا عبدت الله عَزَّوَجَلَّ فإنك تمدح بدل أن تذم، يمدحك الله مدح صحيح وحقيقي ليس مزور.

وتنصر من الله فلا تبقى مخذولًا، ينصرك الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

الوجه الثامن: أن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم؛ فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة؛ بل رحمةً منه وإحسانًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أن الله سبحانه غني كريم)**، الله جَلَّ وَعَلَا متصف بصفات الكمال، الغنى التام فلا يحتاج إلى أحد، بل كل أحد محتاج إليه، ومع غناه فهو كريم سبحانه، وليس مثل المخلوق الذي إذا زاد غناه زاد بخله، بل الله غني كريم، وكل ما تريد منه فهو موجود إذا أخصلت العبادة له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عزيز رحيم)**، عزيز أي: قوي، العزة هي القوة والمنعة، الله لا يغالب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوي، ومع قوته فهو رحيم ليس عنده غلظة، أو تمنع عن مساعدة من لجأ إليه، خلاف المخلوق يغتر بقوته إذا كان عنده شيء من القوة يغتر بها، ولا ينفع الضعفاء والمحتاجين ويساعدهم، الله عزيز رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرحم الضعفاء والمستضعفين والفقراء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه)**، يحسن إلى عبده مع غناه عن عبده، المخلوق يحسن إليك يرجو منك أن ترد عليه الجميل.

أما الله لا يريد منك إلا المدح، لا يريد منك إلا المدح لا يريد أن تعطيه شيئًا، أو ان تهدي إليه شيئًا هو غني، هو الذي يعطيك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خلاف المخلوق فهو إن أعطاك، فهو يريد منك المعاوضة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة؛ بل رحمةً منه وإحسانًا)، قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ [الزمر:٧].

﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨].

لا تنفعه طاعة الطائعين، وإنما طاعتهم تنفعهم هم، والله أمرنا بذلك لمصلحتنا لا لمصلحته هو، هو غني عنا وعن عبادتنا، ولكنه أمرنا بعبادته لأجل أن يرحمنا، ويجود علينا من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نحن بحاجة إليه أما هو فليس بحاجة إلينا، ومع هذا يدعونا، مع هذا يدعونا إلى عبادته، ويأمرنا بعبادته لمصلحتنا نحن، يأمرنا.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:١٥]. كل الناس فقراء إلى الله لا أحد يستغني عن الله، الملوك، السلاطين فقراء إلى الله؛ إذا نزل بهم شدة، نزل بهم مرض لا ينفعهم ملكهم ولا سلطنتهم ولا غناؤهم، فقراء إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥].

انظر، مع غناه حميد سبحانه، مع غناه فهو حميد؛ يجود على عباده ويرزقهم ويعطيهم حتى ولو عصوه يعطيهم ويرزقهم، من أين يعيش الكفار والمذنبون، إلا من رزق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يخلق خلقه ليتكثّر بهم من قِلّة، ولا ليتعزّز بهم من ذِلّة، ولا ليرزقوه، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء:١١١].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثّر بهم من قِلّة)، هو قوي لايحتاج إلى أحد ليتكثر بهم، ليدافعوا عنه، لا، هو الذي يدافع عنهم، هو الذي يدافع عن عباده، وليسوا هم الذين يدافعون عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا ليتعزَّز بهم من ذِلّة)، بل هو العزيز سبحانه، هو العزيز لا يطلب منهم العزة، بل هو العزيز سبحانه بذاته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا ليرزقوه)، ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ [الذاريات:٥٧].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] وعبادتهم لهم.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٧، ٥٨]. هو الرزاق.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات:٥٧].

سبحانه هو يطعم ولا يطعم، غني عن عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي يطعم، فأنت الفقير إلى الله من كل وجه ومن كل حال، فكيف تتكبر عن عبادة الله وتحرم نفسك من الاتصال بالله، تحرم نفسك من فضل الله؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى:** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦])، ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: الحكمة من خلق الجن والإنس ليعبدوه.

والنون هذه ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليست نون الفعل، إنما هي نون الوقاية، أصله «ليعبدوني»، فحذفت الياء تخفيفًا وبقيت نون الوقاية، وإلا لو كانت نون الإعراب لحذفت؛ لأن الأفعال الخمسة تنصب بحذف النون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى:** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨])، ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ كثير الرزق.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢١]. لا أحد يرزقكم، إذا أمسك الله رزقه فلا أحد يرزقكم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨].

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾: ليس بحاجة إلى أحد، قوي سبحانه، قوي في ذاته لا يعجزه شيء.

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: صفة من صفات الله، المتين: الذي لا يغالبه أحد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء:١١١])، فالله يحمد على صفاته العظيمة.

فهو نزه نفسه عن الولد ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١]. رد على النصارى الذين يقولون المسيح ابن الله، واليهود الذين يقولون عزير ابن الله، والمشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله.

الله لم يتخذ ولدًا؛ لأن الولد شبيه لأبيه والله لا شبيه له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والولد جزء من الوالد، والله جَلَّ وَعَلَا ليس له جزء من خلقه.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥] يعني: ولدًا؛ لأن الولد جزء من الوالد.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾: يعني ولدًا؛ لأن الولد جزء من الوالد.

وكذلك الوالد يحتاج إلى الولد، والله ليس بحاجة إلى الولد، فهو غني عن الولد من كل الوجوه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١])، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، فالملك لله وحده.

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦]: يوم القيامة إذا جمع الله الأولين والآخرين يقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾. لا أحد يجيبه، لا أحد يقول لفلان، أو لي.

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾. لا أحد يجيبه.

ثم يجيب نفسه؛ فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦][1].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «يُنَادِي مُنَادٍ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: =

فالملك لله سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مالك الملك، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران:٢٦].

فالملوك الله هو الذي ملكهم وقادر على أن يعزلهم؛ ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٦]. ولم يكن له شريك سبحانه، نزه نفسه عن الولد، ثم نزه نفسه عن الشريك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١])، أي: وزير أو صاحب يساعده؛ لأنه غني عن ذلك.

فليس بحاجة مثل ملوك الدنيا إلى وزراء وإلى أولياء لهم يوالونهم ويعزونهم، لا، الله ليس بحاجة إلى ولي من الذل.

أما الولي بمعنى العبد الذي يحبه الله من الولاية فالله جَلَّ وَعَلَا له أولياء؛ أولياء الله؛ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [يونس:٦٢].

أولياء الله من هم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]. هؤلاء هم أولياء الله، هذا ولي ثابت.

أما الولي المنفي فهو الذي يتخذه الملك أو السلطان ليساعده، والله ليس بحاجة إلى من يساعده ويعينه، فالسلطان والملك يتخذ وليًّا؛ لأنه ذليل.

=يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، فَيَسْمَعُهَا الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ، وَيَنْزِلُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُنَادِي: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾». قال الحاكم: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه).

ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١]. الله جَلَّ وَعَلَا عزيز ليس ذليلًا لا يحتاج إلى ولي يساعده ويدفع عنه إلى آخره كما يحتاجه المخلوق، لكنه يتخذ وليًّا من عباده المؤمنين بمعنى المحب، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

فهو سبحانه لا يُوالي من يواليه من الذل، كما يُوالي المخلوقُ المخلوقَ، وإنما يُوالي أولياءه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨]، فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحْسِن بعضُهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلًا أو آجلًا، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه؛ فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقًا إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو سبحانه لا يُوالي من يواليه من الذل، كما يُوالي المخلوقُ المخلوقَ)، لا يوالي من يواليه، هو يوالي بعض عباده، لكن ليس من الذل وإنما هذا من الولاية وهي المحبة، أما المخلوق فيتخذ وليًا من الذل؛ لأنه ذليل يحتاج إلى من يناصره ويدافع عنه ويعينه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما يُوالي أولياءه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم)، إحسانًا منه إليهم، ورحمةً بهم، ومحبة لهم، فالولي: معناه المحبوب من الولاء والموالاة يعني المحبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨])، العباد كلهم فقراء لا يستثنى من هذا أحد.

﴿وَأَنتُمُ﴾: العباد كلكم فقراء، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]. كلهم فقراء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾** [محمد:٣٨])، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾: له الغنى المطلق.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾: لكم الفقر المطلق، إلا من رزقه الله وأعزه الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحْسِن بعضُهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك، وانتفاعه به عاجلًا أو آجلًا)**، فالذي يحسن إلى الناس يرجوهم أنهم يساعدونه، أنهم يعينونه، يردون عليه الجميل، أما الله جَلَّ وَعَلَا فهو يحسن إلى عباده رحمةً بهم، وليس بحاجة إليهم وإنما رحمة بهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه)**، حينما يحسن إلى الناس فهو يريد الإحسان إلى نفسه، يريد أن هؤلاء الذين أحسن إليهم يعوضونه ويردون عليه الجميل.

ولهذا لو أساء واحد منهم أصبح يتفضل عليه أنا أعطيتك كذا، أنا فعلت هذا لك، يعني يتفضل عليه فهو يريد منهم أن يردوا عليه.

فإنه إما أن يُحسِن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، ومُعاوِضٌ بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، فهو أيضًا إنما يُحسِن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله في الآخرة، فهو أيضًا محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخَّر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير مَلُوم في هذا القصد؛ فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومُعاوِضٌ بإحسانه)، معاوض من المعاوضة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أو لتوقع حمده وشكره)، أو إذا كان أنه ليس بحاجة إلى رد الجميل يريد أن يحمده ويثني عليه ويمدحه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير)، هذا الإنسان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإما أن يريد الجزاء من الله في الآخرة)، هذا الإحسان المحمود، إذا أحسن إلى الناس لا يريد منهم، إنما يريد من الله، يريد من الله هذا هو الإحسان المحمود؛ ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]. يريد الجزاء من الله.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]؛ بل يريدون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهو غير مَلُوم في هذا القصد)، الأخير، غير ملوم في القصد الأخير بل هو مرغب فيه.

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وقال تعالى، فيما رواه عنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»(١).

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك، وذلك منفعة محضة لك، خالصة من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد تكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمُّل مِنّته.

فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله، أو تطلب منه نفعًا أو دفعًا، أو تُعلِّق قلبك به؛ فإنه إنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧])، انظر! ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧].

ليس أنك تحسن إلى المحتاج لأجل نفع المحتاج فقط، ولكنك تحسن إليه أيضًا تريد من ورائه رد المثل إما في الدنيا وإما في الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿**وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾ [البقرة:٢٧٢])، وهذا ﴿**وَمَا تُنفِقُوا۟**﴾: صدقات، مساعدات، فإنها توفى إليكم عند الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا راجع إليكم فأنت تنفق، ونفع هذه النفقة راجع إليك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى، فيما رواه عنه رسوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي**»)، هذا الحديث الطويل العظيم عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»)، «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ**»، فمن وجد خيرًا من أعماله وثوابًا في الآخرة فليحمد الله على ذلك الذي وفقه لهذا العمل، وتقبله منه وجزاه عليه، يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ.

«**وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ**»: وجد ضررًا وعذابًا بسبب عمله.

«**فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ**»: هو الذي قدم هذا لنفسه، هو الذي قدم لنفسه هذا من الكفر بالله والشرك والمعاصي والسيئات؛ «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ**» خيرًا أو شرًّا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه بك**)، المخلوق حينما يحسن إليك لا يقصد منفعتك بالوجه الأول، إنما يريد منفعة نفسه من ورائك، يريد منفعة نفسه من ورائك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك)**، يريد نفعك ولا يريد انتفاعه بك؛ لأنه غني عنك لا يحتاج إليك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد تكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمُّل مِنّته)**، إحسان المخلوق إليك مشوب بالمنة، ومشوب أيضًا طلب المعاوضة منك، أما الله جَلَّ وَعَلَا فهو يحسن إليك ولا يريد منك إلا الحمد والشكر، لا يريد منك أن ترد عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتدبر هذا، فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله)**، إنما ترجو الله عَزَّ وَجَلَّ وتتعامل مع الله، وتعلق قلبك بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجته، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه.

فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله، وخاف الله فيهم، ولم يَخَفْهُم مع الله، ورجا الله بالإحسان إليهم، ولم يَرْجُهُم مع الله، وأحبهم لحب الله، ولم يحبهم مع الله، كما قال أولياء الله: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجته، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه)، كل يريد النفع لنفسه؛ إذا بذل شيئًا للغير، فإنما يريد النفع لنفسه من ذلك الغير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله، وخاف الله فيهم، ولم يَخَفْهُم مع الله)، ولهذا في الأثر: «يَا عَبْدِي، كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لِنَفْسِكَ»(١). أنا أريدك لنفسك، وأما الناس فكل يريدك لنفسه يريد أن تنفعه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما قال أولياء الله: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩])، ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨، ٩].

---

(١) أورده ابن القيم في الجواب الكافي = الداء والدواء (ص ٢٣٠)، وكذا في مدارج السالكين (٣/ ٣٧٦)، قال: وفي الأثر الإلهي: «عَبْدِي، كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لَكَ».

الوجه التاسع:

أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يُقدِره الله عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه؛ وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلُّق القلب بغيره رجاءً وخوفًا وتوكلًا وعبودية ضررٌ محضٌ، لا منفعة فيه، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدَّرها ويسَّرها، وأوصلها إليك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوجه التاسع: أن العبد لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها)**، العبد ولو أراد أنه ينفعك لا يعرف منفعتك حتى يعرفه الله إياها، فقد يريد منفعتك ويضرك من حيث لا يشعر؛ لأنه لا يدري حتى يعرفه الله بمصلحتك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يُقدِره الله عليها)**، لو عرف مصلحتك، وأراد أن يحصلها لك لن يقدر إلا بأن الله يقدره عليها، قد يعجز عنها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه؛ وهو الذي بيده الخير كله)**، عاد الأمر كله إلى الله الذي بيده الخير ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذي قدَّرها ويسَّرها، وأوصلها إليك)**، ليس هذا الذي أملت فيه، ليس هو الذي أوصلك المنفعة، إنما الذي أوصلها إليك هو الله على يده، على يد هذا.

الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك، وإن أضرَّ ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرّتك.

والرب تعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك، فكيف تُعلِّق أملَك ورجاءك وخوفك بغيره؟

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك، وإن أضرَّ ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرّتك، والرب تعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته)**، هذه مقارنة بين ما يريده الناس بعضهم من بعض، وبين ما يريده الله من الإنسان.

فالله جَلَّ وَعَلَا يريدك لنفسك لا يريد أن ينتفع بك أو ينتصر بك، وإنما يريدك لنفسك.

أمرك بعبادته ليكرمك ويحررك من عبودية الهوى وعبودية الشهوات وعبودية الأصنام والأحجار والأشجار إلى عبودية الله الذي خلقك ورزقك المستحق للعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذه العبادة نفعها لك؛ فأنت تشكر الله بها، وتعود بالنفع عليك، فالله يريدك لنفسك، فما تعمله لله فإنه لنفسك إذا تقبله الله، وأما الله جَلَّ وَعَلَا فلا تنفعه طاعة مطيع ولا تضره معصية العاصي، هو الغني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛

فأوامره ونواهيه وتشريعاته كلها لمصلحة العبد، ونفعها يعود إلى العبد عاجلًا وآجلًا.

وأما الناس فإنهم يريدونك لأنفسهم، يريدونك لأنفسهم ولو تضررت أنت، ليس لهم شأن بك، يريدونك لأنفسهم أن تنفعهم، ولو تضر بنفسك هذا مراد الناس منك.

وجاء في الأثر أن الله سبحانه يقول: «كُلٌّ يُرِيدُكَ لِنَفْسِهِ، وَأَنَا أُرِيدُكَ لِنَفْسِكَ»[1]، تعمل لنفسك، أما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي؛ لأنه الغني؛ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١١٦].

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ [الزمر:٧].

﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الوجه العاشر: أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك، وإن أضرَّ ذلك بدينك ودنياك)**، ليس لهم شأن بضررك، شأنهم في نفعهم هم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والرب تعالى إنما يريدك لك)**، يريدك لك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكيف تُعلِّق أملَك ورجاءك وخوفك بغيره؟)**، إذا كان كذلك فلا تعلق رجاءك بالخلق، ولا تعلق خوفك من الخلق.

علق رجاءك بالله، وخوفك من الله فإذا خفت من الله فإن الله يكفيك شر الخلق،إذا خفت من الله وقاك الله شر الخلق، توكل عليه واعبده؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٦٨).

وجِماع هذا أن تعلم «أَنَّ الخلْقَ لَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»(١).

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وجِماع هذا أن تعلم «أَنَّ الخَلْقَ لَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»)، جماع هذا الكلام كله في حديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «وَاعْلَمْ أَنَّ الخَلْقَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ» لكن أجراه على أيديهم، وإلا فهو من الله.

«وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ»؛ فالأمور بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فعلِّق قلبك بالله، يكفيك كل ما همَّك، ويعطيك كل ما تريد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١])، قال تعالى:

(١) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقد تقدم تخريجه (ص٢٩٥).

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾: هذا الإيمان بالقدر أنه لا يصيب الناس من المكاره ومن المصائب إلا الذي كتبه الله لنا.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾: فإذا كان كذلك فلا تخف من المخلوق، ولكن خف من الله.

وإذا أصابك شيء من المخلوق فلأن الله قدره عليك وسلطه عليك، فالأمر راجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

خاتمة لهذا الباب: لما كان الإنسان بل وكلُّ حيٍّ متحرك بالإرادة لا ينفكُّ عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة، وله مراد مطلوب، وطريق وسبب موصل إليه، معين عليه، وتارة يكون السبب منه، وتارة من خارج منفصل عنه، وتارة منه ومن الخارج، فصار الحي مجبولًا على أن يقصد شيئًا ويريده، ويستعين بشيء، ويعتمد عليه في حصول مراده.

والمراد قسمان:

أحدهما: ما هو مراد لنفسه، والثاني: ما هو مراد لغيره.

والمستعان قسمان:

أحدهما: ما هو مستعان بنفسه، والثاني: ما هو تبع له وآلةٌ.

فهذه أربعة أمور: مراد لنفسه، ومراد لغيره، ومستعان بنفسه، ومستعان بكونه آلةً وتبعًا للمستعان بنفسه.

فلابد للقلب من مطلوب يطمئن إليه، وتنتهي إليه محبته، ولابدّ له من شيء يتوصل به ويستعين به في حصول مطلوبه، والمستعان مدعوٌّ ومسؤول، والعبادة والاستعانة كثيرًا ما يتلازمان، فمن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له، وذَلَّ له، وانقاد له، وأحبَّه من هذه الجهة وإن لم يحبَّه لذاته، لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه.

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به، ويستعين بغيره عليه، كمن أحب مالًا أو منصبًا أو امرأة، فإن علم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به، فاجتمع له محبته والاستعانة به.

فالأقسام أربعة: محبوب لنفسه وذاته مستعان بنفسه؛ فهذا أعلى الأقسام، وليس ذلك إلا لله وحده، وكلُّ ما سواه فإنما ينبغي أن يُحَبَّ تبعًا لمحبته، ويُستعان به لكونه آلةً وسببًا.

الثاني: محبوب لغيره ومستعان به أيضًا، كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض مُحِبِّه.

الثالث: محبوب مستعان عليه بغيره.

الرابع: مستعان به غير محبوب في نفسه.

فإذا عُرِف ذلك تبين مَنْ أحق هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرَّةً على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها. والله المستعان، وعليه التُّكلان.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا عُرِف ذلك تبين مَنْ أحق هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأن محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرَّةً على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها)، هذه خلاصة ما جاء في هذا الباب: أن كل الأسباب والمطالب والإرادات كلها ترجع إلى ما يتعلق بالله، وإلى ما يتعلق بالمخلوق.

فمن تعلق بالله، تعلق قلبه بالله وطمعه بالله، ورغبته وخوفه ورجاءه فإنه يحصل على مطلوبه بلا شك؛ لأن الله وعد بذلك أن من استعان به واكتفى به، وتوكل عليه، وتاب إليه أنه يكمل له أموره، ويعطيه مطلوبه.

وأما العكس، وهو من يتعلق بالمخلوقين فإن الله يكله إليهم، وفي الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»[1].

فعلق قلبك بالله دائمًا وأبدًا، وارغب إلى الله دائمًا وأبدًا، أما المخلوق فإنما هو آلة بيد الله يسخرها إما لك وإما عليك، ما دام كذلك فالأمر كله راجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا تخف من غيره، ولا ترجُ غيره سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

(١) سبق تخريجه (ص٣٤٥).

الباب السابع

في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الباب السابع: في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه)، القرآن كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤].

﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾: هدى إلى الحق، وشفاء من الأمراض الحسية والمعنوية، وأشد ذلك أمراض القلوب.

المرض على قسمين: مرض القلب، وهذا أشد، ومرض الجسم، مرض الجسم أخف من مرض القلب؛ فالقرآن هو الذي يعالجك من هذه الأشياء.

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾: أي: صمم؛ لا يسمعونه.

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٤].

أنت حينما تنادي واحد من مكان بعيد لا يسمعك، وإذا سمعك لم يفهم قولك؛ للبعد، فهذا مثل المعرض عن القرآن مثل الذي ينادى من مكان بعيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾: وهي القلوب، وهذا أهم شيء.

الآن هناك شفاء للأبدان، وذلك هناك الرقية؛ يرقى المصاب والمريض والملدوغ بالقرآن فيشفى بإذن الله، ولكن شفاء القلوب أنفع وأقوى، فهو شفاء للقلوب.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾: يشفي من الهموم والوساوس والأحزان.

ويشفي من الشبهات والأوهام، يشفي من كل ما يعرض للقلب من العوارض التي تصده، القرآن هو الشفاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه)**، من جميع أمراضه الحسية والمعنوية.

❖ ❖ ❖

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧])، وهذا هو القرآن فيه موعظة وفيه شفاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢])، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾؛ ﴿مِنَ﴾: هنا ليست تبعيضية؛ لأن القرآن كله شفاء، وليس بعضه شفاء وبعضه لا، لا، فـ ﴿مِنَ﴾ هنا بيانية وليست تبعيضية.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾: شفاء للقلوب، هذا أهم شيء.

﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]. شفاء.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: خص المؤمنين بذلك.

أما غير المؤمن فلا ينفعه القرآن؛ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾: لأنهم إذا سمعوه يعرضون عنه، ويكفرون به؛ فيخسرون، وهذا من العجب: أن القرآن يكون ربحًا، ويكون خسارة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾: يتساءل المنافقون بينهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وقد تقدم أن جِماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين: ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّن الحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد تقدم أن جِماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات)**، الشبهات وذلك بالوساوس والأوهام والكفر والشرك والاعتقاد الباطل، هذه شبهات.

وأمراض شهوات كأن يحب الخمر، يحب الزنا، يحب المعاصي، يحب السرقة، هذه أمراض شهوات، وأمراض الشبهات أشد من أمراض الشهوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والقرآن شفاء للنوعين)**، شفاء للنوعين: شفاء من أمراض الشبهات، وشفاء من أمراض الشهوات، فالقلب الذي يميل إلى المعاصي والمحرمات هذا مريض، مريض شهوة، والذي يميل إلى الكفر والنفاق والشرك هذا مريض شبهة، هذا أشد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّن الحق من الباطل، فتزول أمراض الشُّبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك)**، وعلاج مرض الشبهات بالبراهين والأدلة التي توضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، هذه هي دواء الشبهات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّن الحق من الباطل)**، البراهين القطعية، كل ما في القرآن فهو قطعي ليس فيه شيء ظني كما يقوله المعتزلة يقسمونه إلى براهين قطعية وأدلة ظنية، لا، القرآن وكلام الرسول كله قطعي ليس فيه شيء ظني لا في العقائد ولا في المعاملات؛ لأنه كلام الله وكلام الرسول.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية -من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد، والنبوّات، ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة- مثل القرآن؛ فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانًا، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية -من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد، والنبوّات، ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة- مثل القرآن**)، أعظم كتاب جاء من الله عَزَّوَجَلَّ هو القرآن، القرآن هو أعظم كتاب، وهو المهيمن على ما قبله من الكتب، حاكم عليها، مبين لما دخلها من التحريف، تحريف اليهود والنصارى.

فالقرآن هو أعظم كتاب طرق العالم، ونزله الله على هذا الرسول ولهذه الأمة المحمدية، فهو أفضل نعمة منَّ الله بها على هذه الأمة بعد بعثة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالرسول أفضل المرسلين، والقرآن أفضل الكتب، هذه نعمة عظيمة عند المسلمين.

لكن يجب عليهم أن يتدبروها وأن يتأملوها، ليس مجرد الحفظ والتلاوة وتزيين الصوت، لا، مع التدبر، تدبر لمعانيه والعمل بما فيه فيهتدي الإنسان بهذا؛ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

﴿يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾: من كل الصفات والأخلاق والأديان، أقوم، كل ما هو قيم فإن هذا القرآن يهدي إليه، ويرشد إليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية -من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد)**، متضمن لكل هذه المطالب العالية؛ متضمن لبيان التوحيد، والنهي عن الشرك وإثبات الأسماء والصفات لله عَزَّوَجَلَّ.

ومتضمن للمعاد يعني يوم القيامة، والبعث والنشور، كل هذا في القرآن.

وتتضمنه سورة الفاتحة، فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن، ففيها هذه المطالب كلها، والقرآن مفصل لها، ومبين لها، ولذلك تسمى أم القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنبوّات)**، والنبوات يعني الرسالات، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر كل هذا في القرآن، كله في القرآن.

فالإيمان بالله يشمل: الإيمان به ربًّا وإلهًا ومعبودًا، ويشمل الإيمان بأسمائه وصفاته؛ فالذي يؤمن بالله ولا يؤمن بأسمائه وصفاته هذا لم يؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ، لم يؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ.

هل يؤمن برب ليس له أسماء وصفات؟! هذا لا يكون أبدًا، هذا ناقص، هذا عدم، فلابد من الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ لأنها صفات الكمال،

وهي الدالة على أفعاله سبحانه، الدالة على أفعاله وتدبيراته في هذا الكون، الأسماء والصفات.

كذلك الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده، وأختارهم لتبليغ رسالته.

الإيمان بالملائكة الذين هم - أيضًا- واسطة بين الله وبين الرسل؛ يبلغون الرسل ما أرسلهم الله بهم إليهم، والرسل يبلغون البشر ويؤمرون وينهونهم، فلابد من الإيمان بالله وملائكته.

وكتبه: التي أنزلها الله على الرسل، كتبه السماوية الإلهية: التوراة والإنجيل والقرآن، صحف إبراهيم وموسى، زبور داود، منه سماه الله لنا، ومنها لم يسمه الله لنا.

واليوم الآخر: البعث والنشور، والجزاء والحساب.

والإيمان بالقدر خيره وشره، فما يجري في هذا الكون إلا شيء قدره الله، كتبه في اللوح المحفوظ وأجراه بمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا كله في القرآن، كله في القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ورد النِّحَل الباطلة والآراء الفاسدة)**، كذلك مما جاء به القرآن: الرد على النِّحل الباطلة والمذاهب الهدامة، الرد على المشركين، الرد على الملاحدة، الرد على أهل الضلال بالبراهين القطعية التي تدحض؛ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨]. هذا في القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مثل القرآن؛ فإنه كفيل بذلك كله)**، وهذا موجود في سورة الفاتحة إجمالًا، وفي القرآن تفصيلًا، لكن يحتاج إلى تدبر وإلى تفهم لهذه المقاصد وهذه المطالب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(متضمن له على أتمّ الوجوه وأحسنها)**، ليس هناك أتم من القرآن بيانًا وتوضيحًا، ليس هناك أتم من القرآن شمولًا وإحاطة، ليس هناك كتاب أشمل من القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه)**، لكن ذلك الذي هو الوقوف على هذه المعاني العظيمة وقوف على فَهمِ القرآن، ليس حفظ القرآن فقط، على فهم القرآن.

فإذا فهم القرآن عرف هذه المطالب العظيمة، أما من يقرأه مجرد قراءة دون فهم هذا لا يحصل له المقصود.

فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عِيانًا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقةَ بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تُغني من الحق شيئًا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها، وبين علوم صحيحة قد وعّروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها، فهي «لحمُ جملٍ غَثٍّ، على رأس جبل وَعْر، لا سهلٌ فيُرتقَى، ولا سمينٌ فينتقى».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عِيانًا بقلبه)**، من وفقه الله لفهم ذلك أدرك الحق من الباطل؛ لأنه يسير على هدى، وعلى نور وبرهان وبيان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقةَ بها، وإنما هي آراء وتقليد، وبين ظنون كاذبة لا تُغني من الحق شيئًا، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها)**، الجهمية والمعتزلة والأشاعرة بنوا عقائدهم على البراهين العقلية التي يسمونها علم المنطق، المقدمات والنتائج وعلم الكلام؛ لأنه يفيد اليقين، أما القرآن فهو يفيد الظن؛ لأنه سمعي، دليل سمعي.

عندهم فرق بين البرهان العقلي والدليل السمعي؛ السمعي يفيد الظن -عندهم- وأما البرهان العقلي الذي هو علم المنطق والجدل هذا يفيد اليقين عندهم.

وهذا على العكس؛ القرآن هو الذي يفيد اليقين، وهو الذي يفيد البراهين، وأما هذه الجدليات وعلم الكلام فهي هي التي تفيد الظن وتفيد الكذب أحيانًا كثيرًا فلا خير فيها، لا خير فيها، الله أغنانا عنها، عن تركيباتها بالقرآن الكريم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعلم أن ما عداه من كتب الناس)**، كتب الناس: يعني ما ألفه الناس، أما كان من القرآن ومن السنة فهذه براهين قطعية.

وأحسنُ ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرًا وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل[(١)]:

لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتُبُ التَّنَاظُرِ لَا الْمُغْنِي وَلَا الْعُمَدُ

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وَبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ الْعُقَدُ

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشُّبَه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأحسنُ ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرًا وأحسن تفسيرًا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد)، براهين المنطق التي عنها يقولون: صعبة، جبل وَعْر -كما يقولون- جبل وَعْر، عليه جمل غث لا سمين فينتقى، ولا سهل فيرتقى.

فلا يشتغل الإنسان بعلم الكلام وعلم المنطق، يشتغل بالقرآن، يفهم القرآن، يتدبر القرآن، يوفر على نفسه التعب، يضمن لنفسه النتيجة.

أما ذاك مثل الذي يمشي وراء سراب، ترى السراب على القيعان تظنه بحور، إذا ذهبت إليه لتشرب وجدت لا شيء؛ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور:٣٩]. هذا السراب، هذه علوم المنطق والكلام، سراب.

---

(١) البيت الأول لأبي العلاء المعري كما في اللزوميات (١/ ٢٤٩)، و«المغني» وكذا «العمد» كتابان للقاضي عبد الجبار المعتزلي.

يقولون: هذه براهين عقلية وهذه قواعد منطقية، وهذه، وهذه، يتعبون أنفسهم، وسيأتيكم كلام الرازي وما قاله في آخر حياته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما قيل:**

لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ لَا «الْمُغْنِي» وَلَا «الْعُمَدُ»

يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ الْعُقَدُ)

هذا كلام المعري، «المُغْني»، و «العُمَدُ» هذه من علم الكلام، كتب، من كتب علماء الكلام، لولا؟

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ * كُتُبُ التَّنَاظُرِ لَا «الْمُغْنِي» وَلَا «الْعُمَدُ»)**، كتب التناظر: التي هي المناظرة عند المتكلمين وعلم الجدل يسمونها، كلها ليس وراء شيء، تعب بلا فائدة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا وبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ الْعُقَدُ)**، صح، الكلام هذا صحيح في وصف كتب علماء الكلام أنها زادت العقد، لم تحل العقد، الذي يحلل العقد، ويبين الحق هو القرآن الكريم.

لكن كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦، ٣٧].

فالذي يعرض عن القرآن إلى علم الكلام وعلم المنطق هذه عاقبته، وسيأتيكم اعتراف بعض أساطينهم أنه توصل إلى العجز، وأن ما عمله في حياته كله تعب بلا فائدة.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصلَ من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكِّين، الذين أخبر الواقف على نهايات أقدامهم بما انتهى إليه من مَرامهم، حيث يقول[1]:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الذين أخبر الواقف على نهايات أقدامهم بما انتهى إليه من مَرامهم، حيث يقول)، هذا كلام الرازي، وهو من أقطاب المتكلمين، اعترف في النهاية أنه لم يحصل على شيء مع طول جهده وتعبه، وأنه ترك القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وَقَالُوا)

انتبهوا إلى هذا البيت، وَلَمْ نَسْتَفِدْ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وَقَالُوا).

---

(١) هو المتكلم محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري أبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي، ولد سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وتوفي سنة ست وستمائة.
انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٥٠)، والوافي بالوفيات (٤/ ١٧٥)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠، ٥٠١)، والبداية والنهاية (١٣/ ٥٥)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٧٣)، ودرء التعارض (١/ ١٦٠)، ومنهاج السنة النبوية (٥/ ٢٧١)، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/ ٤٢٠)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٩٥).

وليس وراءه طائل أو فائدة.

يقول: ووجدت أفضل الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تُروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، ومن جرَّب مثل تجربتي؛ عرَف مثل معرفتي»[1].

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه، وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لقد تأملتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية)، يقول الرازي هذا، وهو من أئمتهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن)، طريقة القرآن في البيان هي المريحة، وهي الواضحة، وليس فيها تكلف ولا شيء، أقرب الطرق.

يقول: وجدت أقرب؟

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)، هذه خاتمتي.

يقول: لم نحصل على شيء إلا أن جمعنا: قيل وقالوا، قال فلان وقال فلان، رد فلان على فلان، وفلان قال هكذا! ما هي الفائدة من هذا؟! وهو على اسمه: علم الجدل؛ كله جدل، ليس فيه فائدة.

---

(١) نقله شيخ الإسلام ابن تيميَّة في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٠) عن الرازي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة)**، وأقدرهم على علم الكلام والفلسفة اعترف أن ليس فيها فائدة، وأن الفائدة في القرآن، ولعلها تكون خاتمة له إن شاء الله.

وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًّا، قد ذكرناه في كتاب «الصواعق» وغيره[١].

وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: «آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح».

والقرآن يُوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به، وجعله شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًّا، قد ذكرناه في كتاب «الصواعق»**)، الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة، كتاب عظيم، لكنه مفقود، ووجد مختصره للمَوْصِلي، مختصر الصواعق. ووجد بعضه، بعض الأصل، لكنه ليس كاملًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء: «آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح»**)، «آخر أمر المتكلمين الشك»: لا يصلون إلى نتيجة، يبقون في شكهم؛ لأنهم لم يطلبوا الحق من القرآن، طلبوه من علم الكلام.

علم الكلام لا يجدي شيء؛ كل واحد له رأي، كل واحد له قول، كل واحد يرد على الثاني، ليس هناك نتيجة.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (١/ ١٦٦-١٦٨).

وأما المتصوفة فآخر أمرهم، ماذا؟

الشطح؛ لأنهم يخرجون عن الحق إلى الباطل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقرآن يُوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به، وجعله شفاءً لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين)، هذا هو القرآن العظيم الذي بين أيدينا.

وفي الحديث: **«مَنِ ابْتَغَى الهُدَى مِنْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَمَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ»**(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) وقال: (هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال)، والدارمي (٤/ ٢٠٩٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، والبزار (٣/ ٧١، ٧٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٣٥، ٣٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٥٣)، عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**. فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **كِتَابُ اللهِ؛ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**». قال ابن كثير في التفسير (١/ ٢١): (الحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذَّبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا، والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح).

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة؛ بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقَصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار.

فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عمَّا يضرُّه، فيصير القلب محبًّا للرشد، مبغضًا للغيِّ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما شفاؤه لمرض الشهوات)، انتهى من شفاء القرآن لمرض الشبهات، وأن الشبهات لا تشفى بكلام المتكلمين وقواعد المنطق والجدل، وإنما تشفى بالقرآن الكريم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عمَّا يضرُّه)، القرآن ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾: هذا كل أوامر القرآن عدل وإحسان.

والنهي؛ ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾: على الناس، والتطاول على الناس، القرآن عن هذه، هذه من الشهوات، القرآن حسمها في نهيه عن ذلك، وبالمواعظ التي في القرآن، وذكر العذاب وذكر النار، وذكر الحساب يوم القيامة، فمن تدبر هذه الأشياء ترك هذه الشهوات المحرمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فيصير القلب محبًّا للرشد، مبغضًا للغيِّ**)، كما أنه فيه النهي عن الشهوات المحرمة ففيه- أيضًا- التشويق إلى الجنة، وما فيها من النعيم، وما فيها من السرور، وما في طاعة الله من الراحة والطمأنينة.

فالقرآن مزيل للأمراض الموجِبَةِ للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فُطِر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لايقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن:

وَعَادَ الفَتَى كَالطِّفْلِ لَيْسَ بقَابِلٍ
سِوَى المَحْضِ شَيْئًا وَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهْ

فيتغذَّى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكِّيه ويقوِّيه، ويؤيده ويفرحه، ويسرُّه وينشِّطه، ويثبِّت ملكه، كما يتغذّى البدن بما ينمِّيه ويقويه، وكلٌ من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربَّى، فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح.

فكما أن البدن محتاج إلى أن يُربَّى بالأغذية المصلحة له، والحِمْية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطاء ما ينفعه، ومنع ما يضره؛ فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نَزْرٌ يسير، لا يُحصِّل تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين، فحينئذٍ يقال: زَكَا الزّرْعُ وكَمُلَ. ولما كانت حياته ونعيمه لا يتم إلا بزكاته وطهارته: لم يكن بدٌّ من ذكر هذا وهذا، فنقول:

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكما أن البدن محتاج إلى أن يُربَّى بالأغذية المصلحة له، والحِمْية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطاء ما ينفعه، ومنع ما يضره؛ فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك)، وغذاء القلب هو بالوحي المنزل، وغذاء البدن هو بالطعام والشراب.

الباب الثامن

في زكاة القلب

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(الباب الثامن: في زكاة القلب)**، القلب: هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فيجب على المسلم أن يعتني بما يصلح قلبه، ويجتنب ما يفسد قلبه.

فالقلب يصلح بذكر الله؛ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]. فيكثر من ذكر الله ليحيا قلبه.

وكذلك القلب يحيا بالطاعات من أداء الفرائض والنوافل.

وكذلك القلب يحيا بتلاوة القرآن، الإكثار من تلاوة القرآن والتدبر والعناية به.

وكذلك القلب يحيا بمجالسة الصالحين والأخيار الذين يذكرون بالله عَزَّوَجَلَّ.

والقلب أيضًا في مقابل ذلك يمرض، يمرض بفتنة الشبهات والشهوات، يمرض فتنة الشبهات مثل الشكوك والوساوس والأوهام والخواطر السيئة.

وكذلك فتنة الشهوات وذلك بالمعاصي، والزنا والسرقة وشرب الخمر تبع الشهوات المحرمة، ولذلك حرم الله أشياء من المشتهيات حماية للقلب فيتجنبها المسلم؛ لأجل أن يسلم قلبه.

والسمع والبصر كلها منافذ للقلب فيجب على المسلم أن يستعمل بصره، يستعمله فيما ينفعه، ما يفيده، وألا يطلقه في النظر إلى ما حرم الله.

وكذلك السماع، لا يسمع بأذنيه إلا ما يحيي قلبه، فيتجنب سماع ما يميت قلبه أو يمرضه من الغيبة والنميمة والشتم والسباب، وكذلك سماع الأغاني والمزامير هذه تمرض القلب، وهي تأتي عن طريق السمع، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. فالمسلم يعتني بقلبه وما يصلحه.

وكذلك من أهم ما يصلح القلب: أكل الحلال، أكل الطيبات، تجنب المآكل المحرمة والمشارب المحرمة؛ ففي الحديث ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّجُلَ الَّذِي يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»[١].

فالمآكل الطيبة المباحة تطهر القلوب، والمآكل الخبيثة تمرض القلوب، القلب يمرض كما يمرض البدن، فإذا أشتد به المرض يموت، وإذا مات القلب فلا فائدة في البدن.

ولذلك يعتني المسلم بقلبه، وما يصلحه وما يحييه، ويتجنب ما يضر قلبه ويعميه؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]. هذه أمور مهمة للعبد أن يعتني بقلبه وما يصلحه ويحييه، يتجنب ما يمرض قلبه ويميته.

قال الله جَلَّوَعَلَا في المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة:١٠]. مرض شبهات، مرض الشكوك والأوهام هذا مرض المنافقين؛ ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠].

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء.

يقال: زكا الشيء إذا نما(١).

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما؛ فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدَّغَل في الزرع، وبمنزلة الخَبَث في الذهب والفضة والنحاس والحديد.

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا مُعَوِّق ولا ممانع، فنما البدن.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء)، الزكاة تطلق ويراد بها النماء والزيادة، وقد زكا الزرع إذا نما.

وتطلق ويراد بها الطهارة من النجاسة الحسية والمعنوية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣])، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: من البخل والشح، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾: تنمي الخير فيهم، وتنمي المال.

---

(١) انظر: العين (٥/ ٣٩٤)، وتهذيب اللغة (١٠/ ١٧٥)، والصحاح (٦/ ٢٣٦٨)، ومقاييس اللغة (٣/ ١٧، ١٨)، والمحكم والمحيط الأعظم (٧/ ١٢٦)، ولسان العرب (١٤/ ٣٥٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال تعالى**: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣])، ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: من أموال المسلمين، والزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام وهي قرينة الصلاة في كتاب الله.

وذكر الحكمة فيها أنها: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. هذه هي الحكمة من الزكاة، وهذه الصدقة؛ ﴿صَدَقَةٗ﴾: أي الزكاة، فالزكاة تسمى صدقة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ [التوبة:٦٠]: أي الزكاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما**)، الطهارة والزكاة التي هي النماء والزيادة، فيحصل لهم الأمران، إذا دفعوا الزكاة يحصل لهم الأمران: الطهارة ونماء أموالهم وسلامتها.

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا مُعَوِّق ولا ممانع، فنما البدن.

فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة، زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفَّذ حكمه في رعيّته، فسمعت له وأطاعت.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير)**، الناس يعتنون بالأبدان ويعالجون الأبدان بالأدوية وأنواع الأدوية، الذهاب إلى الأطباء.

لكن قليل منهم من يعتني بالقلب، القلب يمرض ولا يلتفت له، البدن إذا مرض أسرع على الطبيب وإلى أخذ الأدوية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة)**، وعلاج القلب إذا مرض، إذا مرض القلب فله علاج، له علاج ميسر بيدك تقدر عليه، وذلك بالتوبة، التوبة تطهر القلب وتنميه، وإذا لم يتب فإن هذه المعصية تعمل للقلب كما يعمل الجرح في القلب حتى تتطور؛ لأنها أهملت ولم تعالج فتطورت حتى ربما تقتل صاحبها.

فيجب على المسلم أن يعتني بقلبه، والعناية بالقلب ميسرة، هي ليست مثل البدن وقد تذهب وتسافر للخارج إلى الأطباء في العالم، وقد توفق وقد

لاتوفق، لكن القلب علاجه ميسر عندك، بيدك، وهي التوبة إلى الله إذا أذنب، الاستغفار، الإكثار من ذكر الله، هذا ميسر- والحمد لله- فلا يحتاج على أسفار ولا يحتاج إلى كلفة وتعب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفَّذ حكمه في رعيّته)**؛ لأن القلب مثل الملك في البدن، كل البدن يخضع له، كل البدن والأعضاء تخضع للقلب؛ فهو الذي يدبرها؛ ولهذا قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»**(١).

فإذا صلح الملك صلحت الرعية، وإذا فسد الملك فسدت الرعية، الناس على دين ملوكهم -كما يقولون-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فسمعت له وأطاعت)**؛ ولهذا ورد أن الجوارح كل يوم **«تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِذَا اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»**(٢).

❖ ❖ ❖

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٢).

فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠])**، أمر بغض البصر، لم يقل: كفوا أبصاركم ولاتفتحوها، لا، قال: غضوا من أبصاركم، ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾: يعني لايستعملونها إلا فيما ينفعهم، وينظرون إلى الأشياء المباحة والأشياء النافعة والاعتبار، ويغضوها عن الحرام.

لم يقل لك: أغمض أو اقفل عيونك، لا، قال: غُضَّ، غض من بصرك؛ يعني: لا تمده إلى ما حرم الله، وتنظر إلى ما حرم الله.

وذكر النتيجة، ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾: ما هي نتيجة غض البصر؟

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]: يعني: أطهر، أطهر لقلوبهم، غض البصر يطهر القلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾)**، الفرج يفسد بسبب النظر، أولًا النظر، ثم يتطور الأمر إلى الفرج والحرام بسبب النظر، فما وقع كثير من الناس في الزنا إلا بسبب إطلاق النظر إلى الأشياء التي تفتن أبصارهم، وتتعدى إلى قلوبهم.

﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾: فالذي يريد أن يحفظ فرجه يغض بصره، يغض بصره حتى لا يؤثر في نفسه وفي قلبه فيقع في الفاحشة؛ ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]: فأنت إذا نظرت إلى المحرمات الله يراك، ويعلم ما يحصل منك وسيجازيك في الدنيا والآخرة على نظرك المحرم.

كل يوم المناظر الخبيثة كثيرة، تبرج النساء والاختلاط، والنظر في هذه الآلات أو المواقع المستحدثة التي تعرض فيها الأشياء الفاتنة ينظر إليها.

فأسباب الفتن اليوم كثيرة، فعلى المسلم أن يحفظ نفسه منها، ويبتعد عنها ويخرجها من بيته، هذه الوسائل الخبيثة يخرجها من بيته، وإلا فإنها ستقضي عليه وعلى أولاده.

هذه التويترات والانترنت وهذه البلاوي هذا شيء لا أعرفه، لكن فضائح، فضائح ظهرت على الناس.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج)**، فغض البصر سبب لحصول الزكاة، وهي الطهارة، طهارة للقلب والخلق والعمل.

ثم أمر المؤمنات: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١]. فالمرأة مأمورة بما أُمِرَ به الرجل من غض بصرها وحفظ فرجها، فإذا غضت بصرها حفظت فرجها، وإذا أطلقت بصرها قادها إلى الفاحشة، وإلى فساد الخلق.

نظرة فابتسامة فموعد فلقاء، هكذا تدرج، فلا تتساهل في النزر في هذه الأمور، لا تتساهل، أنت تجرح قلبك بهذا النظر.

ولهذا ورد في الحديث: «**أَنَّ النَّظَرَ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ**»[١]. سهم يعني قذيفة، أين تذهب؟ تذهب إلى قلبك، فأنت ترمي قلبك بالسهم، سهم مسموم من سهام إبليس فلا تتساهل بالنظر هذا.

وليس هو بخاص أو مقصور على الذهاب إلى الأسواق والنظر إلى النساء، بل اليوم عمّ الشر في هذه الوسائل التي تعرض لك المناظر الخبيثة والمناظر الفاسدة، توفرها لك.

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٣).

ولهذا كان غضُّ البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذَّته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله؛ فإن من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه.

والنفس مُولَعةٌ بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب، فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله؛ تحرك اشتياقًا إليه، وكثيرًا ما يَتعبُ ويُتْعِبُ رسوله ورائده، كما قيل[1]:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ ... عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا كان غضُّ البصر عن المحارم)، المحارم يعني المحرمات، ليس بغض النظر عن المحارم يعني عن محارم الإنسان من النساء: أخواته وبناته، لا، المراد بالمحارم هنا: المحرمات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إحداها: حلاوة الإيمان ولذَّته)، لأن من غض بصره فإن هذا يرث في قلبه حلاوة الإيمان؛ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

---

(١) البيتان منسوبان لرجل غير مسمى في حماسة أبي تمام كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي (٢/ ٧٠)، والتذكرة الحمدونية (٦/ ١٦٥)، والحماسة البصرية (٢/ ١٢١). وقد أنشدتهما جارية في قصة واردة في عيون الأخبار (٤/ ٢٣)، ومصارع العشاق (٢/ ١٩٤)، ومحاضرات الأدباء (٢/ ١٢٣).

وهذا يزيد في الإيمان، وتجد به حلاوة في قلبك ولذة في قلبك تتمتع بها كما أن النظر إلى الحرام يزرع في قلبك الشهوة فتجد في قلبك المرض، تجد في قلبك المرارة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله)**، يعوضك الله، إذا صرفت بصرك عن هذا المحرم، عن هذه الشهوة المحرمة عوضك الله بها في الجنة أزواجًا ومناظر بهية ونعيمًا.

وعوضك في الدنيا أيضًا، يعوضك في الدنيا؛ يرزقك الله زوجة صالحة، زوجة جميلة، بدل أنك تتابع هذه النساء وتطاردهن، الله إذا غضضت بصرك عوضك الله من خلقه من النساء ما تتلذذ به في الحلال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه، وتركه لله)**، حلاوة الإيمان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنفس مُولَعةٌ بحب النظر إلى الصور الجميلة)**، طبيعة، طبيعة في النفس، حب النظر إلى الصور الجميلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قيل:**

وَكُنْتَ مَتى أرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقَلبِكَ يَومًا أتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

رَأيْتَ الذي لا كُلُّهُ أنْتَ قَادِرٌ عَلَيْه ... وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ)

مصيبة.

رَأيْتَ الذي لا كُلُّهُ أنْتَ قَادِرٌ عَلَيْه ... وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

ليس لك حيلة في هذا، فقط تؤثر على قلبك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**رَأَيْتَ الذي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ * عَلَيْه وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ**)، تتعلق به، تمشي وراءه لا تصبر عنه، فإذا رأى امرأة جميلة صار يمشي وراءها ويتابعها إلى أن يدرك منها ما يريد.

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته؛ فإن النظر يُولِّد المحبة، فتبدأ علاقةً يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تَقوى فتصير صَبَابةً، ينصبُّ إليها القلب بكُلِّيته، ثم تقوى فتصير غرامًا، يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عِشقًا، وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفًا، وهو الحب الذي قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تَتيُّمًا، والتتيُّم: التعبد، ومنه: تَيّمه الحُبُّ إذا عَبّده، وتَيْمُ الله: عبدالله، فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له.

وهذا كله جناية النظر، فحينئذٍ يقع القلب في الأسر، فيصير أسيرًا بعد أن كان ملِكًا، ومسجونًا بعد أن كان مُطْلقًا، يتظلم من الطرف ويشكوه، والطرف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني.

وهذا إنما تُبْلَىَ به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له؛ فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له)، هذه درجات المحبة، المحبة عشر درجات: أعلاها الخلة، أعلى الدرجات: الخُلَّة[1].

---

(١) انظر مراتب المحبة في: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٣)، والجواب الكافي (١٣٤)، =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره)**، الإنسان عبد بلا شك، لابد أنه عبد؛ فإما أن يكون عبدًا لله، وإما أن يكون عبدًا لغيره، لا يخرج عن العبودية، فإذا كان عبدًا لله صار مخلصًا لله، وإذا كان عبدًا لغيره صار مشركًا.

❖ ❖ ❖

=ومدارج السالكين (٣/ ٢٢، ٢٣)، وروضة المحبين (ص٤٧)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص١٦٤).

قال تعالى عن يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، **فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج، ويوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لما كان مخلصًا لله نجا من ذلك، مع كونه شابًّا عَزَبًا غريبًا مملوكًا.**

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**قال تعالى عن يوسف الصديق** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤])، يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتلي بامتحانات منها: أنه صار في بيت الملك ومع زوجته، وقد أعطاه الله من الجمال ما لم يعطه لغيره، فافتتنت به امرأة الملك، وراودته عن نفسه، لكنه استعصم، أبى، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٣، ٢٤]: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكن رأى برهان ربه فصرفه عنها.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: السبب ما هو؟

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]: أخلص الحب لله عَزَّوَجَلَّ وطاعة الله، الله خلصه من هذه الفتنة.

وفي النهاية قالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف:٥١، ٥٢]. فنجح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وانتصر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج، ويوسف** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **لما كان مخلصًا لله نجا من ذلك)**، امرأة العزيز لأنها مشركة وقعت فيما وقعت فيه من محاولة الوقوع في الفاحشة؛ لأنها مشركة.

وأما يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كان مخلصًا لله نجا من الفاحشة، سلم منها، لكن بعد الامتحان، هذه محنة شديدة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مع كونه شابًّا عزبًا غريبًا مملوكًا)**، ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]: كل شيء أمامك من أسباب الفتنة، كله أمامه، أسباب الفتن، كلها أمامه: الأبواب مغلقة، والمرأة جميلة ومتزينة، امرأة ملك تطلب منه، وهي سيدته، ومع هذا أبى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، خلصه الله منها؛ لأنه موحد لله عَزَّ وَجَلَّ.

الفائدة الثانية: في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال أبو شجاع الكرماني: «من عَمَرَ ظاهره باتِّباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وغضَّ بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال، لم تُخطئ له فراسة»[1].

وقد ذكر سبحانه قصة قوم لوط وما ابتُلوا به. ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥]، وهم المتفرِّسون الذين سلِموا من النظر المحرَّم والفاحشة.

وقال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الفائدة الثانية: في غض البصر)، يعني من فوائد غض البصر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الفائدة الثانية: في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة)، فإن من غض بصره فإنه يستنير قلبه، يستنير قلبه ويصح فراسته وتوقعه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم تُخطئ له فراسة)، لم تُخطئ له فراسة، الفراسة: توقع الأشياء وتحصل كما توقعها، هذه الفراسة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٧) في ترجمة أبي الفوارس الكرماني شاه بن شجاع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾** [الحجر:٧٥])، المتوسمون: هم المتفرسون في الأشياء، المستنبطون للأشياء[1].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهم المتفرِّسون الذين سلِموا من النظر المحرَّم والفاحشة)**، وأما قوم لوط إنما أوقعهم فيما أوقعهم: النظر؛ لأنهم ينظرون إلى الغلمان وإلى الشهوات فوقعوا فيها.

ولذلك لما جاءت رسل الله لإهلاكهم، الملائكة ومعهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاؤوا لإهلاكهم، جاؤوا يريدون الملائكة؛ لأن الملائكة جاؤوا في صور جميلة، فجاؤوا يريدون الملائكة، يراودنه عن ضيفه، يراودون لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ضيفه؛ يريدون أن يقعوا فيهم، فما كان من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن لطمهم بجناحه فطمست أبصارهم، صاروا لا يرون شيئًا؛ ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧]. ضربة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أعمتهم، هذه عقوبة لهم، والعياذ بالله.

هذه الأبصار التي مرسلة في الفواحش الله عاقبهم وسلبها منهم.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧]: لأن الأعين هي السبب فطمسها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [النور:٣٥])، لما ذكر غض البصر للرجال والنساء وحفظ الفروج، قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور:٣٥]: هذا مثال للنور المخلوق.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٣/ ٧٨)، ومقاييس اللغة (٦/ ١١١).

الله جَلَّ وَعَلَا اسمه النور، ومن أسمائه النور، وصفاته النور[1]، هذا نور الذات، وأما نور السموات والأرض هذا مخلوق، مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ، الله خلق نور السموات والأرض، النور مخلوق.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور:٣٥]: أي النور المخلوق؛ لأن نور الله الذي هو صفته لا يمثل ولا يشبه، فهذا النور المخلوق الذي خلقه الله.

والمراد به: الإيمان الذي في قلب المؤمن؛ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور:٣٥]: أي الإيمان الذي يكون في قلب المؤمن.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾: لأن المصابيح في ذاك الوقت توقد من الزيتون، من زيت الزيتون.

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور:٣٥]: بين الجهتين، لا هي شرقية فقط واضحة للشمس، ولا غربية فقط، بل هي بين بين، هذا أصفى ما يكون من زيت الزيتون.

ثم قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: وهي المساجد، انظر! المساجد مصدر النور، مصدر الإيمان، مصدر النور ومصدر الإيمان: المساجد؛ ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور:٣٥].

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص٢٤٠).

وسرُّ هذا أن الجزاء من جنس العمل، فمن غضَّ بصره عما حرَّمه الله عليه عوّضه الله من جنسه ما هو خير منه.

فكما أمسك نورَ بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يَغُضَّه عن محارم الله.

وهذا أمر يُحِسُّهُ الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها صُوَر الحقائق كما هي عليه، وإذا صَدِئتْ لم ينطبع فيها صور المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخَرْص والظنون.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكما أمسك نورَ بصره عن المحرمات، أطلق الله نور بصيرته وقلبه)**، نور الله قلبه حتى صار كالمصباح، كالمشكاة التي فيها مصباح، المشكاة: الكوة، يعني إذا كان فيها مصباح فإنها تجمع النور لا يتفرق النور، تصير أقوى للنور تجمعه هذه الكوة.

هذا صدر المؤمن وقلب المؤمن يصير فيه نور مثل هذا، بسبب غض البصر وحفظ الفرج.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوَّته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: «إِنَّ الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»(١).

ولهذا يوجد في المتَّبع هواه مِنْ ذُلِّ النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب والعمل الصالح.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الفائدة الثالثة)، الفائدة الثالثة من فوائد غض البصر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩])، بهذا الشرط: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فأنتم الأعلون.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٦٥) عن مالك بن دينار، أنه قال: «مَنْ غَلَبَ شَهْوَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَذَلِكَ الَّذِي يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ». وأخرج (٤/ ٦٠) عن وهب بن مُنَبِّهٍ أنه قال: «مَنْ جَعَلَ شَهْوَتَهُ تَحْتَ قَدَمِهِ فَزِعَ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر:١٠])، إذا كنت تريد العزة اطلبها من الله، لأن العزة بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعز من يشاء ويذل من يشاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب والعمل الصالح)**، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]. فإذا كنت تريد العزة فاطلبها من الله بالكلام الطيب وبالعمل الصالح.

وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله»(١).

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجتْ بهم البَراذين، وطَقْطقَتْ بهم البغال، إن ذُلَّ المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذِلَّ مَن عَصاه»(٢).

وذلك أن من أطاع الله فقد والاه، ولا يَذِلُّ من والاه ربُّه، كما في دعاء القنوت: «إنه لا يَذِلُّ مَن واليت، ولا يَعِزُّ مَن عاديت»(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العزَّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله»)، لا تجد العزة الصحيحة إلا في أبواب المساجد لا تجدها في أبواب الملوك، فإذا كنت تريد العزة فعليك بالمساجد لا تذهب لأبواب الملوك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الحسن: «وإن هَمْلَجتْ بهم البَراذين، وطَقْطقَتْ بهم البغال، إن ذُلَّ المعصية لفي قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذِلّ من عصاه»)، الحسن البصري يقول: أن الملوك وإن نالوا من هذه الدنيا ما نالوا ما داموا على غير

---

(١) ذكر هذا الأثر وما بعده شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٦، ٢١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي (١٧٤٥، ١٧٤٦)، وابن ماجه (١١٧٨)، من حديث الحسن بن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

طاعة الله فإن ذل المعصية في قلوبهم، وهم مظاهرهم فخمة، لكن هم أذلة في قلوبهم.

وصاحب الطاعة عزيز وإن كان في أثواب رثة وفيه مظهر دنيء، مظهر دون، لكن قلبه، الكلام على قلبه ليس الكلام على مظهره تجده عزيزًا، وإن لم يكن بيده شيء تجده مطمئنًا، تجد وجهه مستنيرًا مرتاحًا.

وذاك مهموم، الملك الذي ليس مؤمنًا مهموم وإن كان في مظهر بهي وفي أبهة، ذل المعصية في قلبه، وهذا عز الطاعة في قلبه، فرق بين هذا وهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذلك أن من أطاع الله فقد والاه، ولا يَذِلُّ من والاه ربُّه)**، إنه لا يعز من عاديت، ولا يذل من واليت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما في دعاء القنوت: «إنه لا يَذِلُّ من واليت، ولا يَعِزُّ من عاديت»)**، هذا الدعاء حديث، هذا وارد عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمه لسبطه الحسن.

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٢١].

وذكر ذلك سبحانه عَقِيبَ تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكِّي هو باجتناب ذلك.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾)، هذه خطوات الشيطان من اتبعها ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وذكر ذلك سبحانه عَقِيبَ تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية)، كما في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور:٣].

وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلّا يَطّلعوا على عورة لم يحبَّ صاحب المنزل أن يُطّلَع عليها، كان ذلك أزكى لهم، كما أن ردّ البصر، وغضّه أزكى لصاحبه.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥]، وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت)**، ذلك أزكى.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨])**، يعني رجوعكم ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: يعني أطهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥])**، ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يعني: تطهر بالطاعة.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٥] هذه مزكيات المسلم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨])**، قال في خطابه لفرعون لما أرسله الله إليه، وهو جبار

عنيد؛ ادعى الربوبية، لم يقل له: أنت خبيث، أنت كافر أنت، أنت، قال له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨]. يعرض عليه عرض، يعني تتطهر.

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات:١٨-١٩]. يعرض عليه عرض لا يقابله بالقوة والقسوة.

لأن الله قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

فالذين يغلظون على العصاة، لا يصلح هذا، تأتيهم بالدعوة إلى الله؛ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. هذا سبيل الدعوة، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمره الله بذلك.

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦،٧]. قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله[1]، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفى إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارة، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله)، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٦، ٧].

المراد بها زكاة التوحيد، المشرك ليس عليه زكاة، ولو دفع الزكاة لا تنفعه حتى يسلم، لكن المراد بالزكاة هنا زكاة التوحيد.

﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت:٧]: يعني لا يوحدون الله ولا يعبدونه، لأنها تزكيهم وتطهرهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنما يحصل بإزالة الشر)، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٩].

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٦/ ٦٤)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٣٧٩)، وتفسير الماوردي (٥/ ١٦٩)، وتفسير ابن كثير (٧/ ١٦٤)، والدر المنثور للسيوطي (٧/ ٣١٣).

من زكى نفسه، زكاها بأي شيء؟ بالطاعة، يعني طهرها من دنس المعاصي والشرك والكفر إلى الطاعة والتوحيد والعبادة، هذه تزكيتها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا**)، الزكاة تطلق ويراد بها زكاة النفس بالطاعة، وتطلق ويراد بها زكاة النفس، كيف زكاة البدن؟ زكاة البدن بدفع صدقة الفطر هذه زكاة لماذا؟ للبدن. زكاة المال، الزكاة ثلاثة أنواع: زكاة النفس، زكاة البدن، زكاة المال.

والتزكية جَعْلُ الشيء زكيًّا: إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال عدَّلتُه وفسَّقتُه إذا جعلتَه كذلك في الخارج أو في الاعتقاد والخبر.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢] هو على غير معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]؛ أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

وكان اسم زينب بَـرَّة، فقال: «تُزكِّي نفسها؛ فسمَّاها رسول الله ﷺ زينب، وقال: «اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ البِرِّ مِنْكُمْ»[(١)].

الشـرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢] هو على غير معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩])، تزكية النفس مأمور بها ومنهي عنها، كيف؟

مأمور بها بالطاعة، تزكيها بالطاعة والعبادة، ومنهي عنها بالمدح، تمدح نفسك وتكمل نفسك هذا لا يجوز.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء:٤٩]. يعني اليهود.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩].

قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

تزكية النفس بالطاعة وذكر الله هذا مطلوب، أما تزكيتها بالمدح والثناء والترفع على الناس فهذا مذموم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤١).

وكذلك قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾؛ أي يعتقدون زكاءها ويخبرون به، كما يزكّي المزكّي الشاهدَ، فيقول عن نفسه ما يقول المزكّي فيه.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٩]؛ أي هو الذي يجعله زاكيًا ويخبر بزكاته. وهذا بخلاف قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾؛ فإنه من باب قوله: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات:١٨]؛ أي تعمل بطاعة الله، فتصير زاكيًا. ومثله قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤].

وقد اختُلِف في الضمير المرفوع في قوله: ﴿ زَكَّىٰهَا ﴾: فقيل: هو لله، أي أفلحت نفسٌ زكَّاها الله، وخابت نفسٌ دسّاها.

وقيل: إن الضمير يعود على فاعل ﴿ أَفْلَحَ ﴾، وهو ﴿ مَن ﴾ سواءً كانت موصولة أو موصوفة؛ فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه، وقد خاب من دسّاه.

والأولون يقولون: ﴿ مَن ﴾ وإن كان لفظها مذكرًا، فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث مراعاةً للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاةً للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح، وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها.

فالأول كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الأنعام:٢٥]، فأفرد الضمير.

والثاني كقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ [يونس:٤٢].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقيل: إن الضمير يعود على فاعل ﴿ أَفْلَحَ ﴾، وهو ﴿ مَن ﴾

سواءً كانت موصولة أو موصوفة)، يعني يكون من زكاها صاحبها، زكاها يعني صاحبها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والأولون يقولون: ﴿مَن﴾ وإن كان لفظها مذكرًا)**، هذا بحث نحوي، بحث من جهة النحو.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والأولون يقولون)**، الأولون يعني من النحْويين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾** [الأنعام:٢٥]، **فأفرد الضمير، والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾** [يونس:٤٢])، لأن ﴿مَّن﴾ تحتمل الفرد والجماعة، ولذلك تارةً يعود الضمير إليها مفردًا، وتارةً يعود إليها مجموعًا؛ اعتبار معناها.

قال المرجِّحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا ما رواه أهل «السنن» من حديث ابن أبي مُلَيْكَةَ، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، قالت: «أَتَيْتُ لَيْلَةً، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: رَبِّ، أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[1]. فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية، فالله هو المزكّي، والعبد هو المتزكّي، والفرق بينهما فرقُ ما بين الفاعل والمطاوع.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية)، أن المزكي هو الله.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأن الله هو الذي يزكي النفوس، فتصير زاكية)، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩].

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (فتصير زاكية، فالله هو المزكّي)، فيجمع بين المعنيين، فالمزكي يكون هو الله وهذا هو الأصل، ويكون هو صاحب النفس.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢/ ٤٩٢) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، «أَنَّهَا فَقَدَتِ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مِنْ مَضْجَعِهِ، فَلَمَسَتْهُ بِيَدِهَا، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَهُوَ يَقُولُ: «رَبِّ، أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، زَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا». والدعاء المرفوع أخرجه مسلم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».

قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني دون الأول؛ كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤].

وقوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات:١٨]؛ أي تقبل تزكية الله لك، فتزكّى.

قالوا: وهذا هو الحق؛ فإنه لا مفلح إلا من زكّاه الله.

قالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس؛ فإنه قال في رواية علي بن أبي طلحة، وعطاء، والكلبيِّ: «قد أفلح مَن زكى اللهُ نفْسَه»(١).

وقال ابن زيد: «قد أفلح من زكى الله نفسه»(٢)، واختاره ابن جرير(٣).

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضًا قولُه في أول السورة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨].

قالوا: وأيضًا فإن الله سبحانه أخبر أنه خالق النفس وصفاتها؛ وذلك هو معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر: ظاهر الكلام ونظمه الصحيح يقتضي أن يعود الضمير على ﴿مَن﴾؛ أي أفلح من زكّى نفسَه، هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لا يكاد يُفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها، وصلاة قد سَعِدَ من صلاها، وضالّة قد خاب من آواها، ونظائر ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٤٤٣)، وزاد السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٣١) عزوه إلى خُشَيْش في الاستقامة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٤٤٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٤٤٣).

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفسٌ زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع ﴿مَن﴾ على النفس.

قالوا: كان جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ ﴿مَن﴾، كما تقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بُدٌّ من ذكر ما يزيله.

قالوا: و﴿مَن﴾ موصولة بمعنى (الذي)، ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن جائزًا؛ لعود الضمير المؤنث على الذي، وهو مذكر، قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفْس إذا زكَّى نفسَه، ولهذا فرَّغ الفعل من التاء، وأتى بـ ﴿مَن﴾ التي هي بمعنى الذي.

وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، مَنْ عمِل خيرًا زكاها بطاعة الله»(١).

وقال أيضًا: «قد أفلح من زكَّى نفسه بعمل صالح»(٢).

وقال الحسن: «قد أفلح من زكى نفسه، فأصلحها وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله»(٣).

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٤٤٤).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٤٤٤).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٣٠) إلى عبد بن حميد، بلفظ: «قد أفلح من زكى نفسه وأصلحها، وخاب من أهلكها وأضلها».

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال قتادة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، **مَنْ عمل خيرًا زكاها بطاعة الله». وقال أيضًا: «قد أفلح من زكَّى نفسه بعمل صالح»)**، قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-١٠].

أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنفس، نفس الإنسان؛ لأنها مخلوقة لله عَزَّوَجَلَّ، والله جَلَّ وَعَلَا يقسم بما شاء من خلقه ولا يقسم إلا بشيء له أهمية.

فالنفس لها أهمية؛ لأنها إما أن تكون شقية وإما أن تكون سعيدة، ولها خواطر ولها أفكار، فهي من العجائب، مخلوقات الله.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: أي والذي سواها، خلقها وأوجدها.

أو ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: وتسويتها، تكون فتكون «مَا» مصدرية كما سبق بيانه.

ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩].

اختلف المفسرون إلى أين يرجع الضمير المستتر في قوله: ﴿زَكَّىٰهَا﴾ من هو الذي زكاها؟

القول الأول: قيل: هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله يزكي بعض النفوس، يزكيها بالأعمال الصالحة والأفكار الجيدة.

والتزكية: معناها التطهير، فالطاعات تطهر النفس.

ومن معاني التزكية: التنمية أي تنمي الخير، الطاعات تنمي الخير

في النفس، وهذا بيد الله هو الذي يزكي؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٢١]. فهو يزكي؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩].

فالنفس التي زكاها الله بالطاعات والقربات قد أفلح صاحبها، فاز، ﴿أَفْلَحَ﴾ يعني فاز صاحبها.

فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: فاز من زكى الله نفسه، على أن الضمير يرجع إلى الله.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ أي: خسر.

﴿مَن دَسَّىٰهَا﴾، من دساها كذلك، دساها الله سبحانه بذنوبها وسيئاتها حتى تدست في التراب أي: اختفت في الرغام والتراب لحقارتها، فالذنوب تدنس النفس وتحطها إلى أسفل، والله هو الذي قدر لها ذلك بأفعال صاحبها.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: من دس الله نفسه بالذنوب والمعاصي والمخالفات.

والقول الثاني: أن الضمير يرجع إلى صاحب النفس؛ ﴿أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: زكى نفسه بالطاعات والقربات.

فالإنسان هو الذي يزكي نفسه بالطاعات والخيرات؛ يكسب لها الخير ويرفعها بها، وهذا لا يخرج عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي وفق الإنسان بأن يزكي نفسه بالطاعات، ولولا توفيق الله ما حصل له ذلك.

﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي: خسر من دس نفسه، يعني حطها في الرَّغام والتراب ودسها بدل أن يرفعها دساها في المعاصي والذنوب، فالإنسان هو الذي يزكي نفسه بالطاعة أو يدنسها بالمعاصي على هذا التفسير.

وكلا التفسيرين صحيح؛ فخلاف العلماء المفسرين لا يختلف؛ لأن كل واحد منهم أخذ باحتمال، والآية تحتمل المعنى الأول وتحتمل المعنى الثاني وهذا ما يسمونه باختلاف التنوع وليس اختلاف التضاد.

لكن نرجع إلى أن الإنسان هو الذي يزكي نفسه، والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النجم:٣٢]. يعني التزكية تختلف، التزكية بالمدح وأن الإنسان يكمل نفسه هذا لا يجوز ومنهي عنه.

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢]. يعني لا تمدحوها وتكملوها، ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٩].

فالتزكية بالمدح للنفس لا يجوز، لا يجوز للإنسان أن يمدح نفسه، وأما التزكية بالعمل الصالح والطاعات فهي تزكية صحيحة.

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩]: بالطاعات والقربات.

فلا اختلاف بين التفسيرين والحمد لله؛ لأن الآية محتملة، وحاملة للمعنيين، كل أخذ باحتمال.

قال ابن قتيبة: «يريد: أفلح مَن زكَّى نفسه، أي: أنماها وأعلاها بالطاعة، والبِرِّ، والصدقة، واصطناعِ المعروف.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٠]، أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر، وركوب المعاصي.

والفاجر أبدًا خفيُّ المكان، زَمِرُ المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فمرتكب الفواحش قد دَسَّ نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهَّر نفسَه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبى ويَفَاع الأرض؛ لتُشهِّرَ أماكنها للمُعْتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين.

وكانت اللئام تنزل الأوْلاج والأطراف والأهضام؛ لتُخفِي أماكنَها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكَّوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها»(١).

وأنشد(٢):

وَبَوَّأْتَ بَيْتَكَ فِي مَعْلَمٍ ... رَحِيبِ المَبَاءَةِ وَالمَسْرَحِ
كَفَيْتَ العُفَاةَ طِلَابَ القِرَى ... وَنَبْحَ الكِلَابِ لِمُسْتَنْبِحِ

فهذان قولان مشهوران في الآية.

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) يعني ابن قتيبة في المصدر السابق (ص٢٠٦)، والأبيات نقلها عن ابن قتيبة كذلك: الواحديُّ في التفسير البسيط (٢٤/ ٦٣)، وأوردها كذلك الجاحظ في كتاب الحيوان (١/ ٢٥٣، ٢٥٤) ونسبها للكناني في (٥/ ٧٤).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال ابن قُتَيْبَةَ: «يريد: أفلح من زكَّى نفسه، أي: أنماها وأعلاها بالطاعة، والبِرّ»)**، على أن المزكي هو صاحب النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والفاجر أبدًا خفيُّ المكان، زَمِرُ المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس)**، ذليل، العاصي ذليل مهما كان من المال، من الرفعة، من الملك، هو ذليل في نفسه، المعاصي تذل الإنسان، وأما الطاعات فهي ترفع الإنسان وتعليه بالحق.

فتجد أن أصحاب الطاعات مرتفعة نفوسهم، وتجد أن أصحاب المعاصي نفوسهم منخفضة وهم ذليلون، صاحب الطاعة عزيز، صاحب المعصية ذليل، هذا آثار الطاعات وآثار المعاصي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومصطنع المعروف شهَّر نفسَه ورفعها)**، وهو لا يريد رفعها، لا يريد هذا، لكن الله يرفعها بعمله الصالح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبى ويَفَاع الأرض؛ لتُشهِّر أماكنها للمُعْتفين)**، كرام العرب لا ينزلون في الأمكنة المنخفضة في الفلاة، إنما ينزلون في الأمكنة العالية ويوقدون النار من أجل الأضياف يأتون إليهم، فهذا من الشرف.

وأما البخلاء تجدهم ينزلون في المنخفضات لئلا يراهم أحد، فالكرم يرفع أصحابه، والبخل يخفض أصحابه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**تنزل الرُّبى ويَفَاع الأرض**)، الرُّبى: يعني المرتفعات، جمع رَبْوَةٍ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لتُشهِّر أماكنها للمُعْتفين**)، المعتفون: يعني الضيوف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وكانت اللئام تنزل الأوْلاج والأطراف والأهضام**)، ذلة، لأن فيهم ذلة، ولا يريدون أن يتبينوا للناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأنشد**)، أنشد: يعني ابن قتيبة، ابن قتيبة من أئمة اللغة مشهور، إمام مشهور صاحب سنة وعقيدة صحيحة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَبَوَّأتَ بَيْتَكَ في مَعْلَمٍ ... رَحيبِ المَباءَةِ وَالمَسْرَحِ

كَفَيْتَ العُفَاةَ طِلابَ القِرَى ... وَنَبْحَ الكِلَابِ لمُسْتَنْبِحِ)

كان الضيوف أيضًا يهتدون بنبح الكلاب، يأتون على نبح الكلاب إلى الأجواد من العرب.

فهم يشتهرون بشيئين: بالنار في الليل الواضحة ترى من بعيد، وبنبح الكلاب التي يتخذونها لحراسة المواشي.

وأما البخيل فتجده لا يُسمع له صوت، ولا يرى له نار، منخفض حسًّا ومعنًى.

وفيها قول ثالث: أن المعنى خاب مَن دسَّ نفسه مع الصالحين وليس منهم، حكاه الواحدي، قال: ومعنى هذا أنه أخفى نفسه في الصالحين، يُرِي الناس أنه منهم، وهو منطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون(١).

وهذا وإن كان حقًّا في نفسه؛ لكن في كونه هو المراد بالآية نظرٌ.

وإنما يدخل في الآية بطريق العموم؛ فإن الذي يدسُّ نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دسَّ نفسه فيهم، والله أعلم.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما يدخل في الآية بطريق العموم؛ فإن الذي يدسُّ نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دسَّ نفسه فيهم)، وعلى كل حال هو يخفي نفسه؛ سواءً أخفاها في منخفض من الأرض، أو أخفاها بين الكرام واندس بينهم.

---

(١) انظر: التفسير البسيط (٢٤/ ٦٤). وانظر كذلك: تهذيب اللغة (١٢/ ١٩٨).

الباب التاسع

في طهارة القلب من أدرانه ونجاساته

هذا الباب وإن كان داخلاً فيما قبله، كما بينَّا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها، ودلالة القرآن والسنة عليها.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:١-٤]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٤١].

وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(هذا الباب وإن كان داخلاً فيما قبله، كما بينَّا أن الزكاة لا تحصل إلا بالطهارة، فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته، وشدة الحاجة إليها)**، يعني هذا الباب زيادة توضيح للباب الذي قبله، وإلا فهو بمعناه لم يأتِ بجديد.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٠٥ - ٤١٠)، والهداية الى بلوغ النهاية (٢/ ١٥٢٣) و(١٢/ ٧٨١٥، ٧٨١٦)، وتفسير الماوردي (٦/ ١٣٥ - ١٣٧)، والتفسير البسيط (٢٢/ ٣٩٦ - ٤٠٤)، وتفسير البغوي (٥/ ١٧٣، ١٧٤)، وزاد المسير (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر١-٤])، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:١، ٢].

هذا خطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاطبه بالأول بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل:١، ٢].

ثم قال له بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١].

والدثار هو الغطاء، قم من نومك ودثارك إلى الصلاة، قم من نومك ودثارك إلى الإنذار.

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:٢]: أنذر المشركين.

فيقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ثلاثة الأصول» عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (نُبِّئَ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأُرْسِلَ بالمدثر)(١).

فثبتت نبوته بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، سورة اقرأ؛ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١].

ثم إن الله رفعه إلى الرسالة؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:١، ٢]. يعني: بلغ الناس وادعهم ولا تقتصر على نفسك.

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر:٢-٤]. هذا محل الشاهد.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر:٤]. يعني نزه أعمالك من الشرك والبدع، فدل على أن التطهير يطلق ويراد به الطاعات.

---

(١) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص: ٢٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى:** ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٤١])، هذا عن اليهود؛ ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢].

فاليهود لهم أعمال خبيثة منها: أكل السحت وهو الرشوة.

﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾: ولا يسمعون للحق، لا يستمعون للحق، وإنما يستمعون للكذب والباطل، هذا في اليهود ومن تشبه بهم.

ثم قال: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١].

لأن هذه نجاسات: أكل السحت وسماع الكذب هذه نجاسات معنوية، فهم نجسوا أنفسهم بها، والسبب أن الله جَلَّ وَعَلَا لم يرد قضاءً وقدرًا أن يطهر قلوبهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال)**، ﴿وَثِيَابَكَ﴾ يعني: قلبك ﴿فَطَهِّرْ﴾، أو أعمالك فطهر.

قال الواحدي: «اختلف المفسرون في معناه؛ فروى عطاء، عن ابن عباس قال: «يعني: من الإثم ومما كانت الجاهلية تجيزه». وهذا قول قتادة، ومجاهد، قالا: « نَفْسَك فطهِّرْ من الذنب». ونحوه قال الشعبي، وإبراهيم، والضحاك، والزُّهري».

وعلى هذا القول الثياب: عبارة عن النفس، والعرب تَكْنِي بالثياب عن النفس، ومنه قول الشَّمَّاخ:

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلا ... تَرَى لهَا شَبهًا إلا النَّعَامَ المُنَفَّرَا

رموها - يعني الركابَ- بأبدانهم».

وقال عنترة:

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

يعني: نفْسَه»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الواحدي)**، والواحدي: هذا من أئمة التفسير، وله تفسير طُبِعَ أخيرًا، ضخم وجيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن ابن عباس قال: «يعني: من الإثم ومما كانت الجاهلية تجيزه)**، يعني طهر قلبك من الإثم، وطهر قلبك من أعمال الجاهلية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا قول قتادة، ومجاهد)**، من أئمة المفسرين، قتادة بن دعامة السدوسي هذا مشهور من أئمة المفسرين من التابعين.

---

(١) انظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٣٩٦، ٣٩٧).

ومجاهد: مجاهد بن جبر هذا من أئمة المفسرين وهو من تلاميذ ابن عباس، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونحوه قال الشعبي)**، والشعبي أيضًا من أئمة التفسير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإبراهيم)**، يعني إبراهيم النخَعي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والضحاك)**، الضحاك بن مزاحم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والزُّهري)**، الزهري: محمد بن شهاب الزهري الإمام الجليل المشهور، المحدث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه قول الشمّاخ)**، شاعر من شعراء العرب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلا تَرَى لَهَا شَبهًا إلا النَّعَامَ المُنَفَّرَا)**، يعني ركائبهم، شبه بالنعام الهارب من شدة عدوها، يمدح يعني هذه المركوبات من الإبل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عنترة: فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ)** عنترة: من فرسان العرب المشهورين.

يقول عن خصمه الذي تبارز معه في المعركة:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ   لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

هذا من معلقته.

«وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنِسَ الثياب.

وقال سعيد بن جُبير: كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنِسُ الثياب، وخبيث الثياب.

وقال عكرمة: لا تلبس ثوبك على معصية، ولا على فَجْرة.

وروي ذلك عن ابن عباس.

واحتج بقول الشاعر:

وَإنـيَ بِحَـمْـدِ اللهِ لَا ثَـوْبَ غَـادِرٍ لَـبِـسْـتُ وَلَا مِـنْ خِـزْيَـةٍ أَتقَنَّعُ

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: «وعملَك فأصلِحْ»، وهو قول أبي رَزِين، ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق»[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال في رواية الكلبي: يعني لا تغدر، فتكون غادرًا دنِسَ الثياب)، ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ [المدثر:٤]. يعني لا تكن غادرًا، والغدر يدنس النفس والقلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال سعيد بن جُبير: كان الرجل إذا كان غادرًا قيل: دنِسُ الثياب، وخبيث الثياب)، يعني النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَإنيَ بِحَمْدِ الله لا ثَوْبَ غَادِرٍ لَبِسْتُ وَلا مِنْ خِزْيَةٍ أَتقَنَّعُ)، يقول: لا أخفي الجرائم، أنا نقي لا أخفي الجرائم، مطهر النفس.

(١) هذا بقية كلام الواحدي، انظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: «وعملك فأصلح»)**، ﴿وَثِيَابَكَ﴾: يعني أعمالك.

﴿فَطَهِّرْ﴾: يعني من الشرك والبدع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو قول أبي رَزِين ورواية منصور عن مجاهد وأبي رَوْق)**، القول الأول أنه المراد بثيابك يعني نفسك، وهذا القول المراد بثيابك أعمالك.

«وقال السُّدِّي: «يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهرُ الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيثُ الثياب».

قال الشاعر:

لَا هُـمَّ إِنَّ عَـامِـرَ بْـنَ جَـهْـمِ ... أَوْذَمَ حَـجًّـا فِي ثِـيَـابٍ دُسْـمِ

يعني: أنه متدنس بالخطايا، وكما وصفوا الغادر الفاجر بدَنَسِ الثوب، وصفوا الصالح بطهارة الثوب، قال امرؤ القيس:

ثِيابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ

يريد: أنهم لا يغدرون، بل يَفُون.

وقال الحسن: «خُلُقَك فحسِّنْهُ»، وهذا قول القُرَظي»[١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال السُّدي: يقال للرجل إذا كان صالحًا: إنه لطاهرُ الثياب، وإذا كان فاجرًا: إنه لخبيثُ الثياب)، لأن الثياب هي الأعمال في الحقيقة.

الثياب على قسمين:

ثياب حسية: وهي ما تلبسه من المنسوجات تتجمل به.

وثياب معنوية: وهي الأعمال، الأعمال الصالحة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ [الأعراف:٢٦]، هذا اللباس الحسي.

---

(١) هذا تكملة النقل عن الواحدي، انظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٠٠، ٤٠١).

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الأعراف:٢٦]: هذا اللباس الثاني الذي هو الأعمال.

﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦]. خير من الثياب المنسوجة.

كون الإنسان يتجمل بالتقوى هذا خير من أن يتجمل بالثياب المنسوجة، وإن كان التجمل بالثياب مطلوب، لكن لا يقتصر عليه، بل يتجمل بالتقوى.

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى   تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا[1]

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لَا هُمَّ إِنَّ عَامِرَ بن جَهْمِ)**، «لَا هُمَّ» يعني اللهم، تخفيف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكما وصفوا الغادر الفاجر بدَنَسِ الثوب، وصفوا الصالح بطهارة الثوب)**، طهارة معنوية، الثوب هنا معنوي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال امرؤ القيس)**، امرؤ القيس: الشاعر المعروف الذي هو أقدم شعراء العرب، ومعلقته مشهورة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الحسن: «خُلُقَك فحسِّنْهُ»)**، قال الحسن البصري معنى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر:٤]: حسن خلقك، وكلها معانٍ متقاربةٌ تحتملها الآية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا قول القُرَظي)**، عطية القرظي.

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وقد تقدم تخريجه.

وعلى هذا: الثياب عبارةٌ عن الخُلُقِ؛ لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمالَ ثيابه على نفْسِه.

وروى العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابُك التي تلبس من مكسب غير طيب».

والمعنى: طهِّرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحلُّ اتخاذها منه.

وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك ونيَّتك فطهِّر».

وقال أبو العباس: الثياب: اللباس. ويقال: القلب، وعلى هذا يُنشَد[(١)]:

.... فَسُلِّي ثِيابِي مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلِ

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أُمِرَ بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين، وابن زيد»[(٢)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وروى العَوفي عن ابن عباس في هذه الآية: «لا تكن ثيابُك التي تلبس من مكسب غير طيب»)، هذا تفسير آخر: أن المراد بالثياب الثياب الحسية والمنسوجات، لا تلبس ثيابًا إلا وهي طاهرة من الحرام، لا يكن فيها ما ثمنه حرام، تشتري ثيابًا بدراهم محرمة من ربا أو من كسب خبيث.

---

(١) هذا عجز بيت لامرئ القيس في معلقته، والبيت على التمام:

وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ

انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (ص٤٦).

(٢) هذا تكملة النقل عن الواحدي، انظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٠١، ٤٠٣).

ولهذا جاء في الحديث: «**يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!**»(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والمعنى: طهِّرها من أن تكون مغصوبة، أو من وجه لا يحلُّ اتخاذها منه**)، يعني: اجعل ثيابك من حلال، من كسب حلال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وروي عن سعيد بن جبير: «وقلبك ونيَّتك فطهِّر»**)، زاد النية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال: إنه أُمِرَ بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة**)، هذا تفسير آخر: أن المراد بالثياب الملبوسة تطهرها من النجاسة للصلاة؛ لأنه يشترط في الصلاة طهارة البدن وطهارة الثوب وطهارة البقعة من النجاسة، والآية تحتملها، كل هذه معانٍ تدخل في الآية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**إنه أُمِرَ بتطهير ثيابه من النجاسات**)، وهذا التفسير ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «ثلاثة الأصول»(٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة**)، والآية شاملة لهذه المعاني.

❁ ❁ ❁

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٠١).

(٢) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص٢٠، ٣٠).

وذكر أبو إسحاق(١): «وثيابك فقصِّر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجرَّ على الأرض لم يُؤْمَنْ أن يصيبه ما ينجِّسه. وهذا قول طاووس.

وقال ابن عرفة: «معناه: نساءَك طهِّرْهن»، وقد يُكنى عن النساء بالثياب واللباس.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]. ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر(٢):

أَلا أَبْلِغْ أبا حَفْصٍ رَسُولًا ... فِدًى لَكَ مِنْ أخِي ثِقَةٍ إِزارِي

أي: أهلي.

ومنه قول البراء بن مَعْرورٍ للنبي ﷺ ليلة العَقَبة: «لَنَمْنَعنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنا»(٣)، أي: نساءنا»(٤).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وذكر أبو إسحاق: «وثيابك فقصِّر»، قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة)**، قصر يعني بعدم الإسبال، قصر يعني: ارفعها عن

---

(١) هو الزجاج، والكلام في كتابه معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٢٤٥).

(٢) البيت لأبي المنهال نفيلة الأكبر الأشجعي، انظر: تهذيب اللغة (٨/ ٢٨٥)، ولسان العرب (٤/ ١٧).

(٣) أخرجه أحمد (٢٥/ ٨٩ - ٩٥)، وابن حبان (١٥/ ٤٧١ - ٤٧٣)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): (رواه أحمد، والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع).

(٤) هذا آخر النقل عن الواحدي، انظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٠٣، ٤٠٤).

الإسبال؛ لأن الإسبال محرم، ولأنه عرضة لئن تتنجس إذا مرت بالنجاسات، إذا كانت نازلة ومررت على نجاسة تتنجس ثيابك، فهذا من فوائد تقصير الثياب: أنه يجنبك الإسبال، ويجنبك أيضًا النجاسات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال ابن عرفة: «معناه: نساءك طهِّرْهن»)**، لقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]. فيطلق اللباس أيضًا على المرأة ويطلق على الزوج، الزوج لباس لزوجته والمرأة لباس لزوجها، طهرها: يعني اخترها من النسب الطيب والتقي، اختيار الزوجة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويكنى عنهن بالإزار)**، يعني المرأة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أَلا أَبْلِغْ أبا حَفْصٍ رَسُولًا * فِدًى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ إِزَارِي)**، رسولًا يعني رسالة، الرسالة يطلق عليها رسول ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦]. يقول موسى وهارون، ﴿رَسُولُ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه قول البراء بن مَعْرورٍ)**، البراء بن معرور رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من سادات الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الذين بايعوا الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند جمرة العقبة.

كان الرسول يحبه ومات في أول هجرة الرسول، وصار يزور قبره ووضع عليه حجرًا ليعرفه، وكان يزور قبره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(«لَنَمْنَعنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا»)**، يعني نساءنا.

قلت: الآية تعمُّ هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا؛ فإن المأمور به إن كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يُكسِبُ القلب هيئةً خبيثة، كما أن خبث المطعمِ يُكسِبه ذلك.

ولذلك حَرُمَ لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح لا معارض لها[١]، لما يكتسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن.

ولذلك حَرُم لبس الحرير والذهب على الذكور[٢]، لما يُكْسِبُ القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لُبْسُهُ من النساء، وأهل الفخر والخُيلاء.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قلت: الآية تعمُّ هذا كله)، لا تظن أن هذا الاختلاف أنه

---

(١) منها حديث أبي المليح بن أسامة عن أبيه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنْ جُلُودِ السِّبَاعِ. أخرجه أبو داود (٤١٣٢)، والترمذي (١٧٧٠)، والنسائي (٤٢٥٣)، ثم أخرجه الترمذي (١٧٧١)، عن أبي المليح مرسلاً، قال الترمذي: (وَهَذَا أَصَحُّ). ومنها حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في النهي عن ركوب النمور: أخرجه أبو داود (٤١٢٩)، وابن ماجه (٣٦٥٦)، ومنها حديث أبي ريحانة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أخرجه أبو داود (٤٠٤٩)، وابن ماجه (٣٦٥٥)، والنسائي (٥٠٩١).

(٢) أخرج أبو داود (٤٠٥٧)، وابن ماجه (٣٥٩٥)، والنسائي (٥١٤٤ - ٥١٤٧) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «إِنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي». وأخرجه وابن ماجه (٣٥٩٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه النسائي (٥١٤٨) من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

اختلاف مذموم، هذا محمود؛ لأن كل واحد من المفسرين أخذ بمعنى من معاني الآية، فهو من اختلاف التنوع في التفسير، وكل اختلافات المفسرين من هذا القبيل: اختلاف تنوع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الآية تعمُّ هذا كلَّه)**، يعني كل هذه المعاني.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولذلك حَرُمَ لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن ذلك في عدة أحاديث صحاح)**، كما مر بنا أنه لا يجوز استعمال جلود النمور والسباع لا افتراشًا ولا لباسًا ولا ركوبًا، لا يركب عليها، محرمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لما يكتسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات)**، لأنك إذا جلست عليها يسري إليك شيء من أخلاق تلك الحيوانات السبعية المتوحشة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولذلك حَـرُم لبس الحرير والذهب على الذكور، لما يُكْسِبُ القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لُبْسُهُ من النساء، وأهل الفخر والخُيَلاء)**، الخاتم من الذهب ولبس الحرير للرجل لا يجوز حرام، كلاهما حرام؛ لما يسببه على اللابس من خبث النفس والميوعة أيضًا، يصير فيه ميوعة كميوعة النساء.

وأيضًا فيه خيلاء وتكبر على الفقراء، الفقراء لا يجدون ما يأكلون، وأنت تلبس حرير وتختم بذهب!! هذا يكسر قلوب الفقراء.

والمقصود أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها؛ فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأمورًا به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم إلا بذلك، فَتَبَيَّنَ دلالة القرآن على هذا وهذا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها)**، يعني طهر ثيابك وطهر قلبك وطهر نفسك هذا كله مطلوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَتَبَيَّنَ دلالة القرآن على هذا وهذا)**، والقرآن واسع الدلالات، وهذا من معجزات القرآن، من إعجاز القرآن اللغوي، إعجاز القرآن اللغوي الذي لا يشبهه كلام أحد.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة:٤١].

عقيب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١] مما يدلُّ على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه، فإنه إذا قبل الباطل أحبَّهُ ورضيه.

فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذَّبه إن قدر على ذلك، وإلا حرّفه، كما تصنع الجَهْميّة بآيات الصفات وأحاديثها، يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب لحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة:٤١] عقيب قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة:٤١])، يعني أن اليهود يستمعون إلى الذين يحرفون كلام الله بالتوراة ويغيرون كلام الله.

هم يسمعون هذا ويقبلونه اليهود، ولذلك قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة:٤١]. يعني لم يرد هذا إرادة كونية، قدر الله عليهم ذلك عقوبة لهم بسبب فعلهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١])، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة:٤١]. إن قال لكم الرسول مثل هذا اقبلوا منه، الرسول محمد اقبلوا منه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤١، ٤٢]. وهو الحرام، هذا من صفات اليهود؛ لأن الله لم يرد أن يطهر قلوبهم.

﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١].

وقيل: إن هذا في رجم الزانية، لما زنت امرأة من اليهود، قالوا: نذهب إلى محمد لنرى ماذا يكون حكمها، فالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أليس عندكم في التوراة؟ قالوا: لا، ليس في التوراة. طلب التوراة، فالرسول طلب التوراة نشروها، وإذا آية الرجم فيها؛ يريد أن يقيم الحجة عليهم(١).

---

(١) أخرج البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِيهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قَدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ، فَقَالَ: «**مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟**»، قَالُوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا، وَنُخَالِفُ بَيْنَ وُجُوهِهِمَا، وَيُطَافُ بِهِمَا، قَالَ: «**فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**»، فَجَاؤُوا بِهَا، فَقَرَؤُوهَا، حَتَّى إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَمَا وَرَاءَهَا! فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ -وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: =

﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾: يعني إن أوتيتم أنها لا ترجم خذوه، إن كان الرسول حكم أنها لا ترجم خذوا هذا.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾: حكم بالرجم ﴿فَٱحْذَرُوا﴾، هذه طبيعة اليهود.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مما يدلُّ على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه)**، تعود هذا، الذي يستمع إلى الكذب ويستمع إلى تحريف الكلام يتعود هذا.

بعد ذلك لا يقبل الحق؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه إذا قبل الباطل أحبَّهُ ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذَّبه)**، كما قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا﴾ [المائدة:٤١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا جاء الحق بخلافه ردّه وكذَّبه إن قدر على ذلك، وإلا حَرّفه)**، حَرّفه: يعني غير معناه، التحريف يكون باللفظ.

مثلما قيل لبني إسرائيلَ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨]: يعني حط عنا ذنوبنا. ﴿حِطَّةٌ﴾ استغفار، حط عنا ذنوبنا، هم غيروه وقالوا: حنطة! زادوا نونًا، هذا تحريف للفظ -والعياذ بالله-.

وقد يكون التحريف للمعنى، اللفظ يسلم لا يحرفونه، لكن يغيرون المعنى ويفسرونه بغير تفسيره، هذا تحريف.

=مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرُجِمَا. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما تصنع الجَهْمِيَّة[١] بآيات الصفات وأحاديثها)**، الجهمية لا تستطيع تمسح الآيات، ماذا فعلت؟

فسرتها بتفسير باطل، حرفتها معنويًّا ولم تستطع أن تحرفها لفظيًّا، وإلا فإنهم يريدون أن يحرفوه لكن لا يقدرون؛ القرآن محفوظ.

ولهذا جاء الجهم إلى عمرو بن العلاء[٢] أحد القراء، قال: أريدك أن تقرأ: «وكلم اللهَ موسى تكليمًا»، بدل ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [النساء:١٦٤]!

لأجل أن يكون الذي كلم الله هو موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم يكلم الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يريد العكس.

قال: هَبْ أني فعلت ذلك، ما تصنع في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]؟! عند ذلك اندحر الخبيث، فهو يحاول تحريف اللفظ[٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يردون هذه بالتأويل الذي هو تكذيب لحقائقها، وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها)**، ومن تحريفهم قولهم: أن أخبار

---

(١) تقدم التعريف بهم (ص١١٥).

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان المازني البصري، النحوي، من أئمة البصرة في القراءات والنحو واللغة، أحد القراء السبعة، اختُلف في اسمه؛ فقيل: زبان، وقيل: يحيى، وقيل غير ذلك، قرأ القرآن على مجاهد بن جبر، وسعيد بن جُبَير، ويحيى بن يعمر، وحميد بن قيس، وعبد الله بن كثير صاحب مجاهد، تُوُفِّيَ سنة أربع وخمسين ومئة . انظر: مشاهير علماء الأمصار (ص١٥٣)، والفهرست (ص٤٢)، وتاريخ دمشق (٦٧/ ١٠٣)، وتهذيب الكمال (٣٤/ ١٢٠)، والوافي بالوفيات (١٤/ ١١٥).

(٣) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص١٨٢)، وبيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٢)، والصواعق المرسلة (٣/ ١٠٣٧).

الآحاد لا تفيد العلم ولا يعتمد عليه في العقائد، وهذا باطل؛ لأن كل ما صح عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواترًا أو آحادًا يجب قبوله واعتقاده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها في باب معرفة الله وأسمائه وصفاته)**، يقولون هكذا قبحهم الله.

فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يُرِد الله أن يطهر قلوبهم؛ فإنها لو طهرت لما تعوَّضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله.

كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لَمَّا لم تطهر قلوبهم تعوَّضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو طَهُرت قلوبنا لَمَا شَبِعتْ من كلام الله»[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يُرِد الله أن يطهر قلوبهم؛ فإنها لو طهرت لما تعوَّضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله)**، الشقاوة أدركتهم، وإلا ماذا يضرهم إذا أنهم فسروها بالمعنى الصحيح؟ ما الذي يضرهم؟ لكن الله لم يرد أن يطهر قلوبهم، لا يقبلون هذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لَمَّا لم تطهر قلوبهم تعوَّضوا بالسماع الشيطاني)**، الصوفية يعني لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالأغاني والأناشيد عن سماع القرآن.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لَمَّا لم تطهر قلوبهم)**، أهل الإرادة: يعني الصوفية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(تعوَّضوا بالسماع الشيطاني)**، الغناء، السماع يعني الغناء، أخذوا قرآن الشيطان وتركوا قرآن الرحمن، وهكذا من أعرض عن الحق يبتلى بالباطل عقوبة له.

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (ص١٠٦)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال عثمان بن عفان** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«لو طَهُرت قلوبنا لَمَا شَبِعتْ من كلام الله»)**، وهذا معناه: أنه يحقر نفسه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وإلا فهو ممن تبحر في القرآن، ويحب القرآن، ويتلوه دائمًا، ويقوم به في الليل، لكن هذا يعني أن الإنسان لا يعجب بنفسه، ولا يزكي نفسه.

فالقلب الطاهر -لكمال حياته ونوره وتخلُّصه من الأدران والخبائث- لايشبع من القرآن، ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته.

بخلاف القلب الذي لم يُطهِّره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لاتلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله، وأنه سبحانه لما لم يُرِد أن يُطهِّر قلوب القائلين بالباطل المحرِّفين للحق لم يحصل لها الطهارة.

ولا يصحُّ أن تفسَّر الإرادة ها هنا بالإرادة الدينية، وهي الأمر والمحبة، فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرًا ومحبة، ولم يرده منهم كونًا؛ فأراد الطهارة لهم، ولم يُرِدْ وقوعها منهم؛ لما له في ذلك من الحكمة التي فَواتُها أكرهُ إليه من فوات الطهارة منهم.

وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القَدَر.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**بخلاف القلب الذي لم يُطهِّره الله، فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة**)، كما ذكر عن الصوفية أنهم تركوا سماع القرآن، وذهبوا إلى سماع الشيطان وهو الغناء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح**)، المريض لا يقبل الأغذية الجيدة يكرهها بسبب

المرض، هذا مرض البدن، ومثله وأشد مرض القلب أيضًا، مريض القلب لايقبل الحق ولا يقبل القرآن مثل المريض الذي لا يقبل الطعام.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله)**، ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤١].

انظر! ﴿لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤١]: دل على أن طهارة القلب مربوطة بإرادة الله، وأن الله إذا لم يردها لم يطهر القلب.

فالمسلم يتوكل على الله ويسأل الله أن يصلح قلبك؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]. لأن القلوب بيد الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأنه سبحانه لما لم يُرِد أن يُطهِّر قلوب القائلين بالباطل المحرِّفين للحق لم يحصل لها الطهارة)**، عقوبة لهم، لم يرد طهارة المحرفين للحق، القابلين للباطل عقوبةً لهم حرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يصحُّ أن تفسَّر الإرادة ها هنا بالإرادة الدينية)**، لا، الله أراد شرعًا ودينًا أن يطهر قلوبهم، لكنهم لم يقبلوا هذا فلم يرد تطهيرها قدرًا؛ لأن الإرادة على قسمين: إرادة قدرية، وإرادة شرعية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمرًا ومحبة، ولم يرده منهم كونًا)**، عقوبةً لهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأراد الطهارة لهم، ولم يُرِدْ وقوعها منهم؛ لما له في ذلك من الحكمة التي فَواتُها أكرهُ إليه من فوات الطهارة منهم)**، لأنهم لا يريدون

الحق، وما داموا لا يريدون فلا يسمعون كلام الحق أبدًا، يسمعون الكلام الذي يلائمهم ويطابق رغبتهم هكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا الكبير في القَدَر)**، لعله كتاب: شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

ودلت الآية على أن من لم يُطهِّر الله قلبه فلابد أن يناله الخِزْيُ في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حرّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طِيبه وطهره، فإنها دار الطيبين، ولهذا يقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣]، أي ادخلوها بسبب طيبكم.

والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢]، فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ودلت الآية على أن من لم يُطهِّر الله قلبه فلا بد أن يناله الخِزيُ في الدنيا والعذاب في الآخرة، بحسب نجاسة قلبه وخبثه)، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٤١]. عقوبة في الدنيا وعقوبة في الآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا حرّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طِيبه وطهره)، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ [الزمر:٧٣]. لا يدخل الجنة إلا الطيب، والجنة دار الطيبين.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣].

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا يقال لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾** [الزمر:٧٣]**)**، كما في سورة الزمر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾** [النحل:٣٢]**)**، في سورة النحل.

فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير مُعَوِّق، ومن لم يتطهر في الدنيا؛ فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر من تلك النجاسة، ثم يخرج منها.

حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُهَذَّبون ويُنقَّون من بقايا بقيت عليهم، قصَّرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر من تلك النجاسة، ثم يخرج منها)**، يعني إذا كان فيه خبث، معاصي، خبث المعاصي وشيء من الكبائر فهذا يطهر في النار، يدخل في النار أولًا.

ثم إذا تطهر يخرج من النار ويدخل الجنة، وهذا في أصحاب الكبائر التي دون الشرك يطهرون في النار، لا يدخل الجنة إلا طاهر إما من الأصل، وإما بعد تطهيره في النار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار)**، ومما يدل على هذا حديث: أن أهل الجنة أو المؤمنين إذا جاوزوا الصراط بأعمالهم ولم يسقطوا يوقَفون، فيُقتص لبعضهم من بعض؛ حتى يطهروا من حقوق الناس، ثم يدخلون الجنة.

والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلايدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطِّيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طَيِّبٌ طاهر.

فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب، ولهذا شُرع للمتوضئ أن يقول عَقِيبَ وُضوئِه: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»[1].

فطهارة القلب بالتوبة، وطهارة البدن بالماء، فلما اجتمع له طهوران صلح للدخول على الله، والوقوف بين يديه ومناجاته.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر)، هذا الشيء واضح، لا يدخل في الصلاة، الصلاة دخول على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقوف بين يديه، لا يقف

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ؛ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». وأصله في صحيح مسلم (٢٣٤) بلفظ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوَضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ».

إلا وقد تطهر من الحدث ومن النجاسة، تطهر من الحديث وتطهر من النجاسة في الثوب والبدن والبقعة، لا يدخل على الله إلا بعد ما يتطهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا شُرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوّابين، واجعلني من المتطهرين»)**، إذا تطهر بالماء من الحدث يتطهر بالشهادة، بالشهادتين من الشرك، يجمع بين الطهارتين: الطهارة من الشرك وطهارة من الحديث حتى يدخل في الصلاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلما اجتمع له طهوران، صلح للدخول على الله)**، يعني في الصلاة.

وسألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ»(١)، كيف تُطهَّر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟

وقوله في لفظٍ آخَرَ: «وَالمَاءِ البَارِدِ»(٢)، والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟

فقال: الخطايا تُوجب للقلب حرارةً ونجاسة وضعفًا، فتُرخي القلبَ، وتُضْرِمُ فيه نارَ الشهوة، وتنجِّسه، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمدُّ النار ويوقدها، ولهذا كما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويُطفئ النار، فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة، فإن كان معه ثلج وبردٌ كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدَّته، فكان أذهبَ لأثرِ الخطايا.

الشَّرح

بالماء هذا يغسل، والثلج هذا يبرد الحرارة، حرارة المعاصي، كلك

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ سَكَتَ هُنَيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «**أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ**».

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٦) عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاءِ، وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ، اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ**».

البرد ينقي أكثر من غيره، فهذا وجه جمع النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهذه الأنواع في التطهير.

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: **(وسألت شيخ الإسلام؟ كيف تُطهِّر الخطايا بذلك؟ وما فائدة التخصيص بذلك؟)**، يعني ألا يكفي الماء، ألا يكفي الماء، لماذا جُعِلَ معه الثلج والبرد، ما المناسبة؟

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: **(وقوله في لفظ آخر: «والماء البارد»، والحارُّ أبلغ في الإنقاء؟)**، من المعروف أن الماء الحار أبلغ في إنقاء الثوب، فلماذا قال: والماء البارد؟

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: **(فقال)**، يعني أجاب الشيخ.

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: **(الخطايا تُوجب للقلب حرارةً ونجاسة وضعفًا)**، النجاسة تطهر بالماء، والحرارة تبرد بالماء البارد والثلج والبرد.

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: **(والماء يغسل الخبث ويُطفئ النار)**، يغسل الخبث: يعني النجاسة، ويطفئ النار.

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: **(فإن كان باردًا أورث الجسم صلابة وقوة)**، بدل الضعف.

هذا معنى كلامه، وهو محتاجٌ إلى مزيد بيان وشرح، فاعلم أن ها هنا أربعة أمور: أمران حسِّيَّان، وأمران معنويَّان: فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومُزِيلها حسيَّان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار؛ هي ومزيلها معنويَّان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا، فذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كل شطر قسمًا، نبّه به على القسم الآخر، فتضمنت كلماته الأقسام الأربعة في غاية الاختصار، وحسن البيان.

كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»[1]؛ فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(هذا معنى كلامه، وهو محتاجٌ إلى مزيد بيان وشرح، فاعلم أن ها هنا أربعة أمور)**، يريد ابن القيم أن يشرح كلام الشيخ ويوضح.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا)**، بالحسي والمعنوي.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهِّرين»؛ فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة)**، المتوضئ إذا فرغ يأتي بالشهادتين، ويدعو بالتوبة والتطهر؛ لأن الماء يزيل الحدث عن البدن، والخطايا تزيلها التوبة؛ اجعلني من التوابين، التوبة تزيل المعصية، الماء يزيل الحدث، والتوبة تزيل المعصية؛ واجعلني من المتطهرين من النوعين: النجاسة الحسية والمعنوية.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٧٢).

ومن كمال بيانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به: تمثيل الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس، وهذا كثير في كلامه.

كقوله في حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَلِ اللهَ الْهُدَى وَالسَّدَادَ، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَبِالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»(١).

وهذا من أبلغ التعليم والنصح، حيث أمره أن يذكر -إذا سأل الله الهدى إلى طريق رضاه وجنته- كونَه مسافرًا، وقد ضل عن الطريق، فلا يدري أين يتوجه، فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها، فسأله أن يدلَّه على الطريق.

فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر، وحاجة المسافر -إلى الله سبحانه- إلى من يهديه تلك الطريق، أعظم من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدلُّه على الطريق الموصل إليها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن كمال بيانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به: تمثيل الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس)، كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضرب الأشياء، يوضح الأشياء الغامضة والبعيدة، يقربها ويوضحها بالأشياء المحسوسة الحاضرة؛ من كمال بيانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلاً لها بالطريق المحسوس للمسافر، وحاجة المسافر -إلى الله سبحانه- إلى من يهديه تلك الطريق، أعظم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٥) عن عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي. وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ».

من حاجة المسافر إلى بلد إلى من يدلُّه على الطريق الموصل إليها)، لأن السفر على قسمين: سفر في الدنيا إلى البلدان، وسفر إلى الآخرة.

والرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا إلى أن يهديه الله؛ لأن الذي يمشي في الطريق يحتاج إلى دليل وهداية، ويحتاج إلى صواب؛ ولهذا قال: «الهُدَى والسَّدَاد»؛ الهدى على الطريق، والسداد بما أقصده، وأن أصيبه ولا أخطئه.

كذلك السداد، هو إصابة القصد قولًا وعملاً؛ فَمَثَلُهُ مَثَلُ رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه؛ فقد سدّد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلًا، فهكذا المصيب للحق في قوله وعمله بمنزلة المصيب في رميه، وكثيرًا ما يُقْرَنُ في القرآن هذا وهذا.

فمنه: قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧]. أمر الحاجّ بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى.

فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كذلك السداد، هو إصابة القصد قولًا وعملاً؛ فَمَثَلُهُ مَثَلُ رامي السهم، إذا وقع سهمه في نفس الشيء الذي رماه؛ فقد سدّد سهمه وأصاب، ولم يقع باطلًا)؛ ولهذا قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَلَكِنْ سَدِّدُوا أَوْ قَارِبُوا»(١)، حاولوا الإصابة، فإذا لم تحصل الإصابة فالمقاربة، فالمقاربة للإصابة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكثيرًا ما يُقْرَنُ في القرآن هذا وهذا، فمنه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧])، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر في القرآن ربط الأشياء بما يناسبها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا، بلفظ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ».

قال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾: أمر الحجاج أن يأخذوا معهم زاد السفر.

لأن هناك أناسًا كانوا يخرجون مع الحجاج، وليس معهم شيء، ويقولون نحن المتوكلون(١)، ويصبحون عالة على الحجاج، أمرهم الله أن يأخذوا الزاد من الطعام، وما يحتاجون إليه للسفر؛ ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾.

ثم نبه على سفرٍ أشدَّ يحتاج إلى زاد؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، فسفر الآخرة زاده التقوى، وسفر الدنيا زاده الطعام والشراب، فنبَّهَ جَلَّ وَعَلَا على هذا وهذا.

كما أنك تأخذ أهبة السفر للدنيا تأخذ أهبة السفر للآخرة، وأهبة السفر للآخرة هي التقوى، تقوى الله بفعل أوامره وترك ما نهى عنه، هذا زاد الآخرة.

سُمِّيَتْ تقوى؛ لأنها تقي من عذاب الله.

وقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]. الله جَلَّ وَعَلَا امتنَّ علينا باللباس الحسي الذي هو الثياب نستر بها عورتنا، ونجمل بها هيئتنا.

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ يعني: ستر العورات، هذه الزينة.

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١]؛ يعني: كل صلاة.

---

(١) قال مُعاويةُ بنُ قُرَّةَ: «لَقِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَأَكِّلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٥٠٧).

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾: يستر عورتكم، السوءة هي العورة، امتن الله علينا بذلك.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]. لما أمر بأخذ الستر الحسي على البدن وستر العورة، نبَّه على لباس التقوى، فهو أولى الذي يستر الذنوب.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: من لباس الدنيا.

ولهذا يقول الشاعر(١):

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا

فكسوة البدن لا تكفي عن كسوة الذنوب والمعاصي، كما تغطي عورتك باللباس تغطي ذنوبك بالتوبة؛ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦].

ولما قال سبحانه في آية الركوب: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]: لسنا مطيقين له، لولا أن الله سخره لنا وذلله لنا لم نستطع السيطرة عليه.

هل تستطيع السيطرة على البعير؟! البعير أقوى منك.

هل تستطيع أن تملك الفُلْكَ في البحر والسيطرة علها؟ لا تستطيع هذا، هو الذي سخرها لك، جعلها تطفو فوق الماء وهي محملة بالبضائع ولا تغرق، هذا من نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) تقدم عزوه (ص٢٧٥).

لكن لا تقتصر على هذا، اذكر السفر للآخرة، تقول: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٤]؛ فتذكر بسفر الدنيا سفر الآخرة، والانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف:١٤]: فهذا بالمناسبة، ينبه الله جَلَّوَعَلَا بالأشياء المشاهَدة على الأشياء الغائبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكثيرًا ما يُقْرَنُ في القرآن هذا وهذا)**، كما ذكرنا الأمثلة هذا وهذا.

ومنه: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]؛ فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى؛ زينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

ومنه: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]؛ فنفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ومنه: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]**)، لما ذكر سبحانه في آية سورة الأعراف أن المشركين يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها(١)! زين الشيطان لهم هذا.

الله جَلَّ وَعَلَا أمرهم بستر عوراتهم؛ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾: أي استروا عوراتكم ﴿عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف:٣١].

والمشركون- كما ذكرنا- كانوا يتعرون في الطواف، ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيهم! زين لهم الشيطان هذا.

---

(١) انظر: صحيح مسلم (١٢١٩) و(٣٠٢٨)، وتفسير الطبري (١٠/ ١٢٠، ١٢١) (١٠/ ١٤٩-١٥٥)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٢).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾: يعني تفضلنا عليكم، والإنزال هنا معناه الإيجاد، إيجاد الشيء من مصادره.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾: يعني زيادة على ستر العورات فيه جمال أيضًا، تتجملون به.

ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ [الأعراف:٢٦]. فنبه باللباس الحسي على اللباس المعنوي، لا تجمل شخصيتك وهيئتك وتنسى التجمل الصحيح وهو التقوى، فهو الجمال للإنسان، كم من متجمل بثيابه، لكنه غير متجمل في طاعته وعمله، وكم من رث الثياب وهو متجمل بالتقوى.

ولهذا قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[١] أشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لا يجعل يدخل على الملوك والرؤساء والمسئولين لحقارته، لكنه عند الله عزيز، السبب ما هو؟ تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ «**لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**».

(١) سبق تخريجه (ص٢٦٧).

ومنه: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦]؛ فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى؛ زينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

ومنه: قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]؛ فنفى عنه الضلال الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعَّم القلب والبدن بالهدى والفلاح.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنه: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف:٢٦])، والريش: هو الزينة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى؛ زينة الظاهر والباطن)، فإذا جمع بين الزينتين جمع بين زينة الظاهر باللباس المحسوس، وزينة الباطن بالتقوى.

ومنه: قول امرأة العزيز عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أَرَتْهُ النسوةَ اللائمات لها في حُبِّه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢]؛ فأَرَتهن جماله الظاهر.

ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾، فأخبرت عن جماله الباطن بعفته، فأخبرَتهْن بجمال باطنه، وأرتهُنَّ جمال ظاهره.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه: قول امرأة العزيز عن يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لما أَرَتْهُ النسوةَ اللائمات لها في حُبِّه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢]؛ فأَرَتهن جماله الظاهر، ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾، فأخبرت عن جماله الباطن بعفته)**، فجمع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين جمال الظاهر والباطن، فكان أجمل الناس عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، جمال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس له نظير عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وذلك مما أغرى به امرأة العزيز، وراودته عن نفسه، ولكنه استعصم؛ ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾ [يوسف:٣٢].

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

ثم هرب منها، فلحقته وجذبت ثوبه وشقته، وإذا بسيدها على الباب يريد أن يدخل فشاهد الواقع، فقلبت الدعوى عليه؛ ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتۡنِى عَن نَّفۡسِى﴾ [يوسف:٢٥-٢٦].

﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾: قلبت الدعوى عليه، فجعلته هو المجرم.

لكن الله جَلَّوَعَلَا برأه؛ بأن جاء شخص فقال: ينظر في الشق الذي في الثوب؛ فإن كان في المقدمة فهوراودها وتريد أن تدفعه عن نفسها، شقت ثوبه دفاعًا، وإن كان من دبر فهي التي لحقته.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ [يوسف:٢٦-٢٨].

فبرأ الله نبيه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هذه التهمة بسبب التقوى، والاعتصام بالله عَزَّوَجَلَّ مع ان المغريات كلها موجودة: غلقت الأبواب، تجملت، قالت هَيْتَ لك، فكل الأسباب موجودة، ولكنه اعتصم بالله، فعصمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منها؛ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. هذا السبب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه: قول امرأة العزيز)**، العزيز: هو ملك مصر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم قالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾)**، هذا جماله الباطن، ﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَ﴾، هذا جماله الباطن.

فنبَّه ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ طَهِّرْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالبَرَدِ»(١) على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يُطهِّرُهما ويُبرِّدهما ويقوّيها، وتضمن دعاؤه سؤالَ هذا وهذا، والله أعلم.

وقريب من هذا أنه ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: «غُفْرَانَكَ»(٢).

وفي هذا من السر -والله أعلم- أن النّجْوَ يُثقِل البدنَ ويؤذيه باحتباسه، والذنوب تُثقِل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه، فهما مُؤذيان مُضِرَّان بالبدن والقلب، فحمد الله عند خروجه على خلاصه منْ هذا المؤذي لبدنه، وخفة البدن وراحته، وسأله أن يُخلِّصه من المؤذي الآخر ويُرِيح قلبه منه ويخففه.

وأسرار كلماته وأدعيته ﷺ فوق ما يخطر بالبال.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فنبَّه ﷺ بقوله: «اللهم طهِّرْني من خطاياي بالماء والثلج والبرد» على شدة حاجة البدن والقلب إلى ما يُطهِّرُهما)، يعني إذا طهرت ثوبك من النجاسة تذكر تطهير قلبك، تذكر تطهير قلبك بأي شيء؟ بالتوبة، تب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٢٤)، وابن ماجه (٣٠٠)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقريب من هذا أنه** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان إذا خرج من الخلاء قال: «غفرانك»**)، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دخل الخلاء لقضاء حاجته أنه إذا خرج يقول: «غفرانك»: أي اغفر لي.

هل فعل خطيئة بدخوله؟

قالوا: لأن الله أنعم عليه بإزالة الأذى، فهو اعترف بتقصيره بالشكر لله عَزَّ وَجَلَّ، فقال: غفرانك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفي هذا من السر -والله أعلم- أن النّجْوَ يُثقِل البدنَ**)، الله خلصه من النّجو، وهو الخارج الذي فيه أذاه وفيه تأثير على البدن لو بقي، ربما يقتل، فهذه نعمة عظيمة أن الله خلصك منه، ويجب عليك الشكر لله عَزَّ وَجَلَّ لذلك، فأنت تعترف بالتقصير عن شكر الله عَزَّ وَجَلَّ على ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وسأله أن يُخلِّصه من المؤذي الآخر**)، وهو الذنوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأسرار كلماته وأدعيته** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فوق ما يخطر بالبال**)، لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم:٣-٤]. فكلماته فيها أسرار عظيمة، وفيها حكم عظيمة نفهم منها ما نفهم، ويغيب عنا منها الشيء الكثير.

فصل

وقد وسَم الله سبحانه الشرك والزنى واللواط بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ [التوبة:٢٨].

وقوله في حق اللوطية: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل:٥٦] فأقرُّوا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.

وقال تعالى في حق الزُّناة: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ ﴾ [النور:٢٦].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد وسَم الله سبحانه الشرك والزنى واللواط بالنجاسة والخبث)**، الشرك نجس، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة:٢٨]. النجاسة المعنوية؛ ﴿نَجَسٞ﴾: يعني النجاسة المعنوية لا يطهرها إلا التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وكذلك اللواط: نجاسة خلقية لا يطهرها إلا التوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبعد عنها وأسبابها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد وسَم الله سبحانه الشرك والزنى واللواط بالنجاسة والخبث)**، وصف الشرك بالنجاسة، قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]. نجاسة معنوية؛ يطهرها التوحيد، تطهير معنوي.

ووصف الزنا بالنجاسة؛ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور:٢٦]. يعني الزانيات للزانيين؛ ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣].

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور:٢٦].

ووصف اللواط بالنجاسة، ولهذا لما أنكر عليهم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾. لماذا؟

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]. يتطهرون من ماذا؟ من اللواط، فدل على أن اللواط نجاسة، والعياذ بالله.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]. هذا ذنبهم، فهم اعترفوا للواط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنقائه وسلامته من هذه الفاحشة من حيث لا يشعرون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(دون سائر الذنوب، وإن كانت مشتملة على ذلك)**، وإن كانت الذنوب مشتملة على النجاسة المعنوية، لكن نص على هذه الجرائم الثلاث للتحذير منها؛ لأنها أخبث الجرائم، وأقبح القبائح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨])**، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]. المراد نجاسة الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوله في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء:٧٤])**، ﴿ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾: يعني اللواط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦])**، هذا عيبهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: يعني لا يقعون في اللواط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأقرُّوا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس)**، أقروا على أنفسهم أنهم خبائث لا يتطهرون، وأن لوطًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتطهر من ذلك ويتركه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى في حق الزُّناة: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ﴾ [النور:٢٦])**، ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾: النساء الخبيثات للرجال الخبيثين.

﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [النور:٢٦]: الرجال الطيبون للنساء الطيبات، والطيبات من النساء للرجال الطيبين.

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلَّظة، ونجاسة مخفَّفة، فالمغلَّظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يُشرَك به، والمخفَّفة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به، وخوفه، ورجائه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلَّظة، ونجاسة مخفَّفة**)، إذا كان الشرك شركًا أكبر فنجاسته مغلظة لا يطهرها إلا الشهادتان.

وأما إن كان الشرك شركًا أصغر فنجاسته نجاسة مخففة تطهيرها بالتوبة من الرياء والنفاق والسمعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالمغلَّظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يُشرَك به**)، يعني من مات عليه فإن الله لا يغفر له بخلاف الذنوب التي دون الشرك فإنه يرجى لصاحبها أن يغفر الله له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والمخفَّفة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء**)، كيسير الرياء، أما الرياء الكثير هذا نفاق، هذا شرك أكبر، إذا كانت كل أعماله رياء هذا شرك أكبر.

قال الله جَلَّ وَعَلَا في المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

فالرياء الكثير لا يقع من المسلم أبدًا، وأما الرياء اليسير فيقع من المسلم، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ**»: يعني أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. «**أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ. فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: الرِّيَاءُ**»[1].

فيقع من المؤمن الرياء في بعض الأمور، بعض الأحيان، يقع منه الرياء ويذهبه بالتوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والإخلاص لله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والتصنع للمخلوق)**، التصنع للمخلوق: يعني تتزين للمخلوق وتظهر بالمظهر الدين، وأما الله جَلَّ وَعَلَا فلا يهمك، ولا تتزين له بالتقوى، ولا تتزين له بالإخلاص؛ ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٤٢].

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [النساء:١٠٨]: يخفون سيئاتهم وذنوبهم عن الناس، ولكنهم لا يخفونها عن الله، ولا يقدرون أن يخفوها عن الله؛ لأن الله لا يحجبه شيء؛ يرى كل شيء سبحانه، ويعلم كل شيء.

مهما حاولت أنك تختفي عن الله لا تختفي عليه لا في بر ولا في بحر ولا في ظلام ولا في ضياء، لا تختفي عن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والحلف به)**، والحلف به: شرك أصغر يعني.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وخوفه، ورجائه)**، كل هذا شرك أصغر.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٩/ ٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٣٣) من حديث محمود بن لَبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣) من طريق محمود بن لَبِيد عن رافع بن خَدِيج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونجاسة الشرك عينية، ولهذا جعل سبحانه المشرك نَجَسًا بفتح الجيم، ولم يقل: إنما المشركون نجِس بالكسر؛ فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس بالكسر هو المتنجس، فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نَجِسَ، والبول والخمر نجَس، فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم.

فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقْذَر الذي تُطْلَب مباعدتُه والبعد منه، بحيث لا يُلْمَسُ ولا يُشَمُّ ولا يُرى، فضلاً أن يُخالط ويلابس؛ لقذارته ونُفْرة الطباع السليمة منه، وكلما كان الحي أكمل حياةً وأصحَّ حياءً كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونجاسة الشرك عينية)**، المشركون نجس نجاسة عينية لا يذهبها إلا التوحيد، ولذلك لا تحل ذبيحتهم، ولا تحل نساؤهم للمسلمين؛ لأنها نحس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا جعل سبحانه المشرك نَجَسًا بفتح الجيم)**، بخلاف النجِس بكسر الجيم، هذا يمكن تطهيره بالماء، ثوب نجس، أرض نجسة هذه تطهر بالماء، لكن نجَس ليس له طهارة إلا بالتوبة والتوحيد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس بالكسر هو المتنجس)**، النجَس: هو نجس العين الذي لا يمكن تطهيره.

مثلًا: الكلب هذا نجس نجاسة عينية لو تغسله في البحار لم يطهر، لم يطهر لا يزيلها الماء، النجاسة العينية لا يزيلها الماء والغسل.

وأما النجاسة الحكمية - التي يسمونها حكمية-: وهي الطارئة على محل طاهر هذه تطهر بالماء، تطهر أحيانًا تطهر بالشمس؛ إذا ضربتها الشمس وزالت، تطهر بالفرك والدلك كما في النعلين والخفين، وتطهر بالاستجمار كما في قضاء الحاجة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نَجِسَ، والبول والخمر نجَس)**، البول والخمر نجَس، والثوب إذا أصابه البول يقال له نجِس، أو الخمر يقال له نجِس؛ لأن الله وصف الخمر أنها: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأنجس النجاسة الشرك)**، يعني أشد النجاسة: نجاسة الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أنه أظلم الظلم)**، كما أن الشرك أظلم الظلم؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

ظلم عظيم، هو أعظم أنواع الظلم؛ لأنه وضع للعبادة في غير موضعها وهذا هو الشرك، الشرك: هو وضع الشيء في غير موضعه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقْذَر الذي تُطْلَب مباعدتُه والبعد منه)**، بحيث إنه لا يطهر حتى تقول: أنا سأغسله، ليس هناك فائدة منه، لا يطهر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقْذَر الذي تُطْلَب مباعدتُه والبعد منه)**، أنت لو تغسل العذرة، لو تغسلها بالبحار لا تطهر؛ لأن نجاستها عينية، وكذلك البول، نفس البول نجاسته عينية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلما كان الحي أكمل حياةً وأصحَّ حياءً كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوى)**، الذي فيه حياة يتجنب النجس من المشركين، ومن النجاسات العينية، ويبتعد عن إصابة البول، إصابة العذرة ومواقعتها، يجتنب النجاسة الذي فيه حياة.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذي البدن، أو القلب، أو تؤذيهما معًا.

والنجَس قد يؤذي برائحته، وقد يؤذي بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبثُ والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليَشَمُّ من تلك الروح والقلب رائحةً خبيثة يتأذى بها، كما يتأذى من يشَمَّ رائحة النّتْن. ويظهر ذلك كثيرًا في عَرَقِهِ، حتى يجد لرائحة عَرَقِه نتنًا، فإن نَتْن القلب والروح يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره، والعَرق يَفِيض من الباطن، ولهذا كان الرجل الصالح طيبَ العرق.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطيب الناس عرقًا، قالت أم سُلَيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وقد سألها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه وهي تلتقطه-: هُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عِنْدَنَا، فَعرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ، فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ الْعَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟»، قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ».

تكون معنوية باطنة)، فالكافر نجس نجاسة معنوية لا ترى بخلاف العذرة هذه ترى، نجاسة تشاهد وتعرف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **أطيب الناس عرقًا)**، ورائحة، كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أطيب الناس رائحة وإن لم يمس طيبًا، كان عرقه طيبًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قالت أم سُلَيم)**، أم سُلَيم: والدة أنس بن مالك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قالت أم سُلَيم** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا **- وقد سألها رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **عنه وهي تلتقطه)**، يعني عرق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هو من أطيب الطيب)**، تقول: عرقه كان من أطيب الطيب.

فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثُها ونجاستها حتى يبدوَ على الجسد، والنفسُ الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وُجِدَ لهذه كأطيب نَفْحَة مسكٍ وُجِدتْ على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جِيفةٍ وُجدتْ على وجه الأرض(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنفسُ الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وُجِدَ لهذه كأطيب نَفْحَة مسكٍ وُجِدتْ على وجه الأرض)**، الميت إذا قبضت روحه- إذا كانت نفس مؤمن- يظهر لها رائحة عظيمة، رائحة طيبة عظيمة، ويقال: ما هذه الرائحة الطيبة؟ فيقال: هذا فلان بن فلان، يصعد به على السماء، تفتح له أبواب السماء، وكل أهل سماء يسألون: ما هذه الرائحة الطيبة؟ فيقال: هذه نفس فلان بن فلان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا تجردت وخرجت من البدن)**، خرجت من البدن: يعني بالموت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولتلك كأنتن ريح جِيفةٍ)**، أما نفس الكافر- والعياذ بالله- إذا قبضت يظهر لها رائحة أنتن من الجيفة، فيسأل الناس أو الملائكة: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقال: هذه روح فلان بن فلان الكافر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولتلك كأنتن ريح جِيفةٍ وُجدتْ على وجه الأرض)**، كما في حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٤٩٩، ٥٠٣)، وأبو داود (٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، والحاكم (١/ ٩٣) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الحديث السابق.

والمقصود أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغضَ الأشياء إلى الله وأكرهَها له، وأشدها مقتًا لديه، ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتِّبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نَجَس، ومنعَهم من قُرْبان حَرَمِهِ، وحرّم ذبائحهم ومناكحهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداءً له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ورتَّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتِّبه على ذنب سواه)، يعني: على الشرك، عقوبة الدنيا: أنه يقتل، ويباعد عنه ويبتعد عنه، وفي الآخرة- والعياذ بالله- النار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأخبر أنه لا يغفره)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنعَهم من قُرْبان حَرَمِهِ)، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]: يعني عام الفتح.

لما فتح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة منع المشركين من دخولها، فأرسل من ينادي في الموسم: «أَلَّا يَحُجَّ بَعْدَ هَذَا العَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالبَيْتِ عُرْيَانٌ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وحرّم ذبائحهم ومناكحهم)**، فذبيحة المشرك حرام لاتؤكل، وإن ذبحها في المحل، وإن ذكها بالسكين؛ لأنه نجس نجاسة معنوية فتحرم ذبيحته، تسري إليها نجاسته وخبثه فلا تؤكل ذبيحته.

لأن الله أباح لنا طعام أهل الكتاب فقط، فتخصيص طعام أهل الكتاب يعني ذبائحهم دليل على أن غيرهم من الكفار لا تحل ذبائحهم؛ لأنهم نجس.

وكذلك حرم التزوج من المشركات؛ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: لاتزوجوهم.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين)**، ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:٥٧]: لا توالونهم بالمحبة، ولا بالنصرة، تبرءوا منهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجعلهم أعداءً له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين)**، ﴿ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨].

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم)**، يعني بالغنيمة، أباح لهم أموالهم ونساءهم ودماءهم بقتالهم، دماءهم بالقتال، وأموالهم بالغنيمة؛ لأنهم أعداء لله، واعداء رسوله، وأعداء عباده المؤمنين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم)**، نساؤهم بالسبي، أباحها بالسبي لا بالنكاح والعقد، لكن بالسبي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن يتخذوهم عبيدًا)**، أرقاء، يسترقونهم؛ لأنهم لما استكبروا عن عبادة الله أذلهم الله، وجعلهم أرقاء، وجعلهم عبيدًا للشيطان بدل عبودية الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا لأن الشرك هَضمٌ لحق الربوبية، وتنقُّصٌ لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

فلم يُجمَع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جُمِع على أهل الإشراك؛ فإنهم ظنوا به ظنَّ السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحَّدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قَدَروه حقَّ قدره في ثلاثة مواضع من كتابه.

وكيف يَقدِرُه حقَّ قدره من جعل له عِدْلًا ونِدًّا يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويَذِلُّ له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويُؤْثِرُ مَرْضَاتَهُ؟

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا لأن الشرك هَضمٌ لحق الربوبية)، هذا الذي جعل هذه عقوبة الكافر والمشرك؛ لأنه تنقص للربوبية؛ فالمشرك يتنقص الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الكافر يتنقص الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح:٦])،
فلا يجوز إساءة الظن بالله، يجب حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ دائمًا وأبدًا.

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣].

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قَدَروه حقَّ قدره في ثلاثة مواضع من كتابه)**، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٩١].

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٧٤].

في ثلاثة مواضع، في ثلاثة مواضع: في سورة الأنعام، وفي سورة الحج، وفي سورة الزمر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكيف يَقدِرُه حقَّ قدره من جعل له عِدْلًا ونِدًّا)**، عِدْلًا: يعني معادلًا له، مساويًا له، المشرك سوى المخلوق بالخالق، وعادله به؛ ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]: يجعلون له عِدْلًا من خلقه وشريكًا يساويه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويَذِلُّ له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويُؤْثِرُ مَرْضَاتَهُ؟)**، هذه كلها حقوق الله، المشرك جعلها لمن يشرك به من الأصنام والأشخاص.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥])، فإن العبادة مبنية على المحبة، المحبة هي أعظم أنواع العبادة.

وهذه المحبة إن كانت محبة لله كمحبة المؤمنين لله فهي محبة محمودة، وعلى أجر وثواب؛ فلا أحد أحب إلى المؤمنين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يبذلون أنفسهم وأموالهم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، يجاهدون في سبيله، وينفقون أموالهم في طاعة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

ويتبع محبة الله: محبة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ بل رسله وأنبيائه كلهم، ثم محبة أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ثم محبة بقية المؤمنين، وهذا هو الحب في الله، وهو أوثق عرى الإيمان كما في الحديث: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الحَبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**»(١).

كذلك يحبون ما يحبه الله من الأعمال والأقوال، هذه محبة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢)، والحاكم (٢/ ٥٢٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٧٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ. وأخرجه أحمد في المسند (٣٠/ ٤٨٨) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

المشركون لم يعبدوا الأصنام والأحجار والأشجار إلا لأنهم يحبونها محبة عبادة، يحبونها، ولو لم يكونوا يحبونها، لما حجبوها، ولم يدافعوا عنهم، فهم يحبون أصنامهم وأوثانهم محبة شديدة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]: أي أنهم يحبون الأنداد كما يحبون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، هذا تفسير للآية.

والتفسير الثاني: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: يعني يحبون الله ويحبون معه غيره من الأصنام والأشجار والأحجار التي يعبدونها، فيشركون في المحبة مع الله سبحانه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: أي أشد حبًا من المشركين لله؛ لن محبة المؤمنين خالصة، محبة الشركين مشتركة بين الله وبين غيره.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. عَزَّوَجَلَّ من محبة المشركين لله.

فعلى التفسير الأول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: من محبة المشركين لأصنامهم.

على التفسير الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: من محبة المشركين لله؛ لأن محبتهم خالة، ومحبة المشركين مشتركة، فيها شرك، وعلى كل حال فالآية لها تفسيران؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]؛ أي يجعلون له عِدْلًا في العبادة والمحبة والتعظيم.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١])، افتتح الله سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: هذه نعم من الله عَزَّوَجَلَّ.

خلق السموات والأرض نعمة من الله على عباده.

وجعله ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: انظر! النور مفرد، والظلمات متعددة؛ فالظلمات كثيرة ومختلفة، وأما النور فهو شيء واحد، مثل الصراط؛ صراط الله واحد، وغيره من الطرق كثيرة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ﴾ [الأنعام:١٥٣].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: في السموات والأرض، وكذلك الظلمات والنور: نور الإيمان في قلوب المؤمنين، وظلمات الشرك والكفر في قلوب الكفار والمشركين.

ظلمات ونور حسية وظلمات ونور معنوية، الله هو الذي خلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيحمد عليها.

ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: يعني مع هذا، مع هذه النعم، وهذه القدرة العظيمة؛ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: أي يعدلون معه غيره؛ ويجعلونه عديلًا لله، فيجعلون الأصنام عديلة لله عَزَّوَجَلَّ، ومساوية لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾: به غيره من الأصنام وغيرها مع أن الله لا عِدْل له ولا مثيل له ولا شبيه له.

وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا في النار أنها كانت ضلالًا وباطلًا، فيقولوا لآلهتهم وهم في النار مَعَهُمْ: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧- ٩٨].

ومعلوم أنهم ما سوَّوهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالو ا: إن آلهتهم خلقت السموات والأرض، وإنها تحيي وتميت، وإنما سوَّوها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم)**، ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾: يقولون هذا في النار.

إذا دخلوا النار هم ومعبوداتهم يقولون لمعبودتهم: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾: هذا قسم؛ ﴿ تَٱللَّهِ ﴾: أي والله ﴿ إِن كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: نجعلكم مساويين لرب العالمين في العبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعرفوا في النار أنها كانت ضلالا وباطلًا)**، ﴿ كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾: عرفوا ضلالهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧- ٩٨])**، هذا من باب التحسر - والعياذ بالله- يتحسرون على ما حصل منهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومعلوم أنهم ما سوَّوهم به في الذات والصفات والأفعال)**، سوَّوهم بماذا؟

في العبادة والمحبة، لم يسوَّوهم به؛ لئْنهم يخلقون ويروقون ويدبرون، هم يعترفون أن هذا لله وحده، ولكنهم سوَّوهم به في العبادة والمحبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما سوَّوها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام)**، من ينتسبون إلى الإسلام ويشركون بالله في عبادة الأولياء والصالحين من القبورية وغيرهم هم لم يعتقدوا في هؤلاء أنهم يخلقون ويروقون ويدبرون الأمر، وإنما سووهم بالله في الله بالحبة والعبادة.

ومن العجب أنهم يَنْسُبون أهل التوحيد إلى التنقُّص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن العجب أنهم يَنْسُبون أهل التوحيد إلى التنقُّص بالمشايخ والأنبياء والصالحين)**، هم يقولون- إذا أنكر أهل التوحيد عليهم الشرك- إذا أنكروا عليهم الشرك، قالوا: أنتم تنقصتم الأولياء والصالحين، فيعتبرون هذا عيبًا في أهل التوحيد أنهم يتنقصون الأولياء والصالحين.

ولهذا لا يشركونهم مع الله عَزَّوَجَلَّ، لا يشركونهم مع الله، ولاينظرون إلى أنهم تنقصوا الله، يقولون: تنقصتم الأولياء والصالحين، ولاينظرون إلى أنهم- هم- تنقصوا الله عَزَّوَجَلَّ.

فهذا من العجائب، يتنقصون الله عَزَّوَجَلَّ، ويتهمون المؤمنين بأنهم يتنقصون الأولياء والصالحين؛ لأنهم أنكروا عبادتهم مع الله، هذا من العجائب ومن التناقض، فأيهما أشد: تنقص الله عَزَّوَجَلَّ أو تنقص المخلوق؟

مع أن الموحدين لم يتنقصوا الأولياء والصالحين، بل يحبونهم ويقتدون بهم، لم يتنقصوهم، لكنهم لم يرفعوهم فوق منزلتهم، وأعطوهم حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا من العجائب التي لا تنقضي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد)**، إلا أن الأولياء والصالحين عبيد، هم يقولون: لا، هم ليسوا بعبيد، هم أولياء وصالحين،

ولهم اتصال بالله، ويشفعون لنا، ويقضون حوائجنا وما أشبه ذلك من الخرافات.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا)**، هم عبيد ضعفاء، الأولياء والصالحين عبيد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم فضلًا عن أن يملكوا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا.

بل إنهم ميتون، وانتهت أعمالهم، انقطعت أعمالهم، هم ميتون بحاجة إلى من يدعو لهم ويستغفر لهم، هم بحاجة إلى هذا، فليسوا يقدرون على شيء؛ حتى ما كانوا يقدرون عليه في الدنيا انقطع، صاروا لا يقدرون على شيء، ولكن أين العقول والمدارك والإيمان؟

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ ... حَتَّى يرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالحَسَنِ(١)

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا)**، خصوصًا الأموات منهم لا يملكون شيئًا، انقطعت أعمالهم، فهم بحاجة إلى من يهدي إليهم شيئًا من الطاعات، ثواب الطاعات مثل الصدقة، مثل الحج والعمرة، مثل الدعاء لهم والاستغفار لهم، يحتاج إلى هذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا)**، ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣].

---

(١) البيت منسوب للأمير يحيى بن علي باشا الأحسائي المدني الحنفي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (٤/ ٤٧٦).

وإنهم لا يشفعون لعابديهم أبدًا، بل قد حرَّم الله شفاعتَهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة.

فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وإنهم لا يشفعون لعابديهم أبدًا، بل قد حرَّم الله شفاعتَهم لهم**)، حتى الشفاعة، الشفاعة حق، الشفاعة حق ثابتة، لكنها لابد لها من شرطين:

الشرط الأول: تكون بإذن الله؛ يأذن الله للشافع أن يشفع.

الشرط الثاني: وأن تكون في أهل التوحيد في عصاة الموحدين؛ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]: وهم أهل التوحيد؛ إذا كان عندهم ذنوب أو سيئات دون الشرك فإنهم تنفعهم الشفاعة بإذن الله.

وأما المشركون فليس فيهم شفاعة، ﴿مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

وقال في آخر سورة المدثر: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢]: يسألونهم ما الذي أدخلهم النار؟

﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾: يعني لم نؤد الزكاة.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾: من غير دليل ومن غير برهان.

﴿نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: جرائم عظيمة.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

فالذين يدعون الموتى، ويستغيثون بهم مشركون، وهم يقولون: يشفعون لنا؛ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]: هم لا يشفعون لهم؛ لأن هؤلاء مشركون، لا يشفعون للمشرك.

الذي يدعو غير الله، ويذبح لغير الله وينذر لغير الله هذا مشرك، لاتنفعه شفاعة الشافعين، لأن الشفاعة هي لأهل التوحيد خاصة؛ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

شرطان: ﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾، هذا شرط.

ويرضى عن المشفوع فيه، ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾: يعني عن المشفوع فيه، وهو لا يرضى عن المشركين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة)**، بالشرطين: أن يأذن الله لهم بالشفاعة، وأن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، أما المشرك فلا تنفعه الشفاعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله)**، وهؤلاء الأولياء والصالحون ليس لهم من الأمر شيء، الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

حتى الرسول قال الله له: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨]. الأمر كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهم يقولون: لا، لهم أمر ويتصرفون في الكون ويعملون كذا، هذا باطل كله، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله له: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران:١٢٨].

ويقول: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن:٢١، ٢٢]. هكذا أمر الله رسوله أن يقول للمشركين.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

فإذا كان الرسول لا يملك شيئًا، فكيف بغيره من هؤلاء الأولياء والصالحين الذين يزعمون أنهم بيدهم الأمر، وأنهم يتصرفون مع الله عَزَّوَجَلَّ؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والشفاعة كلها له سبحانه)**، ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٤٤]. الشفاعة كلها لله ليس لأحد فيها شيء إلا بعد إذن الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع)**، الولاية: وهي المحبة والنصرة والتأييد كلها لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف:٤٤]. فلا يكون وليًّا إلا من جعل الله له الولاية.

فالشرك والتعطيل مبنيَّان على سوء الظن بالله، ولهذا قال إمام الحنفاء عَلَيْهِ السَّلَامُ لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٦، ٨٧].

وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له نِدًّا؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالشرك والتعطيل مبنيَّان على سوء الظن بالله)**، الشرك: وهو عبادة غير الله مع الله، هذا الشرك عبادة غيره معه.

أما التعطيل: فهو الإلحاد الذي لا يقر بالله مثل الدهريين هذا اسمه تعطيل، تعطيل للرب سبحانه، تعطيل للربوبية.

ويقولون: هي الطبيعة، ليس لنا إلا الطبيعة، هي الدنيا لا يهلكنا إلا الدهر، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

هذا هو الإلحاد -والعياذ بالله-، وهذا هو التعطيل؛ لأنهم عطلوا الكون من خالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالشرك والتعطيل مبنيَّان على سوء الظن بالله)**، أساءوا الظن بالله فأشركوا وعطلوا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال إمام الحنفاء** عَلَيْهِ السَّلَامُ**)**، وهو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمام الحنفاء هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إمام الحنفاء: أي إمام الموحدين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال إمام الحنفاء** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **لخصمائه من المشركين: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:٨٦-٨٧])**، ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ ﴾: تريدونها وتعبدونها.

هذا سوء ظن برب العالمين، فالمشرك يسيء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ ولو أحسن الظن بالله ما أشرك.

والله جَلَّوَعَلَا يقول لأهل النار: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٣]. هم ظنوا بالله ظن السوء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:٨٦-٨٧])**، يعني هذا استنكار.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم ﴾: ما هو هذا الظن الذي ظننتم برب العالمين وتنقصتموه حتى أشركتم به؟ ظننتم بالله غير الحق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له نِدًّا؟)**، يعني سواء فُسِرَ الظن برب العالمين بأنه سوء الظن بالله وأنه لا يقدر ولا يرحم ولا ينعم، أو سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ على المعنى الثاني.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم ﴾: يكون هذا استفهام، ما ظنكم برب العالمين أن يفعل بكم وقد أشركتم به وكفرتم به؟

فإن المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يُدبِّر أمرَ العالم معه من وزير أو ظهير أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكلُّ ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أنه سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يُعْلِمَهُ الواسطة، أو لا يرحم حتى تجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي وحدَه.

أو لا يفعل ما يريد بالعبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّرِه به من القِلّة، وتعزُّزِه به من الذّلة.

أو لا يجيب دعاء عباده، حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإما أن يظن أنه سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك)**، يظنون أن الله لا يقدر إلا إذا أعانه أحد، وهذا سوء ظن برب العالمين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإما أن يظن بأنه لا يعلم)**، أو يظن أنه لا يعلم الغيب ولا يعلم أعمال عباده، وهذا سوء ظن أيضًا، فسوء الظن يتنوع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يُعْلِمَهُ الواسطة)**، ولذلك اتخذوا الوسائط يعلمون الله عن حوائج عباده، وهذا سوء ظن بالله أنه لا يعلم حوائج عباده، ولا يقدر على إعانتهم، هذا سوء ظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولذلك لما ظنوا أنه لا يعلم حوائجهم جعلوا وسائط يذكرون الله، ويخبرونه عن حوائج عباده كما يكون ذلك عند ملوك الدنيا.

ملوك الدنيا لا يدرون عن حوائج الرعية حتى يبلغوا عنها، وأما الله جَلَّ وَعَلَا فإنه يعلم حوائج عباده فلا يحتاج إلى من يخبره بذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو لا يرحم حتى تجعله الواسطة يرحم)**، أو يظن أن الله لايرحم حتى تأتيه واسطة ويؤثر عليه، يؤثر عليه مثل ما عند الملوك يؤثر عليه إذا تكلم معهم ورققهم بالمواعظ.

الله جَلَّ وَعَلَا يريد أن يرحم عباده، الله يريد أن يرحم عباده، لكن العباد هم الذين يحجبون الرحمة عنهم بأفعالهم، وإلا فالله يريد أن يرحم عباده: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى تجعله الواسطة يرحم)**، يعني تؤثر عليه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو لا يكفي وحدَه)**، أو أنه بحاجة إلى من يعينه، فيتخذون الشركاء يعينون الله عَزَّوَجَلَّ على قضاء حوائج العباد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما يشفع المخلوق عند المخلوق)**، كما يشفع الوزراء والوسائط عند الملوك أو عند الأغنياء أو عند من عندهم حوائج الناس، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَا ﴾ [النساء:٨٥].

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا**»(١).

فالشفاعة عند الخلق في حوائج الناس هذه محمودة وفيها أجر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع)**، والمخلوق يشفع الشافع في صاحب الحاجة: إما لأنه محتاج إليه ويتآلفه؛ يكون كاتبًا عنده أو وزيرًا عنده ولو لم يجبه يمكن ينفر ولا يخدم الملك أو الرئيس، أو من عنده ولاية، إذا لم يقبل شفاعته لا يعينه على ما هو فيه من المسؤولية.

فهو بحاجة إلى من يعينه، والله ليس بحاجة إلى من يعينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر على كل شيء.

ولو كان لا يرضى بشفاعته، يمكن أن المسؤول لا يرضى بشفاعة الشفاع ولكن يقبلها غضب، يقبلها لأجل يتألف الشافع وينتفع من ورائه بإعانته ووزارته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثُّرِه به من القِلّة)**، والله غني عن هذا كله ليس بحاجة إلى العباد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وتكثُّرِه به من القِلّة، وتعزُّزِه به من الذّلة)**، هذا كله رد على الذين يقيسون الشفاعة عند الله بالشفاعة عند المخلوقين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو لا يجيب دعاء عباده، حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه)**، وهو يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠]. لم يقل ادعوني بواسطة فلان أو علان، قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

يستدلون بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥].

يفسرون ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ بأنها: الواسطة، وهذا تفسير باطل، الوسيلة: هي العمل الصالح.

﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: ابتغوا إليه العمل الذي يقربكم منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ[(١)].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا أصل شرك الخلق)**، هذه الأمور هي سبب شرك هؤلاء، وهي منتفية في حق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى ترفع الوسائط إليه ذلك)**، لا يسمع عباده ودعاءهم حتى يبلغه الشفيع.

الله سميع سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سميع، قريب، مجيب لا يخفى عليه شيء يسمع حوائج عباده، ولهذا يقول: «**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟**». دل على أنه يسمع الدعاء سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

«**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»[(٢)]، فهذا دليل على أن الله يسمع الدعاء والاستغفار وهو السميع العليم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٤٠٤)، وزاد المسير (١/ ٥٤٣)، وابن كثير (٣/ ١٠٣)، وأضواء البيان (٢/ ٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**».

أو يظن أن للمخلوق عليه حقًا؛ فهو يُقْسِم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يَعِزّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أو يظن أن للمخلوق عليه حقًا؛ فهو يُقْسِم عليه بحق ذلك المخلوق عليه**)، أو يظن أن هذا الولي أو هذا الصالح له حق على الله فهو يريد منه أن يتوسط له عند الله، فالله يقبل هذا؛ لأن هذه الواسطة له حق على الله مثلما هو عند ملوك الدنيا، وهذا أيضًا باطل.

نعم، حق العباد على الله: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، فهذا حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

ليس حقهم على الله شيء يجب على الله لهم، وإنما هو شيء الله تفضل به، وجعله على نفسه تفضلًا وتكرمًا لا أحد أوجبه على الله حتى يطالب الله بحقه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويتوسل إليه بذلك المخلوق**)، يقول: أسألك بحق فلان، ليس للمخلوق حق واجب على الله سبحانه.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ(١)

(١) انظر: الوابل الصَّيِّب (ص٦٣)، و بدائع الفوائد (٢/ ١٦٣)، وطريق الهجرتين (ص٣١٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٢٣).

فالعباد ليس لهم حق أوجبوه على الله مثلما يوجب المخلوق على المخلوق، إنما هو حق أوجبه على نفسه؛ تفضل به ووعد به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو لا يخلف وعده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يَعِزّ عليهم ولا يمكنهم مخالفته**)، أو جاه المخلوق: بجاه فلان، بجاه محمد، هذا باطل.

فهذا كله باطل، لا يدعى الله بجاه أحد، وإن كان قد يكون للمخلوق جاه؛ ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

وجيهًا عند الله مثل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن هذه الوجاهة لا تجيز أنك تدعو الله بها، بجاه فلان، بجاه فلان عندك كما في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥].

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩].

وكل هذا تنقُّصٌ للربوبية، وهَضْمٌ لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفِه ورجائه والتوكلِ عليه والإنابةِ إليه من قلب المشرك؛ بسبب قسمة ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحلُّ ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء؛ بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عَبَده من دونه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله وخوفِه ورجائه والتوكلِ عليه والإنابةِ إليه من قلب المشرك)، فإذا دعا الأولياء والصالحين فإنها تنقص محبة الله في قلبه، ويتنقص صفات الله عَزَّوَجَلَّ كلها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فينقص ويضعف أو يضمحلُّ ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء؛ بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عَبَده من دونه)، فدعاء المخلوقين والأولياء الصالحين والاستغاثة بهم فيما لا يقدرون عليه هذا يسلب كل حقوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده أو ينقصها.

وأيضًا: لو فرضنا أن فلانًا له حق تفضل الله به عليه فليس من حقك أن تدعو الله بحق فلان.

أو تقول: بعمل فلان، ليس لك إلا عملك لا ينفعك عمل فلان؛ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:١٣٤].

أنت لا تسأل الله بصلاح فلان أو بعمل فلان، لكن اسأل الله بعملك أنت، توسل إلى الله بعملك أنت، وأما أعمال الناس فهي لهم.

فالشرك ملزومٌ لتنقُّص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورةً، شاء المشرك أم أبي، ولهذا اقتضى حمدُه سبحانه وكمالُ ربوبيته ألا يغفره، وأن يُخلِّد صاحبَه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركًا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يُعظِّمه بذلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا اقتضى حمدُه سبحانه وكمالُ ربوبيته ألا يغفره)**، لايغفر الشرك؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨].

لأن الشرك تجتمع فيه كل المحاذير: من تنقص الله، من تمثيل المخلوق بالخالق وتسوية المخلوق بالخالق، من وضع العبادة في غير موضعها، وهذا ظلم كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣]. إلى غير ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا اقتضى حمدُه سبحانه وكمالُ ربوبيته ألا يغفره)**، والشرك لا يغفره الله؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨].

وأما ما كان دون الشرك من المعاصي فإنه تحت مشيئة الله إن شاء غفره وإن شاء عذب به.

ولهذا قال: ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ما دون الشرك.

﴿لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكون الشرك لا يغفره الله هذا دليل على أنه أعظم الذنوب، أعظم الذنوب وأعظم ما نهى الله عنه: الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن يُخلِّد صاحبَه في العذاب الأليم)**، فالمشرك حرم الله عليه الجنة؛ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

فهو يجمع محاذير -والعياذ بالله-: أنه لا يغفره الله لصاحبه مع أن الله غفور رحيم، أنه يخلد صاحبه في النار.

أما الموحد -فهو- وإن دخل النار بذنبه أو ذنوبه فإنه لا يخلد فيها بل يخرج منها ويدخل الجنة كما صحت بذلك الأحاديث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا تجد مشركًا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يُعظِّمه بذلك)**، ليست المسألة مسالة الظن، المسألة الحقيقة.

فالمشرك يتنقص الله عَزَّوَجَلَّ وإن زعم أنه يعظمه، ويقول: الله عظيم، والله أنا محتاج لأني أتخذ واسطة عنده لعظمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، مثل الملوك الكبار والسلاطين لعظمته يلجأ إلى الوسائط التي تتصل بهم.

الله ليس كذلك سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، هو عظيم أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء، ولكنه قريب مجيب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول، وإن زعم أنه معظِّم له بتلك البدعة؛ فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب.

أو يزعم أنها هي السنة إن كان جاهلًا مقلِّدًا، وإن كان مستبصرًا في بدعته فهو مشاقٌّ لله ورسوله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول)**، فالشرك تنقص لله، والبدعة تنقص للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لم يبلغ.

الرسول بلغ البلاغ المبين، ولم يترك شيء يقرب العباد إلى الله إلا بيَّنه، ولا شيئًا يبعد العباد عن الله إلا بيَّنه وحذر منه.

فالمبتدع الذي يحدث عبادة ليس عليها دليل من كتاب الله وسنة رسوله يزعم أن الرسول مقصر لم يبين هذا للناس، فهذا فيه اتهام للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لم يبلغ هذا الدين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإن زعم أنه معظِّم له بتلك البدعة)**، وإن زعم أنه معظم للرسول بتلك البدعة التي اخترعها فهو متنقص للرسول، وأنه لم يبلغ البلاغ المبين، وهنا أشياء لم يبلغ عنها ولم يأمر بها، فهو يستدركها على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول، وإن زعم أنه معظِّم له بتلك البدعة)**، هم الآن يعظمون الرسول، المبتدعة

يعظمون الرسول وقد يغلون فيه، وهم في الحقيقة متنقصون له، ومتهمون له بأنه لم يبلغ كل الدين، وأنه بحاجة إلى من يكمل ما قصر فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب)**، أن البدعة خير من السنة- نسأل الله العافية- وأن السنة لا تكفي، فهو يجعل بجانبها البدع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أو يزعم أنها هي السنة إن كان جاهلًا مقلِّدًا)**، أو يزعم أن البدعة هي السنة إن كان جاهلًا لا يعرف السنة، أو مقلدًا لغيره، فهو يتخذ البدعة، تكون أغلى عليه من السنة، ويحافظ عليها ولا يحافظ على السنة، ولا تجتمع السنة والبدعة إلا وتخرج إحداهما الأخرى.

ولذلك تجد المبتدعة أكره ما يكرهون السنن، فإذا أمرتهم بالسنن غضبوا عليك؛ لأنهم يكرهون السنن - والعياذ بالله - الشيطان يبغض إليهم السنن ويحبب إليهم البدع.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وإن كان مستبصرًا في بدعته فهو مشاقٌّ لله ورسوله)**، والبدعة فيها مشاقة لله ولرسوله ومحادة لله ولرسوله؛ لأنه يشرع شيئًا لم يشرعه الله ولا رسوله، هذه محادة لله ولرسوله، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

المشرع هو الله والرسول مبلغ عن الله، التشريع حق لله ليس لأحد حق أنه يشرع.

فالمتنقِّصون المنقوصون عند الله ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة، ولا سيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسول أدلة لفظية لا تفيد اليقين، ولا تُغني من اليقين والعلم شيئًا.

فيا لله للمسلمين! أيُّ شيء فات هذا من التنقص؟

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالمتنقِّصون المنقوصون عند الله ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة**)، ليس هناك شك أنهم هم الناقصون وهم المبغوضون والممقوتون عند الله وعند خلقه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولا سيما من بَنَى دينه على أن كلام الله ورسول أدلة لفظية لا تفيد اليقين**)، كما عليه علماء الكلام وعلام المنطق، الذين يسمونها أدلة المنطق وعلم الكلام يقينية وبراهين، يسمون الكتاب والسنة أدلة سمعية تفيد الظن لا تفيد اليقين، هذه بدعة، هذه بدعة أشد من بدعة المتعبدين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ولا تُغني من اليقين والعلم شيئًا**)، وإنما هذا في علم الكلام وقواعد المنطق فهذا يفيد اليقين والبرهان.

ولذلك بنوا عقائدهم على علم الكلام وعلى علم المنطق، ولا تجد في عقائدهم المكتوبة ولا آية واحدة ولا حديث واحد، كلها جدل وكلها مقدمات ونتائج ولا أعرف ماذا.

اقرؤوا في كتبهم ليس فيها استدلال بالكتاب والسنة أبدًا؛ لأنهم يقولون هذه ظنية لا تفيد شيء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فيا لله للمسلمين!)**، استغاثة، يستغيث بالله، ابن القيم يستغيث بالله من هذا العمل.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أيُّ شيء فات هذا من التنقص؟)**، أي شيء أعظم من هذا التنقص، وهم يزعمون أنه تعظيم لله عَزَّوَجَلَّ؟

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشيةَ ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم لله؛ فقد جاء من التنقص بضدِّ ما وصف اللهُ سبحانه به نفسَه من الكمال.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشيةَ ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم لله؛ فقد جاء من التنقص بضدِّ ما وصف اللهُ سبحانه به نفسَه من الكمال**)، هذا في رد أوهام المعطلة الذين يزعمون أنهم ينزهون الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا شك أن تنزيه الله واجب، قد نزه نفسه، سبح نفسه سبحانه، هذا واجب، لكن أن يكون التنزيه على وفق ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، ونفي المماثلة لله، ونفي المشابهة لله.

أما من يأتي بتنزيه من عنده، ويوجب ينفي ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله هذا متنقص لله؛ لأنه سلب عنه الكمال، لما نفى أسماء الله وصفاته نفى عنه الكمال، وإذا نفى عنه الكمال نقص الله عَزَّوَجَلَّ.

فليس في إثبات أسماء الله وصفاته ليس فيها تنقص لله كما يزعمون، وإنما هي كمال، فهم ينفون الأسماء والصفات بحجة أنهم ينزهون الله عن مشابهة المخلوقين.

فكيف ينزهون الله عن شيء وصف نفسه به، ووصفه به رسوله، هل هم أعلم من الله أو أعلم من الرسول؟! حاشا وكلا.

الله جَلَّوَعَلَا أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

كذلك أعلم الخلق بالله عَزَّوَجَلَّ، وما يليق به: الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الرسل كلهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠].

لم يقل: سبحان ربك رب العزة عما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله، بل قال: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: هم، الخلق.

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠]: أي تنزه عما يصفه به المعطلة.

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٨١]: سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من العيب والنقص، الله أعلم بنفسه وبغيره من خلقه.

وأما إثبات الأسماء والصفات لله، يقولون: الشبهة، شبهتهم في هذا أنهم يقولون: هذه الأسماء موجودة في الخلق، وهذه الصفات موجودة في الخلق كالسمع والبصر والكلام، ولو أثبتناها لشبهنا الله بخلقه.

فنقول: الله جَلَّوَعَلَا له أسماء وصفات خاصة به ولائقة به، والمخلوق له صفات وأسماء خاصة به، خاصة بالمخلوق تليق بالمخلوق، ولاتليق بالله عَزَّوَجَلَّ.

فليس السمع كالمسع، وليس البصر كالبصر، وليس الكلام كالكلام، فهم أتوا من هذه الشبهة الشيطانية.

وهم يعلمون أنهم لا تشابه بين الخالق والمخلوق لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، يعلمون هذا.

لكن يغالطون، يغالطون في هذا، ويقولون: لو أثبتنا الأسماء لله لزم من هذا تعدد الآلهة، كل اسم يكون آلهة، هل هذا يقول عاقل؟!!

الإنسان يكون له صفات كثيرة وهو شخص واحد، تقول: كاتب عالم، مهندس، طبي، وهو شخص واحد، فليس تعدد الصفات تدل على تعدد الموصوف، ولا يقول هذا عاقل.

ولهذا لما سمع المشركون رسول الله ﷺ يصلي ويقرأ في قوله؛ يدعو الله، ويقول: يا رحمن يا رحيم، يا رحمن يا رحيم، قالوا: انظروا إلى هذا، إله واحد وهو يدعو آلهة كثيرة!!يدعو رحمن، ويدعو رحيمًا، فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠][(١)]. رد الله عليهم في قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]: الذي ينفي أسماء الله وصفاته هذا على منهج أهل الجاهلية، الذين رد الله تعالى عليهم وأبطل قولهم.

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (١٥/ ١٢٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا يَدْعُو: يَا رَحْمَنُ، يَا رَحِيمُ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا، وَهُوَ يَدْعُو مَثْنَى مَثْنَى! فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].. الْآيَةَ». وانظر: زاد المسير (٣/ ٦٠)، وتفسير ابن كثير (٥/ ١٢٨)، والتحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٦).

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]: أسماءه كثيرة، ولا تدل على تعدد الرب، إنما تدل على كماله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى، هذه هي القاعدة.

فليس تنزيه الله بنفي أسمائه وصفاته، وإنما هذا نفي لكماله، وإنما تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، ولا تشابه بين الخالق والمخلوق لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته.

الله جَلَّوَعَلَا جمع بين إثبات الأسماء والصفات، وبين نفي التشبيه؛ قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]: هذا نفي التشبيه والتمثيل.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]: أثبت لنفسه السمع والبصر مع أن المخلوق له سمع وله بصر.

لكن لا يتشابهان، لا تتشابه صفات الخالق وصفات المخلوق، ولا أسماء الخالق وأسماء المخلوق؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الله قال في الإنسان: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]. في الإنسان.

فأثبت السمع والبصر للإنسان، وأثبت لنفسه السمع والبصر، فلاتشابه بينهما، صفات المخلوق تليق به، وصفات الخالق تليق به.

لكن هؤلاء ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الحج:٧٤]؛ فمن نفى أسماء الله وصفاته فإنه لم يقدر الله حق قدره سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، بل تنقصه.

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشيةَ ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم لله؛ فقد جاء من التنقص بضدِّ ما وصف اللهُ سبحانه به نفسَه من الكمال.

والمقصود أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص في الحقيقة، بل هم أعظم الناس تنقصًا، لبّس عليهم الشيطان، حتى ظنوا أن تنقُّصهم هو الكمال.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(خشيةَ ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم لله)**، التجسيم، التجسيم هذا لم يرد في الكتاب والسنة نفيه ولا إثباته، إنما هو لفظ من عندهم هم.

يقولون: لا، هذه الأسماء والصفات لا تكون إلا لجسم، والأجسام متشابهة فينفونها عن الله، ينفونها عن الله ويسمونها تجسيم؛ أثبت لله الجسم؛ لأن هذه الأسماء والصفات لا تكون إلا لجسم.

نقول: هذا من عندكم، التجسيم لم يرد لا إثباته ولا نفيه في الكتاب ولا في السنة، ولهذا يسمون أهل السنة والجماعة بالمجسمة، لماذا؟

لأنهم يثبتون الأسماء والصفات لله، ويقولون: هذه الأسماء والصفات لا تكون إلا للجسم، فينفونها عن الله جَلَّ وَعَلَا.

آت لي بآية أو حديث فيها نفي التجسيم أو إثبات التجسيم، هذه لفظة مبتدعة من عندهم، فهم يبتدعون أشياء ويجعلونها قاعدة؛ ينفون بها أسماء الله وصفاته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقد جاء من التنقص بضدِّ ما وصف اللهُ سبحانه به نفسَه من الكمال)**، فإذا نفى عن الله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله من الأسماء والصفات فقد تنقص الله، هذا هو الذي تنقص الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي تنقص الله عَزَّوَجَلَّ، أما الذي يثبت له الأسماء والصفات هذا أثبت له الكمال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص في الحقيقة)**، الجهمية والمعتزلة، الجهمية نفوا الأسماء والصفات ولا يثبتون لله إلا وجودًا مجردًا من الأسماء والصفات، هذا مستحيل أن هناك شيء موجود ولايكون له أسماء وصفات.

وأما المعتزلة فهم أثبتوا الأسماء، لكن بدون معان، يقولون: ليس لها معان، هي ألفاظ مجردة ليس لها معان.

فالسميع لا يدل على وصف الله بالسمع، البصير لا يدل على وصف الله بالبصر، العليم لا يدل على وصف الله بالعلم، وهكذا، أسماء مجردة عندهم.

هذا مذهب المعتزلة ينفون معانيها، وما تدل عليه، فهذا إثبات لا فائدة منه، شيء ليس له معنى لا فائدة من إثباته، هذا مذهب المعتزلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل هم أعظم الناس تنقصًا، لبّس عليهم الشيطان)**، الطائفتان: الجهمية والمعتزلة هم أعظم الناس تنقصًا لله.

لما نفوا أسمائه وصفاته صاروا أعظم الناس تنقصًا لله، وليس من أثبتها لله يكون متنقصًا لله، بل هو وصفه بالكمال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لبّس عليهم الشيطان، حتى ظنوا أن تنقُّصهم هو الكمال)، وهو التوحيد، هو الكمال وهو التوحيد، حتى أنهم يقولون: أن الذي يثبت صفات الله هذا مشرك؛ لأنه أثبت آلهة كثيرة، هذا مشرك.

ولهذا يقول الرازي في تفسيره عن الإمام ابن خزيمة؛ لما ألف الإمام ابن خُزَيمة كتاب «الصفات لله عَزَّوَجَلَّ» قال: هذا شرك، وهذا كتاب الشرك[1]!

يسمي كتاب ابن خزيمة كتاب الشرك؛ لأن عندهم من أثبت الأسماء والصفات فهو مشرك، تعالى الله عما يقولون.

❖ ❖ ❖

---

(١) انظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٥٨٢).

ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فالإثم والبغي قرينان، والشرك والبدعة قرينان.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى)، فهؤلاء ابتدعوا هذا المذهب، والبدعة قرينة الشرك، تجر إلى الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالإثم والبغي قرينان، والشرك والبدعة قرينان)، الشرك نفاه سبحانه في قوله: **﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾** [الأعراف:٣٣].

والبدعة نفاها بقوله: **﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾** [الأعراف:٣٣].

فمن قال قولًا لا دليل عليه من الكتاب والسنة فهو مبتدع.

«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١). مبتدع.

فالبدعة والشرك قرينان في هذه الآية الكريمة: **﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾** [الأعراف:٣٣]. فالبدعة قول على الله بغير حق.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

فصل

وأما نجاسة الذنوب والمعاصي فإنها بوجه آخر؛ فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية، ولا سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا لم يُرتِّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك، وهكذا استقرّت الشريعة على أنه يُعفَى عن النجاسات المخففة -كالنجاسة في محل الاستجمار، وأسفل الخُفّ والحذَاء، وبول الصبي الرّضيعِ وغير ذلك- ما لا يُعْفَى عن المغلظة، وكذلك يُعفَى عن الصغائر ما لا يُعفى عن الكبائر، ويُعفَى لأهل التوحيد المحض الذي لم يَشُوبوه بالشرك ما لا يُعفَى لمن ليس كذلك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وأما نجاسة الذنوب والمعاصي**)، هو تقدم أنه تكلم عن النجاسة وأنها تنقسم إلى قسمين:

نجاسة حسية: مثل نجاسة البول والغائط والمنجسات.

ونجاسة معنوية: وهي نجاسة الشرك، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨].

المشرك بدنه طاهر، ولذلك ما لبسه يلبس بعده وما أكل من الطعام والشراب يؤكل بعده؛ لأن بدنه طاهر وما لبسه فهو طاهر، لكن فيه نجاسة معنوية وهي نجاسة الشرك، ولهذا لا تحل ذبيحته لأنه نجس، لا تنكح نساء المشركين لأنها نجس.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]. نجاسة معنوية لا يطهرها إلا التوحيد، لا يطهرها إلا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، هذا الذي يطهر من نجاسة الشرك، أما النجاسة الحسية فهذه يطهرها الماء.

وأيضًا نجاسة الذنوب والمعاصي هي نجاسة، لكنها دون الشرك، دون نجاسة الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنها لا تستلزم تنقيص الربوبية، ولا سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ)**، لا تصل إلى تنقص الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنها هي نجاسة بقدرها.

فالمذنب ليس مشركًا، الذي عنده ذنوب دون الشرك مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر وأكل الربا هذا عنده نجاسة، نجاسة ذنوب، لكنها لا تصل إلى نجاسة الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ)**، هذا أخف، أخف من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، هي أخف من الشرك بالله؛ تصدر الذنوب والكبائر من المسلم ومن المؤمن، أما الشرك فلا يصدر إلا من مشرك وكافر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا لم يُرتِّب الله سبحانه عليها من العقوبات والأحكام ما رتبه على الشرك)**، لأن المشرك لا يدخل الجنة؛ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

والشرك يحبط الأعمال؛ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

أما ما دونه من الذنوب والمعاصي، ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي فهو لا يحبط الأعمال ولا يمنع من دخول الجنة.

فالموحد إذا عصى الله يدخل الجنة ولو بعدما يعذب في النار بقدر معصيته، لا يخلد في النار، هناك فرق بين المعصية والشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهكذا استقرّت الشريعة على أنه يُعفَى عن النجاسات المخففة -كالنجاسة في محل الاستجمار، وأسفل الخُفّ والحذَاء)**، النجاسة التي ليست نجاسة الشرك فيها شيء مخفف يكفي فيه المسح، مثل الفرج: القبل والدبر بعد الحدث إذا مُسِحَ بالحجارة أو ما يقوم مقامها طهر ولا يلزم أنه يغسل.

عندك الاستجمار وعندك الاستنجاء، الاستجمار بالحجارة أو ما يقوم مقامها، والاستنجاء يكون بالماء، إذا اقتصر على واحد منهما أجزى بالإجماع، إذا اقتصر على الاستجمار أجزى بالإجماع، هذا من تخفيف النجاسة.

كذلك النعل إذا كان فيه نجاسة ومسحتها بالتراب يطهر النعل بالمسح تخفيف، نجاسة مخففة هذه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبول الصبي الرّضيعِ)**، بول الصبي الرضيع الذكر يكفي فيه الرش والنضح.

«**يُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الجَارِيَةِ، وَيُرَشُّ مِنْ بَوْلِ الغُلَامِ**»[1] كما في الحديث، مخففة نجاسة بول الذكر الصبي مخففة الذي لم يأكل الطعام، هذا نجاسة بول مخففة فيكفي فيها النضح.

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦)، وابن ماجه (٥٢٦)، والنسائي (٣٠٤) من حديث أبي السمح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خادم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبول الصبي الرّضيعِ وغير ذلك)**، الرضيع يعني الذي يقتصر على الرضاع، أما إذا أكل الطعام فنجاسته مثل نجاسة الكبير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكذلك يُعفَى عن الصغائر ما لا يُعفى عن الكبائر)**، من الذنوب، يعفى عن الصغائر، تكفر الصغائر بعدة مكفرات خلاف الكبائر فلاتكفر إلا بالتوبة.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، الصغائر تكفر بأشياء كثيرة، وأما الكبائر فلا تكفر إلا بالتوبة منها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُعفَى لأهل التوحيد المحض الذي لم يَشُوبوه بالشرك ما لا يُعفَى لمن ليس كذلك)**، يعفى عن الموحد ولو أذنب ما لا يعفى عن المشرك، الله يعفو عن المسلم المذنب ما دام ليس عنده شرك.

في الحديث: «**يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**».

وأخرج مسلم (٢٦٨٧) عن أبي ذَرٍّ الغِفَارِي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ** =

فالموحد ولو حصل منه ذنوب قد يغفرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولو كانت كثيرة.

=مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

فلو لقي الموحِّدُ -الذي لم يشرك بالله شيئًا البتة- ربَّه بقُراب الأرض خطايا أتاه بقُرابها مغفرة.

ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك؛ فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، فإنه يتضمن من محبة الله وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده، ما يوجب غَسْلَ الذنوب، ولو كانت قُراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قويّ، فلا تثبت معه.

الشـرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلو لقي الموحِّدُ -الذي لم يشرك بالله شيئًا البتة- ربَّه بقُراب الأرض خطايا أتاه بقُرابها مغفرة)**، هذا في الحديث الصحيح: «**يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ**». يعني ملء الأرض، قراب يعني ملء.

«**بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١). هذا وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المعصية أخف من الشرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابَهُ بالشرك)**، أما المشرك فلا يغفر الله له إلا بالتوبة، أما إذا مات وهو مشرك فهو خالد مخلد في النار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، فإنه يتضمن من محبة الله وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده، ما يوجب غَسْلَ الذنوب)**، قرأتم أو تقرؤون الآن في كتاب التوحيد باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب(٢)، هذا محل البحث الآن.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا (ص٥٤٤).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص٤٨).

ولكن نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرهما من النجاسات، من جهة أنها تُفسِد القلب، وتُضعِف توحيده جدًّا.

ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا؛ فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر.

وكلما كان أعظم إخلاصًا كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولكن نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرهما من النجاسات)**، الكبائر تختلف، الكبائر التي دون الشرك تختلف، هناك أكبر الكبائر: السحر، الشرك والسحر والزنا وأكل الربا، فهناك أكبر الكبائر وهناك كبائر، الكبائر تتفاوت بعضها أشد من بعض.

ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال له: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: **أَنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». الشرك هو أعظم الذنوب.

«قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**».

الزنا محرم وكبيرة، لكن الزنا بذوات المحارم وبزوجة الجار أشد -والعياذ بالله- «**أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**».

ثم قال: «ثُمَّ مَاذَا؟» -يعني: بعد هذا - «قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»(١).

كما في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، قتل النفس محرم وكبيرة شديدة، لكن قتل الأقارب والأولاد أشد؛ وأنزل الله في ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فالكبائر تختلف، موبقات، منها موبقات؛ «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»(٢). يعني المهلكات وهي أكبر الكبائر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(من جهة أنها تُفسِد القلب)**، تفسد القلب، الزنا واللواط يفسدان القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر)**، الشرك يسهل الوقوع في الكبائر، يسهل الزنا، يسهل اللواط، يدعو إلى الفواحش - والعياذ بالله -.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾** [يوسف:٢٤])، يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما راودته امرأة العزيز، امرأة الملك غلقت الأبواب؛ ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ليس عندهم أحد، وامرأة ملك ومتزينة ومتجملة طلبت منه أن يواقعها؛ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ﴾ [يوسف:٢٣-٢٤].

انتبهوا! ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ [يوسف:٢٤].

السبب: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

هذا هو السبب أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلص لله عَزَّوَجَلَّ في عبادته وتوحيده، فأبى أن يواقع المرأة، مع أن الدواعي كثيرة.

ولكنه لقوَّة إيمانه بربه وتوحيده ووفائه لسيده أيضًا أبى وهرب منها، ولحقت به، وشقت قميصه؛ كل هذا لأن الله عصمه بسبب أنه من عباد الله المخلصين.

فإن عشق الصور المحرمة نوع تَعَبُّدٍ لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولاسيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيُّما.

والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابدًا لمعشوقه، وكثيرًا ما يغلب حبُّه وذِكْرُه والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثارُ محابّه، على حب الله وذِكرِه والسعي في مرضاته.

بل كثيرًا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكُلية، ويصير متعلقًا بمعشوقه من الصور كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله، يُقدِّم رضاه وحبَّه على رضا الله وحبه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله، ويُنفِق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنّب من سَخَطه ما لا يتجنب من سخط الله، فيصير آثرَ عنده من ربِّه: حُبًّا، وخضوعًا، وذلًّا، وسمعًا، وطاعة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن عشق الصور المحرمة نوع تَعَبُّدٍ لها)**، يعني قد يكون الإنسان ليس عنده شرك بالله في العبادة، لكن يتعلق قلبه بامرأة يعشقها يصير عبدًا لها، يصير عبدًا لمن عشقها.

كما أنه إذا طلب الدنيا وحرص عليها يصير عبدًا للمال، كما أنه إذا قدم هواه واتبع هواه صار عبدًا لهواه؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن عشق الصور المحرمة نوع تَعَبُّدٍ لها)**، فمن عشق امرأة صار عبدًا لها؛ يتابعها ويترضاها ويفكر فيها دائمًا، يخضع لها.

ولهذا أوجب الله الحجاب على النساء وحرم الاختلاط؛ لأجل منع الفاحشة، هذه وسائل من وسائل الفاحشة سدها الله عَزَّوَجَلَّ على المؤمنين لأجل أن يسلموا منها.

لكن يأتي الفسقة والمنافقون الآن ويفتحون هذه الأشياء يقولون: ليس هناك حجاب هذا تحجر على المرأة، ليس هناك تحريم خلوة، ويفتحون هذه الأبواب القبيحة على الناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيمًا، والتتيم: التعبد)**، تيم الله: يعني عبد الله، فإذا أحب المرأة واشتد حبه لها صار متيمًا لها، يحبها أشد المحبة وعبدًا لها؛ يلتمس رضاها ويبتعد عما يسخطها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيصير العاشق عابدًا لمعشوقه، وكثيرًا ما يغلب حبُّه وذِكْرُه والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثارُ محابّه)**، ولهذا قال سبحانه: ﴿**لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ**﴾ [النور:٣٠-٣١]. يعني لا يبدين وجوههن وأجسامهن.

﴿**إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ**﴾ [النور:٣١] إلى آخر.

﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ [النور:٣١].

﴿**بِخُمُرِهِنَّ**﴾: الخمار غطاء الرأس يسدل على الوجه حتى يغطيه ويغطي النحر، هذا الحجاب منعًا للشهوة بالمرأة التي لا تحل له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيصير العاشق عابدًا لمعشوقه، وكثيرًا ما يغلب حبُّه وذِكْرُه والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثارُ محابّه، على حب الله وذِكْرِه والسعي في مرضاته)**، إذا تعلق قلبه بالمرأة صار يلتمس رضاها ويتجنب ما يسخطها عليه ولا يفعل هذا مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

لا يتجنب ما يسخط الله ويغضب الله عليه، بل إنه المرأة لا تغضب عليه، لا تقاطعه دائمًا يتابعها وراءها.

ولذلك تجدون الذي يبتلى بالذهاب إلى أسواق النساء وينظر إليهن دائمًا يذهب إلى الأسواق، يفتن بهذا، ، الذي يخالط النساء دائمًا يحرص على مخالطتهن؛ لأنه عشقهن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل كثيرًا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكُلية، ويصير متعلقًا بمعشوقه من الصور كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله)**، والإنسان لا ينظر إلى صور المرأة مباشرة، بل ينظر إلى صورتها في الشاشة، في التلفزيون، في الإنترنت، لا ينظر إليها إن كان يريد البراءة لقلبه لا ينظر إلى الصور، صور النساء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيصير آثرَ عنده من ربِّه: حُبًّا، وخضوعًا، وذلًّا، وسمعًا، وطاعة)**، هذا واضح.

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد بُلِيَ بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صُرِف ذلك عنه.

والزنا واللواط كمال لذّته إنما يكون مع العشق، ولا يخلو صاحبهما منه، وإنما -لتنقُّله من محل إلى محل- لا يبقى عشقه مقصورًا على محل واحد، بل ينقسم على سِهام كثيرة، لكل محبوب نصيبٌ من تألُّهه وتعبُّدِه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا كان العشق والشرك متلازمين)**، فالشرك -كما ذكر- يكون بالعشق أيضًا، يشرك بمعشوقه يتلمس رضاه ويتجنب سخطه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط)**، قوم لوط لم يقعوا في الفاحشة، فاحشة اللواط التي لم يسبقها إليهم أحد من العالمين، بل ولا حتى من البهائم فلا تجد -مثلًا- ذكر البهائم ينزو على ذكر آخر أبدًا، لا تجد هذا في البهائم؛ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

السبب أنهم لم يكفوا أنظارهم عن النظر إلى الغلمان وإلى المعشوقين فأوقعهم ذلك في اللواط - والعياذ بالله - البصر هو الآفة.

ولهذا لما جاءت الملائكة لإهلاكهم بقيادة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ضرب

بجناحه عليهم فطمس أعينهم؛ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧]. ضربهم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بجناحه فعموا كلهم -والعياذ بالله-؛ لأن البصر هو السبب الذي أوقعهم في هذه الفاحشة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة)**، وعن امرأة العزيز؛ لأنها كانت مشركة.

فهي -مثلًا- التي أرادت أن تستعطف يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتجلبه ليقع في الفاحشة، ولكن الله عصمه بالتوحيد والإخلاص.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكلما قوي شرك العبد بُلِيَ بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صُرِف ذلك عنه)**، مثلما حصل ليوسف، صرف الله عنه السوء والفحشاء بسبب توحيده؛ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لا يبقى عشقه مقصورًا على محل واحد، بل ينقسم على سِهام كثيرة، لكل محبوب نصيبٌ من تألُّه وتعبُّده)**، هو إذا ابتلي بالعشق بامرأة فإن هذا يسري على جميع النساء، يصير يتتبع النساء وينظر أيهن أجمل، أيهن أحسن، وهكذا.

فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله؛ فإنهما من أعظم الخبائث.

فإذا انصبغ القلب بهما بعُد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثًا ازداد من الله بعدًا.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد»: «لَا يَكُونُ البَطَّالُونَ مِنَ الحُكَمَاءِ، وَلَا يَلِجُ الزُّنَاةُ مَلَكُوتَ السَّمَاءِ»[1].

ولما كانت هذه حال الزنى كان قرينًا للشرك في كتاب الله؛ قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين)**، التي هي: الزنا واللواط.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا انصبغ القلب بهما بعُد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب)**، الله جَلَّ وَعَلَا طيب ولا يصعد إليه إلا الطيب؛ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

فهو طيب جَلَّ وَعَلَا، ولا يصعد إليه إلا الطيب، أما الخبيث لايصعد إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يصعد إلى الله إلا التوحيد والتسبيح والتكبير والكلام الطيب، أما الكلام الخبيث فلا يصعد إلى الله.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٠) من كلام وهب بن مُنَبِّهٍ، قال: «لَا يَكُونُ الْبَطَّالُ مِنَ الحُكَمَاءِ، وَلَا يَرِثُ الزُّنَاةُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا انصبغ القلب بهما بعُد ممن هو طيب لا يصعد إليه إلا طيب)**، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور:٢٦]. كل مع جنسه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال المسيح)**، المسيح: عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد»)**، كتاب مشهور للإمام أحمد اسمه: الزهد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(«ولا يلِجُ الزناة مَلكوتَ السماء»)**، ولا يلِجُ الزناة مَلكوتَ السماء: لا يرتفعون إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣])**، فقرن الزنا بالشرك.

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ ﴾: يعني لا يتزوج، لا ينكح يعني لا يتزوج.

﴿ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾. فقرن بين الزنا والشرك.

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٣].

فالزانية لا تزوَّج، ولا يصح تزويجها حتى تتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وتعتد عدة، فإذا تابت واعتدت تتزوج من الطيبين؛ لأنها طهرت بالتوبة، أمَّا ما دامت تمارس الزنا فلا يجوز للمسلم أن يتزوجها.

والصواب القول: بأن هذه الآية محكمة يُعمل بها، لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم، ولم يأتِ من ادّعى نسخها بحجةٍ البتة.

والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله، فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؛ هل هو خبر أو نهي أو إباحة؟

فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوجٍ إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهيا له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له نكاحَ المشركات والزواني، والله سبحانه لم يُرِد ذلك قطعًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والصواب القول بأن هذه الآية محكمة يُعمل بها، لم ينسخها شيء، وهي مشتملة على خبر وتحريم)، على خبر: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣]: هذا خبر.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣]: هذا حكم، حكم شرعي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة)، فليس هو مجرد خبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوجٍ إلا بزانية أو مشركة)، وهذا ليس صحيحًا، بل الزاني إذا تاب إلى الله يتزوج طيبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والله سبحانه لم يُرِد ذلك قطعًا)، لم يبح تزوج الزانيات هذا ليس أمر إباحة، هذا ليس أمر إباحة، هذا خبر.

فلما أَشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنى، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة.

وهذا فاسدٌ؛ فإنه لا فائدة فيه، ويُصان كلام الله عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عامٌّ اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عَنَاقُ البَغِيُّ وصاحبها؛ فإنه أسلم واستأذن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نكاحها، فنزلت هذه الآية[1].

وهذا أيضًا فاسدٌ، فإن هذه الصورة المعيَّنة -وإن كانت سبب النزول- فالقرآن لا يُقتصر به على محَالِّ أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهي عَناق البَغِيّ

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨)، من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الْأَسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ، وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَنَاقَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي، فَنَزَلَتْ: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣]، فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: «لَا تَنْكِحْهَا».

وصاحبها)، عَناق: اسم امرأة من أهل مكة كانت تزني تسافح، وكان رجل يأتيها ويزني بها.

فأسلم هذا الرجل وحسن إسلامه جاءت إليه بعدما أسلم تريد أنه يستمر على الزنا، فأبى أن يبقى على ما هو عليه معها، فعناق اسم امرأة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه أسلم واستأذن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في نكاحها، فنزلت هذه الآية)**، نهاه الله أن يتزوجها وهي عرضت عليه أنه يستمر معها بالزنا فأبى، ولجأ إلى أن يتزوجها فمنعه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج امرأة زانية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن هذه الصورة المعيَّنة -وإن كانت سبب النزول- فالقرآن لا يُقتصر به على محَالِّ أسبابه)**، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذا كان سببها عَناق ومن كان يزني بها فإن لفظها عام.

❖ ❖ ❖

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور:٣٢]. وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارضَ بين هاتين الآيتين، ولا تُناقِضُ إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرّم نكاح الزانية، كما حرّم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟

فإن قيل: فما وجه الآية؟

قيل: وجهها -والله أعلم-: أن المتزوج أُمِر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتي النساء والمائدة؛ والحكم المعلَّق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد عُلّقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذي شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزم فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله.

وإن التزمه وخالفه ونكح ما حُرّم عليه لم يصح النكاح، فيكون زانيًا، فظهر معنى قوله: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، وتبيَّن غاية البيان وكذلك حكم المرأة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن قيل: فما وجه الآية؟)، يعني كل هذه نفيتها، ماذا يبقي؟

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط)، أن يتزوج امرأة عفيفة ويتجنب الزانية لا يتزوجها.

حتى الكتابيات التي أباح الله نكاحها للمسلم قال: والمحصنات من أهل الكتاب، المحصنات يعني العفيفات عن الزنا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قيل: وجهها -والله أعلم-: أن المتزوج أُمِر أن يتزوج المحصنة العفيفة**)، المراد بالمحصنة هنا: العفيفة عن الزنا؛ لأن الإحصان له عدة معانٍ؛ منها: العفيفة عن الزنا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وتبيَّن غاية البيان وكذلك حكم المرأة**)، الزانية من عُرِف زناها لا يجوز تزويجها أو أن يتزوجها حتى تتوب إلى الله توبة صحيحة من الزنا وتنتهي عدتها، ثم بعد ذلك يتزوجها.

وكما أن هذا الحكم هو موجَب القرآن وصريحه، فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانا دَيُّوثًا زوجَ بغيّ، فإن الله فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه، فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل)**، كما أن الله سبحانه حرم الزواج من الزانيات إذا لم يتبن إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ذلك فساد في الأخلاق، وضياع للأنساب.

ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

فهو ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ في نفسه، بمعنى أنه متناهي في القبح.

﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾: آثاره سيئة على الفرد والمجتمع.

والله جَلَّوَعَلَا يريد من المجتمع المسلم أن يكون مبنيًا على الطهارة، طهارة في العقيدة، طهارة في العقيدة من الشرك، والطهارة في الأعراض من الزنا باستمتاع المحرم.

الله لم يحرم الاستمتاع، بل هذا غريزة في الإنسان، وفيه مصالح، ولكنه جعل له مصرفًا صالحًا ينتج ويثمر وهو الزواج، ونهى عن السفاح؛ لأنه ضياع وينتج ذرية سيئة، أولاد زنا ليس لهم آباء، فهذا قبيح في الشرع، وهو أيضًا قبيح في العقل والفطرة

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانا دَيُّوثًا زوجَ بغيّ)**، قَرْنانًا: يعني له أولاد من غيره؛ لأنه إذا تزوج زانية نسبت له أولادًا من غيره؛ جعلت له قرونًا.

ولهذا يعتبرون من ألفاظ القذف أن يقول له: أنت لك قرون، أو هي تقول، أو يقال لها: جعلتِ لزوجك قرونًا أي أولادًا من غيره، فهذا معنى قرنانًا.

دَيُّوثًا: والديوث كما في الحديث هو الذي يقر السوء في أهله؛ يرى امرأته تزني ويدخل عليها ولا يغار على زوجته، هذا الديوث الذي يقر السوء في أهله.

الديوث: هو الذي يقر السوء في أهله، فلذلك صان الله المرأة المسلمة، صانها؛ فجعل لها سترًا وجعل لها حماية، وجعل عليها قوامين من الرجال؛ لئلاتضيع.

فإذا أعطيت المرأة الحرية، وجُعِلَ لها الحبل على الغارب؛ صارت تسافر وحدها بدون محرم تسلط عليها الفساق وتابعوها؛ لأنها امرأة ضعيفة لا تدفع عن نفسها.

وأيضًا هي امرأة سريعة الانفعال، وتنفعل مع المغريات، امرأة ذات شهوة أيضًا، فهي لابد من حماية لها.

فلذلك جاء القرآن بحماية المرأة؛ منع الاختلاط بين الرجال والنساء، منع السفور، ترك الحجاب، منع سفر المرأة وحدها بدون محرم، كل هذا حماية لها.

أهل الشر يقولون: هذا إهانة للمرأة وهذا منع لحقوقها وحريتها، يقولون هكذا.

هذا ليس من حقوقها وليس من حريتها، هذا من عبوديتها، إذا أطلقت ولم تُحْمَ صارت عبدة لكل شرير ولكل فاسق، خاضعة له.

فليس هذا من حرية المرأة، هذا من ذل المرأة، وعدم المبالاة بها، كونها من سقط المتاع، وكونها متاع للرجال، كل يتمتع بها إما بنظر، وإما بلمس، وإما بفعل الفاحشة، إما بخلوة معها وغير ذلك، هل هذا من صالح المرأة؟

المرأة كريمة، المرأة شريفة، أم المجتمع، أم الأولاد، مربية الأجيال، سيدة البيوت والأسر، المرأة بالإسلام مكرمة ومعززة ولها منزلة رفيعة.

أما المرأة عند الكفار سواء الكفار القدامى في الجاهلية أو الكفار المعاصرون فإن المرأة عندهم مجرد متعة، يستمتع بها كل أحد؛ فهي تكون مثل المرحاض يدخل فيها كل ذي حاجة ثم يخرج، فهي شبيهة بالمرحاض، يقضي حاجته بها ويخرج منها.

هكذا شأن المرأة في المجتمعات المنحطة التي ليس لها دين، وليس لها شرف، دعاة الضلال الآن يريدون أن يلحقونا بالمجتمع الغربي في كل شيء، يسمى التغريب، تغريب المرأة، فينبغي التنبه لهذا، صيانة المحارم، وصيانة المسلمات.

الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾: والجلباب: هو الجلالة الكبيرة التي فوق الثياب مثل العباءة والملاءة.

﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾: بمعنى يغطين وجوههن بطرف الجلاليب أو بالخمار الخاص، لماذا؟

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾: يعرفن بالعفة والشرف.

﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب:٥٩]: لا يطمع فيهن أحد من الفساق، إذا احتجبت المرأة عرفوا أنها شريفة ونزيهة، وأنها صائنة لنفسها فلا يطعمون فيها، أما إذا رأوها متبذلة، سافرة طمعوا وآذوها.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾: يعرفن بالعفة والشرف، فلا يطمع فيهن الفساق؛ ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾.

فالحجاب فيه منع من الأذى من الفساق وأصحاب الشهوات، وهم يقولون: لا، هذا ذل للمرأة، هذا حبس لحريتها إلى آخر ما يقولون، قبحهم الله؛ ينبغي التنبه لهؤلاء، ويجب الرد عليهم بأُسى العبارات حتى يرتدعوا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانا دَيُّوثًا زوجَ بغيّ)**، ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النور:٣].

المشرك لا يهمه، عنده نجاسة الشرك أعظم، أو زانٍ لا يبالي بالأعراض يتزوج الزانية، أما المؤمن فلا يتزوج الزانية؛ ولهذا قال في ختام الآية: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور:٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن الله فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه)**، ضياع المرأة ينافي الفطرة والعقول السليمة، مع منافاة الشرع لذلك ومحاربته له.

فالفطرة والعقول السليمة تستنكره، أما العقول الفاسدة والملوثة فهي لاتستنكره؛ تقول: هذا حضارة، وهذا من حق المرأة لا يحجر عليها ولا تمنع من حريتها وما أشبه ذلك من العبارات الشيطانية.

وهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قَحْبةٍ، فحرّم الله تعالى على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم، وبان معنى الآية، والله الموفق.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا: زوج قَحْبةٍ)**، إذا بالغوا في سب الرجل وتنقيصه، قالوا: هذا زوج قحبة، أي: زانٍ، زوج زان ليس فيه خير، معناه أن ليس فيه خير.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فحرّم الله تعالى على المسلم أن يكون كذلك)**، أن يكون زوج قحبة أو زوج زان؛ ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فظهرت حكمة التحريم، وبان معنى الآية، والله الموفق)**، بان معنى الآية، والله إن معنى الآية واضح وبين، والله حكيم علم سبحانه، غفور رحيم بعباده، يرسم لهم الطرق النزيهة والطرق الصينة رحمة بهم، حماية لهم.

الأعراض إذا فسدت لم يبق شيء، صار المجتمع كله أولاد زنا، سفاح، صارت النساء مجرد محل قضاء حاجة للفسقة مثل الحمام تمامًا؛ من أراد أن يقضي حاجته يدخل فيه ثم يخرج.

تكون المرأة كذلك إذا ضيعت، تكون هكذا كما يدخل المرحاض يبول ويتغوط يأتي إلى الزانية يقضي حاجته ثم يمشي، هذه صفة الزانيات، هل

يرضى مسلم بل عاقل، عاقل وصاحب الفطرة السليمة لا يرضى بهذا، لا يرضى بهذا أبدًا.

إذا كان الزنا بهذه الشناعة والقبح كل يعرف ويقول: الزنا حرام، والزنا لا يجوز، لكن لا يكفي هذا، لابد من اتخاذ الوسائل التي تمنع الزنا.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢].

لم يقل: لا تزنوا، قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾: يعني تجنبوا الوسائل التي تُفضي إلى الزنا، امنعوها، لا يمكن أن تمنعوا من الزنا إلا إذا منعتم الأسباب التي تؤدي إليه، وتقيموا الأسباب التي شرعها الله لدفعه ومنعه؛ من الحجاب، من المحرمية للمرأة، من عدم الاختلاط في المكاتب والنوادي والحفلات، في الشاشات ووسائل الإعلام تظهر مع الرجل متزينة متجملة كأنه زوجها أمام العالم، ليس بأمام اثنين أو ثلاثة!

امرأة مسلمة تظهر أمام العالَم بهذه الصورة -نسأل الله العافية-! هذا قبيح، هذا سيِّئ.

❖ ❖ ❖

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الخيانة من المرأة تعود بفساد فراش الزوج، وفساد النسب الذي جعله الله بين الناس لتمام مصالحهم، وعَدُّوهُ من جملة نعمه عليهم.

فالزنا يُفضِي إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتُستبرأ.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أن هذه الخيانة من المرأة تعود بفساد فراش الزوج)**، تفسد فراشه، المرأة فراش للزوج، يصير فراشه كلٌّ يطؤه، كل يجلس عليه، لم يَصِرْ فراشًا له، صار فراشًا للناس كلِّهم!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفساد النسب)**؛ لأن الزانية تنسب له أولادًا؛ لأنها فراشه، و«**الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ**»(١) كما في الحديث.

فإذا نسبت له أولادًا بموجَب الفراش فأدخلت عليه أولاد الزنا، صار ولد الزنا مَحْرَمًا لنسائه، وصار يرث منه، وصار يورث! كل هذا حرام ولا يجوز.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفساد النسب الذي جعله الله بين الناس لتمام مصالحهم)**، النسب ليس سهلًا، النسب يحافظ عليه، النسب يدرس ويعرف؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، فلان من قبيلة فلان، ليس الناس كلهم مختلطين، بل قبائل، كلٌّ ينتسب على قبيلته وهذا شرف؛ حفظُ النسب هذا شرف.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالزنا يُفضِي إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب)**، يفضي إلى مفاسدَ كثيرةٍ: اختلاط المياه، كلٌّ يطؤها، وتحمل ممن هب ودب؛ تختلط المياه، تختلط الأنساب، تضيع الأنساب التي تميز بين الناس؛ يتعارفون بها، ويتوارثون بها، ويتعاقلون بها، تضيع هذه.

وكذلك ما يذكره الأطباء وتواتر من الأمراض: الأمراض التي حدثت الآن بسبب الزنا واللواط؛ فَقْد المناعة، مرض الإيدز، مرض الهربس.

فقد المناعة: يصير لا يمتنع جسمه من شيء من الأمراض- والعياذ بالله-، هذا شيء معروف بسبب الزنا واللواط أيضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتُستبرأ)**، حتى تتوب وتُستبرأ من الزنا؛ لا يكون فيها حمل.

فإذا تابت توبة صحيحة فلا بد أن تعتد عدة؛ يُعلم بها براءةُ رحمها، وطهارته من الزنا، حينئذ تتزوج، تصبح صالحة للحرث، ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٣]؛ كما أنك تزرع البذور في الأرض تزرع أيضًا النطف في الرحم؛ لتنتج لك ذرية، والبذور في الأرض تنتج لك زرعًا، تنتج لك ما تشاء من النوابت.

﴿حَرۡثٞ﴾: كيف تضيع حرثك، يحرثه غيرك! لا يصح هذا في البشر عمومًا، فكيف بالمسلمين؟!

وأيضًا فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سببًا للمودة والرحمة، والمودة: خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيِّب، زوجًا له؟

والزوج سُمِّيَ زوجًا من الازدواج، وهو الاشتباه؛ فالزوجان: الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعًا وقَدَرًا، فلا يصحُّ معها الازدواج والتراحم والتوادُّ، ولقد أحسن كلَّ الإحسان مَنْ ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأيضًا فإن الزانية خبيثة)**، الله سماها خبيثة، ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦]؛ أي: الزانيات للزانين، والزانون من الرجال للزانيات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله سبحانه جعل النكاح سببًا للمودة والرحمة)**؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

هي لا تعرفك وأنت لا تعرفها من الأول؛ فإذا عقدت صار بينكما مَوَدَّةٌ ورحمة، هذا من فوائد النكاح الشرعي، هذه المودة والرحمة تسبب الألفة بين الزوجين، والتعاون على تربية الأسرة... إلى آخره، أما لو نفر الزوج منها، أو نفرت هي منه؛ لم يَصِرْ للزواج فائدةٌ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيِّب، زوجًا له؟)**، بعيد أن تكون الخبيثة زوجة للنزيه عن الزنا العفيف. لا يمكن هذا في الشرع والعقل، وإن أمكن عند السفهاء والفساق الذين لا قيمة لهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والزوج سُمِّيَ زوجًا من الازدواج، وهو الاشتباه)**، الازدواج: يعني المناسبة بين الزوجين، هذا زوج هذا يعني شكله، مشاكل له، فالأصحاب يُسمون أزواجًا؛ لأنهم تشاكلوا.

﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]: يعني أشباههم، وأَخِلَّاءهم، ليس أزواجهم يعني زوجاتهم، أزواجهم يعني أشكالهم في الأخلاق، في السيرة، يُسمون أزواجًا؛ بعضهم زوج لبعض في أخلاقه وفي سيرته، فالأزواج يطلق ويراد به الأشباه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالزوجان: الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعًا وقَدَرًا)**، لا يمكن أنه تكون المَوَدَّة والرحمة فيما إذا تزوج زانية، لا يمكن هذا، أو هي عفيفة تزوجت زانيًا، لا يمكن أن يكون بينهما مودَّة ورحمة، إنما هذا في الزواج الطاهر النزيه؛ الزواج الشرعي.

فأين هذا مِن قول مَن جوَّز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة؟ وقال: ماء الزاني لا حرمة له.

فهَبْ أن الأمر كذلك؛ فماء الزوج له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين هذا مِن قول مَن جوَّز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة؟)**، يعني لا يشترط العدة، هذا باطل، لابد من استبراء رحمها، كيف أنها زنت في الصباح وزوجت في المساء؟! ربما أنها حامل من الزنا؛ تدخل الولد على الذي عقد عليها وهو ليس له، الشرع جاء بطهارة الأخلاق، وطهارة الفروج، وطهارة الأنساب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأين هذا مِن قول مَن جوَّز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة؟)**، هذا قول خطأ، وإن قال به من قال من أهل العلم، لكنه خطأ، والعلماء يخطؤون ويصيبون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال: ماء الزاني لا حرمة له)**، نقول: لا يخالط ماء الزاني مَن ليس له حرمة، إنما العدَّة من أجل مطلقة من زوج، أما المفارقة من زانٍ فلا حاجة إلى العدة. فهذا قول باطل؛ لأنهم قالوا: من معاني العدة: احترام الزوج المطلق، هذا من معانيها، وليس هو كلَّ المعنى.

لكن المعنى الصحيح والمعنى الأصلي: هو استبراء الأرحام من النطف التي تكون للسابقين؛ إما بزواج وإما بزنا، استبراء رحمها، لا يدخل هذا على هذا، لا يكون هذا منسوبًا لهذا.

لا بد أن تعتد من المطلق المسلم الطيب حتى ولو كان من الصحابة، لا بد من العدة، لأجل ماذا؟ من أجل ألا يكون له ولد فيها فيُنسب إلى المتزوج الجديد، وهو ليس له.

فالأصل في العدة هو هذا: براءة الأرحام من الحمل؛ لئلا ينسب إلى من ليس له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال: ماء الزاني لا حرمة له)**، هو لا حرمة له؛ لأنه سفاح، لكن آثاره قبيحة، تجنب هذا كما تتجنب المرأة الحيض والمواطن النجسة والسيئة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهب أن الأمر كذلك؛ فماء الزوج له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟)**، هذا رد عليه، يقول: ماء الزاني ليس له حرمة.

يقول: ماء الزوج له حرمة، فكيف يجتمع مع ماء الزاني؟ هذا لا يمكن شرعًا ولا عقلًا ولا فطرة، فنحن نحترم ماء الزوج؛ لئلا يدخل عليه ماء الزاني.

والمقصود أن الله سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شُرِعَتْ فيه الطهارة وإن كان حلالًا، وسُمِّيَ فاعله جُنُبًا، لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد، فمُنِعَ من ذلك كله حتى يتطهر بالماء.

فكذلك إذا كان حرامًا يبعد القلب عن الله وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يُحْدِثَ طُهرًا كاملًا بالتوبة، وطُهرًا لبدنه بالماء.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمقصود أن الله سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات)**، والخبيث ضد الطيب؛ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠]، فلا يستوي الخبيث والطيب، لايستوي الزنا والزواج الشرعي، الزواج الشرعي طيب، وهذا خبيث؛ لا يستويان.

يقال: هذا ماء ليس له حرمة، ماء الزاني، نقول: ليس له حرمة، لكن آثره سيئة يسبب اختلاط الأنساب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجنس هذا الفعل قد شُرِعَتْ فيه الطهارة وإن كان حلالًا، وسُمِّيَ فاعله جُنُبًا، لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد)**، هو زوج شرعي إذا جامع زوجته صار جُنُبًا؛ يجتنب قراءة القرآن، يجتنب الصلاة، يجتنب البقاء في المسجد... تحرم عليه أشياءُ، وهو مسلم لكنه جُنب؛ من أجل الجنابة التي حصلت له مع زوجته، فلا بد أن يتطهر منها، مع

أن هذا مباح وطيب، لكن أيضًا يجب الطهارة والاغتسال وهو نكاح طيب، فكيف بالزاني الخبيث؟!!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجنس هذا الفعل قد شُرِعَتْ فيه الطهارة وإن كان حلالًا)**، كالزوج مع زوجته إذا وطئها يجب عليه الاغتسال، مع أنه طيب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وسُمِّيَ فاعله جُنُبًا، لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد)**، يعني يتجنب هذه الأشياء.

﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء:٤٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكذلك إذا كان حرامًا)**، إذا كان حرامًا من باب أولى؛ لابد من الطهارة.

وقول اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢] من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأُخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٥٩].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقول اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢])، يا سبحان الله! اللوطية أنطقهم الله بالحق، سموا ترك اللواط: طهارة، فهم يعايرون لوطًا وأهله بأنهم يتطهرون!

هذا معناه: أنهم- هم- غير متطهرين؛ ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ﴾: يعني ما السبب؟

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢]: هذا عيبهم، نسأل الله العافية، هذا من انتكاس العقول والفطر، فهذا فيه أنهم معترفون على أنفسهم أنهم غير متطهرين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأُخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج:٨])، أصحاب الأخدود: هم قوم من الجبابرة والمشركين، جاؤوا بالمسلمين في قوتهم يريدون أن يصدوهم عن دينهم، وأن يردوهم عن دينهم، أبى المسلمون أن يرتدوا عن دينهم.

فحفروا أخدودًا في الأرض، حفر الجبابرة اخدودًا في الأرض، وأضرموا فيه النيران، وجاؤوا بالمسلمين، قالوا: إما أن ترتدوا، وإما أن نلقيكم في النار! فصبر المسلمون على الإلقاء في النار، وفعلوا الجريمة، وألقوهم في النار.

الله جَلَّ وَعَلَا أنزل فيهم هذا القرآن: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ﴾: أي لُعِنَ، قُتِلَ» أي لُعِنَ. ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾: ما هو الأخدود؟

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾: التي أوقدوها.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾: يتفرجون، يتفرجون على المسلمين وهو يحرقون بالنار، مسرورين، سعداء.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾: حضور يشاهدونهم، ما السبب؟

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:١-٨]: هذا ذنبهم.

مثل قول قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٥٩])**، الله جَلَّ وَعَلَا رد على اليهود والنصارى الذين يعايرون المسلمين وينتقصون الإسلام.

فالله رد عليهم، وقال لنبيهم: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾: يعني هل تنتقدوننا بشيء؟

﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٥٩]: أما أنتم فلا تؤمنون ما أنزل الله، بل تؤمنون ببعضه، وتكفرون ببعضه، لا تؤمنون بالقرآن الذي هو أشرف الكتب، لا تؤمنون به.

أما نحن، نحن فنؤمن بالقرآن ونؤمن بالتوراة ونؤمن بالإنجيل، ونؤمن بكل الكتب التي أنزلها الله، لا نؤمن ببعض الكتب ونكفر ببعضها مثلكم بسبب الهوى.

﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: يعني الإيمان الصحيح، أهل الكتاب يؤمنون بالله، لكن الإيمان الغير الصحيح، إيمانهم مختل.

﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾: وهو القرآن.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾: وهو التوراة والإنجيل.

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٥٩]: كيف تعيبون علينا الإيمان، ولا تعيبون على أنفسكم الفسق وهو الكفر- والعياذ بالله- الفسق المراد به هنا: الكفر.

فنحن مؤمنون وأنتم فاسقون، كيف تعايروننا بالإيمان، أنتم الأولى بالتعيير؛ أنكم فاسقون خارجون عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا المشرك، إنما يَنقِم على الموحد تجريدَه للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك.

وهكذا المبتدع، إنما يَنقِم على السُّنِّيِّ تجريدَه متابعةَ الرسول، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهكذا المشرك، إنما يَنقِم على الموحد تجريدَه للتوحيد)**، المشرك سواء كان من الجاهلية أو من المشركين المعاصرين، المشركين في الإسلام الذين يعبدون القبور والأضرحة، هم يعيبون على أهل التوحيد، يعيبون على أهل التوحيد ولا ينظرون إلى عيبهم وهو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، هل يعيبون على التوحيد ولا يعيبون على الشرك؟!! هذا من انتكاس الفطر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهكذا المبتدع، إنما يَنقِم على السُّنِّيِّ تجريدَه متابعةَ الرسول، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها)**، وهكذا المبتدع يعيب على السني تمسكه بالسنة كما أمر الله جَلَّوَعَلَا وأمر رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة.

يعيبون هذا، ولا يعيبون على أنفسهم أنهم يعملون بالبدع والمحدثات، ويأخذون بأقوال الرجال ولو خالفت السنة، ولو كانت خطأ يأخذون بها.

ويقولون- الآن-: المسألة فيها خلاف، المسألة فيها خلاف، إذا قلت له أن هذا حرام، قال: المسألة فيها خلاف، إذا قلت: هذا واجب، قال: المسألة فها خلاف.

كأن كل مسألة فيها خلاف، يعني هل نأخذ بالخلاف؟ نأخذ بالدليل؛ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:١٠].

فالخلاف نعرضه على الدليل، فما وافق الدليل أخذنا به، وما خالف الدليل تركناه، ولو كان من قال به من أكابر العلماء، العلماء يخطئون، ليسوا معصومين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهكذا المبتدع، إنما يَنقِم على السُّنِّيِّ تجريدَه متابعةَ الرسول، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها)**، فأنت إذا قلت للمبتدع: اتق الله، هذه بدعة، تمسك بالسنة.

قال: المسألة فيها خلاف، المسالة فيها خلاف، هل التمسك بالسنة فيها خلاف؟! نعم، عندهم هناك خلاف.

يقول: لو كان التمسك بالسنة واجبًا لما خالفه فلان وفلان، وفلان من العلماء، المبتدعة فيهم علماء، لكن هل يؤخذ بقولهم وهم مبتدعة؟ لا يؤخذ بقولهم ولو كانوا مبتدعة.

فَصَبْرُ الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه مِنْ صبْرِه على ما يَنقِمُه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الصَّبْرِ فَاصْطَبِرْ
عَلَى الحَقِّ، ذَاكَ الصبرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَصَبْرُ الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه مِنْ صبْرِه على ما يَنقِمُه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة)، المتمسك بدينه يصبر كالقابض على الجمر(١)، يصبر على دينه، ولو أن الناس سفهوه، الناس سبوه، الناس عايروه، متشدد، وصفوه بأوصاف ليست فيه، لا يبالي بهذا ما دام أنه على حق، إن كان على باطل يرجع، لكن إن كان على حق هو يتمسك ولا يهمه كلام الناس مهما قالوا فيه، يصبر على هذا.

ونقمة الناس عليك أخف من نقمة الله عليك لو أنك تابعتهم، فأنت إذا تابعتهم نقم الله عليك، فنقمة الناس أخف من نقمة الله.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لا، اصبر، اصبر على أذى الناس ولو أن حصل عليك أذى، وحصل عليك مضايقة، اصبر عليها، أنت في سبيل الله، ونقمة الناس أخف من نقمة الله عليك في الدنيا والآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَصَبْرُ الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه مِنْ صبْرِه على ما يَنقِمُه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة)**، تذكر هذا إنك مسئول يوم القيامة عن تمسكك بالكتاب والسنة وصبرك على ذلك، أو أنك تركت الكتاب والسنة من أجل إرضاء الناس وتجنب مقتهم لك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إِذَا لم يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الصَّبْرِ فَاصْطَبِرْ عَلَى الحَقِّ، ذَاكَ الصبْرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ)**، الصبر على الحق تحمد عقباه، لكن الصبر على الباطل هذا عقباه -والعياذ بالله- النار.

الباب العاشر

في علامات مرض القلب وصحته

كلُّ عضو من أعضاء البدن خُلق لفعل خاص به، كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه أن يتعذر عليه الفعل الذي خُلِقَ له، حتى لا يصدر منه، أو يصدر مع نوع من الاضطراب.

فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف.

ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته)**، سبق أن القلب يمرض بالفتن والشهوات والشبهات.

وقد يموت، يمرض ثم يشتد به المرض فيموت فيصبح لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فإذا لم يعالجه صاحبه ويبادر بعلاجه فإنه يموت، حينئذ وبعد ذلك لا يعرف معروف ولا ينكر منكرًا، فالمبادرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش)**، مرض اليد: أن يتعذر عليها البطش؛ يعني الأخذ والإعطاء والمد والأكل والشرب، هذه

وظيفة اليد، الأخذ والإعطاء والبطش؛ يعني الدفاع عن صاحبها إذا اعتُدي عليه، هذه وظيفتها.

قد تتعطل اليد فتصبح لا تبطش ولا تدافع؛ لمرض أصابها، تحتاج إلى علاج.

كذلك الرجل، كذلك السمع والبصر؛ كلُّها إذا لم يبادر بالعلاج وسلمت للآفة التي تعرض لها فقَدَها صاحبُها.

كذلك القلب إذا لم تعالجه وتبادر بعلاجه فقَدْتَه، فعمي وصار لا فائدة فيه، تمشي تحمل حجرًا في صدرك ليس فيه فائدة!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خُلق له من المعرفة بالله، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوة)**، القلب هو الأصل؛ «**إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»[(١)]، القلب هو أصل الأعضاء، والمدبر لها.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٣٩).

لو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كلَّ حظ من حظوظ الدنيا ولذّاتها وشهواتها، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والإنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا)**، فالذي يستعمل عقله لمجرد مطامع الدنيا وصناعاتها وأشغالها ويحذقها وينتج، لكنه ينسى الآخرة لا يفكر فيها، هذا لا فائدة له من قلبه ولا من ذكائه ولا من حياته أيضًا.

فالكفار الآن عندهم نباهة وعندهم عقول دنيوية، وسبقوا في الصناعات والاختراعات، ولكنهم لا يفكرون في الآخرة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٦، ٧]. هذا الكافر قلبه صار للدنيا، حذقة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ [هود:١٥، ١٦].

هذه الصناعات وهذه المخترعات، هذه ذهبت زالت بطلت، انتهت، انتقل للآخرة ليس معه شيء؛ ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج:١١].

لا نقول: أنك تُترك مصالح الدنيا، تترك الصناعات، لا، لكن لا تقتصر عليها، استعملها بما يعينك على طاعة الله، استعملها في منافعك، وفيما يعنك على طاعة الله، لا تتركها، لكن لا تقتصر عليها، هذا هو المنهي عنه.

أنت لم تخلق للدنيا، أنت خلقت للآخرة، والدنيا مطية للأخرة، ومزرعة للآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لو عرف العبد كل شيء)**، لو عرف كل شيء، الآن لم يتركوا شيئًا لم يعرفوه إلا الأشياء التي لم يطلعهم الله عليها، وإلا هم عرفوا أشياء كثيرة، كما تعلمون الآن، لكن تسأله عن الآخرة ليس عنده منها خبر، ولا تأتي له على بال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا)**، هو لم يعرف شيئًا، نعم، هو لم يعرف شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو نال كلَّ حظ من حظوظ الدنيا)**، ولو نال كلَّ حظ من حظوظ الدنيا، ولو صار من أمهر الصناع والأطباء والمفكرين وجمع الدنيا كلها لم يستفد منها شيء، يخرج منها مفلسًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو نال كلَّ حظ من حظوظ الدنيا ولذّاتها وشهواتها)**، هم يقولون: الآن تقدم الغرب، تقدم إلى أين؟ إلى النار، لم يتقدم الغرب ما دام أنه لم يعرف ربه، ولم يعرف الدار الآخرة، هو لم يتقدم، هذا ليس تقدُّمًا هذا، هذا غرور؛ اغتر بها.

ولو أنه جمع بين الدنيا والآخرة؛ ﴿ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١]. هذا هو السعيد، والله خلق الدنيا ليستعان بها على الآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والإنس به، فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين)**، إذا لم يتلذذ بالله ومعرفته وذكره وعبادته، لو اجتمعت عنده كل مشتهيات المآكل والمشارب في الدنيا هو لم يتلذذ، لو تلذذ ساعة يعقبها أمراض، يعقبها هموم وأحزان.

ولهذا تجد الكافر من أضيق الناس صدرًا؛ ينتحر بعضهم من ضيق الصدر، ينتحر؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يذكر الله حتى ينشرح صدره فهو في قبر، فبعضهم أو كثير منهم ينتحر الآن.

لكن المؤمن هو لو ليس عنده شيء تجده مسرورًا، متلذذ بعبادة الله وبذكر الله، مسرورًا ولو ليس عنده من الدنيا شيء إلا متاع فقط.

بل إذا كان القلب خاليًا من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولا بدَّ، فيصير مُعذَّبًا بنفس ما كان مُنعَّمًا به من جهتين:

من جهة حسرة فَوْته، وأنه حِيلَ بينه وبينه، مع شدة تعلُّق روحه به.

ومن جهة فَوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بل إذا كان القلب خاليًا من ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابًا له ولابدَّ)**، ولذلك ينتحر بعضهم، وهو عنده الملذات وعنده التجارة، وعنده كل ما يريد من ملذات الدنيا، لكن قلبه في عذاب، لم يطمئن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، أما هذا فليس عنده ذكر لله؛ ولذلك لا يطمئن قلبه، ولا يرتاح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيصير مُعذَّبًا بنفس ما كان مُنعَّمًا به من جهتين: من جهة حسرة فَوْته، وأنه حِيلَ بينه وبينه، مع شدة تعلُّق روحه به)**، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ:٥٤].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن جهة فَوْت ما هو خير له وأنفع وأدوم حيث لم يحصل له)**؛ ولذلك إذا حضره الموت يندم؛ يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

يندم، ليس هناك أحد عند الموت إلا يندم؛ سواء المؤمن أو الكافر: المؤمن يندم ألا يكون ازداد من الأعمال الصالحة، والكافر يندم لأنه واجَهَ

جزاءه، وليس له إلا النار؛ فيندم، ويقول: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به)**، فاته الذي بيده، وليس له حظٌّ عند الله، وليس له حظ في الآخرة، هذا أخسر الخاسرين.

وكل من عرَف الله أحبَّه وأخلص العبادة له ولابدَّ، ولم يُؤثِر عليه شيئًا من المحبوبات فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات؛ فقلبه مريض.

كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث، وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيِّب، وتعوَّضت بمحبة غيره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وكل من عرف الله أحبَّه وأخلص العبادة له ولابدَّ، ولم يُؤثِر عليه شيئًا من المحبوبات**)، ولهذا يقول بعض الصالحين: أهل الدنيا مساكين خرجوا منها ولم يجدوا ألذ ما فيها، ولم يعرفوا ألذ ما فيها. قيل: وما ألذ ما فيها؟ قال: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**كما أن المعدة إذا اعتادت أكل الخبيث، وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيِّب، وتعوَّضت بمحبة غيره**)، إذا تعود بالخبائث تعلق بها وألفها وصار لا يتلذذ إلا بها.

أما من يتعلق بالطيبات والمباحات فإنه يحبها ويبغض الخبائث، فالإنسان على ما اعتاد عليه؛ «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا»، كما يقول المتنبي[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي للمعري (ص٣١٢).

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته.

وعلامة ذلك أنه لا تُؤلِمه جراحات القبائح، ولا يُوجِعه جهله بالحق وعقائده الباطلة؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة يألم بورود القبيح عليه، ويألم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لِجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته)**، قد يمرض القلب وصاحبه لا يدري عن مرضه ولا يلتفت، وقد يموت قلبه، ولا يدري عنه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعلامة ذلك أنه لا تُؤلِمه جراحات القبائح، ولا يُوجِعه جهله بالحق وعقائده الباطلة)**، علامة مرض القلب: أنه لا يعرف معروفًا ولاينكر منكرًا، هذه علامة موت القلب، كله استوى عنده.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن القلب إذا كان فيه حياة يألم بورود القبيح عليه)**، إذا صار أن فيه حياة فإنه ينفر من المعاصي على قدر ما فيه من الطاعة ينفر من المعاصي.

لكن الذي ليس فيه طاعة وليس فيه محبة لله هذا كله سواء عنده، بل يكون الخبيث أحب إليه من الطيب.

وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه؛ لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته)**، قد يمرض القلب؛ كما قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة:١٠]. مرض معنوي.

يمرض بالذنوب والمعاصي والمخالفات؛ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]. فالذنوب لا شك أنها تؤثر على القلب.

كما أن الطاعات والعبادات تؤثر في حياة القلب، وأن ذكر الله يؤثر في حياة القلب؛ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

وكذلك يمرض القلب بالغفلة، والانشغال بأمور الدنيا وملذاتها، كل هذه تؤثر على القلب.

وإذا غفل عنه صاحبه وهو مريض ويتزايد فيه المريض فإنه يموت، يموت قلبه، حينئذ إذا مات لا فائدة منه لصاحبه؛ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]. فهذا يؤكد على المسلم أن يعتني بقلبه، وأن يفعل الأسباب التي تحيي قلبه.

فالإنسان لا ييأس حتى ولو مات قلبه يحييه بذكر الله كما يحيا الزرع بالماء، يحيه بذكر الله؛ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فالمسلم إذا سعى في حياة قلبه أحياه الله له، فينبغي أو يجب على المسلم أن يهتم بقلبه.

كذلك المطاعم الخبيثة والمآكل المحرمة تؤثر على القلب، ولا شك أن المطاعم الطيبة والحلال إنها تحيي القلب أيضًا.

فالقلب من صاحبه، فإذا كان صاحبه لا يبالي بالمآثم والمعاصي والملاهي فإنه قلبه يمرض ثم يموت؛ يشتد به المرض حتى يموت مثل البدن، إذا لم يعالج البدن من مرضه يموت، وكذلك القلب، فيتأكد على المسلم أن يعمل على علاج قلبه وإحيائه، ويهتم بذلك.

كثير من الناس يهتم بالبدن، صحة البدن وهذا شيء مشاهد تجده يتردد على المصحات ويأخذ الأدوية، ويأكل الأطعمة التي تقويه وتقوي بدنه، هذا لا بأس به، لكن هناك ما هو أول به، وهو القلب، فلماذا لا يهتم بقلبه؟!!

وعلامة ذلك أنه لا تُؤلِمه جراحات القبائح، ولا يُوجِعه جهله بالحق وعقائده الباطلة؛ فإن القلب إذا كان فيه حياة يألم بورود القبيح عليه، ويألم بجهله بالحق بحسب حياته، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيَلَامُ[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعلامة ذلك أنه لا تُؤلِمه جراحات القبائح)** يعني في الأول يستنكر الخبائث والمعاصي، ثم يتناقص هذا الاستنكار من كثرة المعاصي والذنوب يتناقص، ثم بعد ذلك يموت قلبه، ويصبح لا يعرف معروفًا ولاينكر منكرًا، بل كل الأشياء عنده سواء.

قد يكون الإنسان حاذقًا في فكره واختراعاته وصناعاته وتجاراته وأمور دنياه، لا يكفيه هذا، ولكنه ميت القلب، ميت القلب هذا هو الكافر والمنافق، يكون ميت القلب وإن أعطي من النباهة، أعطي من التفكير ومن الاختراع، لكن هذا لا يفيده شيئًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يُوجِعه جهله بالحق وعقائده الباطلة)**، لا تهمه القبائح من الأفعال، ولا تهمه- أيضًا- القبائح من الأفكار والمذاهب الباطلة، لا يهمه ذلك هذا دليل على أن قلبه ميت.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ

---

(١) البيت على التمام:

مَـنْ يَهُـنْ يَسْهُـلِ الهَـوَانُ عَلَيْـهِ ... مَـا لِجُـرْحٍ بِمَـيِّـتٍ إِيـلَامُ

انظر: ديوان المتنبي (ص١٦٤)، واللامع العزيزي (ص١٢١٦).

بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

من هم هؤلاء؟

الغافلون: الذي لا يهمه إلا مأكله ومشربه ودنياه، تجارته، وأما الآخرة وأما الجنة والنار هذه لا تأتي له على بال.

والآن نسمع ونقرأ من يقول: اشغلتم الناس بالمواعظ، وأشغلتموهم بالتذكير، وأشغلتموهم...، هذا تأييس للناس، وهذا تشاؤم، افتحوا للناس الأمل، وافتحوا للناس الفرح.

هذا سمِعتموه وقرأتموه، هو من هذا النوع، هؤلاء ليس لهم قلوب -والعياذ بالله- ولذلك يستنكرون؛ لأن المريض يستنكر الطعام والشراب الطيب، وهؤلاء مثله يستنكرون بالطيب ويفرحون بالخبيث.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن القلب إذا كان فيه حياة يألم بورود القبيح عليه، ويألم بجهله بالحق بحسب حياته)**، الذي في قلبه حياة فإنه يألم من القبائح، وينفر منها، ينفر منها، ويتألم من الجهل، يتألم من الجهل ويسعى في التعلم، يسعى في اكتساب العلم؛ لأجل أن يعالج بذلك قلبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وما لجُرحٍ بميّتٍ إيلامُ)**، يقول الشاعر:

مَـنْ يَـهُـنْ يَـسْـهـل الـهَـوَانُ عَلَيْه ... مــا لجُــرْح بمَــيِّــت إيــلام

هذا صحيح، هذه حكمة،

مَـنْ يَـهُـنْ يَـسْـهـل الـهَـوَان عَلَيْه ... مــا لجُــرْح بمَــيِّــت إيــلام

فالميت لو كسرت أعضاءه وتجرحه لا يدري، ليس به حياة، ليس فيه حياة.

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمُّلُ مرارة الدواء والصبر عليها؛ فيُؤْثِرُ بقاءَ ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمُّلُ مرارة الدواء والصبر عليها؛ فيُؤْثِرُ بقاءَ ألمه على مشقة الدواء)**، منهم من يدرك مرض قلبه، يدرك هذا، ولكنه لا يتحمل مرارة الدواء، الدواء مر فيه مرارة، لكن يصبر على هذه المرارة.

مثال ذلك: المواعظ والتذكير، هذا مر في سماع كثير من الناس، ولكن يصبرون على ذلك حتى تحيا قلوبهم، تزكو نفوسهم، لابد من الصبر على مرارة الدواء.

التوبة أيضًا، معالجة النفس، ترك المألوفات المحرمة، هذا يحتاج إلى صبر، وألا تميل نفسه إليها، هذا يحتاج إلى صبر على التوبة والاستغفار، يحتاج إلى صبر على الطاعات، قيام الليل، صيام النهار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس)**، أصعب شيء على النفس: مخالفة الهوى، فيصبر على مخالفة هواه، وإلا فإنه يكون ممن: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣].

وما يهواه فإنه يميل معه، وإن كان باطلًا، وما لا يهواه فإنه يتركه وإن كان حقًّا، كثير من الناس.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وذلك أصعب شيء على النفس، وليس لها أنفع منه)**، أشق شيء على النفس: مخالفة الهوى، وليس لها شيء أنفع من مخالفة الهوى، فيحتاج إلى صبر هذا.

وتارة يُوطِّن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه؛ لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مَخُوفٍ مُفْضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وتارة يُوطِّن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه، ولا يستمر معه**)، يحاول التوبة، يحاول العبادة، ثم ينفسخ عزمه، ويرجع إلى المعاصي ويرجع إلى الذنوب وهذا كثير ممن يتوبون، يرجعون إلى المعاصي؛ لأنهم لايتحملون الصبر والاستمرار على ذلك.

ربما يكون لذلك أسباب وجلساء السوء، وكذلك القراءة في الكتب المضلة، والكتب التي فيها شبهات.

وكذلك قد يطالع ما جد الآن من تويترات والمواقع السيئة التي تعرض فيها هذه الأمور، ويصعب عليه تجنبها وتركها، بل يصاب بالإدمان، والعياذ بالله.

الآن يقولون: الجوالات والتويترات وهذه الأشياء من أقبل عليها يصاب بالإدمان فلا يصبر عليها، ولذلك تجده إذا كان مربوطًا عنها بوظيفة، أو بعمل يركض، إذا انتهى الدوام يركض ويفتحها ويظل أمامها، ويمر الليل والنهار وهو جالس أمامها، لا يستطيع أن يفارقها، هناك إدمان عليها.

الذين صنعوا هذه الأمور هم يقولون: فيها إدمان، هم قالوا هذا، المسلم أنه ينقذ نفسه من هذه الأمور، ينقذ نفسه، يبتعد عنها، يصبر على فراقها ثم ينساها، ويسلم من شرها.

تجنب جلساء السوء، هؤلاء جرب، مثل الأجرب يعدي الصحيح إذا خالطه، اتعد عنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يستمر معه؛ لضعف علمه وبصيرته وصبره)**، يقولون -العوام-: جادة الطوع طويلة، هذا صحيح، جادة الطوع طويلة، لابد لها من صبر، لابد من تمسك.

وهذا يريد طوال حياته أنه يصبر عن هذه الأشياء، هذا صعب، والناس حوله يعلمون هكذا، ويعملون هكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كمن دخل في طريق مَخُوفٍ مُفْضٍ إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن)**، كمن يسلك طريقًا مخوفًا يفضي إلى أمن واستقرار وراحة.

إذا لم يصبر على الطريق وعلى ما فيه من المخاطر ورجع، فإنه لا ينقذ نفسه، وإن صبر على الطريق وطول الطريق ومشقته وعلى ما يعترضه من المخاوف، فإنه ينجو بإذن الله، يصل إلى الغاية.

ولذلك في الحديث: الجنة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات، هذا منهج، فمن ذهب مع الشهوات، فإنه يسير إلى النار، ومن ذهب مع المكاره، وطاعة الله فإنه ينجو، يصل إلى الجنة بإذن الله.

ولهذا تقول الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لأهل الجنة؛ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾: بسبب ماذا؟

﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]. بما صبرتم.

فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق، ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عَدِمَ الرفيقَ، واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي بهم أسوة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فهو محتاج إلى قوة صبر، وقوة يقين بما يصير إليه)، والذي ليس عنده صبر، وليس عنده دين أبدًا، ليس عنده دين.

ولذلك رأس الدين: هو الصبر، فإذا فقد الصبر ذهب الدين، لأن الدين فيه مشقة على النفس، والناس يريدون الراحة، ويريدون الشهوات والمألوفات، فيحتاج على صبر.

ولهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ»، ثم رَفَعَ صَوْتَه، فقال: «أَلَا إِنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»(١).

وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا لذة عيشنا بالصبر»(٢).

والله جَلَّ وَعَلَا قال في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٢٠).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه (٨/ ٩٩) معلقًا مجزومًا به، قال: قال عمر: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ». قال الحافظ في فتح الباري (١١/ ٣٠٣): (وصله أحمد في كتاب الزهد بسند صحيح عن مجاهد، قال: قال عمر: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا الصَّبْرُ». وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق أحمد كذلك، وأخرجه عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد من وجه آخر عن مجاهد به، وأخرجه الحاكم من رواية مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة عند هذه الآية: «بالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدين»(١).

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾: بسبب ماذا؟ ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما ناله من المشاق والابتلاء والامتحان آل به ذلك إلى أن صار ملكًا على مصر يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما دخل عليه إخوته ولم يكونوا يعرفونه، دخلوا على ملك، ولم يكونوا يعرفون أنه هو أخوهم الذي أساءوا في حقه: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق)**، مثل السيارة وينفذ وقودها، انتهى، تقف مكانها لا تتحرك، كذلك الذي ليس معه صبر ليس معه بنزين، يقف، يتعب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا سيما إن عَدِمَ الرفيقَ)**، إن عدم الرفيق، عدم: ليس معه رفيق يساعده، ويؤنسه، فإنه يرجع من الطريق.

يعني إذا كان وحْدَه، هذا مثال المسلم إذا كان وحده ليس معه مسلمين وهو يحتاج إلى صبر وليس معه أحد يساعده ولا يقتدي به، لابد من الصبر، يصبر على وحدته حتى يقطع الطريق على مشقته.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(واستوحش من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟ فلي بهم أسوة)**، مثل الذي يقول: أنا مثل هؤلاء الناس، أنا أعيش معهم، أعيش مع الناس، لماذا أخالف الناس، لما يخالف أهل الأهواء وأهل الشهوات، دعني معهم فيترك طريق النجاة.

وهـذه حـال أكثـر الخلـق، وهـي التـي أهلكتهـم؛ فالبصيـر الصـادق لا يسـتوحش مـن قلة الرفيق ولا من فقده؛ إذا استشـعر قلبـه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩]. فتفـرُّدُ العبـد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه حال أكثر الخلق)**، هذه حال أكثر الخلق، يقولون: دعونا نعيش مع الناس، لماذا نكون غرباء بينهم، لماذا نشدد على أنفسنا، ألسنا مثل هؤلاء الناس.

هل إذا صار الناس يسيرون إلى طريق جهنم، هل تسير معهم؟!! انتبه لهذا، الناس إن كانوا على حق الحمد لله، وإن كانوا على باطل فامنع نفسك عنهم أو صحبتهم، واصبر على الوحدة وعلى وحشة الطريق؛ فإن الفرج قريب، والعاقبة للتقوى.

الله بحكمته سبحانه جعل طريق الجنة محفوفًا بالمكاره، صعوبات، وإلا لو كان محفوفًا بالشهوات لكان الكل يمشي إلى الجنة، لكن الله سبحانه يريد أن يبتلي العباد، فلا يصبر على اهل الإيمان وأهل اليقين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي التي أهلكتهم)**، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]. كلهم هكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول)**، ولهذا في آخر سورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

من هؤلاء الذين يسيرون على هذا الطريق؟ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧].

من هؤلاء الذين أنعم الله عليهم؟ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]. هؤلاء هم الرفيق الصالح النافع.

أما من صار في طريق النار، فالناس أكثرهم مع طريق النار -والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق)**، كيف يستوحش من قلة الرفيق وهو: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]. هؤلاء هم الرفيق الحسن، ليس هنا أحسن منهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩])، من هم؟ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٦٩]. هؤلاء هم الرفيق. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتفرُّدُ العبد في طريق طلبه دليل على صدق الطلب)**، ولذلك يجب على الأمة أن تقتدي بالسلف الصالح، ولا تنخدع بالمتأخرين، لا تنخدع بالمتأخرين وإن كثروا، إنما تكون القدوة بالسلف الصالح الذين مضوا.

ولهذا يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كان مستنًا -أي: مقتديًا- فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤْمَنُ عليه الفتنة»[١].

السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الصحابة والتابعين والذين اتبعوهم بإحسان، والقرون المفضلة.

الآن يقولون: لا، هؤلاء انتهوا، نحن نريد فقه جديد، لا نريد فقه السلف، ولا فقه الأئمة الأربعة، ولا فقه السلف، نحن نستنبط من الكتاب والسنة لحاجتنا، وهم لا يعرفون شيئًا.

هؤلاء ليس لهم ولا طرق الاستنباط الشرعية، يقولون: لا، نريد أن نستنبط، نحن نأخذ فقهنا بأنفسنا، لماذا نطبق الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ومن قبلهم من الصاحبة والتابعين هؤلاء انتهوا، ومنهجهم خاص بهم، نحن نضع لنا طريق خاصًّا بنا، هذا هو الضلال -والعياذ بالله-، هذا هو الضلال المبين.

الكتاب والسنة ودين الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ليس خاصًا بالسابقين، بكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، ولهذا يقول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها[٢]. ما هو الذي أصلح أولها؟ الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٧)، والهروي في ذم الكلام وأهله (٤/ ٢٨٨). وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٠٥، ٣٠٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٢٣/ ١٠)، من كلام الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: تنقيح تحقيق أحاديث التعليق لابن عبد الهادي (٢/ ٤٢٣).

ولقد سئل إسحاق بن راهَوَيْه عن مسألة فأجاب عنها، فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل قولك، فقال: ما ظننتُ أن أحدًا يوافقني عليها، ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من عدم الموافق؛ فإن الحق إذا لاح وتبيَّن لم يَحْتَجْ إلى شاهد يشهد به.

والقلب يُبْصِرُ الحقَّ كما تبصر العينُ الشمسَ؛ فإذا رأى الرائي الشمس لم يحتج -في علمه بها واعتقاده أنها طالعة- إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولقد سئل إسحاق بن راهَوَيْه عن مسألة فأجاب عنها)**، إسحاق بن راهويه هذا من كبار الفقهاء في زمن الإمام أحمد، فهو قرين للإمام أحمد في الفقه والعلم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وهو إمام أهل المشرق، إسحاق بن راهويه الحنظلي

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولقد سئل إسحاق بن راهَوَيْه عن مسألة فأجاب عنها، فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل قولك، فقال: ما ظننتُ أن أحدًا يوافقني عليها)**، لا أظن، يوم أن قالوا: إن أخاك الإمام أحمد يقول بمثل قولك. يعني فرح بهذا وقال: كنت لا أظن أن أحدًا يوافقني عليه، ومع هذا لم يستوحش، بل أفتى بالحق، لم يستوحش، وقال الناس انتهوا الآن، ويريدون فقه جديد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والقلب يُبْصرُ الحقَّ كما تبصر العينُ الشمسَ)**، القلب الحي يبصر الحق كما يبصر الشمس؛ لأن الحق مثل الشمس؛ واضح، القلب الحي يدرك هذا، أما القلب الميت والمريض فلا يدرك هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا رأى الرائي الشمس لم يحتج -في علمه بها واعتقاده أنها طالعة- إلى من يشهد بذلك ويوافقه عليه)**، إذا اتضح الحق لم يحتج إلى تسأل أحدًا عنه، اتضح لك الحق فتمسك به، إنما يسأل من لم يتضح له الحق.

مثلما إذا كنت تسير في طريق أنت تعرفه ومتيقن منه، لا تحتاج أن تسأل وتقول: أين هذا البلد الفلاني؟ أنت عارف أنه هذا، فلا يحتاج لسؤال، بل ربما يوجد السؤال عندك ارتباكًا فيما بعد.

وما أحسَنَ ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «الحوادث والبدع»: «حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتِّباعه، وإن كان المتمسِّك به قليلًا، والمخالف له كثيرًا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وما أحسَنَ ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة)**، هذا من أئمة السنة، أبو شامة له كتاب» الباعث على إنكار البدع والحوادث».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة: فالمراد به لزوم الحق واتّباعه)**، لأن الجماعة من الصحابة والتابعين وأتباعهم هم على الحق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه)**، الحق هو الذي كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه.

ولهذا لما أخبر عن ظهور الفِرَق: «**سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**. قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(٢).

---

(١) انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث =

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم)**، لا تنظر إلى كثرة أهل الباطل؛ ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦].

ليست العبرة بالكثرة، العبرة بالصواب ولو لم يكن عليه إلا واحدٌ، فالْزَمْهُ، وفي آخر الزمان تزداد غربة الدين، ولا يبقى عليه إلا النُّزَّاع من القبائل، قليل من القبائل، والكثير على الضلال.

❖ ❖ ❖

=أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح). وأخرجه أحمد (١٩/ ٢٤١)، وابن ماجه (٣٩٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وأخرجه ابن ماجه (٣٩٩٢) عن عوف بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال عمرو بن ميمون الأَوْدي: «صحبتُ معاذًا باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام. ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود، فسمِعته يقول: عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة. ثم سمِعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاةٌ يؤخِّرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها؛ فهي الفريضة، وصلوا معهم؛ فإنها لكم نافلة. قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحُدِّثونا؟ قال: وما ذاك؟ قلت: تأمرني بالجماعة وتحضُّني عليها، ثم تقول: صلِّ الصلاة وحْدَك وهي الفريضة، وصلِّ مع الجماعة وهي نافلة؟! قال: يا عمرو بن ميمون، قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية! تدري ما الجماعة؟ قلت: لا، قال: إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعةَ، الجماعةُ ما وافق الحق، وإن كنتَ وحْدَك»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال عمرو بن ميمون الأَوْدي: صحبتُ معاذًا باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام)، معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه على اليمن داعيًا ومعلِّمًا وقاضيًا(٢).

ثم جاء بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأرسله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الشام يدرس فيها ويعلم ويقضي بين الناس، فلما جاء الطاعون -طاعون عَمْواس- أصابه، وتُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هناك، ودفن بالشام، هذا لزمه، يقول: (صحبتُ معاذًا

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٢٢).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٥٤).

باليمن، فما فارقته حتى واريته في التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود)، هو أبو عبد الرحمن، أفقه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ثم سمِعته يومًا من الأيام وهو يقول: سيلي عليكم ولاةٌ يؤخِّرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم؛ فإنها لكم نافلة)**، هذا أوصى به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمشي على هذا.

إذا جاء ولاة عندهم تكاسل في الصلاة ويؤخرونها عن وقتها فلا تتركوهم، صلوا معهم؛ لأجل جمع الكلمة، ولكن صلوا الصلاة لوقتها، وصلوا معهم، تكون نافلة لكم؛ لأجل جمع الكلمة، وعدم التفرق.

هذا دليل على أن ولي الأمر يطاع ولو كان عنده تكاسل، وعنده فجور لا يُخرجه عن الإسلام؛ لأجل جمع الكلمة، وليس بتشجيع له على ما هو عليه من التفريط والإضاعة، ليس بتشجيع له ولا موافقة، وإنما هذا لأجل جمع الكلمة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعةَ، الجماعةُ ما وافق الحق، وإن كنتَ وحدك)**، هذا هو الجماعة، ليس الكثرة، العبرة بموافقة الحق، فمن كان على الحق فهو الجماعة ولو كان واحدًا، ومن خالف الحق فهو مخالف للجماعة وإن كانوا كثرة، لا تنظر إليهم.

❖ ❖ ❖

وفي طريق أخرى: فضرب على فخذي وقال: ويحك! إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال نُعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة، فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك؛ فإنك أنت الجماعة حينئذٍ. ذكره البيهقي وغيره[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال: ويحك! إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله** عَزَّوَجَلَّ**)**، ليست العبرة بالجماعة: الكثرة وما عليه الناس، العبرة بمن يسير على الطريق الصحيح، على طريق السلف الصالح، هذا هو الجماعة، ولو كان واحدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال نُعيم بن حماد: يعني إذا فسدت الجماعة، فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك؛ فإنك أنت الجماعة حينئذٍ)**، نعيم بن حماد شيخ البخاري رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

يقول: إذا فسدت الجماعة التي في وقتك فعليك بما كانت عليه الجماعة السابقة؛ فإنك تكون أنت الجماعة، ولا تغتر بالكثرة الفاسدة المهملة.

(١) نقله أبو شامة في الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص٢٢)، وقال: (أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في كتاب المدخل).

وقال أبو شامة عن مبارك، عن الحسن البصري، قال: «السنة -والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله؛ فإن أهل السنة كانوا أقلّ الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أبو شامة عن مبارك، عن الحسن البصري، قال: «السنة -والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي)، السنة: اعتدال بين الغلو والتشدد، وبين الجفاء والتساهل، اعتدال بين الطرفين، والوسط الذي هو الحق: هو الذي يكون بين طرفين: طرف الإهمال، وطرف الغلو والتشدد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال أبو شامة عن مبارك، عن الحسن البصري، قال: «السنة -والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي)، الغالي هو المتشدد، والجافي هو المضيِّع؛ الذي يقول: تسامح! هذا ليس بتسامح، هذا ضياع، هذا تساهل.

ويسمون المتمسك بالسنة: متشددًا! المتشدد: هو الذي عنده غلو وزيادة، وليس هو المتمسك بالسنة، المتمسك بالسنة معتدل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن أهل السنة كانوا أقلّ الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي)، أهل السنة قليلون بالنسبة للعالم المعاصر، أهل السنة قليلون.

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص١٦)، والأثر أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٢٩٦).

يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ**»[(١)]؛ من قلتهم، لكنهم هم الجماعة، وهم الذين على الحق، وإلا فالله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

فالعبرة ليست بالكثرة، العبرة بالذي على الحق، المتمسك بالحق، هذا هو العبرة، وهو الجماعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن أهل السنة كانوا أقلّ الناس فيما مضى)**، إذا قِسْتَ أهلَ السُّنة فيما مضى -الرسول وأصحابه- بالنسبة للعالَم في وقتهم؛ تجدهم أقل القليل، وهم الجماعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم)** الإتراف يعني الترف الذي يشغل عن التمسك بالحق.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فكذلك إن شاء الله فكونوا)**، أي: على هذا النمط الذي على الحق وإن كانوا قليلين.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان محمد بن أسلم الطُّوسي -الإمام المتفق على إمامته مع رتبته- أتبع الناس للسنة في زمانه، حتى قال: «ما بلغني سنةٌ عن رسول الله ﷺ إلا عملت بها، ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا، فما مُكِّنت من ذلك».

فسُئل بعض أهل العلم في زمانه عن السّواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: «إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم: مَنِ السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم الطُّوسي هو السواد الأعظم»(١).

وصدق والله؛ فإن العصر إذا كان فيه إمامٌ عارف بالسنة داعٍ إليها، فهو الحجة، وهو الإجماع، وهو السوادُ الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولَّاه الله ما تولي، وأصلاه جهنّم، وساءت مصيرًا.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا)؛ لأن النبي ﷺ طاف مرة راكبًا.

---

(١) قال أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٣٨، ٢٣٩): (حدثنا أبي، ثنا خالي أحمد بن محمد بن يوسف، ثنا أبي، قال: قرأت على أبي عبد الله محمد بن القاسم الطوسي خادم ابن أسلم قال: سمعت إسحاق بن راهويه، يقول وذكر في حديث رفعه إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْمَعَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الِاخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ»، فقال رجل: يا أبا يعقوب، من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه).

لما كثر عليه الناس ركب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الطواف، وكان يستلم الركن بمِحْجَنٍ كان معه[1].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبًا)**، يعني: اقتداءً بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يريد أن يحيي هذه السنة من حرصه على العمل بالسنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فما مُكّنت من ذلك)**، لم يسمحوا له أن يطوف له راكبًا، لم يسمح له القائمون على شؤون البيت أن يطوف راكبًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فسُئل بعض أهل العلم في زمانه عن السّواد الأعظم الذين جاء فيهم الحديث: «إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم»)**، لا تظن أن السواد الأعظم هم الكثرة، السواد الأعظم: من كان على الحق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال: «محمد بن أسلم الطُّوسي هو السواد الأعظم»)**، الذي مضى ذكره؛ لتمسكه بالسنة، صار هو الجماعة، وهو واحد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتبع سواها ولّاه الله ما تولي، وأصلاه جهنّم، وساءت مصيرًا)**، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

فمن خالف السنة والجماعة فهو متوعَّد بذلك، ومن صبر على طريق أهل السنة والجماعة فإنه ينجو معهم؛ ولذلك يُسَمَّوْنَ بالفرقة الناجية، الفِرَق

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٧)، ومسلم (١٢٧٢) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «طَافَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ عَلَى بَعِيرٍ، يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِحْجَنٍ».

كلها في النار إلا واحدة نجت من النار، هذه الواحدة هي من كان على مثل عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، هذه هي الفرقة الناجية، وما عداها فهم في النار، متوعَّدون بالنار على حسَب ضلالاتهم.

والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عُدُولَها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة، وعُدُولَها عن دوائها النافع إلى دائها الضار، فهنا أربعة أمور: غذاء نافع، ودواء شافٍ، وغذاء ضارٌّ، وداءٌ مهلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عُدُولَها عن الأغذية النافعة الموافقة لها إلى الأغذية الضارة**)، ما زال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع القلوب؛ لأن القلوب هي ملوك الأجسام، إذا صلحت القلوب صلحت الأجسام، وإذا فسدت القلوب فسدت الأجسام.

وليس المراد بالقلب مجرد قطعة اللحم التي تضخ الدم بالجسم، وإنما المراد بالقلبِ القلبُ الذي يتفكر ويتأثر، ويسمع الآيات والأحاديث، هذا هو القلب.

وإلا فالكفار من أقوى الناس قلوبًا، أي: عضلات، قلوبهم قوية، ولكن قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩]. أضل من الأنعام. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، فهم لهم قلوب، وقلوبهم مقصور تفكيرُها على الحياة الدنيا، ولا تفكر في الآخرة؛ ولذلك برزوا في الصناعات والاختراعات والعلوم الدنيوية، ولكنهم أجهل الناس في علوم الآخرة وعلوم السعادة وعلوم الخير.

لهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. البصائر، تعمى البصائر التي في القلوب.

قال تعالى في القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

هل أحد من بني آدم ليس له قلب؟ لا، القلب -المضغة، اللحمة- كل الناس لهم قلوبهم.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب حي يعقل ويفكر في الآخرة، والنافع والضار، هذا هو القلب؛ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

فالقرآن يحيي القلوب المريضة والقلوب الميتة، والمواعظ والتذكيرات تنبهها.

﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، أي: حاضر، قلبه حاضر لسماع القرآن وتلاوة القرآن.

فالقلب يحيا بالطاعات وبذكر الله؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

فهو يحيا بذكر الله، ويموت إذا لم يسمع ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، إذا لم يسمع الذكر وإنما يسمع الملاهي والمعازف والمزامير والأغاني يموت مع هذه الأشياء، فإذا سمع القرآن والتذكير والمواعظ فإنه يحيى بإذن الله.

كذلك القلب يحيى بأكل الحلال والغذاء الحلال الطيب، وعلى العكس؛ يموت مع أكل الحرام والتغذي بالحرام.

فيجب على المسلم أن يعتني بغذائه وما يُدخله في جوفه، عليه أن يعتني بذلك؛ لأنه يتغذى منه قلبه وتحيا به بصيرته، وأما الحرام فإنه يطمس القلوب ويعمي البصائر.

فالمسلم يجب عليه أن يعتني بقلبه، لا يعتني بقلبه بالأدوية الطبية، إنما يعتني بقلبه بالأدوية الإلهية، هذا هو المطلوب، وإلا فماذا يستفيد الإنسان إذا كان قلبه ميتًا؟! ينقل قلبًا ميتًا، ماذا يستفيد من حياته؟ لا يستفيد من حياته إلا الذنوب والمعاصي والآثام؛ فعلى المسلم أن يعتني بقلبه.

والحواس من السمع والبصر هذه منافذ للقلب؛ فلا ينفذ من سمعه إلى قلبه إلا شيء طيب من الكلام، ولا ينفذ إليه كلام خبيث أو كلام باطل.

ولا ينظر ببصره إلا إلى ما فيه فائدة لدينه ودنياه، ولا ينظر إلى المحرمات، وإلى العاريات والمتفسخات، لا ينظر إلى هذه الأشياء؛ لأنها تؤثِّر في قلبه، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس.

فالإنسان يعتني بسمعه وببصره، وبمأكله ومشربه، فيغذي قلبه بالغذاء الحلال من الطعام والشراب، ومن الذكر وتلاوة القرآن وسماع القرآن، يعتني بقلبه؛ لأن هذه الأشياء التي يراها أو يسمعها هذه تؤثر على قلبه إما خيرًا وإما شرًّا، لا يتساهل الإنسان في هذه الأمور.

فالقلب الصحيح: يُؤثِرُ النافعَ الشافي على الضارِّ المؤذي، والقلب المريض بضدِّ ذلك.

وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية: دواء القرآن، وكلٌّ منهما فيه الغذاء والدواء.

ومن علامات صحته أيضًا أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة، ويحلَّ فيها، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبًا، يأخذ منها حاجته، ويعود إلى وطنه، كما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن عمر: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ»(١).

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ؟(٢)

الشَّرح

قوله رَحِمَهُاللَّهُ: (فالقلب الصحيح: يُؤثِرُ النافعَ الشافي على الضارِّ المؤذي)،

(١) أخرجه بتمامه الترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤) من حديث ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.
وأخرجه بدون آخره البخاري في صحيحه (٦٤١٦) عن ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، قال: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».
(٢) البيتان من إنشاد المؤلف رَحِمَهُاللَّهُ، وقد ذكرهما في غير كتاب من كتبه؛ من ذلك: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص١١، ٢٨٤)، وطريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٥١).

إذا كان القلب صحيحًا وحيًّا فإنه يؤثر الطيب النافع الشافي، وإذا كان القلب ميتًا أو مريضًا فإنه يؤثر العكس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأنفع الأغذية: غذاء الإيمان)**، أنفع الأغذية: غذاء الإيمان، الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي ينفع القلب.

والكفر يعمي القلب والذنوب والمعاصي تعمي القلب، مؤثرات تؤثر على قلبك، لا تؤثر على جسمك، وإنما تؤثر على مركز الجسم وهو القلب وإذا فسد القلب فسد الجسم، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأنفع الأدوية: دواء القرآن)**، أنفع الأدوية: دواء القرآن، الله جعل القرآن شفاء ورحمة، شفاء للقلوب، وشفاء- أيضًا- للأبدان وشفاء من كل داء، من أدواء الشكوك والأوهام والوساوس، وأدواء الأبدان للأمراض الحسية.

فالقرآن شفاء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

أنت إن تنادي الإنسان وهو بعيد لا يسمع، ولا سيما إذا كان البعيد هذا معرضًا عنك فإنه لا يسمع، لا يسمع ما تقول ولا ينتبه لما تقول، فالقرآن ينادي القلوب المقبلة، ولا تنتفع منه القلوب المعرضة الملتفتة إلى غيره.

والقرآن نعمة الله على أهل الأرض وهي نعمة باقية ومستمرة لمن يريد أن ينتفع بها، من رحمته - سبحانه- أن جعل هذا القرآن باقيًا معنا نسمعه ونقرأه ونتدبره.

معجزات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في وقتهم وتنتهي، لكن معجزة القرآن باقية إلى أن يرفع في آخر الزمان، يرفع من الصدور ومن المصاحف ولا يبقى له بقية، إذا أراد الله نهاية الدنيا يرفع القرآن(١)؛ ولهذا في الأثر: «مِنْهُ بَدَأَ» يعني: من الله. «وَإِلَيْهِ يَعُودُ»(٢)، أي: في آخر الزمان.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩) عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فَنَحْنُ نَقُولُهَا». فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَهُمْ لَا يَدْرُونَ مَا صَلَاةٌ، وَلَا صِيَامٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلَاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ، فَقَالَ: يَا صِلَةُ، تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ، ثَلَاثًا».

(٢) أخرجه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٣١٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في منهاج السنة النبوية (٨/ ١٥٠): «هذا القول صحيح متواتر عن السلف أنهم قالوا ذلك، لكن رواية هذا اللفظ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذب».

فما دام هذا القرآن موجودًا فالدواء موجود، وبإمكان كل عاقل أن يرجع إلى هذا الدواء، وإذا رُفِعَ القرآن ماذا يبقى؟ لا يبقى شيء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلٌّ منهما فيه الغذاء والدواء)**، كل من الإيمان والقرآن غذاء ودواء في نفس الوقت، غذاء للقلوب وهو أيضًا دواء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لعبد الله بن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور»)**، وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عمر، وهي وصية لكل الأمة.

يقول: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ**»: معروف أن الغريب في غير بلده لا ينشرح صدره، بل دائمًا يتذكر وطنه وقومه وأهله ويود الرجوع إليهم.

«**أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»: أي: مسافر، المسافر لا يطمئن في البلد غير بلده، بل يأخذ حاجته ويذهب في طريقه إلى بلده، فالإنسان متعلق قلبه بوطنه دائمًا وأبدًا.

وَكَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

حتى الإبل، الإبل إذا ذهبوا بها إلى غير مرباها وغير منشأها إذا انطلقت ذهبت إلى منشأها ومرباها، إذا ضاع البعير يجدونه، يذهبون يبحثون عنه، ويجدونه في موطنه الذي نشا فيه، غريزة جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالإنسان ليست الدنيا موطنًا له، موطنه في الآخرة: إما في الجنة وإما في النار، هذا موطنه، وإنما مر على الدنيا ليأخذ منها الاستعداد فقط والزاد، وإلا فهو يسير إلى الآخرة عابر، «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**».

قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «فإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»(١).

يعني اعتبر الفرصة التي أدركتها ولا تنظر إلى المستقبل؛ لأنك ربما لا تدركه، انتهز الفرصة في وقتك الحاضر، وصية عظيمة «**وَعُدَّ نَفْسَكَ مَعَ المَوْتَى**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا — مَنَازِلُكَ الأولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ

وَلكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تُرَى — نَعُودُ إلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ؟)

هذه من قصيدة ابن القيم الميمية المشهورة، ومنها هذان البيتان.

فهيا إلى جنات عدن، هيا، استعد إلى جنات عدن، عدن هو الإقامة، جنات إقامة.

فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الأولَى: حينما اسكنها آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة:٣٥].

لكن الشيطان وسوس له وأخرجه من الجنة، وأغراه بالأكل من الشجرة التي نهي عنها.

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١]. انظر! عصاه فغوى.

فسبب الغواية هي المعصية وسبب الهداية هي الطاعة؛ ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢١، ١٢٢].

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٢٢).

فكل منهما عصى، إبليس عصى وآدم عصى، ولكن إبليس أبى أن يتوب ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

ونسب هذا إلى الله، قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر:٣٩].

لم يقل: غويت، قال: أغويتني، أنت الذي أغويتني، جبري، هذا مذهب الجبرية ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾: ولم ينسب الغواية إليه.

أما آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فإنه اعترف: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

فتاب الله عليه؛ لأنه تاب، لما تاب تاب الله عليه، أما إبليس لما أنه أبى أن يتوب واحتج بالقدر؛ ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر:٣٩] لعنه الله وطرده من رحمته، هذا الفرق بين من تاب ومن لم يتُب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(مَنَازِلُكَ الأولَى وَفِيهَا المُخَيَّمُ)**، منازلك الأولى التي أخرجك منها عدوك: إبليس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَلكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ)**، سبي العدو: يعني الشيطان هو الذي سبانا وأخرجنا بسببه من أهل الجنة، ولكن المؤمن سيعود إليها، وأما الكافر فإنه يكون مع إبليس، والمؤمن يكون مع أبيه آدم في الجنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَهَلْ تُرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ؟)**، فَهَلْ تُرَى: يعني هل تظن أننا نعود إلى أوطاننا -وهي الجنة-؟

وَنُسَلَّمُ؟: يسلمنا العدو؟ هذا ما نرجوه ونأمله، لكن هذا يحتاج إلى عمل، يحتاج إلى عمل صالح، ليس بالتمني إنما له سبب، كل شيء له سبب.

الأشياء بأسبابها فالجنة لها أسباب والنار لها أسباب هي الأعمال، الأعمال الصالحة سبب لدخول جنة، والأعمال الكفرية والسيئة سبب لدخول النار؛ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. كل يجزى بعمله.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الدنيا قد ترحّلت مدبرةً، وإن الآخرة قد ترحّلت مقبلةً، ولكلٍ منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمل»(١).

وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة، وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتلَّ آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الدنيا قد ترحّلت مدبرةً، وإن الآخرة قد ترحّلت مقبلةً، ولكلٍ منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا»)، هذا كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول: أن الآخرة قد أقبلت، لأنها لابد حاصلة، لابد أن تقدم علينا الآخرة بعد ذهاب الدنيا، قيام الساعة، لابد هي مقبلة.

فالدنيا بالعكس، الآخرة مقبلة وقادمة ولا محالة، وأما الدنيا فهي مدبرة، هل تلحق شيء مدبر وتترك الشيء مقبل عليك؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٩) معلقًا مجزومًا به، ووصله ابن المبارك في الزهد (١/ ٨٦)، والمعافى بن عمران المَوْصِلي في (ص٣٠٤)، ووكيع في الزهد (ص٤٣٩ - ٤٤١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١٠٠)، وأحمد بن حنبل في الزهد (ص١٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦).

ولهذا قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا».

فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ: اختر لنفسك، تريد الآخرة اعمل لها، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

وأما من يريد العاجلة والدنيا فهو تحت المشيئة إن شاء الله أعطاه منها ولكنه يحرمه من الآخرة، وإن شاء لم يعطه شيئًا وخسر الدنيا والآخرة؛ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨].

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾: علقه بالمشيئة، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

وأما الأول: ﴿جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨]. نسأل الله العافية.

ولهذا قال أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فكونوا من أبناء الآخرة».

لكل منهما بنون، الآخرة لها بنون، والدنيا لها بنون، «فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن اليوم عمل ولا حساب)**، فإن اليوم عمل ولا جساب، الدنيا عمل فقط، اعمل، والحساب في الآخرة، الآخرة حساب بلا عمل، لا تتمكن من العمل في الآخرة تقول: الآن أريد أتوب، الآن أريد أصلي، الآن أريد أصوم.

لا، فات الأوان ليس عندك إلا الحساب في الآخرة والجزاء، وأما الدنيا فهي عمل بلا حساب؛ لأن الحساب وقته في الآخرة والدنيا وقتها وقت العمل، تنبه لهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلما صح القلب من مرضه)**، كلما صح القلب من مرضه الذي هو مرض الشبهات والشهوات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة)**، ترحل إلى الآخرة وإن كان في الدنيا، فتجده متعلقًا بالآخرة، لا يفكر إلا في الآخرة، يعمل لها بالساعات والدقائق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلما مرض القلب واعتلَّ آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها)**، وهي ليست بوطن، إنما هي دار فانية زائلة، فيفلس من الآخرة، ولا تبقى له الدنيا، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يَضرِب على صاحبه، حتى يُنيب إلى الله ويُخْبِت إليه، ويتعلق به تعلُّق المحب المضطر إلى محبوبه، الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأُنس به؛ فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف.

فَذِكْرُه: قُوتُه وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه: حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه: داؤه، والرجوع إليه: دواؤه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحة القلب: أنه لا يزال يَضرِب على صاحبه، حتى يُنيب إلى الله ويُخْبِت إليه، ويتعلق به تعلُّق المحب المضطر إلى محبوبه)**، من علامات صحة القلب: أنه دائمًا يحث صاحبه على العمل الصالح ويذكره بالله، يحن إلى الآخرة، هذه علامة صحته، ومن علامة مرضه أنه ينسى الآخرة، وإنما همه الدنيا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوي، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف)**، يعني يتعلق قلبه بالله دائمًا وأبدًا، يتعلق قلبه بالله فيعمل كل ما يقربه إلى الله إلى أن يلقى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لقاء الحبيب بمحبوبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فَذِكْرُه: قُوتُه وغذاؤه)**، ذكره لله قوته وغذاؤه، لا بالطعام والشراب وإنما بذكر الله، يعيش على ذكر الله ويتحرك بذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أتاه وهو جالس في المسجد فلم يلتفت إليه، وبقي مدة لا يلتفت إليه، فلما فرغ من ورده التفت فإذا هو بابن القيم جالس، قال: من كم أنت جالس؟ فأخبره أنه من مدة وهو جالس، قال: أنا أتغدى، هذا غدائي، لو لم أتغد لم أقوَ على المشي ذلك اليوم[1].

فإذا حصل له ربُّه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدتْ تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدُّها شيء سوى الله تعالى أبدًا.

وفيهْ شعثٌ لا يَلُمُّه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده.

فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذٍ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، وتصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِقَ الخَلْقُ، ولأجله خُلِقت الجنة والنار، وله أُرْسِلت الرسل وأُنزلت الكتب، ولو لم يكن له جزاءً إلا نفسُ وجوده لكفى به جزاءً، وكفى بفوته حسرةً وعقوبةً، كما قيل:

وَمَنْ صَدَّ عَنَّا حَظُّهُ البُعْدُ والقِلَى ... وَمَــنْ فَاتَـنَـا يَـكْـفِـيـهِ أَنِّــي أَفُوتُهُ

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو لم يكن له جزاءً إلا نفسُ وجوده لكفى به جزاءً، وكفى بفوته حسرةً وعقوبةً)**، فالمؤمن صاحب القلب الحي وإن كان يعيش في هذه الدنيا وبين أهلها فإنه في الواقع يعيش في الآخرة، دائمًا يتصورها، ودائمًا يفكر فيها، ودائمًا يعمل لها، فهو يعيش في الآخرة، قلبه في الآخرة، وأما بدنه فهو في الدنيا، هذا هو صاحب القلب الحي.

قال بعض العارفين: «مسـاكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيـب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والإنس به، والشـوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته»(١).

وقال آخر: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيِّب»(٢).

وقـال آخـر: «والله مـا طابـت الدنيا إلا بمحبتـه وطاعتـه، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته»(٣).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال بعض العارفين: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والإنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته»)**، أهل الدنيا مساكين

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٦٧)، عن الحسين المروزي، قال: (سَمِعْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ، يَقُولُ: «أَهْلُ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَتَطَعَّمُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا. قِيلَ لَهُ: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ»).

(٢) أورده منسوبًا لبعض الشيوخ: شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة في مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٧) و(٢٨/ ٣١). وذكره ابن القيم في عدة تصانيف له؛ منها: الجواب الكافي (ص: ١٢١، ٢٣٣)، والوابل الصيب (ص: ٤٨)، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ١٦٦)، ومدارج السالكين (١/ ٤٥٢)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٣٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٧٢) عن ذي النون المصري، قال: «مَا طَابَتِ الدُّنْيَا إِلَّا بِذِكْرِهِ، وَلَا طَابَتِ الْآخِرَةُ إِلَّا بِعَفْوِهِ، وَلَا طَابَتِ الْجِنَانُ إِلَّا بِرُؤْيَتِهِ».

خرجوا منها ولم يذوقوا أحلى ما فيها، فأحلى ما فيها ذكر الله عَزَّوَجَلَّ والأنس به، التلذذ بطاعته هذا هو أحلا ما في الدنيا.

ليس أحلى ما في الدنيا القصور والخدم والأموال والأرصدة والحدائق، لا، ليس هذا أحلى ما في الدنيا، ربما أن الإنسان يملك الملايين والقصور المشيدة وعنده الأطعمة اللذيذة، ولكنه في هم وغم يعيش قلقًا -والعياذ بالله- في سجن من همومه وأحزانه.

أما الفقير المنيب إلى الله فهو في جنة ولو ليس عنده شيء؛ لأنه يعيش بالله عَزَّوَجَلَّ ومتعلق بحب الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا يقول بعض الصالحين: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»(١).

الملوك وأبناء الملوك يبحثون عن الرفاهية، ولكنهم لم يذوقوا الرفاهية الصحيحة وهي ذكر الله والتلذذ بذكره وطاعته والعمل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال آخر: «إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيِّب»)**، تمر بي أوقات من السرور والفرح بذكر الله والتلذذ بطاعة الله وبكلام الله، تمر به أوقات يقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا السرور إنهم لفي عيش طيب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال آخر: «والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته، ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته»)**، ما طابت الدنيا إلا بذكر الله وطاعته، وما

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٧٠) من قول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

طابت الجنة إلا برؤية الله، فإن أهل الجنة ألذ ما يجدونه هو رؤية الله حين يتجلى لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويرونه عِيانًا بأبصارهم، فينسون نعيم الجنة إذا رأوا ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ(١).

(١) تقدم تخريجه (ص٢٥٢).

وقال أبو الحسين الورَّاق: «حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لا غير»[١].

ولهذا كان الفَوْتُ عند العارفين بالله أشدَّ عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟!

وقال آخر: «من قرَّت عينه بالله تعالى قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات»[٢].

وقال يحيى بن معاذ: «من سرَّ بخدمة الله سرَّت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرَّت عينه بالله قرَّتْ عيون كل أحد بالنظر إليه»[٣].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا كان الفَوْتُ عند العارفين بالله أشدَّ عليهم من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟!)**، الفوت العظيم: من فاته محبة الله والتعلق به وبطاعته، هذا هو الذي فاتت عليه السعادة والنجاة من النار والفوز بالجنة، هذا هو الفوت.

---

(١) أورده أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (ص٢٣٠).

(٢) أورده الفيروزابادي في بصائر ذوي التمييز (٤/ ٥٣). وروى ابن المبارك في الزهد (١/ ١٣٤) عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «من لم يتعز بعزاء الله؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات». وروى الإمام أحمد في الزهد (ص: ١٨٤)، ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٩٣) عن عامر بن عبد قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه كان يقول: «من لم يتعز بالقرآن عن الدنيا؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات».

(٣) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية (ص١٠٢).

ليس الفوت إذا هلك لك مال أو مات لك أولاد يسمى هذا فوت، لا ليس بفوت هذا، الفوت أن تفوتك الآخرة، أما لو فاتت الدنيا بحذافيرها وبقيت لك الآخرة فإنك رابح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال آخر: «من قرَّت عينه بالله تعالى قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات»)**، قرار العين: أن ينقطع نظرها إلى غير محبوبها، تقر عينه؛ فلا يلتفت إلى غير محبوبه، وأعلى المحبوبين هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تقر الأعين به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلا تلتفت إلى غيره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال يحيى بن معاذ: «من سرَّ بخدمة الله سرَّت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرَّت عينه بالله قرَّتْ عيون كل أحد بالنظر إليه»)**، فهذا الذي قرت عينه بالله تقر به عيون المؤمنين ويفرحون به.

وأما من قرت عينه بالدنيا فإنه لا يكون له أليف ولا محب وإن تظاهروا بحبه فإنما هو تملق.

ومن علامات صحة القلب: ألا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من خدمته، ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يَدُلُّهُ عليه، ويُذَكِّره به، ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صحته: أنه إذا فاته وِرْده وجد لفواته ألمًا أعظم من تألُّم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيها راحته ونعيمه، وقُرَّةَ عينه وسرورَ قلبه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن علامات صحة القلب: ألا يفتر عن ذكر ربه)**، من علامات صحة القلب: أنه دائمًا يذكر الله؛ لأن الحبيب يذكر محبوبه دائمًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا يسأم من خدمته)**، خدمته يعني عبادته، الخدمة يعني العبادة، على ألسنة العباد يسمونها خدمة وهي عبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يَدُلُّهُ عليه)**، على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولا يأنس بغيره؛ إلا بمن يَدُلُّهُ عليه، ويُذَكِّره به، ويذاكره بهذا الأمر)**، لا يأنس إلا مع من يذكره بالله، وأما من يذكره بالدنيا وأصحاب الدنيا فهذا لا يأنس به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحته: أنه إذا فاته وِرْده وجد لفواته ألمًا أعظم من تألمٌ الحريص بفوات ماله وفقده)**، إذا فاته ورده من الليل وقيام الليل تحسر على فواته؛ ولهذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا فاته ورده من الليل يقضيه في النهار ويشفعه، فكان يقضي قيام الليل في النهار، ولكنه يجعله شفعًا(١).

يعني هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم بإحدى عشرة ركعةً، فإذا فات عليه ورده من الليل لشاغل شغله فإنه يقضيه في النهار ويشفعه؛ يجعله اثنتي عشرة ركعةً، ولا يترك ورده، لا يترك ورده وإنما يداوم عليه.

حتى في السفر؛ كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتهجد على راحلته أينما توجهت به ولا يترك ورده لا في الحضر ولا في السفر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحته: أنه يشتاق إلى الخدمة، كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب)**، الخدمة- كما ذكرت - يريد بها العبادة لكن هذه عبارة العباد والصوفية يقولون الخدمة، وإلا هي العبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة)**، كل هذه الأمور من علامات صحة القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحته: أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همُّه وغمُّه بالدنيا)**، إذا دخل في الصلاة فإنه تنقطع عنه الهموم والأشغال والوساوس، ويتلذذ بوقوفه بين يدي الله ومناجاته له، يتلذذ بهذا، فيكون كمن دخل في منزل حصين تحصن به من عدوه.

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٧٤٦) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً».

ولهذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا﴾: يعني الصلاة.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦]. فالخاشعون في الصلاة تكون الصلاة خفيفة عليهم يتلذذون بها.

أما غير الخاشع فإنها تكون سجنًا عليه؛ يريد الخروج منها كالطائر في القفص يريد الخروج، ولهذا تجده يتحرك في الصلاة، تجده يسابق الإمام، تجده يخفف الصلاة وينقرها؛ لأنه لا يجد لها طعم ولا لذة فهي مثل السجن.

أما الخاشع فإنها تكون لذته ولا يحب الخروج منها، ولهذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وقال: «**يَا بِلَالُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا**»(١).

«**أَرِحْنَا بِهَا**»: يرتاح من هموم الدنيا والأشغال، يدخل على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ «**أَرِحْنَا بِهَا**».

ولم يقل: أرحنا منها، الكسلان يقول أرحنا منها؛ لأنه لا يجد فيها لذة، أما المتقي فإنه يقول: أرحنا بها من هموم الدنيا ووساوس الدنيا.

ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢٨).

فالصلاة فيها أمران:

أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني وهو أعظم: ذكر الله، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

لأن المصلي يذكر الله، فإذا ذكر الله اطمئن قلبه وتلذذ بمناجاته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ووجد فيها راحته ونعيمه، وقُرَّةَ عينه وسرورَ قلبه)**، هذه الصلاة التي هي رخيصة عند كثير من الناس، ويقولون: أن هذه من العادات والتقاليد، يسمونها عادات وتقاليد؛ لأنهم لا يجدون لها طعم ولا لذة ولا يرتاحون فيها، وإنما يقولون: هذه تقاليد اجتماعية وما أشبه ذلك من الكلام، هذا مقام الصلاة عندهم.

خلاف المتقين فإن الصلاة عندهم صلة بالله عَزَّوَجَلَّ، صلة بالله عَزَّوَجَلَّ وأنس بالله، مناجاة لله، ألست تناجيه بقراءة كلامه، قراءة الفاتحة وما تيسر بعدها من القرآن؟ تناجي الله بكلامه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ومن علامات صحته: أن يكون همُّه واحدًا، وأن يكون في الله.

ومن علامات صحته: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شُحًّا بماله.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنّة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

فهذه ستةُ مشاهد، لا يشهدها إلا القلب الحيُّ السليم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحته: أن يكون همُّه واحدًا، وأن يكون في الله)**، ان يكون همه واحدًا هو الله جَلَّوَعَلَا؛ لا يهتم إلا بطاعته وعبادته وما يقرب إليه.

فلا يكون مشغولًا بهموم كثيرة مثل من فاته ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فإنه تكثر عليه الهموم والوساوس والأحزان.

أما ذكر الله فإنه يريح القلوب من الوساوس والهموم والأحزان؛ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾ [الرعد:٢٨، ٢٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومن علامات صحته: أن يكون أشحَّ بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شُحًّا بماله)**، من علامات صحة القلب: أنه يحفظ وقته، أن صاحبه يحفظ وقته؛ فلا يضيع منه شيئًا في اللهو واللعب والغفلة؛ لأنه خسارة عليه يوم القيامة، هذا الوقت الذي ضيعته تخسره يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

فهذا الوقت الذي يضيع عليك هذا خسارة عليك لا تعوض، ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر:١]. يعني الوقت، الوقت له قيمة.

والأشقياء يطول عليهم الوقت يقولون: دعنا نقتل الوقت، دعنا نرفه أنفسنا ونقتل الوقت بدل أننا نجلس بدون عمل، يقتلون الوقت كأنه عدو لهم، مع أنه هو رأس مالهم إذا حفظوه، هو رأس مالهم من هذه الدنيا إذا حفظوه وهم يقتلونه، يقتلونه بأي شيء؟ بالضحك والسفاهة أو بالباطل أو بالشهوات المحرمة، نعم قتلوه، صحيح أنهم قتلوه، أما أهل السعادة فإنهم أحيوه ولم يقتلوه، أحيوه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل، فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك مِنّة الله عليه فيه)**، ليست العبرة بكثرة العمل، وإنما العبرة بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

فربما يكون القليل من العمل مع الإخلاص كثيرًا عند الله سبحانه يسعد به صاحبه، وربما يكون العمل كثيرًا لكنه لا فائدة منه لأنه فقد الإخلاص.

فالعمل لابد له من شرطين، وإلا لا يكون عملًا:

الشرط الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، إخلاص النية لله ليس فيه رياء ولا سمعة ولا شرك.

والشرط الثاني: المتابعة للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ وأن يكون هذا العمل على السنة لا على البدعة، فإن العمل المبتدع مردود على صاحبه لا يقبل، تعب على صاحبه مهما كلف نفسه فيه.

فتنبهوا لهذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة، ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾: هذا هو الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وهذا معنى الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله معناها إخلاص العمل لله، وشهادة أن محمد رسول الله متابعته والعمل بسنته.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (**فيحرص على الإخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والإحسان**)، والإحسان: هو الإتقان، إتقان العبادة هذا هو الإحسان، إحسان الشيء إتقانه.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ويشهد مع ذلك مِنّة الله عليه فيه**)، أيضًا لا يعجب بعمله، بل يعتبر هذا منة من الله عليه، لا يعجب بعمله وإنما يشكر الله ويعتبره منة من الله عليه.

فقوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (**ومن علامات صحته: أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل**)، من علامات صحة القلب: أن يكون اهتمامه

بقبـول العمـل الـذي عمله أكثـر من اهتمامـه بالعمـل؛ لأن العـبرة بالمقبول لا بنوع العمل، العبرة بالمقبول.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. ومن يضمن لنفسه أنه من المتقين؟!!

والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾: يعني من الأعمال الصالحة.
﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: خائفة.
﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠].

فهـم يخافـون أن تـرد عليهـم أعمالهم، أعظـم مما نخاف مـن أن نعذب بسـيئاتنا، وذلـك لمعرفتهم بـالله وخوفهم مـن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهـذا علامة صحة القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذه ستةُ مشاهد، لا يشهدها إلا القلب الحيُّ السليم)**، يكون مخلصًا لله بالعمل: لا يكون فيه رياء ولا سمعة.

ويكون محسنًا له: أي متقنًا له لا يكون فيه نقص أو قصور.

ويكون خائفًا أن يرد عليه عمله، ويكون أيضًا مستقلًا لعمله لا يتكثر بآراء الناس أنه فعل شيئًا كثيرًا، بل يرى أن عمله قليل، مهما كان فهو قليل، فهذه أمور تدل على صحة القلب وحياة القلب.

وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همُّه كله في الله، وحبُّه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابِّه، والخلوة به آثَرُ عنده من الخلطة؛ إلا حيث تكون الخلطة أحبَّ إليه وأرضى له، قُرَّةُ عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه.

فهو كما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨].

فهو يُردِّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه؛ فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية.

فتصير العبودية صفة وذوقًا لا تكلفًا، فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المتيَّم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وبالجملة فالقلب الصحيح: هو الذي همُّه كله في الله، وحبُّه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له)، وهذا كما في قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

﴿سَلِيمٍ﴾: يعني لله، يكون القلب سليمًا لله عَزَّوَجَلَّ ليس لأحد فيه شركة بوجه من الوجوه؛ هذا هو القلب السليم الذي ينجو يوم القيامة صاحبه من عذاب الله.

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]. فيعتبر جميع أعماله وتحركاته وسكناته وأخذه وعطائه لله عَزَّوَجَلَّ.

والله جَلَّوَعَلَا قال لنبيه محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]. هذا هو المخلص لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث)**، وذكر الله أشهى عليه من كل كلام، من كل حديث من أحاديث الناس.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابِّه)**، وأفكار هذا القلب تحوم على مراض الله ومحابه، مما يحبه الله، فتفكيره دائمًا في العمل الذي يحبه الله فيأتيه ويعمله.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(والخلوة به آثرُ عنده من الخلطة)**، الخلوة بالله وبذكر الله وعبادته أحب إليه من الاختلاط بالناس، فهو يأنس بالله أكثر مما يأنس بالجلساء والناس، يأنس بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: **(إلا حيث تكون الخلطة أحبَّ إليه وأرضى له)**، إلا إذا كانت الخلطة بالناس مما يحبها الله.

كأن يختلط بهم بدعوتهم إلى الله، لهدايتهم، تذكيرهم، أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، هذه خلطة يحبها الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها إصلاحية، فيها إصلاح للناس.

وهذا هو التفصيل في الخلطة أيهما أفضل: الانعزال عن الناس والاشتغال بعبادة الناس، أو الاختلاط بالناس؟

يفصل في هذا؛ فيقال: إذا كان يترتب على الاختلاط بالناس مصالح دينية فالخلطة خير من العزلة، وإذا كان الاختلاط بالناس فيه شر وفيه فتنة فالاعتزال عنهم أحسن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قُرَّةُ عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه)**، قرة عينه بالله عَزَّوَجَلَّ، وطمأنينته وسكونه بالله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو كما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨])**، هذا في الموت.

أنه يقال لها ذلك عند الموت، إذا كانت نفسًا تقية صالحة مؤمنة تبشرها الملائكة وتقول: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]. وهذه هي التي تخاطب بهذا الخطاب عند الموت.

وكذلك الإنسان يخاطب نفسه بذلك إذا انطلقت إلى الغفلة وإلى الانشغال بالدنيا والانشغال بالناس قال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨]. أي ارجعي إلى ذكر الله وإلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨])**، الرجوع إلى الله: يشمل الرجوع بالموت ويشمل الرجوع بالطاعة، الرجوع إلى الطاعة والذكر بدل الغفلة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهو يُردِّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه)**، من قال لنفسه في الدنيا: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر:٢٨]: أي إلى طاعته وإلى ذكره، وإلى محبته فإنه يخاطب بذلك عند الموت.

فيقال له، يقال لنفسه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر:٢٧].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية)**، صبغة العبودية.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة:١٣٨]. صبغة الدين والعبادة تميز الإنسان عن غيره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتصير العبودية صفة وذوقًا لا تكلفًا)**، هذا معنى الصبغة.

معنى الصبغة: الصفة، الصفة التي تتميز بها عن غيرها، فنفس المؤمن وتصرفات المؤمن تتميز عن غيره من الغافلين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المتيَّم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله)**، فالذي يقل حبه لله وتعلقه بالله تكون العبادة عليه ثقيلة، ولو كانت يسيرة تكون ثقيلة.

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾: يعني: الصلاة، ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥]. تكون ثقيلة العبادة عليه، أما المنيب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإن العبادة تكون خفيفة عليه، لذيذة له، لا يحب أن يفارقها.

ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبارته المشهورة: إن لله جنةً في الدنيا من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة[1].

---

(١) ذكر ابن القيم في الوابل الصيب (ص: ٤٨) أنه سمِعه من شيخه، ثم قال: (فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوْحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها).

جنة الله التي في الدنيا: هي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وعبادة الله والاشتغال بالعلم النافع، هذه جنة الله في الدنيا.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنا جنتي في صدري. إذا سجنوه بالسجن قال: ما يفعل بي أعدائي أنا جنتي في صدري. فهو في جنة في السجن أو خارج السجن؛ لأنه آنس بالله عَزَّوَجَلَّ؛ يذكر الله ويتلو كتابه.

فكلما عَرَضَ له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقًا ينطق لبيْكَ وسَعْديْك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليّ المِنّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

وإذا أصابه قَدَر وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تُصبِّرني، ولا قوة لي إن لم تحمِلني وتُقوِّني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصرافَ لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك، فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكلِّيَّته عليه.

فإن أصابه بما يكره قال: رحمة أُهدِيَتْ إليّ، ودواء نافع من طبيب مشفق، وإن صُرِفَ عنه ما يحب قال: شرٌّ صُرِف عني:

وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خِرْتَ لِي فِي انْصِرَافِهِ ... وَمَا زِلْتَ بِي مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَمَا(١)

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكلما عَرَضَ له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقًا ينطق لبيْكَ وسَعْديْك، إني سامع مطيع ممتثل)، وإن لم يقل بلسانه فإن قلبه يقول: سمعنا وأطعنا، إذا سمع الله يأمر بشيء أو ينهى عن شيء فإن قلبه قبل لسانه يقول: سمعنا وأطعنا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإذا أصابه قَدَر)، وإذا أصابه قدر من الله عَزَّوَجَلَّ يعني: مصيبة، أصابه مصيبة، والنفوس تكره المصائب ولكن القلب المنيب لايكره

---

(١) البيت للنوري في طبقات الصوفية للسلمي (ص١٣٩).

المصائب؛ لأنه يعلم أنها من الله فيرضى ويسلم؛ فتكون المصيبة خيرًا له تنبهه وتطهره، توقظه من الغفلة.

كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

قال بعض السلف: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله؛ فيرضى ويسلم»(١).

وهذا في القرآن كما في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦]، فيرضون بذلك، وتكون المصيبة بالنسبة لهم منحة من الله عَزَّوَجَلَّ، تكون المحنة منحة من الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وَكَمْ رُمْتُ أَمْرًا خِرْتَ لِي فِي انْصِرافِهِ وَمَا زِلْتَ بِي مِنِّي أَبَرَّ وَأَرْحَمَا)**. يعني: أنه إذا أناب إلى الله فإنه تتساوى عند الملذات والمكاره؛ لأنه يعلم أنها كلها من الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢٣)، والبخاري معلقًا- كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن- (ص٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ١١٠)، وشعب الإيمان (٧/ ١٩٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

فكل ما مسّه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

مَـا مَـسَّنِي قَـدَرٌ بِكُـرْهٍ أَوْ رِضًـا ... إِلَّا اهْـتَـدَيْـتُ بِـهِ إِلَـيْـكَ طَـرِيقَا

أَمْضِ القَضَاءَ عَلَى الرِّضَا مِنِّي بِهِ ... إِنِّـي وَجَـدْتُـكَ فِي الـبَـلَاءِ رَفِيقَا

فلله هاتيك القلوبُ وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أُودِعَتْهُ من الكنوز والذخائر! ولله طِيبُ أسرارها، ولا سيما يوم تُبْلَى السرائر!

سَيَبْدُو لَهَا طِيبٌ وَنُـورٌ وَبَهْجَةٌ ... وَحُسْنُ ثَنَـاءٍ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

تالله لقد رُفع لها عَلَمٌ عظيم فشمَّرتْ إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى؛ فلم تستجب له، واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكل ما مسّه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه)**، فهو يرضى بقضاء الله القدري ولا يجزع ولا يتسخط، وإنما يعتبر هذا أنه لابد منه، ما قُدِّرَ عليك فلابد أن يصيبك وما قُدِّرَ لك فلابد أن تصيبه، هذا قضاء الله وقدره ليس لك محيد عنه.

لكن كونك ترضى عند المصائب تؤجر على هذا، أما إذا لم ترضى وسخطت يجتمع عليك خسارتان: المصيبة، وأنك حرمت الأجر إذا سخطت، بل حصلت على العقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ﴾: الله يثني عليهم.

﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦،١٥٧]. فالمؤمن إذا أصابته ضراء صبر؛ وإذا أصابته سراء شكر.

أما الشقي فبالعكس إذا أصابته ضراء جزع وسخط؛ وإذا أصابته نعمة أشر وبطر وتكبر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولله طِيبُ أسرارها، ولا سيما يوم تُبْلَى السرائر!)**، هذا مدح لهذه القلوب، مدح لهذه القلوب.

(تبلى السرائر) يعني: تُختبر، تختبر القلوب يوم القيامة والصدور.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(تالله لقد رُفع لها عَلَمٌ عظيم فشمَّرتْ إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه)**، هذه القلوب المهتدية.

الباب الحادي عشر

في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه

هذا الباب كالأساس والأصل لما بعده من الأبواب؛ فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس، فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصبُّ، ثم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأولُ ما تنال القلب.

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبة الحاجة: «الحَمْدُ للهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[(١)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه)، علاج مرض القلب، القلب يمرض بالشهوات والشبهات والمعاصي هذه كلها مرض للقلب.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]. هذا في المنافقين.

فالقلب يمرض؛ فإن لم يعالجه صاحبه مات، يعالجه بالطاعة، وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ والتوبة، هذا علاجه، فإذا لم يعالجه تعاظم به المرض ثم يموت، ويصبح قلبه ميتًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

---

(١) هذا جزء من خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، والنسائي (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ شرح لها في جزء لطيف.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس)**، النفس الأمارة بالسوء، النفس الأمارة بالسوء تؤثر على القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد كان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يقول في خطبة الحاجة: «الحمد لله، نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»)**، الشاهد في قوله: «**نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**».

النفس فيها شر على صاحبها؛ إذا أهملها وتركها فإنها تجره إلى الهلاك؛ والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، ومن أطاع نفسه أهلكته.

ولهذا الله يحثنا على تزكية نفوسنا، وعلى الأخذ بزمامها إلى الطاعات؛ لأنها تنفر من الطاعات لكن نأخذ بزمامها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠] يعني: النفس.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٩]. زكاها بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطهرها، ﴿زَكَّىٰهَا﴾: يعني طهرها من المعاصي والسيئات بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: دس نفسه دنسها ودسها في التراب بدل أن يرفعها بالطاعة هذا خاسر.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، فالنفس تحتاج إلى انتباه من صاحبها؛ لئلا تطمح به إلى الهلاك، على الإنسان أن يهتم بنفسه.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ [النازعات:٣٧-٤٠].

انظر! ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠].

﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾: تذكر قيامه بين يدي الله، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠، ٤١].

وفي «المسند»، والترمذي من حديث حُصين بن عبيد: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: يَا حُصَيْنُ، كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟ قَالَ: سَبْعَةً؛ سِتَّةً فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. قَالَ: فَمَنِ الَّذِي تُعِدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟، قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ قَالَ: أَسْلِمْ حَتَّى أُعَلِّمَكَ كَلِمَتَيْنِ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِمَا، فَأَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ: قُلْ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَقِنِي شَرَّ نَفْسِي»(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «يا حُصين! كم تعبد اليوم إلهًا؟»)، هذا حصين أبو عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، كان مشركًا، فسأله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كم تعبد من الآلهة يا حصين؟».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (قال: سبعةً)، يعبد سبعة، سبعة آلهة بعضها في السماء وبعضها في الأرض.

وهكذا من ترك التوحيد فإنه يعبد غير الله وتتفرق به الأهواء، يعبد الشمس، يعبد القمر، يعبد الشجر، يعبد الحجر.

ولذلك المشركون لهم آلهة كثيرة؛ لما ضيعوا عبادة الله ابتلوا بعبادة غيره، وكل يعبد ما يستحسن، كل يعبد ما تستحسنه نفسه.

ولهذا قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]: كونك تعبد إلهًا واحدًا أريح لك،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، والبزار (٩/ ٥٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٧٤) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأحسن لك ترضيه ويرضى عنك، تعرف ما يرضيه، أما إذا عبدت عدة آلهة فأنت تضيع بينها؛ لا تدري من ترضي منها كل واحد له هوى.

ولهذا يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩]. هذا مثل المملوك الذي له عدة أسياد يملكونه لا يدري من يرضي منهم؛ لأنه كل واحد له رغبة.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: لا يعبد إلا إله واحد.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩]: لا يستويان أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(من حديث حُصين بن عبيد)**، والد عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: سبعةً، ستةً في الأرض وواحدًا في السماء)**، الذي في السماء: هو الله، يعني يعبد الله ويعبد معه غيره أصنامًا في الأرض، وهذا فيه إثبات العلو لله، حتى المشركين يثبتون العلو لله وهم مشركون.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: فمن الذي تُعِدُّ لرَغْبتك ورهبتك؟، قال: الذي في السماء)**، قال: الذي في السماء، وهو الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال له: قل: اللهم ألهمني رشدي، وقِني شرّ نفسي)**، «وقني شر نفسي». النفس شريرة إذا طاوعتها وأعطيتها ما تريد أهلكتك، أما إذا أخذت بزمامها وجذبتها لطاعة الله تبعتك ولو متكرهة في الأول، ثم بعد ذلك تألفها وترضى به وتطمئن إليك؛ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧]. تطمئن، لكن تحتاج إلى مراوضة من صاحبها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: أَسْلِمْ حتى أعلِّمك كلمتين ينفعك الله بهما)**، يعني بدل هذه الآلهة الكثيرة أعطيك كلمتين علاج لك من هذا، فتقتصر على الإله الذي في السماء وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأسلم، فقال له: قل: اللهم ألهمني رشدي، وقِني شرّ نفسي»)**، هؤلاء الكلمتين: « أَلْهِمْنِي رُشْدِي» يعني: يسر لي الرشد، والشرد ضد الغي، الرشد ضد الغي، « أَلْهِمْنِي رُشْدِي».

«وقني شر نفسي»: هذه الكلمة الثانية، فمن ألهم رشده وكفي شر نفسه فقد فاز ونجا.

وقد استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شرِّها عمومًا، ومن شر ما يتولد منها من الأعمال، ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات، وجمع بين الاستعاذة من شر النفس وسيئات الأعمال؛ وفيه وجهان:

أحدهما: أنه من باب إضافة النوع إلى جنسه، أي: أعوذ بك من هذا النوع من الأعمال.

والثاني: أن المراد به عقوبات الأعمال التي تسوء صاحبها.

فعلى الأول: يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها.

وعلى الثاني: يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها.

ويدخل العمل السيئ في شر النفس، فهل المعنى: ما يسوؤني من جزاء عملي، أو من عملي السيئ؟

وقد يترجَّح الأول، فإن الاستعاذة من العمل السيئ بعد وقوعه إنما هي استعاذة من جزائه وموجَبه؛ وإلا فالموجود لا يمكن رفعه بعينه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شرِّها عمومًا)، في خطبة الحاجة: «وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وجمع بين الاستعاذة من شر النفس وسيئات الأعمال)، «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فعلى الأول: يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها، وعلى الثاني: يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها)، وكلاهما صحيح.

وقد اتفق السالكون إلى الله -على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم - على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يُدخَلُ عليه سبحانه ولا يُوصل إليه إلا بعد تركها، وإماتتها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين:

قسم ظفرت به نفسه؛ فملكتْه وأهلكتْه، وصار طوعًا لها تحت أوامرها.

وقسم ظفروا بنفوسهم؛ فقهروها، فصارت طوعًا لهم، مُنقادةً لأوامرهم.

كما قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظَفِر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧ -٤١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد اتفق السالكون إلى الله -على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم - على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب)، السالكون: هم العباد يسمون السالكين إلى الله يعني: السائرين إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قسم ظفرت به نفسه؛ فملكتْه وأهلكتْه، وصار طوعًا لها تحت أوامرها، وقسم ظفروا بنفوسهم؛ فقهروها، فصارت طوعًا لهم، مُنقادةً

لأوامرهم)، فأنت بين أمرين: إما أن تنقاد لنفسك، وإما أن تنقاد نفسك لك؛ فإن انقدت لنفسك هلكت، وإن انقادت لك نجوت.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال تعالى**: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١])، لابد من أحد الأمرين، إذا برزت الجحيم لمن يرى، فمن الذي ينجو منها ومن الذي يقع فيها؟

الذي طغى وآثر الحياة الدنيا هذا مأواه الجحيم، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فهذا تكون الجنة مأواه وينجو من الجحيم.

وهذا موقف كل سيقفه يوم القيامة لا ينجو منه أحد، كلنا سنقف هذا الموقف، فلننظر الآن ما يخلصنا من هذا الموقف والمقام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.

فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب تعالى يدعو العبد إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة والى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

وقد وصف سبحانه النفسَ في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، والأمّارة بالسوء، واللوامة.

فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وهذه أوصاف لها؟ أم للعبد ثلاثة أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة؟

والأول: قول الفقهاء والمتكلمين، وجمهور أهل التفسير، وقول مُحقِّقي الصوفية.

والثاني: قول كثير من أهل التصوف.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فالنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا**)، النفس الأمارة بالسوء دائمًا تدعو إلى الطغيان، تدعو إلى المعاصي، وتدعو إلى الكسل والخمول، هذه النفس الأمَّارة بالسوء.

وإِذَا خَـلَـوْتَ بِـرِيـبَـةٍ فِي ظُلْمَةٍ وَالـنَّـفْـسُ دَاعِـيَـةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
فَاسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّـذي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي[1]

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد وصف سبحانه النفسَ في القرآن بثلاث صفات**)، أمارة بالسوء، لوامة، مطمئنة، هذه صفات النفس في القرآن.

---

(١) البيتان للقحطاني، انظر: النونية (ص٢٩، ٣٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فاختلف الناس: هل النفس واحدة، وهذه أوصاف لها؟)**، النفس واحدة وهذه أوصاف لها: تارةً تكون أمارة بالسوء، وتارة تكون لوامة، وتارة تكون مطمئنة، هذا رأي.

والرأي الثاني: أنها ثلاث أنفس للإنسان، الإنسان له ثلاث أنفس، وسيبين الشيخ أيهما أرجح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والثاني: قول كثير من أهل التصوف)**، أنها أنفس متعددة.

والتحقيق: أنه لا نزاع بين الفريقين؛ فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاثة باعتبار صفاتها، فإذا اعتُبرت بنفسها فهي واحدة، وإن اعتُبرت مع كل صفة دون الأخرى فهي متعددة، وما أظنهم يقولون: إن لكل أحد ثلاث أنفس؛ كل نفس قائمة بذاتها، مساوية للأخرى في الحد والحقيقة، وأنه إذا قُبض العبد قُبضت له ثلاثة أنفس، كل واحدة مستقلة بنفسها!

وحيث ذكر سبحانه النفس وأضافها إلى صاحبها؛ فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا في سائر الأحاديث، ولم يجيء في موضع واحد: «نفوسك» و«نفوسه»، ولا «أنفسك» و«أنفسه»؟ وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:٧] أو عند إضافتها إلى الجمع، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما أنفسنا بيد الله»، ولو كانت في الإنسان ثلاثة أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه؛ ولو في موضع واحد.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما أظنهم يقولون: إن لكل أحد ثلاث أنفس؛ كل نفس قائمة بذاتها)، ليس لأحد ثلاث أنفس، هي نفس واحدة، لكن لها ثلاث صفات: أمارة، لوامة، مطمئنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولم يجيء في موضع واحد: «نفوسك»)، لم يقل الله: نفوسكم، قال: أنفسكم، أنفسكم، فهي نفس واحدة لها ثلاث صفات، والملائكة عند الموت لا تقبض للإنسان ثلاث أنفس، إنما تقبض نفسًا واحدة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم)**، إذا أُريدَ إنسانٌ واحد فنفسه واحدة، إذا أريد عدة أشخاص يقال لهم: أنفس، بعددهم، بعدد الأشخاص، يقال: أنفسهم، أي: عدد من الناس ليس واحدًا، ما جاء في القرآن: أنفسك أبدًا، إنما ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾، ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾، وهكذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما جاءت مجموعة عند إرادة العموم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾** [التكوير:٧]**)**، عموم النفوس بالنسبة لأصحابها، فنفسي ونفسك ونفس فلان هذه أنفس، لكن بالنسبة لكل واحد هي نفس واحدة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أو عند إضافتها إلى الجمع، كقوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنما أنفسنا بيد الله»)**، لأنهم جماعة؛ كل واحد له نفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو كانت في الإنسان ثلاثة أنفس لجاءت مجموعة إذا أضيفت إليه؛ ولو في موضع واحد)**، ولم يجئ: أنفسك، أبدًا في القرآن والسنة ولا في كلام العرب.

فالنفس إذا سَكَنَتْ إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة.

وهي التي يقال لها عند الموافاة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:٢٧، ٢٨].

قال ابن عباس: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، يقول: المصدِّقة[(١)].

وقال قتادة: «هو المؤمن، اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله»[(٢)].

وقال الحسن: «المطمئنة بما قال الله، والمصدقة بما قال»[(٣)].

وقال مجاهد: «هي المُنيبة المُخْبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشًا لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه»[(٤)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالنفس إذا سَكَنَتْ إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه، فهي مطمئنة)**، النفس تكون أمارة بالسوء، هذا في أول الأمر يعني: الأصل فيها أنها أمارة بالسوء.

فإذا دخلها الإيمان ولو كان ضعيفًا صارت لوامة؛ تفعل السوء أو يفعل صاحبها السوء ثم تلومه على ما فعل، تحثه على التوبة منه.

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٣٩٣).
(٢) أخرجه الطبري (٢٤/ ٣٩٣).
(٣) أخرجه الطبري (٢٤/ ٣٩٣).
(٤) أخرجه الطبري (٢٤/ ٣٩٤).

فاللوامة أحسن من التي قبلها من الأمارة، اللوامة أحسن من الأمارة بالسوء؛ لأنها توبخ صاحبها حينما يقع منه معصية، وإن كانت هي التي سولت له في الأول، لكن تتراجع بسبب الإيمان الذي فيها وتلوم صاحبها.

فإذا وصلت إلى الدرجة العليا صارت مطمئنة، زال عنها الأمر بالسوء وزال عنها اللوم وصارت مطمئنة، فأعلاها المطمئنة وأردءها وأسفلها الأمارة بالسوء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهي التي يقال لها عند الموافاة)**، عند الوفاة، الموافاة والوفاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال مجاهد: «هي المُنيبة المُخْبتة التي أيقنت أن الله ربها، وضربت جأشًا لأمره وطاعته، وأيقنت بلقائه»)**، أقوال متعددة، لكن معناها واحد، اختلاف المفسرين اختلاف تنوع ليس اختلاف تضاد، فهذه الأقوال ليست متضادة وإنما هي متنوعة.

وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذِكْره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذِكْره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده.

واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِه وضمانه.

فاطمأنت بأنه وحده ربها، وإلهها، ومعبودها، ومليكها، ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عينٍ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار)، المطمئنة يعني: التي فيها طمأنينة، والطمأنينة السكون والاستقرار.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذِكْره)، ولا تريد سواه، اطمأنت إلى الطاعة فلا تميل إلى المعصية.

وإذا كانت بضدِّ ذلك فهي أَمَّارة بالسوء، تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغيّ واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، إن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه.

وقد أخبر سبحانه أنها أمّارة بالسوء، ولم يقل: آمرة؛ لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها إلا إذا رحمها الله، وجعلها زاكيةً تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله، لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمه الله.

والعلمُ والعدلُ طارئٌ عليها بإلهام ربِّها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يُلهِمْها رشدَها بقيتْ على ظلمها وجهلها، فلم تكن أَمَّارة إلا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زَكَتْ منهم نفس واحدة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أخبر سبحانه أنها أمّارة بالسوء، ولم يقل: آمرة؛ لكثرة ذلك منها)، مبالغة، الأمارة أبلغ من آمرة؛ لأنها مبالغة كثيرة الأمر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنها بذاتها أمارة بالسوء؛ لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمه الله)، فالخطر علينا من نفوسنا أخطر شيء، فيجب على المسلم أن يأخذ بزمام نفسه ولا يطاوعها.

وهذا يجعل الإنسان في خطر من داخله ومن خارجه، من داخل نفسه، ومن خارج الشيطان، كلاهما يدعوانه إلى الهلاك، فالإنسان في خطر إلا إذا لجأ إلى ربه سبحانه واعتصم به فإنه ينتصر على أعدائه، أول عدو له: نفسه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**والعلمُ والعدلُ طارئٌ عليها بإلهام ربِّها**)، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾: هذا الأصل فيها. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف:٥٣]. من رحمه الله صارت نفسه إما لوامة وإما مطمئنة.

فإذا أراد سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح من الإرادات والتصورات، وإذا لم يُرِدْ بها ذلك تركها على حالها التي خُلقت عليها من الجهل والظلم.

وسبب الظلم: إما جهل، وإما حاجة، وهي في الأصل جاهلة، والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء أمرًا لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يُعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تُشبِهها ضرورة تُقاس بها؛ فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عينٍ خسِر وهلك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وبهذا يُعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة)، لا يعصمك من نفسك وشرها إلا الله جَلَّ وَعَلَا تلجأ إليه؛ ولهذا تقول: «**اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي**»(١)؛ «**قِنِي شُحَّ نَفْسِي**».

انتهى من النفس الأمارة بالسوء.

ولهذا جهاد النفس هو أصعب الجهاد، أصعب الجهاد: جهاد النفس؛ فمن نصره الله على نفسه سهل عليه أنواع الجهاد الأخرى.

(١) تقدم تخريجه (ص٦٦٠).

فصـل

وأما اللوّامة فاختُلِف في اشتقاق هذه اللفظة: هل هو من التلوُّم؛ وهو التلوُّن والتردد؟ أو من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فصل: وأما اللوّامة)**، يعني النفس اللوامة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما اللوّامة فاختُلِف في اشتقاق هذه اللفظة: هل هو من التلوُّم؛ وهو التلوُّن والتردد؟ أو من اللوم؟ وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين)**، النفس اللوامة، ما معناها؟

اللوامة: يعني المتلونة التي تارة كذا وتارة كذا.

أو **اللوامة**: التي تلوم صاحبها إذا أخطأ؛ توبخه على أخطائه ليتوب منها.

وهذا -والله أعلم- هو المعنى الأقرب أن اللوامة هي التي توبخ صاحبها إذا وقع في خطأ فإنها تلومه، بخلاف النفس الأمارة بالسوء فإنها دائمًا تأمر بالسوء، أما اللوامة فهي أحسن منها؛ لأنها تكره المعصية فتلوم على صاحبها حتى يتوب، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين)**، أي: تفسيرها.

قال سعيد بن جُبَير: قلت لابن عباس: ما اللَّوَّامة؟ قال: «هي النفس اللَّؤوم»(١).

وقال مجاهد: «هي التي تَنْدَم على ما فات، وتلوم عليه»(٢).

وقال قتادة: «هي الفاجرة»(٣).

وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر»(٤).

وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة: يلوم المحسنُ نفسَه ألا يكون ازداد إحسانًا، ويلوم المسيءُ نفسَه ألا يكون رجع عن إساءته»(٥).

وقال الحسن: «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسَه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل؛ فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليَمضي قُدُمًا، لا يُعاتِب نفسَه»(٦).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال سعيد بن جُبَير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: «هي النفس اللَّؤوم»)، يعني كثيرة اللوم، اللَّؤوم: يعني كثيرة اللوم لصاحبها.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٣/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٧٠).

(٣) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٧٠).

(٤) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٦٩).

(٥) أورده الواحدي في التفسير البسيط (٢٢/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٦) أورده الواحدي في التفسير البسيط (٢٢/ ٤٧٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال مجاهد: «هي التي تَنْدَم على ما فات، وتلوم عليه»)**، هذا من تلاميذ ابن عباس: سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر كلاهما من تلاميذ ابن عباس أخذا عنه علم التفسير.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال قتادة: «هي الفاجرة»)**، قتادة بن دعامة السدوسي، من أئمة التابعين.

هي الفاجرة: يعني كثيرة الفجور، والله أعلم، هذا معنى ليس ظاهرًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر»)**، عكرمة هذا مولى لابن عباس وتلميذ له، عكرمة البربري، مشهور، كلامه هذا هو الأقرب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(«تلوم على الخير والشر»)**، إذا حصل منه تصرف فإنها تلومه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عطاء عن ابن عباس)**، عطاء بن رباح من التابعين، وهو -أيضًا- من تلاميذ ابن عباس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة: يلوم المحسنُ نفسَه ألا يكون ازداد إحسانًا، ويلوم المسيءُ نفسَه ألا يكون رجع عن إساءته»)**، كذلك في الدنيا تلومه صاحبها على المعصية؛ ليتوب منها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الحسن)**، الحسن البصري، إمام التابعين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الحسن: «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسَه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل؛ فيندم ويلوم نفسه)**، اللوامة: نفس

مؤمن؛ لأنها تلومه إذا وقع في خطأ، تتحسر من ذلك حتى يتوب إلى الله، هذا مدح، هذا مدح لها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وإن الفاجر ليَمضي قُدُمًا، لا يُعاتِب نفسَه**)، أما الفاجر فإن نفسه لا تلومه على الخطأ ولا على المعصية.

فهذه عباراتُ من ذَهب إلى أنها من اللَّوْم.

وأما من جعلها من التلوُّم فلكثرة ترددها وتلوُّمها، وأنها لا تستقر على حال واحدة.

والأول أظهر؛ فإن هذا المعنى لو أُريد لقيل: المتلوِّمة، كما يقال: المتلونة والمترددة، ولكن هو من لوازم القول الأول؛ فإنها لتلُّومِها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه، فالتلوّم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمّارةً، وتارة لوامةً، وتارة مطمئنةً، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل فيها هذا وهذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنةً وصفُ مدحٍ لها، وكونها أمّارةً بالسوء وصفُ ذمٍّ لها، وكونها لوامةً ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والأول أظهر)**، الأول- أنها التي تلوم صاحبها- أظهر من المتلونة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنفس قد تكون تارة أمّارةً، وتارة لوامةً، وتارة مطمئنةً)**، لها ثلاث صفات: أعلاها المطمئنة، وأرداها: النفس الأمارة بالسوء، والمتوسطة: هي اللوامة، بين هذا وبين هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والحكم للغالب عليها)**، إن غلب عليها الخير فهي نفس خيرية، وإن غلب على الشر فهي نفس شريرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكونها مطمئنةً وصفُ مدحٍ لها)**، هذا بلا شك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكونها أمّارةً بالسوء وصفُ ذمٍّ لها)**، فكونها مطمئنة وصف مدح لها خالص، وكونها أمارة بالسوء هذا وصف لها ذميم خالص.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكونها لوامةً)**، بين، بين.

والمقصود ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه، وله علاجان: محاسبتها، ومخالفتها.

وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها.

وفي الحديث الذي رواه أحمد وغيره من حديث شَدَّاد بن أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمنَّى عَلَى اللهِ»[1]، دان نفسه أي: حاسبها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (والمقصود ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه، وله علاجان: محاسبتها)، محاسبة نفسه على ما فعلت، محاسبتها بأن تفكر في ذنوبه وسيئاته فيحاسب نفسه على ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومخالفتها)، مخالفتها: إذا كانت أمارة بالسوء يخالفها؛ «وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا». فلا يتبع نفسه هواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهلاك القلب من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها)، فإذا أعطى نفسه ما تأمر به، وما تشتهيه أفسدت قلبه، فهي تؤثر على القلب.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (٢٨/ ٣٥٠) من حديث شَدَّاد ابن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**من حديث شَدَّاد بن أَوْسٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، **قال: قال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»)، الكيس: يعني العاقل، من الكيس وهو العقل.

«**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» يعني: حاسبها، الإدانة: هي المحاسبة؛ دائمًا يتهمها، ودائمًا يلومها، فهو لا يزكي نفسه بالمدح والثناء عليها، هذا هو العاقل.

«**وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ**»: فإن ما بعد الموت ليس فيه عمل؛ فهو يعمل فيما دام في الدنيا، الدنيا هي دار العمل، والآخرة هي دار الجزاء والحساب، ولذلك العاقل من عمل لما بعد الموت، والعاجز: عاجز عن نفسه.

«**وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»: أعطاها ما تريد، ثم يتمنى على الله أن يكون من أهل الجنة، وهو لم يمنع نفسه من السوء، ولم يأخذ بخطامها! فالتمني يكون بالمستحيل، بخلاف الترجي؛ فإنه يكون للممكن.

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسِبوا أنفسَكم اليومَ، وتَزَيّنوا للعرض الأكبر؛ يومئذٍ تُعرَضون لا تخفى منكم خافية»(١).

وذكر أيضًا عن الحسن، قال: «لا يُلفَى المؤمنُ إلا يُحاسِبُ نفسه: ما أردتُ بكلمتي؟ وماذا أردتُ بأكلتي؟ وماذا أردت بشَرْبتي؟ والفاجر يمضي قُدُمًا، لا يحُاسِب نفسَه»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسِبوا أنفسَكم اليومَ، وتَزَيّنوا للعرض الأكبر؛ يومئذٍ تُعرَضون لا تخفى منكم خافية»**)، كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في خطبته في الجمعة: «حاسبوا أنفسكم: يعني في هذا الدنيا.

قبل أن تُحاسَبوا: في الآخرة.

وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا: لأنه يوم القيامة يوزن الإنسان ويوزن عمله، يوزن هو وعمله؛ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٠٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٩٦)، وأحمد في الزهد (ص٩٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٥٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٧٧).

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٨، ٩].

فالإنسان يستعد في هذا الدنيا مع نفسه؛ يحاسبها، ويتوب إلى الله من أخطائها ويستغفر، وكذلك يَزِنُ أعماله، أعمالك زِنْها، افرض أن هناك ميزانًا، ضع فيه حسناتك، وضع فيه سيئاتك، افرض هذا؛ فإن رأيت أن سيئاتك أكثر فتب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن معك فرصةً الآن، وإن رأيت حسناتك أكثر فتزود منها، لا تقل: هذا يكفيني!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وَتَزَيّنوا للعرض الأكبر؛ يومئذٍ تُعرَضون لا تخفى منكم خافية»**)، وفي رواية: تأهبوا، تزينوا في رواية: تأهبوا للعرض الأكبر، ما هو العرض الأكبر؟

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾: على الله.

﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة:١٨]: هذا كما في الآية الكريمة في سورة الحاقة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وذكر أيضًا عن الحسن**)، ذكر: يعني الإمام أحمدَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال: لا يُلفَى المؤمنُ إلا يُحاسِبُ نفسه**)، الحسن البصري يقول: قال: «لا يُلفَى»: أي لا يوجد المؤمن إلا وهو يحاسب نفسه دائمًا وابدًا، هذا هو المؤمن، أما الذي يهمل نفسه وينساها فهذا دليل على؛ إما عدم إيمانه وإما على ضعف إيمانه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: لا يُلفَى المؤمنُ إلا يُحاسِبُ نفسه)**، «لا يُلفَى»: يعني لا يوجَد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ما أردتُ بكلمتي؟ وماذا أردتُ بأكلتي؟ وماذا أردت بشَرْبتي؟ والفاجر يمضي قُدُمًا، لا يُحَاسِب نفسَه)**، المؤمن دائمًا يحاسب نفسه على نيته ومقصده فيما يفعل، وفيما يترك، أما الفاجر فلا يبالي، لا يبالي بما فعل.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]: «أضاع نفْسَه وغُبِن، مع ذلك تراه حافظًا لمالِه مضيِّعًا لدينه»(١).

وقال الحسن: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظٌ مِن نفْسِه، وكانت المحاسبة من همَّته»(٢).

وقال ميمون بن مِهْران: «لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريك لشريكه»(٣).

ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]: «أضاع نفسَه وغُبِن»)، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾: الإنسان.

﴿فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]: مضيعًا له، يكون مضيعًا.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]: أي: منفرط، لا يفكر فيه، يعمل ولا يفكر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مع ذلك تراه حافظًا لمالِه مضيِّعًا لدينه)، مع كونه أمره فرطًا لا يفرط في ماله، إنما يفرط في دينه، يفرط بدينه ولا يفرط في ماله.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٢٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٢٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٢٥).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال الحسن: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من همَّته»)**

وَلا تَنْتَهِي النَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زَاجِرُ[1]

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال ميمون بن مِهْران: «لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريك لشريكه»)**، يحاسب نفسه كما يتحاسب الشركاء في المال فيما بينهم، يتحاسبون على الأموال على أقل شيء ولا يترك بعضهم للآخر شيئًا من حقه.

فأنت كن مع نفسك كذلك، حاسبها كما يحاسب الشريك شريكه، إن كنت تريد النجاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك)**، خذ حذرك من نفسك فهي شريك خوان، تأخذ دينك، مالك هنا المراد به: الدين، تأخذ دينك إذا أهملتها.

---

(١) البيت منسوب لأبي نُوَاس في المستطرف للأبشيهي (ص٥١٤).

قال ميمون بن مهران أيضًا: «إنّ التقي أشدُّ محاسبةً لنفسه من سلطان عاصٍ، ومن شَرِيكٍ شَحِيحٍ»(١).

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: «مكتوبٌ في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل ألا يَغفُلَ عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يُحاسب فيها نفسَه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويَصْدُقونه عن نفسه، وساعة يتخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل؛ فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات، وإجمامًا للقلوب»(٢). وقد رُوي هذا مرفوعًا من كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رواه أبو حاتم ابنُ حِبَّانَ، وغيرُه(٣).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وذكر الإمام أحمد عن وهب قال)، وهب بن مُنَبِّهٍ: كان من أحبار اليهود في اليمن، فأسلم، وكان مشهورًا بالحكم والفقه، وهب بن

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٢٦).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٠٥)، وهناد في الزهد (٢/ ٥٨٠)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٣٠)، وفي العقل وفضله (ص٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦-٧٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦-١٦٨). وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٠): «قد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حبان البستي في كتابه: (الأنواع والتقاسيم)، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه (الموضوعات)، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث. فالله أعلم».

منبه، وهمام بن منبه، كعب الأحبار كل هؤلاء من يهود اليمن، كانوا من علماء اليهود فأسلموا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وساعة يتخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل)**، يعطي نفسه حظًا من الشهوات المباحة، لا يحرمها، لا يحرمها من الشهوات المباحة من الطعام اللذيذ، من الفاكهة، من اللحم، من الطعام اللذيذ، لا يحرم نفسه، هذا لا يجوز أن الإنسان يحرم نفسه ويدعي أن هذا هو الدين، لا، ليس هذا هو الدين.

«**وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»[(١)]: يعطي نفسه قسطًا من الراحة والنوم؛ «**وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**».

ونفسك هي مطيتك مثل الراحلة إذا أطعمتها وسقيتها تحمل متاعك وتركبها وتسافر عليها، أما إذا ضيعتها فإنها تهزل أو تموت وتتعطل، لا تجد شيء تحمل عليه وتركبه، فهي مركبك، نفسك مركبك.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨) عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «آخَى النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ؟ قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ: سَلْمَانُ قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **صَدَقَ سَلْمَانُ**». وأخرج نحوه البخاريُّ (٦١٣٤)، ومسلم (١٨٢) (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فليس الزهد في أنك تحرم نفسك مما أباح الله لها، ليس هذا هو الزهد، الزهد: أن تعطي نفسك ما يقيمها ويقويها، وأن تعمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ. فنفسك مطيتك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات، وإجمامًا للقلوب)**، هذا من حكمة داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ موجود في حكمته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أربع ساعات، ساعة؟

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ساعة يناجي فيها ربَّه)**، يناجي فها ربه بالعبادة والطاعة والدعاء والذكر والصلاة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وساعة يُحاسب فيها نفسَه)**، وساعة يُحاسب فيها نفسه؛ ماذا فعلت، إن كان خيرًا تزود، وإن كان غير ذلك تاب على الله لو استدرك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويَصْدُقونه عن نفسه)**، وتارة يجلس مع إخوانه؛ لا يكون منزويًا دائمًا ومنعزلًا دائمًا، يجلس مع إخوانه ويستمع ما يقولونه فيه، ينصحون.

الإخوان المراد بهم: الناصحون الذين يذكرون الإنسان بربه وبأحواله، هؤلاء هم الإخوان على الحقيقة.

أما الإخوان الذين يمدحونك في وجهك ويزورون الكلام غير صحيح فيك ليرضوك بزعمهم، هؤلاء ليسوا إخوانًا، هؤلاء خوان، فأخوك هو الذي ينصحك، لا الذي يمدحك، هذا هو أخوك المخلص.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وساعة يتخلى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل)**، هذه الساعة الرابعة يعني يعطي نفسه قسطها مما أحل الله من الملاذ والشهوات المباحة؛ لأجل أن تحمله ويرحل عليها، فيعطيها مما أباحها الله، ولا يحرمها، ويقول: هذا من الزهد، هذا من العبادة، هذا لا يجوز.

«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزُوَّارِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات)**، ما يمتع به نفسه من المباحات تكون عونًا على الساعات الأخر التي مر ذكرها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد رُوي هذا مرفوعًا من كلام النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**)**، رُوي من حكمة داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم رواه وهب بن منبه لما أطلع عليه.

وأيضًا يروى مرفوعًا إلى نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الحديث السابق: **«إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزُوَّارِكَ»**[(١)]: يعني زوارك الذين يزورنك لهم حق عليك.

❖ ❖ ❖

(١) تقدم تخريجه قريبًا (ص٦٩٠).

وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبَعه فيه، ثم يقول: «حَسِّ يا حُنَيفُ! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!»(١).

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عُمَّاله: «حاسِبْ نفسَك في الرخاء قبل حساب الشدة؛ فإن مَن حاسب نفسه في الرخاءِ قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغِبطة، ومَن أَلْهَتْهُ حياتُه وشغلَتْه أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبَعه فيه، ثم يقول: «حَسِّ يا حُنَيفُ! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!»)، الأحنف بن قيس يأتي إلى المصباح، المصباح المراد به السراج الذي يوقد من الزيت فيضع نفسه على النار؛ لتذوق طعم النار، ويقول: حَسِّ: يعني ذق، ما حملك أمن تصنع كذا وكذا، فيحاسب نفسه ويذيقها شيء من حر النار؛ لأجل أن ترتدع؛ لأن الله جعل هذه النار التي في الدنيا مذكرة لنار الآخرة.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ [الواقعة:٧٣]: نار الدنيا تذكر بنار الآخرة مع أن نار الآخرة- والعياذ بالله أشد حرًّا من نار الدنيا بكثير(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٥٩).

(٣) أخرج مسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ =

فإذا كنا لا نصبر على نار الدنيا، ولا لحظة واحـدة، فكيف بنار الآخرة؟!!

الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل:١٤]: تلظى، ولا تنطفئ أبدًا، لا تنطفئ أبدًا، خلاف نار الدنيا فإنها تنطفئ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومَن أَلْهَتْهُ حياتُه وشغلَتْه أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة)**، كما مر؛ ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨]. ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨].

=**الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**». قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**».

وقال الحسن: «المؤمن قوّامٌ على نفسه، يُحاسِب نفسَه لله، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يَفْجؤه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات! حِيْلَ بيني وبينك. ويَفرُط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردتُ إلى هذا ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بينهم وبين هَلَكَتِهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يَلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الحسن: «المؤمن قوّامٌ على نفسه، يُحاسِب نفسَه لله، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا)، إذا حاسبت نفسك في الدنيا خف عليك حساب الآخرة؛ لأنك تكون قد تبت إلى الله، وتخليت من الذنوب، أما إذا لم تحاسب نفسك في الدنيا ثقل عليك حساب الآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة)، أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة لأنفسهم في الدنيا فوجدوا

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ١٠٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٧).

أن الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذرة، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته)**، يسعى في فكاك رقبته كما أن المكاتب، المملوك المكاتب يسعى في فكاك رقبته من الرق؛ ليكون حرًّا.

كذلك المؤمن يسعى في فكاك رقبته من الحساب يوم القيامة، والذنوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله)**، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

وقال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفْسِه: ألستِ صاحبةَ كذا؟! ألستِ صاحبةَ كذا؟! ثم زَمَّها، ثم خَطَمَها، ثم ألزمها كتابَ الله عَزَّوَجَلَّ، فكان لها قائدًا»[١].

وقد مُثِّلَتِ النفسُ مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولًا، ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانيًا، ثم بمحاسبته ثالثًا، ثم يمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعًا.

فكذلك النفس؛ يُشارطها أولًا على حفظ الجوارح السبعة التي حِفْظُها هو رأس المال؛ والربح بعد ذلك، فمن ليس له رأس مال؛ فكيف يطمع في الربح؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال مالك بن دينار: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألستِ صاحبةَ كذا؟ ألستِ صاحبةَ كذا؟! ثم زَمَّها، ثم خَطَمَها، ثم ألزمها كتابَ الله** عَزَّوَجَلَّ، **فكان لها قائدًا»)**، إذا أردت أن تكون نفسك مطمئنة فاعمل هذه الأشياء، هي لن تصير مطمئنة مباشرة، لابد من أن هناك أسبابًا فعلها صاحبها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد مُثِّلَتِ النفسُ مع صاحبها بالشريك في المال)**، كما سبق.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٢٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فكذلك النفس؛ يُشارطها أولًا على حفظ الجوارح السبعة التي حِفْظُها هو رأس المال)**، حفظ اللسان، حفظ السمع، حفظ البصر، حفظ المشي، حفظ الأخذ والإعطاء.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن ليس له رأس مال؛ فكيف يطمع في الربح؟)**، ليس هناك ربح إلا وهو مبني على رأس المال، فمن ليس معه رأس مال، كيف يرجو الربح، من أي شيء؟!!

كذلك رأس مالك: العمل، رأس مالك ليس الدراهم، رأس مالك العمل هو الذي يثمر الربح عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومن لم يكن عنده عمل صالح فليس معه رأس مال.

وهذه الجوارح السبعة -وهي العين، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرِّجل- هي مركب العَطَب والنجاة، فمنها عطب مَنْ عطب بإهمالها وعدمِ حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحِفْظُها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه الجوارح السبعة -وهي العين، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرِّجل- هي مركب العَطَب والنجاة)**، مركب العطب: يعني الهلاك إن أهملتها، ومركب النجاة إن حفظتها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها)**، عليك بنفسك، اشتغل مع نفسك دائمًا، لا تناظر الناس، لا تتبع هفوات الناس وأخطاء الناس وتنسى نفسك، اشتغل بعيوب نفسك.

طوبى لمن شغله عيبُه عن عيب غيره. أنت لست بحسيب على الناس، حاسب نفسك أولًا: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]. هكذا يقول الله لبني إسرائيل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فحِفْظُها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر)**، كثير من الناس إنما ينظرون إلى أعمال الناس، وفلان أحسن، وفلان فعل

كذا، وفلان أخطأ...! ولكن لو تسأله عن نفسه لا تجد عنده منها خبرًا أبدًا، ولا يدري! هذا من العجائب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾** [النور:٣٠])، **﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾**: يقول الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾: لم يقل: يغمضون أبصارهم؛ إذ هم يحتاجون إلى النظر بأبصارهم، لكن يغضونها عما يضرها؛ عن الحرام، عن الشهوات المحرمة، عن النظر إلى النساء... إلى آخر ما حرمه الله.

﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور:٣٠]: لم يقل: يغضوا أبصارهم، بل قال: **﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾**.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾** [النور:٣٠])، **﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾**: عن الحرام.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**»(١).

«**مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ**» يعني: اللسان.

«**وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ**» يعني: فرجه؛ **﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾** [المؤمنون:٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال:** ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧])، ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾، يقول لقمان لابنه.

﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان:١٩]: امشِ مشية المؤمن، لا تمشي مشية المتكبر، المتطاول على الناس.

وقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:٥٣]، وَقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦])، كذلك المشي الذي أنت لست مكلَّفًا به، لا تتبع أحدًا، اتركه.

﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ [الإسراء:٣٦]: إلا شيئًا لك منه مصلحة.

كذلك لا تقل بغير علم، وأخطرُ هذا: القولُ في الدين بغير علم، الفتوى بغير علم، القول على الله وعلى رسوله بغير علم.

لا تتكلم إلا بعلم، وإلا فاسكت؛ يسعك السكوت: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»(١)، هذه وصية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾)، ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾: يعني: لا تتبعْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦])، هذه الجوارح أنت مسؤول عنها، مسؤول عما تسمع، مسؤول عما تبصر، مسئول عما تفكر بقلبك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾** [الإسراء:٥٣])، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]. المقالة الحسنة فيما بينهم، في تخاطبهم ومكالماتهم، ويتجنبوا الكلام السيِّئ.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء:٥٣].

﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾: إذا أردت أن تخاطب أحدًا ولو أنك غضبان منه، اختر الكلام الطيب.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت:٣٤]: قل الكلمة الطيبة حتى مع من تبغضه، ومن هو عدو لك.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ﴾؛ الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة:٨٣]؛ خاطبوا بالكلام الطيب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾** [الأحزاب:٧٠])، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾: يعني: مسددًا، طيبًا، الكلام الطيب مع الناس، مع المؤمن ومع الكافر، لا تقسُ على الناس وتغلظ عليهم إلا إذا استدعى الأمر هذا، إذا كان هذا

من باب العقوبة فلا بأس، أما إن كان هذا من باب الانتصار للنفس فلا، لا تنتصر لنفسك.

النبي ﷺ كانوا يخطئون في حقه، ويسبونه ويتنقصونه، ولا يلتفت إلى ذلك، ولكن إذا تكلموا عن الله أو عن الدين فإنه يغضب لله عَزَّوَجَلَّ، لم يكن ﷺ يغضب إلا لله، لم يكن يغضب لنفسه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾** [الحشر: ١٨])، انظر في المشكلة، قَلَّ مَنِ انتبه لهذه الآية؛ انظر إلى ما قدمت للآخرة.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾: فكِّر؛ ما الذي قدمْتَه: خير أو شر؟ إن كان خيرًا فتزوَّدْ منه، سلِ الله الثبات عليه.

وإن كان شرًّا فبإمكانك الآن التوبة، تُبْ إلى الله، كلمة واحدة تقولها بصدق تمحو عنك جميع ما حصل منك، أنت الآن في زمن الإمكان.

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة وقعتْ في الخيانة ولابدَّ، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة، حتى يذْهَبَ رأس المال كلُّه.

فمتى أحسّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة؛ فحينئذٍ يتبيَّنُ له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحس بالخسران وتيقَّنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه، من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره؛ فإنه لابدَّ له منه، فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة وقعتْ في الخيانة ولابدَّ)**، يعني: النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة، حتى يذْهَبَ رأس المال كلُّه)**، إذا أتبعتْ نفسك هواها هلكت، لكن خذ بزمامها، وراعها، ضَعْها في المواضع اللائقة بها، ارفعها عن الخسائس والدنايا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمتى أحسّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة)**، الذي يحمل الإنسان على المحاسبة هو أنه يشعر بالنقص، إذا شعر بالنقص فإنه يسعى إلى الكمال، أما إذا كمل نفسه ومدح نفسه فهذا يهلك، فاعتبر نفسك مقصرًا دائمًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره)**، هي نفسك، ملازمة لك، الشريك يمكن أنك تفارقه؛ ينتقل إلى جهة، وأنت تذهب إلى جهة أخرى، فتنساه، لكن نفسك لا تذهب؛ فهي شريكك الملازم، حاسبها دائمًا وأبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره)**، ليس هناك مطمع أن تفارق نفسك مثلما تفارق الشريك من الخَلق، ليس هناك مطمع؛ فهي ملازمة لك، شريك لا ينفك عنك.

ويُعينه على هذه المراقبة والمحاسبةِ: معرفتُه أنه كما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا.

ويعينه عليها أيضًا: معرفتُه أن ربح هذه التجارة سُكْنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُعينه على هذه المراقبة والمحاسبةِ معرفتُه أنه كما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره)**، يقولون: أنت إذا أعطيت نفسك ما تشتهي فإنك تكون قد أكرمتها بهذا، وإذا حاسبتها فقد أهنتها ومنعتها من اللذات، أعط نفسك، ومتع نفسك! يقولون هذا وما أشبهه ذلك من هذه الأقوال الفاسدة.

بعض الناس عندهم مَثَلٌ يقول: (إكرام النفس هواها)! لا، ليس هكذا، ليس إكرام النفس هواها.

إكرام النفس: أن تحملها على ما ينفعها ويخلصها يوم القيامة، هذا إكرامها، ليس إكرامها أن تعطيَها ما تشتهي.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويُعينه على هذه المراقبة والمحاسبةِ: معرفتُه أنه كما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره)**، إذا لم تحاسب نفسك أنت سيحاسبك غيرك، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أنت محاسَب بلا شك، فإما أن تحاسب نفسك؛ ليخف عنك الحساب يوم القيامة، وإما أن تهملها فسيحاسبك الله يوم القيامة على الصغيرة والكبيرة، انتبه لهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويعينه عليها أيضًا: معرفتُه أن ربح هذه التجارة سُكْنى الفردوس)**، يعين على هذا: إذا تأملت الجزاء عند الله لمن حاسب نفسه، ونهاها عن الهوى؛ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤١].

الجنة فيها الفردوس الأعلى، الجنة منازل: أعلاها الفردوس وأوسطها، وسقفه: عرش الرحمن سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

فحقٌّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر: أن لا يغفُلَ عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها، وسكناتها، وخطراتها، وخطواتها. فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خَطَرَ لها، يمكن أن يُشترى به كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبدَ الآباد. فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يَجلِب هلاكَه: خسران عظيم، لا يَسمح بمثله إلا أجهلُ الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خَطَرَ لها)، لا خَطَرَ لها: يعني ليس ثمن لها، لا تُدرك بالأثمان، اللحظة من الدنيا لا تدرك بالأثمان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يَجلِب هلاكَه: خسران عظيم، لا يَسمح بمثله إلا أجهلُ الناس)، الآن يقولون: افتح لنفسك باب الأمل، متع نفسك، لا تحرم نفسك، رفِّه نفسك... وما أشبه ذلك! هذا غرور وباطل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن)، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، يغبن الناس بعضهم بعضًا؛

المؤمنون يغبنون الكفار يوم القيامة، والصلحاء يغبنون أهل الفساد يوم القيامة، هو يوم التغابن، الغبن فيه لا يجبر، ولا ينسى أبدًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا**﴾ [آل عمران: ٣٠])، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

أهل الخير يجدون الخير، وأهل الشر يجدون الشر، والسبب هم بأنفسهم في هذه الدنيا؛ هم الذين أورثوا أنفسهم هذا المصير.

فصل

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همته وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن: «رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر»[1].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال الحسن: «رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر»)**، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر:١٨].

فإذا أراد الإنسان فعل شيء فإنه قبل أن يفعله ينظر: هل هذا الشيء مشروع موافق للشرع أو غير موافق للشرع؟

فإن كان غير موافقًا للشرع تركه، وإن كان موافقًا للشرع، فإنه ينظر هل يستطيع القيام به أو لا يستطيع؟ إن كان يستطيع بادر، وإن كان لا يستطيع تركه، لابد من هذا.

أما المغامرة بدون محاسبة وبدون تفكير فإنها تورط الإنسان، ثم لا يحصل على شيء؛ يكون تعبًا بلا فائدة.

---

(١) أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان (٩/ ٤١١)، بلفظ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَعْمَلُ حَتَّى يَهِمَّ، فَإِنْ كَانَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ مَضَى، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ اللهِ أَمْسَكَ».

وشرح هذا بعضهم، فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهَمَّ به العبدُ وقف أولًا، ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أم غير مقدور ولا مستطاع؟

فإن لم يكن مقدورًا لم يُقْدِم عليه، وإن كان مقدورًا وقف وقفة أُخرى ونظر: هل فعلُه خير من ترْكه، أو تركه خير من فعله؟

فإن كان الثاني تركه ولم يُقْدِم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟

فإن كان الثاني لم يُقدمِ عليه وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يَخِف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله، حتى يصير أثقل شيء عليها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟)**، ثم أيضًا بعد أن ينظر: هل هذا العمل مشروع موافق للشرع أو مخالف؟ إن كان مخالفًا تركه.

وإن كان موافقًا نظر -بنيته هو- هل هو يعمله لوجه الله أو يعمله لغير وجه الله؛ كأن يعمله لطلب مال أو لطلب مدح من الناس أو غير ذلك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن كان الثاني لم يُقدمِ عليه وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك**)، الشرك: الشرك الذي هو الشرك: الرياء، شرك الرياء، شرك في العمل، شرك العمل.

والشرك العملي قد يكون لطلب الدنيا؛ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود:١٥] إلى آخر الآية.

أو شرك النية؛ بأن يرائي بعمله، ويريد بالمدح والثناء والمظهر، فهذا لا ينفعه شيئًا، لا يقبل الله إلا ما كان خالصًا لوجهه، وصوابًا على سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأكثر الناس مخالفون لهذا، إما أن يكون قصدهم للدنيا وطمع الدنيا؛ يتخذون العمل الصالح مطية للدنيا، وإما أن يكون قصده الرياء والسمعة، فكلاهما لا يحصل على شيء، فلا يتعب نفسه بالإقدام على هذا العمل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويخف عليها العمل لغير الله**)، إذا تساهل الإنسان في الشرك الأصغر جرَّه إلى الشرك الأكبر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فبقدر ما يَخِف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله، حتى يصير أثقل شيء عليها**)، هذا شيء معروف أن النفوس أكثرها يصعب عليها العمل لله، ويسهل عليها العمل لغير الله؛ لأن الشيطان يزين ذلك لها، ويثبطها عن العمل لله عَزَّ وَجَلَّ.

وإن كان الأول وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو مُعانٌ عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك؛ أم لا؟

فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار)**، وإذا كان العمل طيبًا ومشروعًا ومطلوبًا فإنه ينظر: إذا كان يحتاج إلى أعوان ويحتاج إلى عدة، إن كان عنده استعداد وله أعوان أقدم، وإلا انتظر.

ومثال ذلك: حالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة قبل الهجرة؛ كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقتصرًا على الدعوة إلى الله، الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، ولكنه لم ينفذ ما يدعو إليه؛ لأنه لم يكن عنده استطاعة.

لم يكسر الأصنام حتى التي فوق الكعبة، ولا التي على الصفا والمروة، ولا الأصنام التي كانت حول مكة: اللات والعزى ومناة، لم يكن يقدم عليها؛ لأن ليس عنده استطاعة لذلك.

ولما هاجر إلى المدينة ووجد الأنصار واجتمع حوله المسلمون، ووجد القوة أمر الله بالجهاد في سبيل الله.

هذه مسألة عظيمة؛ لأن أكثر المتحمسين الآن يريدون الاقتحام ويردون الإقدام، وهم ليس لهم طاقة، وليس لهم أعوان على ذلك، وهذا يحدث نتيجة عكسية، الله لم يأمرك بهذا، يحدث نتيجة عكسية.

فلو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة كسر الأصنام لانقضوا عليه، وقضوا عليه وعلى دعوته، لكنه اقتصر على الدعوة والنهي فقط، فمن امتثل فالحمد لله، ومن لم يمتثل فإنه أقام الحجة عليه، وليس عنده أكثر من هذا؛ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى:٤٨]. هذا في مكة.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]. هذا في مكة، كل الآيات المكية على هذا النمط.

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾: يعني القرآن.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢]: نعم هذا في مكة، لكن إنه جهاد بالحجة والتعليم والدعوة، هذا نوع من الجهاد باللسان، نوع من الجهاد باللسان والدعوة، أما الجهاد باليد فلهذا يحتاج إلى تحقق النصرة، وتحقق القوة، والأعوان.

فلا يغامر الإنسان بالدين والدعوة، ويقول: هذا أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، هذه دعوة، لا يغامر؛ لأن هذا يحدث أثرًا عكسيًا، فالأمور تحتاج إلى فقه في دين الله.

قد يقولون: أنتم مخذلون. لا، لسنا مخذلين، ولكننا متبعون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الله أمره بالصبر في مكة، أمره بالصبر؛ ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]. أمره بالصبر.

أمره بالانتظار؛ ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [الطارق:١٧]، أمره بالانتظار؛ لأن الأمور مربوطة بأسبابها، مربوطة بالإمكانيات.

الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾: هذا في مكة.

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢].

المثال القريب: أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بداية دعوته كان يمر على الناس وهم يدعون زيد بن الخطاب الذي قُتِلَ في حرب اليمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أخو عمر بن الخطاب. كانوا أقاموا على قبره بناية، قبة، فصاروا يطوفون به وينادونه، فيمر عليهم فيقول: الله خيرٌ من زيد، الله خيرٌ من زيد، ولا يزيد على هذه الكلمة؛ لأنه لا يقدر على أكثر منها[(١)].

فلما بايعوا، أمير العيَينة على النصرة قام وهدم القبة بحضرة الأمير، أما قبل ذلك لم يكن يقول إلا: الله خيرٌ من زيد، ولما كانت له سلطة هدمها بيده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا مثال، وهذا هو طبق سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمامًا، نسمع أن بعض الإخوان في البلاد الأخرى لما حصلت هذه الزعزعات وزالت السلطات عندهم، يريدون أن يهدموا القبور بأيدهم، وهم ليس لهم سلطة، وهذا خطأ كبير، ليس هكذا تكون الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يريدون أن يهدموا.

---

(١) انظر: الدرر السنية (١/ ٢١١).

نعم، هدم القبور واجب، لكن له وقت، له إمكانيات، إذا حصلت الأسباب وجدت السلطة ووجد المناصر فإنه الذي يهدمها هو السلطان أو بأمر السلطان أو بحماية السلطان، أما قبل ذلك فيكفي منهم الدعوة إلى الله والبيان فقط، يجب أنهم يتفهمون هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار**)، يعني في المدينة، لما هاجر على المدينة.

وإن وجده مُعانًا عليه فليُقْدِم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصلةٍ من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإن وجده مُعانًا عليه فليُقْدِم عليه فإنه منصور)**، إذا كان له شوكة وله أنصار فليقدم على إزالة المنكرات بيده، على إزالة المنكرات بيده إذا كان له سلطة؛ لأن السلطة تحمي الدعاة على الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن هنا فإن بعض الدعاة أو كثير من الدعاة الآن يبتعدون عن السلطة، بل إنهم يكفرون السلطة أو يستضعفون أو ينكرون الذهاب إليها، وهذا خطأ، لابد من استصلاح السلطة، لابد من دعوة السلطان أولًا؛ ليكون معك، ولا يكون عليك.

إذا لم يكن معك السلطان تسلط عليك أعداءك، وإذا كان السلطان معك لم يقدروا، فأول ما يبدأ، يبدأ الداعية بولي الأمر.

ليس معنى ذلك أنه يقف في الشوارع وعلى المنابر ويسب ولي الأمر وينكر، لا، يذهب إليه، يذهب إليه ويناصحه.

الله قال لموسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤].

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه:٤٧].

﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾: لو وقف موسى وهارون في الشوارع ونددوا بفرعون دمرهم وأعقب عليهم، معه سلطة، وهما ليس معهما سلطة.

لكن الله قال: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه:٤٧].

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه:٤٤]. انظر: ﴿ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾: لا تقل له: يا خبيث، يا كافر، يا كذا، يا كذا، ﴿ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ استعطاف.

هكذا الدعوة إلى الله -يا إخوان- يجب التنبه لهذا؛ لأن أكثر من يتحمسون للدعوة الآن يجهلون الأصول هذه، ولذلك لم ينجح لهم شيء، ولم تنجح لهم دعوة الأمور تؤتى من أبوابها.

﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [البقرة:١٨٩].

فالواجب أن يتعلم الإنسان قبل أن يباشر الدعوة أن يتعلم كيف دعا الرسل أممهم، ويقتدي بهم في ذلك، أما أنه تأخذه الغيرة والحماس ويقول: أنا متوكل على الله، وأنا، وانا، لا يكفي هذا.

أنت متوكل على الله، لكن الله لم يأمرك بالمغامرات، أمرك بأخذ الأمور شيئًا فشيئًا على حسب استطاعتك، وعلى حسب المصلحة.

وكونه ينفذ من الحق شيء ولو يسير أحسن من لا شيء، ليس من اللازم الأمور تنفذ فورًا بأكملها، لا، شيء فشيء، فالواجب أن الدعاة يتفقهون في هذا الأمر، وإلا فإن عملهم سيكون وبالًا على الإسلام والمسلمين، يجب التنبه لهذا الأمر

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإن وجده مُعانًا عليه فليُقْدِم عليه فإنه منصور)**، إذا وجد من يعينه ويساعده فليقدم، أما إذا لم يجد فإنه يصبر وينتظر، ويكتفي، يكتفي

بالدعوة باللسان والترغيب والترهيب والقول اللين، والحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأما إذا أتى الأمر من غير بابه أفسد الأمور كلها.

ولذلك تجدهم الآن يسمون الدعاة إلى الله بالتكفيريين، بكذا وكذا؛ لأنهم لم يستعملوا طريق الدعوة الصحيح، فلذلك سموهم بالتكفيريين، وصاروا يحذرون منهم، والمتطرفين إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصلةٍ من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح)**، إذا اجتمعت أسباب الإقدام فإنه ينجح بإذن الله، أما إذا لم تجتمع فإن إقدامه يكون وبالًا وفسادًا لأمره.

فهذه أربع مقامات، يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل؛ فلا كلُّ ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له، ولا كلُّ ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كلُّ ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كلُّ ما يفعله لله يكون مُعانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يُقدم عليه، وما يُحجِم عنه.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذه أربع مقامات، يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل)**، قبل الفعل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فلا كلُّ ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له)**، ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ليس كل ما يتمنى الموت يدركه، ولكن خذ الأمور شيئًا فشيئًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا كلُّ ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كلُّ ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله)**، فينبغي التفقه في أمر الدعوة، هذا يسمى فقه الدعة، أما من لم يتمش عليه فإن دعوته تفشل، وتكون وبالًا.

إما إذا مشى على الطريق الصحيح، واقتدى بالأنبياء في خططهم وسيرهم، الأنبياء أول ما يبدؤون بالرؤساء؛ لأن الرؤساء إذا صلحوا وصاروا في صفك حموك وأعانوك بإذن الله، أما إذا كانوا ضدك دمروك.

بعض الدعاة يقول: هذه مداهنة، هذه لا أدري كيف، أنا لن أذهب إليهم، هؤلاء خبثاء، هؤلاء فيهم، ليس هكذا الدعوة- يا أخي- استصلحهم أولًا.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب أقرب شيء إلينا لم يقدم على الدعوة إلا لما تبايع مع الأمير، أول شيء بدأ بالأمير، وأقنعه، فلما أقنعه وتبايع على ذلك مضوا في الدعوة، وكتب الله لها النصر؛ لأنه مشى على الطريق الصحيح، أما أننا نقاطع الولاة ونبتعد عنهم فهذا خطأ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يُقدم عليه، وما يُحجِم عنه)، والكلام على الفقه، وهو الفهم؛ فمن رزق الفقه في أمور فإن الله يوفقه.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[(١)].

الدين ليس بحماس، وغيرة شديدة إلى آخره، الدين فقه وحكمة، ووضع الأمور في مواضعها اللائقة بها، خطوات وتدرج شيئًا فشيئًا، والبداءة بالأهم فالمهم، أولويات.

أما الثورة على الولاة ومقاطعة الولاة، والتنديد بالولاة فهذا يزيد الشر شرًّا، وهذا يفرح الأعداء، ويغيظ الأصدقاء ولا ينتج شيئًا.

وولي الأمر إذا صلح أصلح الله به، وكان عونًا لأهل الخير، وإذا قوطع ولي الأمر صار ضدنا وضد الدعوة إلى آخره، فينبغي معرفة هذه الأمور.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فصــل

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله؛ فلم تُوقِعها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله في الطاعة بمراعاة ستة أمور قد تقدّمت، وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود مِنّة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسَه: هل وَفَّى هذه المقامات حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل**)، محاسبة النفس بعد العمل؛ هل حصل تقصير، هل حصل فيه نقص.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أحدها: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله؛ فلم تُوقِعها على الوجه الذي ينبغي**)، عن التقصير، يحاسب نفسه عن التقصير الذي حصل في عمله.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا سلم من الصلاة يقول: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ**»[1]، ثلاث مرات. يستغفر من ماذا، وهو قد صلى، طاعة، كيف، هل يستغفر من الطاعة؟!

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٥) (٥٩١) عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

لا، يستغفر من النقص؛ لأن الإنسان عرضة للخطأ مهما كان، الرسول يستغفر الله بعد الصلاة، يستغفر الله بعد الصلاة، فكيف بالذي لا يستغفر بعد الذنب؟!

بحاجة أنه يستغفر بعد الطاعة؛ لأنها يحصل فيها نقص، يحصل فيها قصد لغير الله، يحصل فيها، ولا يزكي نفسه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الإخلاص في العمل)**، الإخلاص لله في العمل؛ فلا يكون له قصد آخر: لا طمع دنيوي ولا محبة جاه ولا محبة مدح ولا ثناء من الناس، إنما يكون قصده وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والنصيحة لله فيه)**، النصيحة لله، النصيحة لله، قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». قالوا: لِمَنْ يا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِلهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

بدأ بالله، النصيحة لله؛ بأن تنصح لله، تخلص عملك لله، تستغفر من التقصير إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومتابعة الرسول فيه)**، هذا الشرط الثاني، الشرط الثاني: متابعة الرسول في العمل؛ لا يكون العمل مبتدعًا على غير سنة الرسول، فإنه لا يقبل.

=إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**».

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

مردود عليك، لو الليل والنهار تعمل، وهو بدعة يضرك ولا ينفعك، أما إذا كان سنة ولو كان يسيرًا فإن الله يبارك فيه ويضاعفه، فالمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحذر من البدع.

أو أن الإنسان يعمل بجهل، ليس عنده علم، يعمل بجهل، ويجتهد بجهل.

لا يصح هذا، لابد أن يكون عملك على علم وعلى تطبيق صحيح لسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شرطان أساسيان في قبول العمل: الإخلاص لله، ومتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ **بَلَىٰ** ﴾. رد على اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿**لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ**﴾ [البقرة:١١١].

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ [البقرة:١١٢]: يعني: يدخلها مَن توفر فيه هذان الشرطان، من أي لون، ومن أي أمة، ليس بخاص باليهود والنصارى.

من أي لون ومن أي أمة من توفر فيه هذان الشرطان فإن الله يقبل عمله.

﴿**مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ**﴾: هذا الإخلاص، ﴿**أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ**﴾: يعني أخلص نيته وتوجهه على الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٤٠).

الشرط الثاني: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي: متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. ولم يقل: أيكم أكثر عملًا، بل: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾. العبرة بالأحسن، والأحسن: من توفر فيه الشرطان: الإخلاص والمتابعة.

ولهذا قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ لما قرأ هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. قال: أَخْلَصُه وأَصْوَبُه. قيل: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُه وأصوبُه؟ قال: أخلصه: أن يكون خالصًا لوجه الله، وأصوبه: أن يكون صوابًا على سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا(١). بهذين الشرطين.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧].

لم يقل: أيهم أكثر عملًا، بل قال: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ﴾. فالعبرة بالأحسن ولو كان قليلًا، وليست العبرة بالأكثر إذا لم يكن أحسن.

ولن تحصل على هذين الشرطين إلا إذا تعلمت التوحيد، وتعلمت ضده، وهو الشرك، وتعلمت سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يحصل إلا بهذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وشهود مشهد الإحسان فيه)**، وهو الإخلاص، الإحسان فيه: هو المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه: الثعلبي في تفسيره (٩/ ٣٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥)، والبغوي في تفسيره (٥/ ١٢٤).

قولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وشـهود تقصـيره فيـه بعد ذلـك كله)**، لا يزكي نفسـه، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩].

فلا تزكي نفسك، ولا تمدح نفسك، ولكن اعتبر نفسك مقصرًا مهما عملت؛ لأنك لا تدري هل عملك صحيح أو غير صحيح، أو غير مقبول أو غير مقبول، لا تدري.

الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. وهل تضمن لنفسك أنك من المتقين؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيحاسب نفسَه: هل وَفَّى هذه المقامات حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟)**، هذا يحتاج إلى علم، دراسة، ويحتاج إلى تعلم، تفقه في دين الله.

الثاني: أن يحاسب نفسه على عمل كان تركُه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟

وهل أراد به الله والدار الآخرة؛ فيكون رابحًا فيه، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظَّفَرُ به.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟**)، العادات تتحول إلى عبادات؛ إذا أراد بالنوم- مثلًا- أن يقوم لصلاة الوتر والتهجد، وصلاة الفجر مع الجماعة؛ فإن نومه يكون عبادة.

النوم، تنام وأنت في عبادة؛ لأنك تقصد في هذا أن تتقوى به على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك نوم الصائم من أجل أن يتقوى على الصيام يكون عبادة أيضًا يؤجر عليه، يؤجر على النوم؛ لأنه يقصد به التقوي على عبادة الله.

العادات تتحول إلى عبادات إذا صلَحت نية العبد فيها، ونوى بها التقوِّي على العمل الصالح.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة**)، فإذا كان أراد به الله وهو مباح، أراد به الله والدار الآخرة؛ صار عبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظَّفَرُ به**)، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ

فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥،١٦].

من يريد بعمله الدنيا، علم الاخرة يريد به الدنيا هذا خاسر، وعمله تعب بلا فائدة.

فعلى المسلم أن يخلص نيته لله عَزَّوَجَلَّ، يحاسب نفسه على نيته في هذا العمل، يحذر من أن يكون قصده طمع الدنيا بعمل الآخرة، أن يكون قصده مدح الناس، يحاسب نفسه عن ذلك، وإلا فإنه تعب بلا فائدة، بل مضرة، ولا يحصل له من الدنيا إلا ما كُتِبَ له.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾: قيده بالإرادة.

فقوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود:١٥]. هذا مطلق يحمل على الآية الثانية، على الآية الثانية: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]: ربطه بالمشيئة والإرادة من الله عَزَّوَجَلَّ، بهذا القيد.

فصــل

وأضرّ ما عليه: الإهمالُ، وتركُ المحاسبة، والاسترسالُ، وتسهيلُ الأمور، وتمشيتُها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك.

وهذه حال أهل الغرور: يُغمِض عينيه عن العواقب، ويُمشِّي الحال، ويتكل على العفو؛ فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة.

وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأَنِس بها، وعَسُر عليه فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحِمْية أسهل من الفطام وتركِ المألوف والمعتاد.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فصل: وأضرّ ما عليه)**، هذا بعد الفصل الأول يبين أنه إذا لم يتحقق في الفصل الأول فإن عمله لن يكون مفيدًا ولا نافعًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأضرّ ما عليه: الإهمالُ، وتركُ المحاسبة، والاسترسالُ، وتسهيلُ الأمور، وتمشيتُها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك)**، تأمل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر:١٨].

انظر في عملك، العمل الصالح انظر فيه: ما هو قصدك فيه؟ ما نيتك فيه...؟ إلى آخره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه حال أهل الغرور: يُغمِض عينيه عن العواقب، ويُمشِّي الحال، ويتكل على العفو)**، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]: وهو الشيطان، الْغَرُور -بالفتح- هو الشيطان. فالدنيا تغر والشيطان يغر فعليك الحذر من هذين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذه حال أهل الغرور: يُغمِض عينيه عن العواقب، ويُمشِّي الحال، ويتكل على العفو)**، هذه خطيرة مسألة: أن الإنسان يعتمد على العفو، على الرجاء فقط؛ يقول: الله غفور رحيم.

نعم، الله غفور رحيم، لكن شديد العقاب أيضًا، الله شديد العقاب فلماذا تأخذ جانب وتترك الجانب الأخر؛ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

خذ الآية بطرفيها، لا تأخذ واحد منها، لا تأخذ جانب التخويف فقط وتترك الرجاء هذا فعل الخوارج، ولا تأخذ الرجاء وتترك التخويف هذا فعل المرجئة.

أما أهل السنة والجماعة فهم يجمعون بين الخوف والرجاء؛ يرجون رجاءً لا يعتمدون عليه فقط، ويخافون خوفًا لا يتركون معه التوبة والاستغفار وغير ذلك.

ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ﴾، الذين ذكرهم الله من الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿رَغَبًا﴾: هذا الرجاء، ﴿وَرَهَبًا﴾: الخوف؛ يجمعون بينهما، فالذي يعتمد على الخوف فقط هذا من الخوارج[١]، والذي يعتمد على الرجاء فقط هذا من المرجئة، وكلا الطائفتين ضال.

---

(١) تقدم التعريف بهم (ص١١٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة)**، لا تعتمد على الرجاء وان الله غفور رحيم، وأن الله تواب، نعم، هذا طيب، لكن لا تنسى أن الله شديد العقاب؛ الله قرن بينهما في آية واحدة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]. تأملوا هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنِس بها)**، إذا اعتمد على الرجاء سهل عليه مواقعة الذنوب؛ قال: الأمر سهل، الله غفور رحيم، ويعطي نفسه ما تشتهي، ويقول: الله غفور رحيم، يحيل على الرجاء فقط، وينسى العقوبة، وينسى غضب الله، هذا شأن المخذولين من المرجئة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنِس بها)**، مذهب المرجئة يسهل عليه الذنوب ويفتح له أبواب الشهوات وغير ذلك، ويحيل على أن الله غفور رحيم، يحيل على ذلك، وينسى أن الله شديد العقاب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وعَسُر عليه فطامها)**، فطام نفسه يعني؛ لأن النفس إذا أعطيتها ما تشتهي ثم أردت أن تمنعها لا تطيعك، هذا فطام، ولا تطيعك أن تفطمها.

أما لو أنك من الأول أخذت بزمامها وعودتها على طاعة الله، واعتادت على الصبر عن معصية الله سهل عليها ذلك، وصارت بيدك، تقودها، أما إذا أهملتها هي التي تقودك وأنت لا تقودها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولو حضره رشده لعلم أن الحِمْية أسهل من الفطام وتركِ المألوف والمعتاد)**، الحمية أسهل من الفطام؛ لأنه لو حماها من قبل الحمية التي يسميها الناس: الحجبة، المريض يحتمي -يعني: يحتجب- من الأطعمة ومن الأشياء الضارة.

لو استعمل الحمية فإن هذا أسهل عليه من الفطام الذي يجعل نفسه مع الشهوات ثم يريد أن يمنعها ويفطمها.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني رجل من قريش ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله، قال: كان توبة بن الصِّمَّة بالرَّقَّة، وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هي إحدى وعشرون ألف يوم وخمس مائة يوم. فصرخ، وقال: يا ويلتا! ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟ ثمَّ خرَّ مغشيًّا عليه، فإذا هو ميت، فسمِعوا قائلًا يقول: «يا لكِ ركضةً إلى الفردوس الأعلى»[(١)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(طلحة بن عبيد الله)**، طلحة بن عبيد الله: أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كان توبة بن الصمَّة)**، توبة: اسمه توبة، رجل اسمه كان توبة بن الصِّمَّة، غير دريد بن الصمَّة هذا مات كافرًا، هذا اسمه: توبة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بالرقة)**، هذا اسم مكان.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص١٠٦).

وجِمَاع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على الفرائض، فإن تذكَّر فيها نقصًا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح.

ثمَّ يحاسبها على المناهي؛ فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذِّكْر والإقبال على الله، ثمَّ يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشته يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردتِ بهذا؟ ولمن فعلتيه؟ وعلى أي وجه فعلتيه؟

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجِمَاع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على الفرائض)**؛ لأنها هي أحب إلى الله من النوافل.

في الحديث القدسي الله سبحانه يقول: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»(١). فأولًا الفرائض.

أما أنك تجتهد بالنوافل، وتتساهل وتضيع الفرائض النوافل لا تقبل إلا بعد الفرائض، لو أنك تصلي الليل والنهار وأنت مقصرًا في الفرائض لم تنفعك صلاتك، أما لو أنك حافظت على الفرائض ولم تأت بالنوافل فالفرائض فيها خير كثير.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثمَّ يحاسبها على المناهي؛ فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة)**، هذا شيء يسير؛ إذا صرت على قيد الحياة، ولك ذنوب، عندك الحل يسير: أن تتوب إلى الله، ويمحو الله ذنوبك كلها بكلمة واحدة، تستغفر الله وتتوب إليه بصدق فيمحو الله جميع خطاياك وسيئاتك.

لكن إذا مت وأردت أن تطلب العودة إلى الدنيا، يقال لك: هيهات، لا رجوع على الدنيا.

وعند الموت كل إنسان يندم عند الموت؛ إن كان محسنًا يندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا يندم ألا يكون تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية)**، التوبة والاستغفار هذا مما يمحو الله به الذنوب إذا قبلها الله.

ثم الحسنات، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وهي الفرائض، الفرائض يكفر الله بها الخطايا الصغائر في اليوم والليلة خمس مرات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذِّكْر والإقبال على الله)**، فيستدرك ما فاته، بإمكانه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ثمَّ يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشته يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردتِ بهذا؟)**، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

يحاسب نفسه في مشيه، يحاسب نفسه في أخذه وعطاءه، يحاسب نفسه على كل فعل فعله هل هو طاعة أم معصية، أين الذي يفكر في هذا؟!

ولكن الكثير يحاسبون أنفسهم بالأموال، كم ربح، وكم خسر، أين البضاعة الفلانية، الدين الذي على فلان هل سدده أم لم يسدده إلى آخرها، أما أنه يجلس ليحاسب نفسه على عمله، هذا قليل.

ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وديوان: كيف فعلته؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة؛ قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:٦، ٧].

وقال تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٨]. فإذا سُئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين؟

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وديوان: كيف فعلته؟)**، كل عمل مكتوب في ديوانه؛ ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: خائفين.

﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]. فكر في هذا، وما أقربه منك!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة)**، لما فعلته: هذا سؤال عن الإخلاص؛ هل فعلته لله أو لغيره.

كيف فعلته؟ هذا سؤال عن المتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هل فعلته على سنة الرسول أو فعلته عل تقليد فلان وعلان، أم على ما استحسنته أنت؟ لابد أن تحاسب نفسك عن هذا؛ لما فعلت، وكف فعلت؟

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣])، ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾: أقسم بنفسه سبحانه ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾: أي الخلق ﴿أَجْمَعِينَ﴾: لا يترك أحد.

﴿ عَمَّا ﴾: يسألهم عن ماذا؟ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣]. من خير أو شر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦، ٧])، يسأل الله الأمم يوم القيامة، ويسأل الرسل، يسأل الله الأمم والرسل.

ولهذا جاء في الأثر كلمتان يُسأل عنها الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعملون؟ وكيف أجبتم المرسلين؟

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقال تعالى:** ﴿لِّيَسْـَٔلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:٨])، فإذا كان الصادقون يسئلون، فكيف بغيرهم؟!!

قال مقاتل: «يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم؛ لكي يسأل الله الصادقين -يعني به: النبيين- عن تبليغ الرسالة»[١].

وقال مجاهد: «يسأل المبلِّغين المؤدِّين عن الرسل»، يعني: هل بلَّغوا عنهم كما يسأل الرسلَ: هل بلَّغوا عن الله؟[٢].

والتحقيق: أن الآية تتناول هذا وهذا، فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الرسل عن تبليغ رسالاته، ويسأل المبلِّغين عنهم عن تبليغ ما بلَّغتهم الرسل.

ثمَّ يسأل الذين بَلَغتهم الرسالة: ماذا أجابوا المرسلين؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال مقاتل: «يقول تعالى: أخذنا ميثاقهم؛ لكي يسأل الله الصادقين -يعني به النبيين- عن تبليغ الرسالة»)، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٧، ٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثمَّ يسأل الذين بَلَغتهم الرسالة: ماذا أجابوا المرسلين؟)، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩].

---

(١) أورده الواحدي في التفسير البسيط (١٨/ ١٨٣).

(٢) تفسير مجاهد (ص: ٥٤٧). وأخرجه عنه من طرق الطبري في التفسير (١٩/ ٢٤).

قال قتادة: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيُسأل عن المعبود وعن العبادة(١).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨].

قال محمد بن جرير: «يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله عَزَّوَجَلَّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟ وفيمَ أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟»(٢).

وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمته وحقه»(٣).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال محمد بن جرير: «يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله عَزَّوَجَلَّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ ومن أين وصلتم إليه؟)، يعني: النِّعَم، النعم التي بين أيديكم: كيف حصلتم عليها وكيف استعملتموها؟ يسئلون عنها يوم القيامة.

والله إن هذا الكتاب إن فيه فوائد عظيمة، فيه تذكير ووعظ، لكن أين الذي يريد أن يهتم بهذا الأمر؟!

---

(١) أورده شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠٥) عن أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٦٠٢).
(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٢٤/ ٦١٠).

والنعيم المسؤول عنه نوعان:

نوع أُخذ من حِلِّه وصُرِفَ في حقه، فيُسأل عن شُكره.

ونوع أُخذ بغير حِلِّه، وصُرف في غير حقه، فيُسأل عن مُسْتخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسؤولًا، ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يُناقش الحساب.

وقد دلَّ على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨].

يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: من الصالحات التي تُنجِيه، أم من السيئات التي تُوبِقه؟

قال قتادة: «ما زال ربُّكم يُقرِّب الساعة حتى جعلها كغدٍ»(١).

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا كان العبد مسؤولًا، ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢٢/ ٥٤٧).

كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، **فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يُناقش الحساب**)، ما زال السياق في محاسبة النفس، الإنسان إذا لم يحاسب نفسه في هذه الدنيا فيحاسب يوم القيامة، الحساب لابد منه؛ يحاسب على أعماله ولا يهمل.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٦، ٣٧] إلى آخر السورة.

فلا يترك الإنسان سدى، عليه، لابد، عليه مسؤولية في هذه الحياة، لكن إذا حاسب نفسه في هذه الدنيا وصفى حسابه خف عليه الحساب يوم القيامة وقد لا يحاسب، أما إذا أهمل نفسه ثقل عليه الحساب يوم القيامة كما في الحديث: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»(١).

والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨].

انظروا في أعمالكم التي قدمتموها، وأنتم سائرون إليها ومجزيون بها.

انظروا فيها ما دمتم في هذه الدنيا؛ فإن كان فيها نقص أو فيها خلل فأصلحوه بإمكانكم هذا بالتوبة، بالاستغفار، بالرجوع إلى الحق، بأداء المظالم إلى أهلها، التخلص من حقوق الناس.

أنت الآن معك مهلة راجع نفسك، تصفي حسابك.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣، ٤٩٣٩، ٦٥٣٦، ٦٥٣٧)، ومسلم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبته: «أيها الناس! حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر؛ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]»[١]. فعلى المسلم أن يتنبه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقد دلَّ على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر:١٨])**، ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ يعني: يوم القيامة، سُمِيَ غدًا لأنه قريب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: من الصالحات التي تُنجِيه، أم من السيئات التي تُوبِقه؟)**، فما كان من الحسنات يتزود منها ويكثر منها، وما كان من الذنوب يتوب منها ويرجع إلى الحق بإمكانه هذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال قتادة: «ما زال ربُّكم يُقرِّب الساعة حتى جعلها كغدٍ»)**، حتى جعلها كغدٍ: كاليوم الذي يلي يومك هذا هو الغد، اليوم الذي يلي يومك يقال له: غدًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها)**، من فوائد محاسبة النفس وتصفية الأعمال: صلاح القلب؛ لأن السيئات تنقطع عنه والتوبة تجلوه.

أما إذا ترك الإنسان الذنوب تتراكم على قلبه فإن قلبه يتأثر بها ويمرض، وقد يموت بها.

(١) سبق تخريجه (ص٦٨٤).

فصـــل

وفي محاسبة النفس عدة مصالح:

منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مَقَتها في ذات الله.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، قال: «لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتى يَمقُت الناسَ في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه؛ فيكون لها أشدَّ مقتًا»[١].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي محاسبة النفس عدة مصالح: منها: الاطلاع على عيوبها)**، محاسبة النفس فيها عدة مصالح: أولها، أو منها: الاطلاع على عيوبها؛ لأن النفس لها عيوب؛ إذا لم تطلع عليها وتصلحها أهلكتك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مَقَتها في ذات الله)**، فإذا حاسبت نفسك واطلعت على عيوبها أصلحتها، بإمكانك هذا الآن، أما إذا غفلت عنها تراكمت عليها الذنوب ثم أهلكتك، وفاتت عليك الفرصة أيضًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، قال: «لا يفقه الرجل كلَّ الفقه حتى يَمقُت الناسَ في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه؛ فيكون**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص١١٠)، وأبو داود في الزهد (ص٢١٢)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢١١).

لها أشدَّ مقتًا»)، يبدأ بنفسه، ينكر عيوب الناس، ولكن يبدأ بنفسه فينكر عيوبها أولًا، أما إذا انشغل بعيوب الناس ونسي عيب نفسه فإنه حينئذ يزداد جرمه وإثمه.

فعليه أنه ينظر في عيوب نفسه أولًا، ثم ينظر في عيوب الناس وينصحهم ويأمرهم وينهاهم؛ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣]. فلا تنشغل بعيوب الناس وتنسى عيوب نفسك.

ابْـدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَـنْ غَيِّهَا ... فَـإِذَا انْتَهَـتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ[(١)]

◆◆◆

(١) البيت من أبيات أنشدها ابن السماك الواعظ كما في البصائر والذخائر (٥/ ١٣١)، وأدب الدنيا والدين (١/ ٣٤)، وشعب الإيمان (٣/ ٣٢٥)، وتاريخ دمشق (٣٤/ ١٥٩).

وقال مُطَرِّف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسي لقَلَيْتُ الناسَ»[١].

وقال مُطَرِّف في دعائه بعرفة: «اللهم لَا تَرُدَّ الناس لأجْلي»[٢].

وقال بكر بن عبد الله المُزَني: «لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غُفِر لهم، لولا أني كنت فيهم»[٣].

وقال أيوب السَّخْتِياني: «إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمعْزِل»[٤].

ولما احتُضِر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة، فقال له حماد: يا أبا عبد الله، أليس قد أمنتَ مما كنت تخافه، وتَقْدَمُ على مَنْ ترجوه، وهو أرحم الراحمين؟ فقال: يا أبا سلمة، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله، إني لأرجو ذلك[٥].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال مُطَرِّف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسي لقَليتُ الناس»)، يقول: لولا ما أعلم من نفسي من العيوب، «لقليت الناس»: يعني: أبغضتهم، ولكن نفسه أولى بهذا: أن ينظر إلى عيوبها.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص: ٧٢). وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبير (٩/ ١٤٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢١٠) بلفظ: «لو حَمِدتُ نفسي لقليت الناس».

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٦).

كثير من الناس بالعكس؛ ينظرون في عيوب الناس ويغتابونهم ويتكلمون فيهم، وأما عيوب نفسه فلا يذكرها ولا يلتفت إليها! هذه مصيبة على الإنسان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال مُطرِّفٌ في دعائه بعرفة: «اللهم لا تَرُدَّ الناس لأجلي»)**، يحتقر نفسه، يقول: لا تؤاخذ الناس بذنوبي أنا، أنا معهم في عرفة.

هذا اعتراف بذنبه، وخوف من الله؛ فهو يقول: لا تَرُدَّ الناس من هذا الموقف ولا تحرمهم الإجابة بسببي، هذا من احتقار النفس ومحاسبتها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال بكرُ بن عبد الله المُزني: «لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غُفِر لهم، لولا أني كنت فيهم»)**، هذا مثل قول مُطَرِّف.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وقال أيوب السختياني: «إذا ذُكر الصالحون كنتُ عنهم بمعْزِل»)**، يذم نفسه، ويقول: لست مع الصالحين إذا ذكروا، هذا من باب توبيخ نفسه، ليس من باب اليأس، لكنه توبيخ لنفسه، وعدم تزكية لها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ولما احتُضِر سفيان الثوري)**، سفيان الثوري الإمام الجليل الفقيه، وكان من أبرز العلماء، وأبرز الزهاد والصالحين في وقته رَحِمَهُ اللَّهُ، من المحَدِّثينَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فقال له حماد: يا أبا عبد الله» أليس قد أمنت مما كنت تخافه؟ وتقدمُ على مَنْ ترجوه، وهو أرحم الراحمين؟ فقال: يا أبا سلمة! أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله، إني لأرجو ذلك)**، يقول: أمنت مما تخافه،

يعني: الدنيا انتهت، طوال حياتك وأنت في الدنيا وأنت تخاف فالآن الدنيا انتهت.

«وقدمت على من ترجوه»: وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يطمئنه بهذا الكلام.

وكذلك المسلم عند الاحتضار وعند حالة نهاية أجله يحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ.

في الحديث: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** عَزَّوَجَلَّ»(١)، فعند الموت والاحتضار يحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، والله عند حسن ظن عبده به.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وذكر ابن زيد عن مسلم بن سعيد الواسطي، قال: أخبرني حمَّاد بن جعفر بن زيد، أن أباه أخبره، قال: خرجنا في غزوة إلى كابُل، وفي الجيش صِلَةُ بن أَشْيَمَ، فنزل الناس عند العَتَمة، فصلُّوا ثم اضطجع، فقلت: لأرمُقَنّ عمله، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضةً قريبًا منا، فدخلتُ على إثره، فتوضأ، ثم قام يصلي. وجاء أسدٌ حتى دنا منه، فصعدت في شجرةٍ، فتراهُ التفت أو عدَّهُ جروًا! فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم، ثم قال: أيها السبُعُ، اطلب الرزق من مكان آخر، فولَّى وإن له لزئيرًا، أقول: تصدّع الجبال منه. قال: فما زال كذلك يصلي، حتى كان عند الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يجترئ أن يسألك الجنة؟! قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحتُ وبي من الفترة شيءٌ الله به عالم(١).

وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مئة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدةً»(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقلت: لأرمُقَنّ عمله)، عمل صِلة، ماذا يعمل؛ صلى الناس وهو قد صلى، هل ينام أو لا ينام؟

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٢٩٦)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٨٠).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(حتى إذا قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضةً قريبًا منا، فدخلتُ على إثره، فتوضأ، ثم قام يصلي، وجاء أسدٌ حتى دنا منه)**، الغيضة: هي الشجرة الملتفة.

انظر: صبر لما أن نام الناس؛ خوفًا من الرياء، ثم قام ودخل في هذا الشجر خشية أن يراه أحد، هذا من الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

توضأ وجعل يصلي، جاء الأسد من هذه الغيضة؛ لأن العادة أن هذه الغيضات يصير فيها أسود تفترس، جاءه الأسد فخاف أن يفترسه؛ لأنه ينظر إليه، الأسد استسلم ولم يعمل شيئًا؛ لأن هذا الرجل في حفظ الله، معه ملائكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجاء أسدٌ حتى دنا منه، فصعدت في شجرةٍ)**، خوفًا من الأسد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فولَّى وإن له لزئيرًا، أقول: تصدَّع الجبال منه)**، زئير الأسد قوي حتى يؤثر في الجبال، الجبال تضج مع الصوت، صدى، مع صدى الصوت من قوة صوته ومع هذا حمى الله هذا الولي من أوليائه من هذا الأسد، وسمع كلام هذا الولي بقوله: انصرف، التمس الرزق في غير هذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا)**، كأنه بات على السرر والحشايا مع أنه سهران طول الليل ورجع نشيطًا؛ لأن الطاعة تقوي العبد وتنشطه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحتُ وبي من الفترة شيءٌ الله به عالم**)، وأما هو فإنه تأثر بالسهر، وأما هذا العابد فإنه رجع نشيطًا كأنه لم يسهر؛ لأن الطاعة تقوي صاحبها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مئة خصلة من خصال الخير؛ ما أعلم أن في نفسي منها واحدةً**)، يحقر نفسه، هذا من تحقير النفس، وأن الإنسان لا يزكي نفسه.

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قَدَرَ أحد أن يجلس إليَّ»[١].

وذكر ابن أبي الدنيا عن الجَلْدِ بن أيوب، قال: «كان راهب في بني إسرائيل في صومعة منذ ستين سنةً، فأُتي في منامه، فقيل له: إن فلانًا الإسكاف خير منك -ليلة بعد ليلة-. فأتى الإسكاف، فسأله عن عمله، فقال: إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننته أنه في الجنة وأنا في النار. ففُضِّل على الراهب بإزرائه على نفسه»[٢].

وذُكر داود الطائي عند بعض الأمراء، فأثنوا عليه، فقال: «لو يعلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذلَّ لنا لسانٌ بذكر خير أبدًا»[٣].

وقال أبو حفص: «من لم يَتَّهِمْ نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرَّها إلى مكروهها في سائر أوقاته؛ كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها»[٤].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قَدَرَ أحد أن يجلس إليَّ»)، يعترف بذنوبه، يقول: لو كان لها ريح يشمونه الناس

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٨٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٨٣).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٨٥).
(٤) أورده القشيري في الرسالة (١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

لم يجلسوا معي من ريح ذنوبي، هذا من الاعتراف بالذنوب وعدم الاغترار بالنفس وتزكية النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال: «كان راهب في بني إسرائيل في صومعة منذ ستين سنة**)، الراهب: هو العابد، وكان الرهبان في بني إسرائيل في النصارى خصوصًا هم الذين ابتدعوا الرهبانية.

والرهبانية معناها: ترك الدنيا والاشتغال بالعبادة؛ يتخذون صوامعَ، مقصورة ويخلو فيها بربه عَزَّوَجَلَّ، وهذا -كما سمعتم- أخذ فيها سنين طويلة للعبادة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقيل له: إن فلانًا الإسكاف خير منك**)، الإسكاف من النصارى، والإسكاف أقل من الراهب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ليلة بعد ليلة**)، ليلة بعد ليلة: يعني ليس دائمًا منقطع العبادة، يعني ليلة ينام وليلة يصلي، يعطي نفسه راحةً.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فقال: إني رجل لا يكاد يمر بي أحد إلا ظننته أنه في الجنة وأنا في النار**)، يخاف على نفسه، يرجو الجنة للمارة ويخاف على نفسه من النار، وهذا من محاسبة النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ففُضِّل على الراهب بإزرائه على نفسه**)، باحتقار نفسه، إزراء: يعني: احتقار نفسه واحتقار عمله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وذُكر داود الطائي عند بعض الأمراء، فأثنوا عليه، فقال: «لو يعلم الناس بعض ما نحن عليه ما ذلّ لنا لسانٌ بذكر خير أبدًا»**)، يحقر نفسه أيضًا، داود الطائي يحقر نفسه وهو من العباد.

يقول: لا يدرون عنا، يحسنون الظن بنا ونحن لسنا كذلك، هذا من تحقير النفس والاعتراف بالذنوب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال أبو حفص: من لم يَتَّهِمْ نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرَّها إلى مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها»)**، الإنسان يتهم نفسه دائمًا ويحاسبها ولا يعطيها ما تشتهي، بل يجرها إلى الطاعة، ويصرفها عن الهوى، يصرف نفسه عن الهوى فحينئذ ينجو من شر نفسه.

أخوف ما على الإنسان نفسه ثم الشيطان، الشيطان أخف من ضرر النفس، النفس أولًا ثم الشيطان.

فالإنسان يأخذ بزمام نفسه؛ ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

فالنفس داعية إلى المهالك، مُعينةٌ للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متَّبعة لكل سوء؛ فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خَطَر لها: الخروج منها، والتخلصُ من رِقِّها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله، وأعرفُ الناس بها أشدُّهم إزراءً عليها، ومقتًا لها.

قال ابن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا علي بن الحسن، حدثنا المُقَدَّمي، حدثنا عامر بن صالح عن أبيه، عن ابن عمر، أن عمر بن الخطاب قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري. فقال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فالنفس داعية إلى المهالك، مُعينةٌ للأعداء، طامحة إلى كل قبيح)**، ولهذا يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»[2].

فدل على أن النفس لها شرور يخاف الإنسان منها، وهي أشد على الإنسان من الشيطان، وجهاد النفس هو أصعب الجهاد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فالنفس داعية إلى المهالك، مُعينةٌ للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متَّبعة لكل سوء؛ فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة)**، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

---

(١) عزاه إلى ابن أبي حاتم أيضًا: السيوطيُّ في الدر المنثور (٥/ ٤٥)، وتبعه الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٣٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص٦٥٧).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالنعمة التي لا خَطَر لها)**، النعمة التي لا خطر لها يعني: لا تدرك بالثمن والقيمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالنعمة التي لا خَطَر لها: الخروج منها، والتخلصُ من رِقِّها)**، الخروج منها يعني: من النفس، والتخلص منها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله)**، أعظم حجاب بين العبد وبين الله، إذا أعطاها ما تهوى وضيعها أهلكته.

«الْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللّهِ الْأَمَانِيَّ».

وأما **«الْكَيِّسُ»** يعني: العاقل، فهو **«مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»** يعني: حاسبها **«وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»**(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأعرفُ الناس بها أشدُّهم إزراءً عليها، ومقتًا لها)**، لا يزكي نفسه ولا يمدحها، بل يكون دائمًا يوبخها ويحاسبها، ويلزمها بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، يمسكها عن هواها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري، فقال قائل: يا أمير المؤمنين! هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾)**، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهذه من صفات جنس الإنسان، جنس الإنسان مجبول على الظلم والكفر لنعم الله عَزَّوَجَلَّ، كفار لنعم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٦٨٢).

قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا بقية بن صُهبان الهُنائي، قال: سألت عائشة عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر:٣٢]. الآية، فقالت: يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، شهد له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم»؛ فجعلت نفسها معنا(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا بقية بن صُهبان الهُنائي، قال: سألت عائشة عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر:٣٢]. **الآية**)، الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعني القرآن.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾: وهم هذه الأمة، الله اصطفاها واختارها.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾: فصاروا مع هذا الكتاب ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣/ ٩٢، ٩٣)، والطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٦٧)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٦٢). وزاد السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٢٤) عزوه إلى: عبد بن حميد، وابن مردويه.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: وهو الذي يخلط بين الحسنات والسيئات التي دون الشرك، هذا تحت مشيئة الله، وظالم لنفسه؛ لأنه وضعها في غير وضعها، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فهو ظالم لنفسه.

وكان الواجب عليه أن يضبط نفسه، فهذا خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ولكنه لم يصل إلى حد الكفر والشرك، هذا تحت مشيئة الله؛ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: انظر! بدأ به.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: وهو أحسن من الظالم لنفسه الذي اقتصر على الواجبات وترك المحرمات، لم يفعل شيئًا من المحرمات، ولم يترك شيئًا من الواجبات، هذا مقتصد، يعني: اختصر العمل.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر:٣٢]: هذا أعلاهم؛ ﴿سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢]: هؤلاء هم السابقون المقربون: الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات.

فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وبعض المباحات من باب الاحتياط، هؤلاء هم السابقون المقربون أعلى الدرجات.

فهذه الأمة فيها هذه الطبقات الثلاث: ظالم لنفسه، مقتصد، سابق بالخيرات، كلهم في الجنة، الظالم لنفسه، والمقتصد والسابق بالخيرات: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر:٣٣].

كل هؤلاء الثلاثة يدخلون الجنة، وهم درجات عند ربهم، فهذا فيه فضل هذا القرآن، وفضل هذه الأمة على سائر الأمم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**«وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم»؛ فجعلت نفسها معنا**)، يعني من باب التواضع، وإلا فهي من أوائل السابقين المقرَّبين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، أم المؤمنين الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، هي مع السابقين الأولين، لكن تواضعًا منها جعلت نفسها مع المقصرين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شَرِيكٌ، عن عاصم، عن أبي وائل عن مسروق، قال: دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي لَمَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبَدًا». قَالَ: فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مِنْ عِنْدِهَا مَذْعُورًا حَتَّى دَخَلَ عَلَى عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ: اسْمَعْ مَا تَقُولُ أُمُّكَ! فَقَامَ عُمَرُ حَتَّى أَتَاهَا، فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَسَأَلَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكِ بِاللهِ، أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَتْ: لَا، وَلَنْ أُبَرِّئَ بَعْدَكَ أَحَدًا[1].

فسمِعت شيخنا يقول: إنما أرادت أني لا أفتح عليَّ هذا الباب، ولم تُرِدْ أنك وحدَك البريء من ذلك دون سائر الصحابة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عن أبي وائل عن مسروق، قال: دخل عبد الرحمن على أم سلمة، فقالت: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي لَمَنْ لا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبدًا»)، من الأمة من لا يرى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يحجب عنه؛ لأنه أحدث بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويزاد عن الحوض يوم القيامة.

فيقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي. فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَاذَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[2].

ولهذا خاف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون من هؤلاء، مع سبقه وأنه من أوائل السابقين إلى الجنة والمقربين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومع هذا خاف على نفسه أن يكون ممن يُحجب عنه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة ولا يراه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٤/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان لا يزكي نفسه؛ انتقل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مكان ودخل على أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يسألها: هل هو مع الذين لا يرون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة؟!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فسمعت شيخنا يقول)**، يعني شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(إنما أرادت أني لا أفتح عليَّ هذا الباب، ولم تُرِدْ أنك وحْدَك البريء من ذلك دون سائر الصحابة)**، «ولن أبرّئ بعدك أحدًا»: ليس معناها أنه ليس هناك أحدًا بريء من صحابة رسول الله، ولكن لا تفتح على نفسها الناس يأتونها، وكل يسألها، فهي أرادت أن تغلق الباب.

مثل قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لما ذكر الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب- وقام عُكَّاشة بن مِحْصَنٍ، فقال: «ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: **اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**، ثُمَّ قَامَ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[١]، فأغلق الباب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئلا يقوم من لا يستحق هذه المرتبة.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥، ٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

ومَقْتُ النفس في ذات الله من صفات الصدِّيقين، ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة أضعافَ أضعافِ ما يدنو بالعمل.

ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار، قال: «إن قومًا من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد، فجاء شاب حتى قام على باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا؛ يزري على نفسه، فأوحى الله إلى نبيهم أنَّ فلانًا صِدِّيق»[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن بن أَتَش، حدثنا منذر، عن وهب: «أن رجلًا سائحًا عبَدَ الله عَزَّوَجَلَّ سبعين سنة، ثم خرج يومًا، فقلَّلَ عمله، وشكا إلى الله منه، واعترف بذنبه، فأتاه آتٍ من الله فقال: إن مجلسك هذا أحب إليّ من عملك فيما مضى من عمرك»[(٢)].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فجاء شاب حتى قام على باب المسجد، فقال: ليس مثلي يدخل معكم، أنا صاحب كذا، أنا صاحب كذا؛ يزري على نفسه، فأوحى الله إلى نبيهم أنّ فلانًا صِدِّيق»)، هو هاب أن يدخل معهم؛ لأنه يحتقر نفسه، فأوحى الله إلى نبيهم أن هذا الرجل صِدِّيق؛ فدل على أن الذي يحاسب نفسه أنه من الصِّدِّيقينَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٧٧).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٤٧)، وأبو داود في الزهد (ص٣٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(عن وهب: «أن رجلًا سائحًا عبَدَ الله** عَزَّوَجَلَّ **سبعين سنة، ثم خرج يومًا، فقلَّلَ عمله، وشكا إلى الله منه، واعترف بذنبه، فأتاه آتٍ من الله فقال: إن مجلسك هذا أحب إليّ من عملك فيما مضى من عمرك»)**، اعترافه على نفسه بالتقصير خير من عمله طيلة هذه السنين؛ هذا دليل على فضل محاسبة النفس، وعدم تزكيتها.

قال أحمد: وحدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو هلال، حدثنا قتادة، قال: قال عيسى ابن مريم: «سلوني؛ فإني ليِّن القلب، صغير عند نفسي»[1].

وذكر أحمد أيضًا عن عبد الله بن رباح الأنصاري، قال: «كان داود ينظر أَغمص حلْقةٍ في بني إسرائيل، فيجلس بين ظهرانَيْهِم، ثم يقول: يا ربِّ، مسكين بين ظهرانَيْ مساكينَ»[2].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال عيسى ابن مريم: «سلوني، فإني ليِّن القلب، صغير عند نفسي»)**، صغير عند نفسه، وهو عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أولي العزم من الرسل، وهو يحقر نفسه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال: «كان داود ينظر أَغمص حلْقةٍ في بني إسرائيل، فيجلس بين ظهرانَيْهِم، ثم يقول: يا ربِّ، مسكين بين ظهرانَيْ مساكينَ»)**، داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبي الله كان يجلس مع من هم دونه في المنزلة من المساكين والضعفاء، ويقول: مسكين مع مساكين، مع أنه نبي الله، وأنه الذي أتاه الله الزبور، مع أنه ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، مع أنه يصوم يومًا ويفطر يومًا[3]، مع أنه يجاهد في سبيل الله ويقاتل، مع أنه يأكل من كسب أكل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٥٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٦٢).

(٣) أخرج البخاري (١١٣١، ٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩) صحيح مسلم (٢/ ٨١٦).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ، صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ، صَلَاةُ دَاوُدَ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ **كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا**».

يده، ولا يأكل من أموال الدولة، يصنع الدروع ويبيعها ويأكل منها، هذه الفضائل فيه ومع هذا لم تغره نفسه، بل يذهب ويجلس مع الفقراء والمساكين، لا يجلس مع الأكابر.

وذُكر عن عمران بن مُسْلِم القصير، قال: قال موسى: «يا رب، أين أبغيك؟ قال: ابْغِني عند المنكسرةِ قلوبهُم؛ فإني أدنو منهم كل يوم باعًا، ولولا ذلك انهدموا»(١).

وفي كتاب «الزهد» للإمام أحمدَ: «أن رجلًا من بني إسرائيلَ تعبَّد ستين سنةً في طلب حاجة، فلم يظفر بها، فقال في نفسه: والله لو كان فيكَ خير لظفِرتَ بحاجتك. فأُتِيَ في منامه، فقيل له: أرأيتَ إزراءَك على نفسِك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السِّنينَ»(٢).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**قال موسى: «يا رب، أين أبغيك؟ قال: ابْغِني عند المنكسرةِ قلوبهُم؛ فإني أدنو منهم كل يوم باعًا، ولولا ذلك انهدموا»**)، موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ سأل ربه: أين يجد ربه؟ قال: عند المنكسرين، المنكسرة قلوبهم من أجلي الذين يحاسبون أنفسهم لله عَزَّوَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**«أن رجلًا من بني إسرائيلَ تعبَّد ستين سنةً في طلب حاجة، فلم يظفر بها، فقال في نفسه: والله لو كان فيكَ خير لظفِرتَ بحاجتك. فأُتِيَ في منامه، فقيل له: أرأيتَ إزراءَك على نفسِك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السِّنينَ»**)، كما سبق في الرجل الذي مثل هذا الذي كان يعبد الله ستين سنة، في مرة، في فترة حقر نفسه، ويقلل من عمله، فقال: محاسبتك لنفسك، والنظر في تقصيرك خير من عبادة ستين سنة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٦٤).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٨١)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص٩٤).

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله عليه. ومن لم يعرف حق الله عليه فإن عبادته لا تكاد تُجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا جرير بن حازم، عن وهب، قال: «بلغني أن نبي الله موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مرَّ برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا ربِّ ارحمه؛ فإني قد رحمتُه. فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى ينقطع قواه ما استجبتُ له حتى ينظر في حقِّي عليه»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله عليه)**، إذا قلل من عمله عرف حق الله عليه؛ لأن حق الله عظيم مهما اجتهدت في العبادات والطاعات لن تؤدي حق الله؛ لأن حق الله عظيم.

ولهذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**(٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(عن وهب)**، وهب: يعني وهب بن مُنَبِّهٍ، كان من أحبار اليهود، وأسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٧٤).

(٢) تقدم تخريجه (ص١٦).

فمِن أنفع ما للقلب: النظر في حق الله على العبد؛ فإن ذلك يُورِثه مقتَ نفسِه، والإزراء عليها، ويخلِّصه من العُجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه.

وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته؛ فإن من حقه أن يُطاع ولا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر[(١)].

فمَن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِم عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدٍّ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أُحيل على عمله هلك.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمِن أنفع ما للقلب: النظر في حق الله على العبد)**، مما يعينك على استقلال عملك والنظر في تقصيرك: أن تعرف حق الله عليك، حق الله عليك عظيم ولن تقوم به، ولكن الله غفور رحيم سبحانه.

فإذا قمت بما تستطيع الله يغفر لك ما لم تستطعه، وإلا فحق الله عظيم، ولن يبلغ أحد القيام بحق الله، حتى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(٢)].

---

(١) أخرج ابن المبارك في الزهد (١/ ٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٣٨) عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال في هذه الآية: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: «حَقَّ تُقَاتِهِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ».

(٢) سبق تخريجه (ص١٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن من حقه أن يُطاع ولا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر)**، هذا حق الله بهذه الكلمات الثلاثة: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

هذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: هو هذه الثلاثة: أن يطاع فلا يعصى، أن يذكر فلا ينسى، أن يشكر فلا يكفر، من يستطيع هذا؟ لا يستطيع هذا أحد.

ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وما لا تستطيعه فالله يغفره سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمَن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِم عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدٍّ له كما ينبغي)**، ولا قليل، ولا أقل القليل من حق الله.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسَهم من أنفسهم، وعلَّق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأمَّلت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم، ومن ها هنا انقطعوا عن الله، وحُجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسَهم من أنفسهم، وعلَّق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته)**، يذكر أن رجلًا في البحر انكسرت به سفينته، فلجأ إلى جزيرة، لجأ إلى جزيرة في البحر. فجلس فيها يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فأنبع الله له عينًا عذبة، وأنبت له شجرة تثمر له يأكل منها، ويعبد الله مدة طويلة، ومات وهو ساجد لله عَزَّوَجَلَّ، فلما مات قال الله له: ادخل الجنة برحمتي. قال: يا ربِّ، وعملي؟! قال الله سبحانه لملائكته: حاسبوه. فحاسبوه على نعم الله وعلى عمله، فوجدوا عمله لم يقابل نعمة البصر، وبقيت بقية النعم ليس لها مقابل، قال الله جَلَّوَعَلَا: اذهبوا به إلى النار. قال: يا ربِّ، أدخلني الجنة برحمتك. قال الله جَلَّوَعَلَا: أدخلوه الجنة برحمتي[1].

(١) أخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٢٧٨) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا، فَقَالَ**: =

....

=يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنَّ للهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ عَبَدَ اللهَ تَعَالَى خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ اللهُ تَعَالَى لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْإِصْبَعِ تَبَضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيهِ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ، وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا، وَأَلَّا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ. قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي! فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي! فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي! فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ. فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ. قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِ مِئَةِ عَامٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ المَاءَ الْعَذْبَ مِنَ المَاءِ المَالِحِ وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي، فَيُدْخِلُهُ اللهُ الجَنَّةَ. قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد؛ فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين»، ورده الذهبي بقوله: «لا والله، وسليمان بن هرم غير معتمد».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإذا تأمَّلت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم)**، يطلبون من الله حوائجهم وما يريدون من الله، ويقولون: لنا حق على الله، الله ليس لأحد عليه حق واجب، ما للعباد عليه حقٌّ واجب، ولكنه حق أوجبه هو على نفسه؛ تكرمًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في الحديث: «**أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟**»(١).

حق العباد على الله حق أوجبه الله على نفسه، ولم يوجبه أحد، وأما حق الله فهو واجب على العباد.

❖ ❖ ❖

---

(١) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: **يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: **يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: **يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: **هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟** قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: **يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: **هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟** قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ**».
أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠).

فمحاسبة النفس: هو نظر العبد في حق الله عليه أولًا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانيًا؟

وأفضل الفكر: الفكرُ في ذلك؛ فإنه يسيِّر القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلًا خاضعًا، منكسرًا كَسْرًا فيه جَبْرُهُ، ومفتقرًا فقرًا فيه غناه، وذليلًا ذلًّا فيه عِزُّه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل، فإذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى به.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فمحاسبة النفس: هو نظر العبد في حق الله عليه أولًا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانيًا**)، إذا أردت أن تحاسب نفسك، فانظر حق الله عليك أولًا، هل أديته؟ لن تجد أنك قد أديت منه ولو القليل.

فإذا رأيت ذلك شعرت بالنقص، شعرت أنك مقصر في حق الله عَزَّوَجَلَّ، هذا يعينك على محاسبة نفسك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن القاسم: حدثنا صالح المُرِّيُّ، عن أبي عمران الجَوْني، عن أبي الجَلد: أن الله تعالى أوحى إلى موسى: «إِذَا ذَكَرْتَنِي فَاذْكُرْنِي وَأَنْتَ تَنْتَفِضُ أَعْضَاؤُكَ، وَكُنْ عِنْدَ ذِكْرِي خَاشِعًا مُطْمَئِنًّا، وَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَاجْعَلْ لِسَانَكَ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِكَ، وَإِذَا قُمْتَ بَيْنَ يَدَيَّ فَقُمْ مَقَامَ الْعَبْدِ الحَقِيرِ الذَّلِيلِ، وَذُمَّ نَفْسَكَ؛ فَهِيَ أَوْلَى بِالذَّمِّ، وَنَاجِنِي حِينَ تُنَاجِينِي بِقَلْبٍ وَجِلٍ، وَلِسَانٍ صَادِقٍ»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(أن الله تعالى أوحى إلى موسى: «إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعًا مطمئنًّا، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديّ فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذُمَّ نفسك فهي أولى بالذم، وناجِني حين تناجيني بقلب وَجِلٍ ولسان صادق)**، هذا الله جَلَّ وَعَلَا يناجي كليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ما لموسى من الفضل والمكانة والقدر عند الله، الله يأمره بهذه الأمور: أن يحتقر عمله، أن يستعظم ذنوبه وسيئاته.

فإذا الإنسان احتقر حسناته، وتعاظم ذنوبه هذه محاسبة للنفس، هذا أيضًا من وجه محاسبة النفس.

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٥٨).

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه: أنه لا يتركه ذلك يُدِلُّ بعمل أصلًا، كائنًا ما كان، ومَنْ أدلّ بعمله لم يصعد إلى الله.

كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله، أنه قال له رجل: إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البَقْل من دموعي. فقال له: إنك إن تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك، خيرٌ من أن تبكي وأنت تُدِلُّ بعملك؛ فإن صلاة المُدلِّ لا تصعد فوقه. فقال له: أوصني، قال: عليك بالزهد في الدنيا، وأن لا تنازعها أهلَها، وأن تكون كالنّحلة، إن أكلت أكلت طيبًا، وإن وضعت وضعت طيبًا، وإن وقعت على عود لم تضرَّه ولم تكسره. وأوصيك بالنصح لله عَزَّوَجَلَّ نُصْح الكلب لأهله؛ فإنهم يُجيعونه ويطردونه؛ ويأبى إلا أن يحوطَهم وينصحهم»[1].

ومن هاهنا أخذ الشاطبي قوله[2]:

وَقَدْ قِيلَ كُنْ كالكَلْبِ يُقْصِيهِ أَهْلُهُ ... وَلَا يَأْتَلِي فِي نُصْحِهِمْ مُتَبَذِّلا

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنه لا يتركه ذلك يُدِلُّ بعمل أصلًا، كائنًا ما كان)، يُدِلُّ: يعني يمنَّ بعمله على الله؛ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧].

فلا تمنَّ على الله؛ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص٨١).

(٢) انظر: متن الشاطبية = حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع (ص٨).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومَنْ أدلّ بعمله لم يصعد إلى الله)**، من أعجبه عمله فإنه لا يصعد إلى الله: يعني عمله، لا يصعد عمله على الله، لا يقبله الله عَزَّوَجَلَّ.

والله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال له: إنك إن تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك، خيرٌ من أن تبكي وأنت تُدِلُّ بعملك؛ فإن صلاة المُدِلِّ لا تصعد فوقه)**، فكونك تضحك وأنت تعتبر نفسك مقصرًا في حق الله أحسن من كونك تبكي وأنت تستكثر عملك وتعجب بعملك.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأن تكون كالنّحلة، إن أكلت أكلت طيبًا، وإن وضعت وضعت طيبًا)**، النحلة طيبة؛ إن أكلت فلا تأكل إلا طيبًا، ولا تنتج إلا طيبًا وهو العسل، وإذا وقعت على شيء لم تضره؛ خفيفة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأوصيك بالنصح لله** عَزَّوَجَلَّ **نُصْح الكلب لأهله)**، ليس هناك أنصح من الكلب مع أهله الذين ربوه، ولذلك يقع في المخاطر؛ يدافع عن صاحبه، ولا يترك صاحبه أبدًا، يدافع عن صاحبه مهما كلفه ذلك، ولا يغفل- أيضًا- إذا وُضِعَ في الحراسة لا يغفل أبدًا، ولا يذهب، يبقى يحرس، فليس هناك أوفى من الكلب أبدًا، هذا الحيوان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنهم يُجيعونه ويطردونه؛ ويأبى إلا أن يحوطَهم وينصحهم)**، يضربونه ويجوعونه، ومع هذا ينصح لهم هو، ولا يخون.

❁ ❁ ❁

وقال الإمام أحمد: حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، حدثنا الجريري، قال: «بلغني أن رجلًا من بني إسرائيل كانت له إلى الله تعالى حاجة، فتعبد واجتهد، ثم طلب إلى الله حاجته، فلم ير نجاحًا، فبات ليلةً مُزريًا على نفسه، وقال: يا نفس، ما لكِ لا تُقضَى حاجتُكِ؟! فبات محزونًا قد أزرى على نفسه، وألزم الملامةَ نفسه. فقال: أما والله ما مِن قِبَل ربي أُتِيتُ، ولكن من قِبَل نفسي أُتيتُ، فبات ليلةً مزريًا على نفسها، وألزم الملامة نفسه، فقُضيت حاجته»(١).

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الإمام أحمد: حدثنا سيّار، حدثنا جعفر، حدثنا الجريري)، في كتاب «الزهد» للإمام أحمد، مطبوع، وفيه هذه الأخبار وهذه الآثار العظيمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقال: أما والله ما من قِبَل ربي أُتِيتُ، ولكن من قِبَل نفسي أُتيتُ، فبات ليلةً مزريًا على نفسها، وألزم الملامة نفسه، فقُضيت حاجته)، كثرة العمل لأجل قضاء الحاجة لم ينفع شيئًا، ولكن لما حاسب نفسه ورأى تقصيره في حق الله قضيت حاجته، فدل على أن محاسبة النفس أفضل من العمل.

---

(١) تقدم نحوه قريبًا.

الباب الثاني عشر

في علاج مرض القلب بالشيطان

هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعًا، والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها؛ فإنهم توسعوا في ذلك، وقصَّروا في هذا الباب.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان)**، لما ذكر في الباب السابق علاج القلب من شر النفس، ذكر في هذا الباب علاج القلب من شر الشيطان؛ لأنه العدو الثاني بعد النفس، وخطره أشد من خطر غيره بعد النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هذا الباب من أهم أبواب الكتاب وأعظمها نفعًا)**، لشدة خطر الشيطان على بني آدم؛ لأنه تعهد حينما لعنه الله وطرده، تعهد أن يضل بني آدم، وأن يوسوس لهم ويزين لهم، واستثنى عباد الله المخلصين.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]. وأما غير عباد الله المخلصين فقد قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٣، ٦٤].

وهذا ابتلاء من الله وامتحان من الله، وإلا فإن الله قادر أن يمنع الشيطان عن بني آدم، ولكنه أراد سبحانه أن يبتليهم؛ ليتبين الصادق من غيرهم، يتبين قوي الإيمان من ضعيف الإيمان

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمتأخرون من أرباب السلوك لم يعتنوا به)**، أرباب السلوك: يعني الصوفية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها)**، عندهم أن من سلم من شر نفسه فقد سلم، ولم يتنبهوا إلى أن خطر الشيطان شديد بعد النفس، فلا يكفي أن الإنسان يسلم من شر نفسه فلابد أن يسلم من شر الشيطان.

والشيطان ليس قاصرًا على شيطان الجن، بل يتناول شياطين الإنس، شياطين الإنس أيضًا خطر شديد.

وما دعاة الضلال اليوم وما قبل اليوم وما يبثونه من شبهات وشرور ما هذا بخفي عن الناس، وكثير من الناس لا يدري عن هذا، كثير من الناس لا يدري عن شياطين الإنس.

﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس؛ فإن النفس المذمومة ذُكرت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، واللوامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:٢]، وذُكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠].

وأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع، وأُفردت له سورة تامة، فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره؛ فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبُه، وموضع سِرّه، ومحلّ طاعته.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان)، الله حذرنا من الشيطان في كثير من الآيات مبينة لنا مكائد الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس)، فالله جَلَّ وَعَلَا في القرآن، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة حذروا من كيد الشيطان أكثر مما حذر من شر النفس.

وبقية الكتاب كله في هذا الباب فيما فعله الشيطان ببني آدم، فعل بالصوفية، فعل بالقبوريين، فعل في الطوائف.

وعنوان الكتاب الذي معنا: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، والكتاب هو يدور على هذا وما سبق هذه مقدمات.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأما الشيطان فذُكر في عدة مواضع)**، فذكر التحذير من الشيطان في القرآن أكثر من التحذير من النفس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأُفردت له سورة تامة)**، سورة: الوسواس الخناس.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركَبُه، وموضع سِرّه، ومحلّ طاعته)**، بل إن شر النفس سببه شر الشيطان؛ فالشيطان يتمطى النفس ويستخدمها لإهلاك صاحبها، فهو العدو الأصلي في بني آدم.

وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»، كما تقدم ذلك في الباب الذي قبله.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه)، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾: يعني إذا أردت قراءة القرآن.

﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]؛ لأن الشيطان أحرص ما يكون أن يصرف المسلم عن القرآن، وإن قرأه وإن تلاه، فإنه يحاول ألا يتدبر المسلم القرآن، ولا يلتفت إلى ما فيه من العظات؛ يحاول أنه إما ألا يقرأه ويشغله عن القراءة، وإما إذا قرأه أن يصرفه عن التدبر، وتكون التلاوة مجرد تلاوة فقط.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك)، وأمر بالاستعاذة منه عند الغضب؛ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وقد جمع النبي ﷺ بين الاستعاذة من الأمرين؛ في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ. قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»(١).

فقد تضمن هذا الحديث الشريف الاستعاذة من الشر وأسبابه وغايته: فإن الشر كله إما أن يصدر من النفس أو من الشيطان، وغايته: إما أن تعود على العامل، أو على أخيه المسلم، فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما، وغايتيه اللتين يصل إليهما.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قله إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك)، يعني ثلاثة مواضعَ: عند الصباح، وعند المساء، وعند النوم، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وشركه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وغايته: إما أن تعود على العامل، أو على أخيه المسلم)، «وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه)، وابن حبان (٣/ ٢٤٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٤)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فتضمن الحديث مصدري الشر اللذين يصدر عنهما)**، وهما: النفس والشيطان.

يقول الشاعر[١]:

وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا وَإِنْ هُمَا مَحَضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمْ

(١) البيت للبوصيري، انظر: البردة شرحًا وإعرابًا وبلاغةً (ص٤٤)، والعمدة في إعراب البردة (ص٨٣).

فصـــل

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٩٨ -١٠٠].

ومعنى اسْتَعِذْ بِالله: امتنع به، واعتصم به، والجأ إليه، ومصدره: العَوْذ، والْعِياذ، والمَعَاذ؛ وغالِب استعماله في المستعاذ به.

ومنه: قول النبي ﷺ: «لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ»(١).

وأصل اللفظة: من اللَّجأ إلى الشيء والاقتراب منه.

ومن كلام العرب: «أطيبُ اللحم عُوَّذُه»؛ أي: الذي قد عاذ بالعظم واتصل به، و»ناقة عائذ»: يعوذ بها ولدها، وجمعها عُوذ؛ كحُمْر(٢).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومعنى اسْتَعِذْ بِالله: امتنع به، واعتصم به)، استعذ: يعني لُذْ بالله، الاستعاذة: هي اللياذ، والاعتصام بالله عَزَّوَجَلَّ، واللجوء إلى الله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومصدره: العَوْذ)، مصدره: العوذ، مصدر عاذ: عوذًا أو عياذًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٥) من حديث أبي أُسَيْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه (٥٢٥٤) بنحوه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، بلفظ: «لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ».

(٢) انظر: العين (٢/ ٢٢٩)، وجمهرة اللغة (٢/ ٦٩٨)، وتهذيب اللغة (٣/ ٩٤)، والصحاح (٢/ ٥٦٧).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والمَعَاذ)**، والمعاذ؛ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٢٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه: قول النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ»)**، النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يتزوج امرأة غارت نساؤه منها؛ لأنها جميلة، فقلن لها: إذا دخل عليك فقولي: أعوذ بالله منك، فإن قلتيه أحبك حبًّا شديدًا، خدعنها.

فلما دخل عليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: أعوذ بالله منك. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَقَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ، الحَقِي بِأَهْلِكِ»**. فطلقها احترامًا لعياذها بالله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأصل اللفظة: من اللَّجأ إلى الشيء والاقتراب منه)**، أصل اللفظة، وهي: العوذ بالله.

(ومن كلام العرب: «أطيبُ اللحم عُوَّذُه»). يعني: ما التصق بالعظم، فهو أشد اللحم طعمًا ولذة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجمعها عُوذ؛ كحُمْر)**، العُوذُ المَطَافِيل، يعني: النياق التي لها أطفال.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وجمعها عُوذ؛ كحُمْر)**، حُمْر، حُمْر النعم.

ومنه: في حديث الحُديبية: «مَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ»[١]؛ والمطافيل: جمع مُطْفِلٍ، وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفةٌ - منهم صاحب «جامع الأصول» -: استعار ذلك للناس؛ أي معهم النساء وأطفالهن[٢].

ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابِّهم ومراكبهم، حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه: في حديث الحُديبية: «معهم العُوذ المطافيل»)**؛ لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واصحابه لما جاؤوا معتمرين في قصة الحديبية كان معهم هدي من الإبل كثير. فلما رأت قريش هذه الإبل، وكانت تعظم الإبل، قالوا: معهم العوذ المطافيل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قالت طائفةٌ -منهم صاحب «جامع الأصول»)**، قالت طائفة: من العلماء، منهم صاحب الأصول، وهو ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته)**، لا حاجة إلى تأويله بالنساء، وأطفالهن، بل معهم العوذ المطافيل: أي الإبل المطفلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

(٢) انظر: جامع الأصول (٨/ ٣٠٣).

فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن. وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، مُذهِبٌ لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أَثَّره فيها الشيطان، فأمر أن يطرُدَ مادة الداء، ويُخلِي منه القلب، ليصادف الدواء محلًّا خاليًا، فيتمكّن منه، ويؤثّر فيه، كما قيل(١):

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فتمَكَّنَا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحمٍ ومُضادٍّ له، فينجع فيه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن)، لأنه يحضر، لأن الشيطان يحضر، عندما يريد المسلم أن يقرأ القرآن يحضر ليحول بينه وبين القرآن، إذا أراد المسلم أن يصلي أيضًا يحضر لشيطان ليلبس عليه في صلاته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور)؛ لأن الشيطان يعلم أن القرآن شفاء لما في الصدور، فهو يريد أن يحول بين المسلم وبين هذا الشفاء.

(١) يُنسب البيت لمجنون ليلى قيس بن الملوح، انظر: ديوانه (ص٢١٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فتمَكّنَا).

هذا يقوله الشاعر في عشيقته.

«أَتَانِي هَوَاهَا» أي: محبتها، «قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى».

«فَصادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فتمَكّنَا» هوى هذه المعشوقة تمكن من قلبه؛ لأنه وجده خاليًا.

وكذلك من أراد ان يقرأ القرآن فلابد أن يخلي قلبه من الشيطان حتى ينزل القرآن على قلبه فيجلو ما فيه من الوساوس والهموم والأحزان.

القرآن قال الله جَلَّ وَعَلَا فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نارٌ يحرق النبات أولًا فأولًا، فكلما أحسَّ بنبات الخير في القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأُمر أن يستعيذ بالله منه؛ لئلا يُفسِد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله: أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأنَّ من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة؛ لَحَظَ هذا المعنى، وهو لعَمْر الله مَلْحَظ جيد؛ إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهي محصّلة للأمرين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات)، فالقرآن ينبت خشية الله في القلب وينبت الخوف من الله في القلب ويحييه بعد موته، والشيطان يريد أن يحول بين العبد وبين القرآن، وإن كان يتلفظ به بلسانه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكأنَّ من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة؛ لَحَظَ هذا المعنى، وهو لعَمْر الله مَلْحَظ جيد)، والله جَلَّ وَعَلَا قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النحل:٩٨].

فالظاهر أن اللفظ: إذا فرغت من القرآن فاستعذ بالله، ولكن المتبادر أن هذا قبل قراءة القرآن لا بعده.

كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ [المائدة:٦].

معناه: إذا أردتم الصلاة فتطهروا، ليس معناه: أنك إذا قمت ووقفت تريد أن تكبر تكبيرة الإحرام تتوضأ، لا، ليس على ظاهره.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكأنَّ من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة)**، أخذًا من ظاهر اللفظ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو لعَمْر الله مَلْحَظ جيد)**، هذا المعنى وهو إبقاء أثر القرآن، إبقاء أثر القرآن في القلب بعد حصوله؛ لأن الشيطان يحرص على أن لا يصل إلى القلب، فإذا وصل إلى القلب يحرص على إزالته من القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة)**، فهذا يدل على أن قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النحل:٩٨] يعني: إذا أردت قراءته، هذا الذي دلت عليه السنة ودل عليه عمل المسلمين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهي محصّلة للأمرين)**، ولا مانع من إرادة الأمرين أنك تستعيذ في بداية القراءة، وتستعيذ بعد النهاية، تستعيذ في البداية لتطرد الشيطان وحضوره عندك حتى تقبل على القرآن، وفي النهاية ليبقى أثر القرآن في قلبك ولا يأتي الشيطان ويطمسه.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته، كما في حديث أُسَيْدِ بن حُضَير لما كان يقرأ، ورأى مثلَ الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«تِلْكَ المَلَائِكَةُ»**(١)**. والشيطان ضد الملَك وعدوُّه.**

فأُمر القارئ أن يطلب من الله مباعدة عدوه عنه حتى تحضره خاصتُه وملائكته، فهذه وليمة لا تجتمع فيها الملائكة والشياطين.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته)**، والملائكة لا تجتمع مع الشيطان؛ لأن الشيطان إذا رأى الملائكة هرب، لا يجتمع هو والملائكة أبدًا، فإذا استعذت بالله من الشيطان حضرت الملائكة عندك، وإذا لم تستعذ حضر الشيطان ولم تحضر الملائكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما في حديث أُسيد بن حُضَير لما كان يقرأ)**، كان أُسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصلي في الليل ويقرأ القرآن، فنظر إلى ظلة نزلت فيها أمثال السرج. لما رأتها الفرس -وهو قد ربط فرسه- جالت الفرس حتى كادت الفرس أن تطأ ابنه الصغير وهو نائم عنده، فذكر ذلك للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: هذه الملائكة حضرت لقراءة القرآن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والشيطان ضد الملَك وعدوُّه)**، ليس هناك شك.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦).

ولذلك لما جاء إلى الكفار في بدر يشجعهم، ويقول: أنا جار لكم، لما رأى الملائكة هرب، قالوا: تعال، لماذا وليت، قال: إني أرى ما لا ترون، يعني أرى الملائكة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذه وليمة لا تجتمع فيها الملائكة والشياطين)**، وليمة القرآن لا يجتمع عليها الشياطين والملائكة أبدًا.

ولذلك الملائكة لا تدخل في البيت الذي فيه كلب أو صورة، فيكون للشيطان، أما إذا لم يصر هناك موانع لا كلب ولا صورة تدخله الملائكة، ملائكة الرحمة.

ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجله، حتى يَشْغَله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلايكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه.

ومنها: أن القارئ مناجٍ لله بكلامه، والله تعالى أشد أَذَنًا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلى قينته[1]، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأُمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته لله، واستماع الربِّ قراءتَهُ.

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومنها: أن الشيطان يُجْلِب على القارئ بخيله ورَجله، حتى يَشْغَله عن المقصود بالقرآن)**، هذا شيء كثير في بني آدمَ إلا من رحم الله، أنهم يقرؤون القرآن بألسنتهم فقط، ولا يتدبرونه، ولا يتأثرون به؛ لأن الشيطان حال بينهم وبين تدبر القرآن، فإذا استعذت بالله من الشيطان في أول القراءة طرده الله عنك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ)**، ليس المراد مجرد التلاوة، التلاوة هذه وسيلة وليست غاية، الغاية هي التدبر، هي تدبر القرآن.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٩/ ٣٧٢، ٣٧٩)، وابن ماجه (١٣٤٠)، وابن حبان (٣/ ٣١)، والحاكم (١/ ٧٦٠) عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ أَذَنًا إِلَى الرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ، مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله منه)**، ولهذا قال أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ، مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللهِ»(١).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن القارئ مناجٍ لله بكلامه)**، فأنت حينما تقرأ القرآن تخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ بكلامه، تخاطبه بكلامه، كلامه سبحانه، هذه مرتبة عظيمة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله تعالى أشد أَذَنًا للقارئ)**، أَذَنًا: يعني استماعًا، أشد أَذَنًا: أي استماعًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله تعالى أشد أَذَنًا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلى قينته)**، في الحديث: ما استمع الله بمثل ما يستمع للقارئ الحسن الصوت(٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء)**، الشيطان وجنود الشيطان إنما قرآنهم هو الغناء، قرآنهم، الغناء والطرب هذا قرآن شياطين الإنس والجن.

---

(١) تقدم تخريجه (ص٤٦٤).

(٢) أخرج البخاري (٥٠٢٣)، ومسلم (٧٩٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ**».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فأُمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته لله، واستماع الربِّ قراءتَهُ)**، ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤]: يعني بكل مجهودك من الخيالة، شياطين الخيالة وشياطين المشاة.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ [الإسراء:٦٤]: الصوت: هو الغناء، هو الغناء هذا صوت الشيطان، وأما القرآن فهو صوت الرحمن، ولهذا يقول ابن القيم(١):

حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الغِنَا   فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

❖ ❖ ❖

(١) انظر: نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص٣٢٦)، وتوضيح المقاصد شرح الكافية الشافية لابن عيسى (٢/ ٥٢١).

ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، كما قال الشاعر في عثمان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ(١)

فإذا كان هذا فعله مع الرسل، فكيف بغيرهم؟

ولهذا يُغلِّط القارئ تارة، ويخبط عليه القراءة، ويشوِّشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يُشوش عليه فهمه وقلبه.

فإذا حضر عند القراءة لم يَعدمْ منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: استعاذته بالله منه عند القراءة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيته)، الله جَلَّ وَعَلَا أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى، يعني: قرأ. المراد بـ«تمنى»: قرأ، فإن الشيطان يوسوس له عند القراءة؛ ليشغله عنها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج:٥٢]: يعني تلا، تلا الوحي المنزل، فإن الشيطان يشغله عن ذلك، يشغله عن تلاوته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيته)، يعني في تلاوته.

---

(١) نسبه أبو حيان في موضع من البحر المحيط (٧/ ٥٢٧) إلى حسان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته)**، إذا تلا، أن معنى «تمنى»: يعني تلا، تمنى كتاب الله أول ليله، يعني تلاه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال الشاعر في عثمان:**

تَمنَّى كِتابَ اللهِ أوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لاقَى حِمامَ المَقادِرِ)

فعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقوم الليل، ويقرأ القرآن.

آخر ليلة من حياته قام أول الليل يقرأ القرآن، ويتلوه ويصلي، وآخر الليل هجم عليه الخوارج وقتلوه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وَآخِرَهُ لاقَى حِمامَ المَقادِرِ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا كان هذا فعله مع الرسل، فكيف بغيرهم؟)**، إذا كان هذا فعله مع الرسل، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]. فإذا كان هذا جهده مع الأنبياء ومع الرسل فيكيف بغيرهم؟!

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا يُغلِّط القارئ تارة، ويخبط عليه القراءة، ويشوِّشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يُشوش عليه فهمه وقلبه)**، إما أن يغلق عليه القراءة؛ فلا يدري ما هي الكلمة التي بعدها أو الآية التي بعدها، وإما أن يشوش عليه فهمه، فلا يفهم القراءة فلا يتدبرها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإذا حضر عند القراءة لم يَعدمْ منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له)**، لا يخلو القارئ من أنه يلبس عليه القراءة، يشوشها عليه؛ فإن عجز عن ذلك، فإنه يذهب إلى أن يحول بينه وبين التدبر لمعاني القرآن، وقد يجمع بينهما: يشوش عليه بالتلاوة، ويحول بينه وبين التدبر.

ومنها: أن الشيطان أحرصُ ما يكون على الإنسان عندما يهُمُّ بالخير، أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «إِنَّ شَيْطَانًا تَفَلَّتَ عَلَيَّ البَارِحَةَ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي...» الحديثَ(١).

وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله، كان اعتراض الشيطان له أكثر.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: أن الشيطان أحرصُ ما يكون على الإنسان عندما يهُمُّ بالخير)، عمومًا، يعني ليس خاصًّا بتلاوة القرآن ولا عند الصلاة، وإنما الخير عمومًا الشيطان يحاول أنه يصرف ابن آدم عنه، عن فعله، ويبعده عنه.

فإن عجز فإنه يحاول أن يبطل العمل بالرياء وحب الشهرة، فهو يحاول هذا وهذا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «إن شيطانًا تفلَّتَ عليّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي»)، فالنبي ﷺ أراد الشيطان- حتى الرسول؛ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج:٥٢].

هو يأتي الرسل والأنبياء، لكن الله جَلَّ وَعَلَا يعين الأنبياء والرسل على التغلب عليه، الرسول قبض عليه، قبض عليه حتى سال لعابه من شدة قبضة الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١، ٤٨٠٨)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله، كان اعتراض الشيطان له أكثر)**، يحرص على الأتقياء، فكيف بغيرهم؟! يحرص على الأتقياء والأولياء، الرسل والأنبياء، فكيف بغيرهم؟! يتسلط.

في «مسند الإمام أحمد» من حديث سَبْرة بن أبي الفاكه، أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ، وَدِينَ آبَائِكَ؟! فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَالْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ! فَعَصَاهُ وَهَاجَرَ. ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ -وَهُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالمَالِ-، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ، وَيُقَسَّمُ المَالُ!»[(١)]. فالشيطان بالرَّصدِ للإنسان على طريق كل خير. وقال منصور عن مجاهد: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهَّز معهم إبليس مثل عدتهم». رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»[(٢)].

فهو بالرَّصد، ولا سيما عند قراءة القرآن.

فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدُوَّه الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله منه أولًا، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقِه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتُسلِم وتَذَرُ دينَك ودينَ آبائك؟)،

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٥/ ٣١٥، ٣١٦)، والنسائي (٣١٣٤) من حديث سَبْرَةَ بن أبي فاكِهٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٢٦) معزوًّا لابن المنذر عن مجاهد.

مثلما حصل لأبي طالب عند الوفاة، أراد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحرص على أن يقول: لا إله إلا الله؛ ليختم له بها.

فجاءه الشيطان، شياطين الإنس والجن، شيطان الجن، وشياطين الإنس الذين حضروا عنده من مشركيهم، فقالوا: أتدع ملة عبد المطلب؟!! يعني تدع دين أبيك؟! فمات وهو يقول: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله(١)؛ من أجل أن يحامي على دين الجاهلية ولا يكون تركه، ويكون هذا عارًا عليه، ولهذا يقول في شعره(٢):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

---

(١) أخرج البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من طريق سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[التوبة:١١٣]، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٩).

لاحظ:

لَـوْلَا الْمَـلَامَـةُ أَوْ حِــذَارُ مَسَبَّةٍ لَـوَجَـدْتَـنِي سَمْـحًـا بِـذَاكَ مُبِينَا

الذي حال بينه وبين الإسلام هو النخوة الجاهلية لدين آبائه، الحَمِيَّةُ الجاهلية لدين آبائه! نسأل الله العافية.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقِه)**؛ جمع طريق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فعصاه فأسلم)**، عصاه المسلم فأسلم، أما أبو طالب فامتثل قوله -والعياذ بالله-.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره)**، والشيطان قاطع طريق للمسلم.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيَّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تُشرَع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة. فإذا سمع السامع الاستعاذة استعدَّ لاستماع كلام الله، ثم شُرع ذلك للقارئ وإن كان وحده؛ لما ذكرنا من الحكم وغيرها.

فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيَّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تُشرَع الاستعاذة بين يدي كلام غيره)**، بين يدي كلام غيره، خاص بالقرآن؛ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:٩٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا لم تُشرَع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة)**، أنت إذا أردت أن تقرأ أحاديث الرسول لا تستعيذ من الشيطان، إذا أردت أن تقرأ شيئًا من كلام أهل العلم لا يشرع لك الاستعاذة، إنما هذا خاصٌّ بالقرآن.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: «لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]».

وقال في رواية ابن مُشَيْشٍ[١]: «كلما قرأ يستعيذ».

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ، يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم»[٢].

وفي «المسند» والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ اسْتَفْتَحَ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[٣].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقد قال أحمد في رواية حنبل: «لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]»)، فالاستعاذة قبل القراءة سواء في الصلاة أو خارج الصلاة، كلما تريد أن تقرأ القرآن استعذ بالله من الشيطان الرجيم.

قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقال في رواية ابن مُشَيْشٍ)، (قال) يعني: أحمد.

---

(١) محمد بن موسى بن مشيش. كان جارًا للإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ وصاحبه، وكان يقدمه، ونقل عنه أشياء كثيرة. ينظر: المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد (٢/ ٦٣٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٢/ ٥٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٨/ ٥٢)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وفي «المسند» والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: كان النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا قام إلى الصلاة استفتح)**، يعني يقرأ دعاء الاستفتاح: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك إلى آخره، ثم يقول بعده: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يأتي بالبسملة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ)**، هَمْزِهِ: هو ميتة السوء، الهمز، ونَفْخِهِ: الكبر، ونَفْثِهِ: الشعر.

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول قبل القراءة: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(١).

واختار الشافعي، وأبو حنيفة، والقاضي في «الجامع» أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وهو روايةٌ عن أحمدَ؛ لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر.

وعن أحمدَ من رواية عبد الله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»؛ لحديث أبي سعيد(٢). وهو مذهب الحسن، وابن سيرين.

ويدلُّ عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس، وكشف عن وجهه، وقال: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»(٣).

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهو روايةٌ عن أحمد؛ لظاهر الآية)، يعني هناك صيغتان:

إما أن تقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وهذا مطابق للآية.

وإما أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

(١) انظر: الإشراف على مذاهب العلماء لابن المنذر (٢/ ١١)، والأوسط في السنن والإجماع والاختلاف (٣/ ٨٦-٨٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص٨٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٧٨٥) من طريق ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذكر الإفك، قالت: «جَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: أَعُوذُ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ الْآيَةَ».

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ويدلُّ عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **جلس، وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»**)، في قصة الإفك الذين رموا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، واشتد بها الأمر، وكثر الكلام، والمنافقون اشتدوا عليها، فرحوا، وطال انتظارها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وهي في شدة وكربة، حتى نزل الوحي على رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببراءتها والثناء عليها في سورة النور.

جاء النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما فرغ الوحي، فجلس عندها، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا ما أنزل الله عليه.

(**ويدلُّ عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **جلس، وكشف عن وجهه وقال: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم**)، ثم تلا قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور:١١]. إلى آخر الآيات.

إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:٢٦].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**أن النبي** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **جلس، وكشف عن وجهه**)، لما أراد أن يتلو القرآن الذي نزل عليه في براءة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وعن أحمدَ رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم»[(١)].

وبه قال سفيان الثوري، ومسلم بن يَسار، واختاره القاضي في «المجرَّد»، وابن عقيل؛ لأن قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]. ظاهره أنه يعقب قوله: أعوذ بالله بقوله: من الشيطان الرجيم.

وقوله في الآية الأخرى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦] يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها؛ مؤكدة بحرف «إنَّ»؛ لأنه سبحانه هكذا ذكره.

وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذُكر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[(٢)].

وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه: المُوتَة، ونفخه: الكِبْر، ونفثه: الشعر»[(٣)].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم»)، الأمر واسع في هذا.

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٥٨٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص٨٠٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٧/ ٣٠٤، ٣٣٩).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذُكر عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم»)**، وهذه الصيغة أيضًا، صيغة ثالثة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقال إسحاق)**، إسحاق بن راهويه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه: المُوتَة»)**، الموتة، يعني موتة الفجأة.

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧، ٩٨]، والهَمَزات: جمع هَمْزة كتَمَرات وتَمْرة، وأصل الهمز: الدفع.

قال أبو عبيد عن الكسائي: هَمَزْتُه، ولَمَزْتُهُ، ولهَزتُهُ، ونَهَزتُه: إذا دفعتَه[(١)].

والتحقيق: أنه دفعٌ بنَخْز، وغَمْز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب.

قال ابن عباس والحسن: ﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾: نزغاتهم ووساوسهم[(٢)].

وفُسِّرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، هذا قول مجاهد[(٣)].

وفُسِّرت بخنقهم[(٤)]، وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث: أن الهمز نوع غير النفخ والنفث.

وقد يقال -وهو الأظهر-: إن همزات الشياطين إذا أُفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قُرنت بالنفخ والنفث كانت نوعًا خاصًّا، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

قال ابن زيد: في أموري[(٥)].

---

(١) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام (٣/ ٧٨)، وتهذيب اللغة (٦/ ٩٦) و(١٣/ ١٥١)، والتفسير البسيط (١٠/ ٤٩٩) و(١٦/ ٥٥، ٥٦).

(٢) انظر: التفسير البسيط (١٦/ ٥٦).

(٣) انظر: التفسير البسيط (١٦/ ٥٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٠٦)، والتفسير البسيط (١٦/ ٥٨).

(٥) أخرجه الطبري في التفسير (١٧/ ١٠٦).

وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن[(١)].

وقال عكرمة: عند النزع والسِّياق[(٢)].

فأمَره أن يستعيذ من نَوْعَيْ شرِّهم: إصابتهم له بالهمز، وقربهم ودنوّهم منه. فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه.

وذكر ذلك سبحانه عقب قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩٦]، فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**ثم قال:** ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾)، يعني عند الموت؛ لأن الشياطين يحضرون عند الموت؛ ليضلوا ابن آدم حتى يموت على الشرك ويغير دينه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقال عكرمة: عند النزع والسِّياق**)، وهذا هو المشهور.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**فأمره أن يحترز من شر شياطين الإنس بدفع إساءتهم إليه بالتي هي أحسن، وأن يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم**)، شياطين الإنس يدفع شرهم بالإحسان إليهم؛ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وأما شياطين الجن فيدفع شرهم بالاستعاذة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذه فائدة عظيمة.

---

(١) أورده الواحدي في التفسير البسيط (١٦/ ٥٨).

(٢) ذكره الواحدي في التفسير البسيط (١٦/ ٥٨).

ونظير هذا قوله في الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، فأمره بدفع شر الجاهلين بالإعراض عنهم.

ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

ونظير ذلك قوله في سورة فُصِّلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، فهذا لدفع شر شيطان الإنس.

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦].

وقال ها هنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ فأكد بـ (إن) وبضمير الفصل، وأتى باللام في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقال في الأعراف: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وبضمير الفصل)**، ضمير الفصل: ﴿هُوَ﴾ منفصل، ضمير منفصل، أما ﴿إِنَّهُۥ﴾: هذا ضمير وصل.

وسرُّ ذلك -والله أعلم-: أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده؛ أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار أنه سبحانه يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك.

فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم لفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة، وهذا المعنى شامل للموضعين.

وامتاز المذكور في «فصلت» بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره سبحانه على الذين شكُّوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم.

كما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود، قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثيرٌ شحمُ بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، فقال الآخر: إنْ سَمِعَ بعضَهُ سمعه كُلَّه.

فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٢، ٢٣][1].

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٢، ٢٣])، وفي سورة تبارك يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك:١٣].

يستوي عنده الجهر والإسرار سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل يعلم ما في القلوب من الوسواس والهواجس والهموم.

فجاء التأكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سياق هذا الإنكار، أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوْا، وأنه لا يعلم كثيرًا مما يعملون.

حسّن ذلك أيضًا: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم.

ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]، فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ. وأيضًا فإن السياق هاهنا لإثبات صفات كماله، وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته، وشواهد توحيده.

ولهذا عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت:٣٧]، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ [فصلت:٣٩]، فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه السَّميعَ العَلِيمَ، كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرَّفةً.

والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين، ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه؛ ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فالله سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف يُسَوُّونها به في العبادة.

فعلمتَ أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف. والله سبحانه أعلم بأسرار كلامه.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ولهذا عقبه بقوله:** ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥])، يعني هذه الخصلة، وهي دفع السيئة بالحسنة صعبة، هذه لا تحصل إلا لمن وفَّقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ [فصلت:٣٥]: صبروا على أذى خصومهم، ولم ينتقموا منهم.

ولمّا كان المستعاذ منه في سورة ﴿حمٓ﴾ المؤمن هو شرّ مجادلة الكفار في آياته، وما ترتَّب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر؛ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦].

فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عِيانًا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا؛ فإنه يرانا هو وقَبيلُه من حيث لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان وإخبار الله ورسوله.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عِيانًا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾)**، لما ذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [غافر:٥٦].

يجادلون في ثبوتها، ويجادلون في معانيها، ويجادلون في أنها تفيد اليقين أو أنها لا تفيد اليقين وإنما تفيد الظن كما عند علماء الكلام؟ كل هؤلاء يجادلون في آيات الله.

﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾: بغير حجة، ليس عندهم حجة إلا أهواءهم.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾: هذا هو السبب.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾: الكبر هو الذي حملهم، استكبروا عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ واحتقروها، ورأوا أنها لا تفيد شيئًا أو تفيد شكًّا أو تفيد ظنًّا! هذا قدر آيات الله عند هؤلاء.

والذي حملهم على هذا هو الاستكبار عن آيات الله، استكبروا عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، وظنوها لا تساوي الأدلة العقلية التي عندهم التي يسمونها البراهين العقلية، فاحتقروها!

وبعضهم إنما يعتقد أنها للبركة فقط، ولا يستفاد منها أدلة!

﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾: لم يصلوا إلى هذا الدرجة، أنهم يكابرون آيات الله عَزَّوَجَلَّ ويترفعون عليها، وهم بشر، عقولهم ضعيفة.

ثم قال لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾: من هؤلاء.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾: السميع لأقوالهم في آياته، البصير بأفعالهم، يعني: يبصرها؛ فهو يسمع كلامهم وما يقولونه في آياته، ويبصر أفعالهم.

فصـــل

فالقرآن أرشد إلي دفع هذين العدوّين بأسهل الطرق: بالاستعاذة، والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان.

وأخبر عن عِظم حظٍّ من لقّاه ذلك؛ فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقًا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلّ والحقد، وطمأنينة الناس حتى عدوه إليه، هذا غير ما يناله من كرامة الله، وحسن ثوابه ورضاه عنه، وهذا غاية الحظ عاجلًا وآجلًا.

ولما كان ذلك لا يُنال إلا بالصبر قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ [فصلت:٣٥]؛ فإن النَّزِق الطائش لا يصبر عن المقابلة.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالقرآن أرشد إلي دفع هذين العدوّين بأسهل الطرق: بالاستعاذة، والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان)، هذا في آخر سورة الأعراف، في آخر الأعراف: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٩٩، ٢٠٠].

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان)، (الجاهلين): أي المكابرين، من الجهالة، وهي التعالى على الحق والتكبر، هذه جهالة.

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا(١)

والله أمر رسوله أن يعرض عنهم، ولا يقابلهم بمثل صنيعهم ويتنزل معهم في هذا الحضيض السافل، بل يترفع، يترفع عن ذلك؛ لأنه لا قيمة لهم، سقطوا فلا قيمة لهم: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [السجدة:٣٠].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فإنه ينال بذلك كفّ شر عدوه وانقلابه صديقًا، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغِلّ والحقد)**، كما في سورة فصلت: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤]، يخجل منك، ويعترف بخطئه.

إذا أحسنت إليه وأمَرْتَه بمعروفك فإنه يخجل ويعتذر إليك، ويصبح صديقًا لك بعد أن كان عدوًّا لك؛ بسبب الإحسان إليه، والعفو عنه.

ولكن هذه خصلة لا يوفق لها إلا من وفقه الله، يحتاج إلى صبر؛ ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥].

هذه خصلة ليست سهلة: أن تقابل الإساءة بالإحسان، وتقابل السوء بالمعروف، هذه خصلة صعبة.

وهذا خُلُقُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أمره الله جَلَّ وَعَلَا به؛ تخلق بذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كان يحسن إلى من أساء إليه ويتألفه، ولا يؤاخذه حتى يكسبه، أما إذا طاولْتَه ونزلت معه إلى هذا المستوى فإنه يزيد شره عليك.

---

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني (ص٢٢٦).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هذا غير ما يناله من كرامة الله، وحسن ثوابه ورضاه عنه)**، فهو يكسب عدوه في الدنيا، ويصبح صديقًا بدل العداوة، وله عند الله أجرٌ عظيم في الآخرة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا غاية الحظ عاجلًا وآجلًا)**، ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

ولما كان الغضب مَرْكَبَ الشيطان - فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان-: أُمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتَمُدُّ الاستعاذةُ للنفس المطمئنة، فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩].

قال مجاهد، وعِكْرمة، والمفسرون: ليس له حُجَّةٌ(١).

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فـ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩])، ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠]. لأن الشيطان يحضر عند الغضب، يستغل الفرصة فيحضر عند الغضب، ويحمل الإنسان على الانتقام من خصمه والانتصار لنفسه.

فيحتاج المسلم إلى أن يستعيذ بالله، إذا أحس بهذا يستعيذ بالله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، من هذا الشيطان.

فهو مع خصمه يحسن إليه، مع خصمه من الإنس يحسن إليه ويأمره بالمعروف، ومع الشيطان يستعيذ بالله من شره والاستعاذة بالله تخمد الغضب وتطفأه.

---

(١) انظر: التفسير البسيط (١٣/ ١٩٤).

كما رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلان يتسابان أحدهما احمر وجهه، وأحدهما ظهر عليه الغضب؛ انتفخت أوداجه واحمر وجهه، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»**(١).

فذهب الحاضرون إلى الرجل المغضب، وقالوا له: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول كذا وكذا، فقالها فلما قالها ذهب عنه ما يجد.

ذهب الغضب عنه؛ لأن الشيطان هو الذي يحمله على الانتقام وعلى الانتصار لنفسه فإذا استعاذ بالله منه أعاذه الله من الشيطان وخسأ الشيطان، فهو يقابل مسيء الإنس بالإحسان، ويقابل مسيء الجن بالاستعاذة منه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: **(فأبطل سلطان الشيطان، فـ** ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩])، ليس للشيطان سلطان على أولياء الله؛ لأن الله حماهم منه.

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[النحل:٩٩-١٠٠]. يتسلط عليهم.

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، فالقدرة داخلة في مُسمَّى السلطان، وإنما سُمِّيت الحجة سلطانًا؛ لأن صاحبها يتسلط بها تسلُّط صاحب القدرة بيده.

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٢].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، فالقدرة داخلة في مُسمَّى السلطان)، ليس له سلطان من الجهتين: لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة عليهم فلا يقدر عليهم؛ لأنهم لجأوا إلى الله وتوكلوا على الله فدفعه عنهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال في سورة الحجر:﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٣٩-٤٢])، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]. العباد المخلصون لله عَزَّوَجَلَّ، أولياء الله ليس له سلطان عليهم؛ لأنهم تحصنوا بالله ولجأوا إليه فحماهم، حماهم منه.

فلهذا لما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤١، ٤٢].

الاستثناء هنا منقطع بمعنى «لكن»، لكن ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾: منهم من الخلق فلك عليه سلطان وتغلب.

أما من لم يتبعك واتبع كتاب الله وسنة رسوله فإن الشيطان لا يستطيع أن يتوصل إليه بشيء.

ولهذا ورد في الحديث: أن الله لما بعث محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وصار معه أصحاب كان الشيطان يرسلهم إلى صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كما يرسلهم إلى غيرهم، فيأتونه وليس في صحائفهم شيء لم ينالوا منهم شيء.

فيقول: ما لكم؟ قالوا: ما صحبنا مثل قوم هؤلاء نصيب منهم ونصيب ثم يقومون فيصلون، ثم يمسح ويمحى ذلك عنهم.

هذا هو السبب، السبب: الصلاة وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ تحمي الإنسان من شياطين الإنس والجن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢])، ﴿إِلَّا﴾: هذه بمعنى «لكن»، استثناء منقطع؛ لأن أولياء الله لا يغوون ولا يتبعون الشيطان.

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩، ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولَّاه.

ولما علم عدوُّ الله أن الله لا يُسلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله، وأخلص له، وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته، وهو وليُّهم وسلطانهم ومتبوعهم.

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩، ١٠٠])، ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ يعني: يتبعونه ويطيعونه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولما علم عدوُّ الله أن الله لا يُسلِّطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ

ﱡﭐﱂﱠ [ص:٨٢، ٨٣])، انظر! الشيطان يقر بتوحيد الربوبية؛ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر:٣٩].

ويقر بصفات الله؛ ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص:٨٢]. يحلف بعزة الله، فهو يقر بتوحيد الربوبية، والمقر بتوحيد الربوبية فقط هذا لا يكون مسلمًا، هذا أقر به الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته، وهو وليُّهم وسلطانهم ومتبوعهم)**، الشيخ الآن دخل في عنوان الكتاب: «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، الآن دخل في الموضوع؛ يبين ما يعصمك من الشيطان وما يغيثك من كيده وشره.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع.

فكيف ينفيه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع، فكيف ينفيه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١])، في سورة سبأ.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٠]. يعني في قوم سبأ الذين كفروا نعمة الله وازدروها فحرمهم الله منها، وأزالها عنهم لعدم شكرهم لله.

ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾: أنه يدركهم وأنه ينال منهم.

﴿ فَاتَّبَعُوهُ ﴾: اتبعوا إبليس.

﴿ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: فإنهم ثبتوا على الحق؛ لأن الله لا يخلي الأرض من قائم له بحجة، لا تخلو الأرض من أهل العلم، من أهل الإيمان، ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾: ولكن الله جَلَّ وَعَلَا سلطه عليهم بذنوبهم، وعدم شكرهم لنعمة الله في الجنتين وفي السد الذي يحبس لهم المياه لزروعهم.

فلما كفروا نعمة الله سلط الله الجرذان على سدهم فنقبه فانهار السد فساحت المياه فأغرقتهم ودمرت بلادهم وزروعهم.

ونزحوا وتفرقوا في الجزيرة بعد ذلك، تفرقوا في الجزيرة بعد ذلك، ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ:١٩]. أغرقهم الله بعد الاجتماع، وبعد النعمة بسبب أنهم كفروا نعمة الله عليهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ [سبأ:٢٠، ٢١]: الله هو الذي امتحنهم به؛ ليعلم سبحانه علم ظهور ووجود، وإلا فهو يعلم كل شيء بعلمه العام الأزلي لا يخفى عليه شيء.

لكن يعلمه إذا وقع أيضًا، إذا وقع المقدر يعلمه علم ظهور ووجود؛ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢١].

قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ عائدًا على المؤمنين فالسؤال ساقط، ويكون الاستثناء منقطعًا؛ أي لكن امتحنّاهم بإبليس، لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

وإن كان عائدًا على ما عاد عليه في قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾، وهو الظاهر؛ ليصحّ الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفي.

ويكون المعنى: وما سلّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قيل: إن كان الضمير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ عائدًا على المؤمنين فالسؤال ساقط)**، ساقط: يعني الاعتراف، الاعتراف بأن الله نفى السلطان ثم أثبته عليهم، هذا سؤال ساقط كما يقول الشيخ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويكون الاستثناء منقطعًا)**، يعني لا يسقط المؤمنين؛ لأن «إلا» تأتي بمعنى لكن وهو ما يسمى بالاستثناء المنقطع الذي إذا كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهذا يسمى بالاستثناء المنقطع.

مثل قولهم: قام القوم إلا حمارًا. الحمار ليس من جنسهم، هذا استثناء منقطع.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(أي لكن امتحنّاهم بإبليس)**، لكن يعني: «إلا» تكون بمعنى لكن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويكون المعنى: وما سلّطناه عليهم إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة)**، لم نسلطه على أوليائه وأتباعه إلا لحكمة: أن يتميز من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، يتميز أهل الإيمان من أهل الكفر.

قال ابن قُتيبة: «إن إبليس لما سأل الله النظرة: فأنظَره، قال: لأُغوِينَّهم ولأُضِلَّنهم ولأَمرنَّهم بكذا، ولأتخذنّ من عبادك نصيبًا مفروضًا، وليس هو في وقت هذه المقالة مستيقنًا أن ما قدّره فيهم يتمّ، وإنما قاله ظانًّا، فلما اتّبعوه وأطاعوه صدَّق عليهم ما ظنَّه فيهم. فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكّين، يعني: نعلمهم موجودين ظاهرين، فيحق القول ويقع الجزاء»(١).

الشَّرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(قال ابن قُتيبة)**، ابن قتيبة هذا من كبار أئمة التفسير واللغة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فلما اتّبعوه وأطاعوه صدَّق عليهم ما ظنَّه فيهم)**، من قوله: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٧٩-٨٣]. ظن عند ذاك أنه سيدرك منهم، هذا من باب الظن، وهذا الظن صدق على الكفار ولم يصدق على أهل الإيمان.

﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: يعني على الكفار؛ ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ:٢١].

﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾: لكن، هذا منقطع، لكن فريقًا من المؤمنين لم يتبعوه.

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص٣١١، ٣١٢). ونقله عنه الواحدي في التفسير البسيط (١٨/ ٣٥٤).

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فقال تعالى: وما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكِّين، يعني: نعلمهم موجودين ظاهرين، فيحق القول ويقع الجزاء»)**، نعلمهم علم ظهور، أما علم إحاطة فهذا أزلي. الله علم كل شيء بعلمه الأزلي، ولكن يعلم الوقائع إذا وقعت هذا يسمى علم وجود وظهور وجزاء.

وعلى هذا فيكون السلطان ها هنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكّ فيها، وهم الذين تولَّوه وأشركوا به؛ فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًّا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات.

فإن قيل: فما تصنع بالتي في سورة إبراهيم؟ حيث يقول لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم:٢٢]، وهذا وإن كان قوله فالله سبحانه أخبر به عنه مُقررًا له لا منكرًا، فدلّ على أنه كذلك.

قيل: هذا سؤال جيد، وجوابه: أن السلطان المنفي في هذا الموضع هو الحجة والبرهان؛ أي ما كان لي عليكم من حجة وبرهان أحتجُّ به عليكم.

كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما كان لي من حجة أحتجُّ بها عليكم»(١)؛ أي ما أظهرتُ لكم حجةً إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة.

الشرح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (على هذا فيكون السلطان ها هنا على من لم يؤمن بالآخرة وشكّ فيها، وهم الذين تولَّوه وأشركوا به؛ فيكون السلطان ثابتًا لا منفيًّا، فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات)، واضح، القرآن يصدق بعضه بعضًا ويفسر بعضه بعضًا، لا يتناقض القرآن أبدًا؛ لأنه كلام الله.

(١) أورده الواحدي في التفسير البسيط (١٢/ ٤٥٢).

لكن يحتاج إلى عالم راسخ في العلم يرد المتشابه إلى المحكم، ويفسر المتشابه بالمحكم، وأما من يأخذ طرف من الأدلة ويترك الطرف الثاني فهذا يكون من أهل الزيغ؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧].

يأخذون المتشابه ويتركون المحكم الذي يفسره ويبينه ويوضحه، فهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

ولهذا يقول الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. المحكم والمتشابه، فلماذا تأخذ بعضه وتترك البعض الآخر؟ إذًا لم تؤمن.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ما كان لي من حجة أحتجُّ بها عليكم»)، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم:٢٢].

ليس لي حجة عليكم إلا مجرد أني دعوتكم إلى الكفر والضلال؛ ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢] يعني: بمغيثكم.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾: مما أنتم فيه ومغيثكم ما أنتم فيه ومنقذكم مما أنتم فيه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾: أنتم لا تقدرون على إنجائي مما وقعت فيه من العذاب والنار، يتبرأ منهم؛ يتبرأ منهم كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة:١٦٦، ١٦٧]: يعني رجعة إلى الدنيا.

﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾: هذا لا يمكن، كنتم تبرأتم منهم في الدنيا، أما الآن فقد فات الأوان؛ لأن الامتحان انتهى، وواجهتم الحقيقة والنتيجة، فلا يمكن هذا؛ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

وأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل:١٠٠]، فهو تسلُّطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكُّنه منهم، بحيث يؤُزُّهم إلى الكفر والشرك ويُزعِجهم إليه، ولا يدعهم يتركونه.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]. قال ابن عباس: «تُغريهم إغراءً»(١).

وفي رواية: «تُشْلِيهم إشلاءً»(٢).

وفي لفظ: «تحرِّضهم تحريضًا»(٣).

وفي آخر: «تُزعِجهم إلي المعاصي إزعاجًا»(٤).

وفي آخر؛ «تُوقِدهم»(٥)؛ أي: تحرُّكهم كما يحرَّك الماء بالإيقاد تحته.

وقال الأخفش: «تُوهِّجهم»(٦).

وحقيقة ذلك: أن الأزَّ هو التحريك والتهييج.

ومنه يقال لغليان القدر: الأزيز؛ لأن الماء يتحرك عند الغليان.

ومنه الحديث: «لِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكَاءِ»(٧).

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٥/ ٦٢٦، ٦٢٧).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٥/ ٦٢٧) من كلام ابن زيد. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) إلى ابن أبي حاتم عن مجاهد، وكذا ذكره عن مجاهد الواحديُّ في التفسير البسيط (١٤/ ٣٢٥).

(٣) نسبه إلى الضَّحَّاك: الواحديُّ في البسيط (١٤/ ٣٢٥).

(٤) نسبه إلى عطاء: الواحديُّ في البسيط (١٤/ ٣٢٥).

(٥) نسبه إلى ابن عباس: الواحديُّ في البسيط (١٤/ ٣٢٥)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٥٣٨) إلى ابن الأنباري في «الوقف» عن ابن عباس.

(٦) نسبه إلى الأخفش: الواحديُّ في البسيط (١٤/ ٣٢٥).

(٧) أخرجه أحمد (٢٦/ ٢٤٢)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤) من حديث مُطَرِّف ابن عبد الله، عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال أبو عبيدة: الأزيز: الالتهاب والحركة، كالتهاب النار في الحطب، يقال: أُزَّ قِدْرَك أي: أَلْهِبْ تحتها بالنار؛ وائتزَّت القِدْرُ: إذا اشتد غليانها(١).

فقد حصل للأزّ معنيان، أحدهما: التحريك، والثاني: الإيقاد والإلهاب، وهما متقاربان، فإنه تحريك خاص بإزعاج وإلهاب.

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾** [مريم:٨٣])، **﴿تَؤُزُّهُمْ﴾**: إلى الكفر والشرك والشر **﴿أَزًّا﴾** أي: تدفعهم إليه دفعًا، تسوقهم إليه سوقًا عنيفًا.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه الحديث: «لِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكَاءِ»)**، الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا قرأ القرآن في الصلاة يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل، يعني: القِدْرَ الذي على النار؛ من البكاء.

(١) التفسير البسيط للواحدي (١٤/ ٣٢٤).

فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجةٍ وبرهان، وإنما استجابوا له بمجرَّد دعوته إياهم لمّا وافقت أهواءهم وأغراضهم، فهم الذين أعانوا على أنفسهم، ومكّنوا عدوَّهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته، فلما أعطوا بأيديهم واستأسروا له سُلّط عليهم عقوبةً لهم!

وبهذا يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، **فالآية على عمومها وظاهرها.**

وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل، بحسب تلك المخالفة، فهم الذين تسبَّبُوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبّبوا إليه يوم أُحد بمعصية الرسول ومخالفته.

الشَّرح

قول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهذا من السلطان الذي له على أوليائه وأهل الشرك، ولكن ليس له على ذلك سلطان حجةٍ وبرهان)**، سلطان الشيطان على أوليائه، وأما أولياء الرحمن فليس له عليهم سلطان؛ لأن الله حماهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما استجابوا له بمجرَّد دعوته إياهم لمّا وافقت أهواءهم وأغراضهم)**، لم يجبرهم على هذا، إنما هم الذين انقادوا له، لما دعاهم انقادوا له.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وإنما المؤمنون يصدر منهم من المعصية والمخالفة التي تضادُّ الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سبيل)**، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١].

على المؤمنين، وأما من ضعف إيمانه أو عدم إيمانه فإنه يكون للكافرين عليه سلطان، المسلمون إذا خالفوا أمر الله سلط الله عليهم الكفار هذا شيء مشاهد.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فهم الذين تسببُّوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبّبوا إليه يوم أُحد بمعصية الرسول ومخالفته)**، يوم أُحُد لما التقى الجيشان؛ الجمعان -جمع المسلمين، وجمع الكفار- أخذ المسلمون يقتلونهم، وانتصروا عليهم وخرج الكفار من المعركة هاربين، وصار الصحابة يجمعون الغنائم.

فلما رآهم الرماة الذين على الجبل يحمون ظهور المسلمين ظنوا أن المعركة انتهت، وقالوا: ننزل نشارك إخواننا في جمع الغنائم، مع أن الرسول قال لهم: **«إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»**(١).

ولكنهم خالفوا ذلك فنزلوا، ولم يبقَ إلا رئيسُهم عبد الله بن جبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومعه قليل.

جاء الكفار ورأوا الجبل قد فرغ فانقضوا على المسلمين من خلفهم والمسلمون لا يشعرون، فلم يشعر المسلمون إلا والعدو انقض عليهم من الخلف من الجهة الآمنة.

فدارت المعركة من جديد وأُصيبَ المسلمون، استشهد منهم سبعون شهيدًا، وحصل حتى على الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كسرت رباعيته، وشُج رأسه، وغاصت حلقات المِغْفَر في رأسه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢)؛ بسبب معصية هؤلاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرج البخاري (٢٩١١)، ومسلم (١٧٩٠) عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ =

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٥٢]: يعني: تقتلونه بإذنه.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾: عصيتم أمر الرسول في قوله: «لا تتركوا الجبل».

﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾: من النصر. ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾.

ثم بشرهم فقال: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٢].

هذه بشارة من الله جَلَّ وَعَلَا لهم أنه بعدما ابتلاهم وأصابهم ما أصابهم عفا عنهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

=جُرِحَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «جُرِحَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ تَغْسِلُ الدَّمَ وَعَلِيٌّ يُمْسِكُ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الدَّمَ لَا يَزِيدُ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ حَصِيرًا فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْزَقَتْهُ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ». وانظر أخبار غزوة أحد في: سيرة ابن إسحاق (ص ٣٢٢)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٠١)، والروض الأُنُف (٥/ ٢٩٦)، والبداية والنهاية (٥/ ٣٣٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ١٨).

والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا حتى جعل له العبد سبيلًا إليه؛ بطاعته والشرك به، فجعل الله حينئذٍ له عليه تسلطًا وقهرًا، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ، إلا نفسه.

فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه، والجميع بقضاء مَنْ أزِمَّة الأمور بيديه، ومَردُّها إليه، وله الحجة البالغة، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، لكن أبتْ حكمته وحمده وملكه إلا ذلك: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٦، ٣٧].

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والله سبحانه لم يجعل للشيطان على العبد سلطانًا حتى جعل له العبد سبيلًا إليه)**، مثل الرماة جعلوا لهم سبيلًا، جعلوا للكفار سبيلًا عليهم؛ بمخالفتهم لأمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(بطاعته والشرك به)**؛ يعني: طاعة الشيطان.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ، إلا نفسه)**، قد يقول بعض الجهال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، فلماذا الآن تسلطوا على المسلمين وشردوهم وقتلوهم؟!

يقال: لأن المسلمين جعلوا للكفار سلطانًا عليهم؛ بمخالفتهم لأمر الله، وعدم تمسُّكهم بدينهم، فهم الذين جعلوا السلطان للكفار عليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(والجميع بقضاء مَنْ أَزِمَّة الأمور بيديه)**، وهو الله سبحانه، الله يقدر العقوبة على من يستحقها، ويقدر النتيجة الطيبة لمن يستحقها، وهو الصابر الثابت على دين الله، المجاهد في سبيل الله؛ فكلٌّ يعامله الله بما يستحق، حتى ولو كان مؤمنًا؛ يصاب بذنوبه، ويعاقَب بذنوبه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(فالتوحيد والتوكل والإخلاص يمنع سلطانه، والشرك وفروعه يوجب سلطانه)**، والله قال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

قال: ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أمَّا إذا تخلَّوا عن إيمانهم فإن الله يسلط الكفار عليهم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٦، ٣٧])، فالله قدَّر هذه الأشياء ليتميز الصادق من الكاذب، وليتميز الصابر من غير الصابر؛ لأنه لو تُرِكَ الناس صاروا كلُّهم أمَّةً واحدة؛ منافقهم ومسلمهم، ويدخل من هب ودب في الإسلام.

لكن الله أراد أن يميز المؤمنين الصادقين المسلمين المتمسكين من أدعياء الإيمان والمنافقين والطامعين الذين يتبعون الطمع.

الله أراد أن يميز هذا من هذا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال:٣٧].

فالله جَلَّوَعَلَا **من حكمته:** أنه أراد التمييز بين العباد الصادقين الصابرين المتمسكين بدينهم، وبين المنافقين والمدَّعينَ للإيمان والطامعين الذين يتبعون الطمع: فإن كان النصر للمسلمين يقولون: نحن معكم، نحن شركاؤكم، وإن كانت الدائرة للكفار قالوا: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]، وإن لنا يدًا عندكم! فهم مذبذبين: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]، وما أكثرَهم!

فالله أراد أن يميز، لا يترك الناس هكذا مختلطين، بل يميز الصادقين من الكاذبين: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢، ٣].

الفهرس

مقدمة الناشر.......... ٥
ترجمة الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.......... ٩
مقدمة الشارح.......... ١٣
مقدمة المؤلف.......... ١٥
القلب بالنسبة للأعضاء كالملك المتصرف في الجنود.......... ٣٩
علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب فأجلب عليه بالوساوس.......... ٤٦
لا نجاة من مصايد الشيطان ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى.......... ٥٠
العمل السيئ مصدره من فساد قصد القلب.......... ٥٢
تقسيم المصنف لكتابه إلى ثلاثة عشر بابًا.......... ٥٤
الباب الأول: في انقسام القلوب إلى: صحيح، وسقيم، وميت.......... ٦٠
القلب الصحيح السليم.......... ٦١
فصل في القلب الثاني: القلب الميت.......... ٦٧
فصل في القلب الثالث: القلب المريض.......... ٨٠
جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ...﴾.......... ٨٢
شرح حديث: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا».......... ٩١
الفتن على قسمين.......... ٩٦
تقسيم حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا للقلوب.......... ٩٩

الباب الثاني: في ذكر حقيقة مرض القلب........................١١٧
الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾............١٢٥
حال القلوب عند ورود الحق المنزَّل........................١٢٩
فصل: في أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب........................١٣٦
الباب الثالث: في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين: طبيعية، وشرعية........................١٤٦
مرض القلب نوعان........................١٥١
أمراض القلب التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية........................١٥٥
الباب الرابع: في أن حياة القلب وإشراقه مادةُ كل خير فيه وموتَه وظلمتَه مادَّةُ كل شر فيه........................١٦٩
ضرب الله سبحانه المثلين: المائي والناري لوحيه ولعباده........................١٧٩
الباب الخامس: في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مُدركًا للحقِّ، مريدًا له، مُؤْثِرًا له على غيره........................٢٠٢
فوائد من سورة العصر........................٢١٩
الباب السادس: أنه لا سعادة للقلب ولا لذةَ ولا نعيمَ ولا صلاح إلا بأن يكون إلهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه........................٢٢٦
حديث البراء بن عازب: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك»........................٢٣٥
تعريف الإله والرب........................٢٤١
ما جاء في الإلهية والربوبية من الآيات........................٢٤٤

خلق الله الخلق لعبادته الجامعة: لمعرفته والإنابة إليه ومحبَّته والإخلاص له.. ٢٤٩
ذكر ما في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم بعلمك الغيب» من الفوائد.. ٢٦١
المقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه.... ٢٧١
النعيم نوعان: للبدن وللقلب.. ٢٧٤
فقر العبد إلى أن يعبد الله وحْدَه سبحانه ليس له نظير يقاس به........ ٢٧٧
معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.. ٢٧٨
أفضل نعيم الآخرة وأجلُّه وأعلاه النظر إلى وجه الرب جَلَّ جَلَالُهُ........ ٢٨١
فصل: في أن لذة النظر إلى وجه الله سبحانه يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته في الدنيا.. ٢٩٣
لا يملك مخلوق لمخلوق نفعًا ولا ضرًّا، بل كل ذلك لله وحده........ ٢٩٤
تعلُّق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه.. ٣١٠
معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآيةَ......... ٣١٢
محب الدنيا لا ينفك من ثلاث: همّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي.. ٣٢٧
وصية الحسن لعمر بن عبد العزيز.. ٣٢٩
المحبوب مع محبوبه دنيا وأخرى.. ٣٣٥
اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته ولابد.... ٣٤٤

الله سبحانه هو المحسن إلى العبد أبدًا، وهو الغني الحميد بذاته........٣٥٥
العبد مخلوق لا يعلم مصلحته حتى يعرفه الله إياها..........٣٦٩
غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم بك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك..........٣٧٠
خاتمة هذا الباب..........٣٧٤
الباب السابع: في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه..........٣٧٧
شفاء القرآن لمرض الشبهات..........٣٨١
القرآن هو الشفاء الحقيقي، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه..........٣٨٣
المتكلمون ليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد..........٣٨٩
شفاء القرآن لمرض الشهوات..........٣٩٧
الباب الثامن: في زكاة القلب..........٤٠٠
في غض البصر عن المحارم ثلاث فوائدَ..........٤١٠
إحداها: حلاوة الإيمان ولذته..........٤١٠
الثانية: نور القلب وصحة الفراسة..........٤١٧
الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته..........٤٢١
زكاة القلب موقوفة على طهارته..........٤٢٥
التزكية تكون في الذات، أو في الاعتقاد والخبر عنه..........٤٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾..........٤٣١

الباب التاسع: في طهارة القلب من أدرانه ونجاساته.................٤٤٣
معنى قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾..............................٤٤٤
من قال بأن الثياب في الآية بمعنى القلب والنفس.....................٤٤٦
من قال بأن الآية على ظاهرها.......................................٤٥٢
ترجيح المصنف...٤٥٦
خُبْثُ الملبس يُكْسِبُ القلبَ هيئةً خبيثة.............................٤٥٦
العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه.........٤٥٩
ما تصنعه الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها...........................٤٥٩
القلب الطاهر لا يشبع من القرآن.....................................٤٦٦
الإرادة: شرعية دينية، وكونية قدرية...................................٤٦٧
الجنة دار الطيبين..٤٦٩
من لم يتطهر في الدنيا نجاسته إما عينية أو كسبية......................٤٧١
الطهارة طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب..........................٤٧٢
معنى دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»........٤٧٤
من كمال بيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمثيله الأمر المطلوب المعنوي بالأمر المحسوس، وهذا كثير في كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..........٤٧٧
الإنسان لا يصل إلى مقصده إلا بزاد يبلِّغه ذلك........................٤٧٩
الحكمة من قول «غفرانك» إذا خرج من الخلاء..........................٤٨٨
فصل: فيما في الشرك والزنا واللواط من الخبث..........................٤٩٠

نجاسة الشرك نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة........٤٩٣
النجاسة تكون: محسوسة ظاهرة، وتكون معنوية باطنة............٤٩٨
ما جمع الله تعالى على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك....................................٥٠٤
الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى....................٥١٨
لا تجد مشركا قطُّ إلا وهو متنقص لله سبحانه، كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول ﷺ..........................٥٢٧
فصل: نجاسة الذنوب والمعاصي.............................٥٤١
عشق الصوَر المحرمة نوع تعبُّدٍ لها..............................٥٥٠
نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرها من النجاسات.........٥٥٥
معنى قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، وذكر الخلاف في ذلك..٥٥٧
الباب العاشر: في علامات مرض القلب وصحته..........٥٨٤
لو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئًا...........٥٨٦
البصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق.....................٦٠٤
القلب الصحيح، وعلامات صحته...........................٦٢٢
الباب الحادي عشر: في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه......٦٥٧
معنى قوله ﷺ: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا»....٦٥٨
من ظفر بنفسه فقد أفلح.......................................٦٦٤
وصف الله سبحانه النفس بثلاث صفات..........................٦٦٦

هل النفس واحدة متعددة الصفات، أو النفوس ثلاثة............ ٦٦٦
النفس المطمئنة............ ٦٧٠
النفس الأمَّارة بالسوء............ ٦٧٣
فصل: النفس اللَّوَّامة............ ٦٧٦
النفس تكون: تارة أمَّـارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، والحكم للغالب عليها من أحوالها............ ٦٨٠
علاج القلب من النفس الأمارة............ ٦٨٢
لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون أشد محاسبةً لنفسه من الشريك لشريكه.... ٦٨٧
الجوارح هي مراكب العَطَبِ والنجاة............ ٦٩٩
فصل: محاسبة النفس تكون قبل العمل وبعد العمل............ ٧١١
فصل: محاسبة النفس بعد العمل............ ٧٢٣
حق الله تعالى في الطاعة ستة أمور............ ٧٢٣
فصل: ضرر ترك المحاسبة............ ٧٣٠
معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾............ ٧٤١
فصل: ما في محاسبة النفس من المصالح............ ٧٤٥
مقتُ النفس في ذات الله من صفات الصديقين............ ٧٤٥
من فوائد محاسبة النفس: معرفة حق الله تعالى على عباده............ ٧٦٨
فوائد نظر العبد في حق الله عليه............ ٧٦٩
الباب الثاني عشر: في علاج مرض القلب بالشيطان............ ٧٧٩
فصل: الاستعاذة بالله من الشيطان ومعناها وفوائدها............ ٧٨٦

ما في أمره سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن من الحِكَم والفوائد.. ٧٨٩
الاستعاذة للقراءة في الصلاة وغيرها.................................... ٨٠٥
صيغة الاستعاذة.. ٨٠٦
سر التأكيد بـ«أنَّ» وضمير الفصل والتعريف في قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.. ٨١٤
فصل: إرشاد القرآن إلى الاستعاذة والإعراض عن الجاهلين........... ٨٢١
معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.. ٨٢٤
معنى (الأزّ) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.. ٨٣٩
فهرس الموضوعات.. ٨٤٧

تم بحمد الله المجلد الأول، ويليه المجلد الثاني وأوله:

«الباب الثالث عشر

في مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم»